مطبوعات الشرق

مكسيم جوركي

فوما جورديف

ريني خشبة

Bibliotheca Alexandrina
0164905

فوما جورديف

تأليف

مكسيم جوركي

ترجمة

دريني خشبة

دار القاهرة للطباعة
٢٦ شارع منصور ـ القاهرة

الفصـــل الأول

منذ حوالى ستين عاما ، حينما كان رجال الأعمال يجمعون ثرواتهم التى تعد بالملايين فوق ضفاف نهر الفولجا ، كان رجل يدعى اجنات جورديييف يعمل فى كسح المياه التى تتسرب الى بطن صندل من صنادل نقل البضائع تابع لرجل من أثرياء التجار اسمه زاييف .

وكان جورديييف هذا رجلا قوى البنية حسن المنظر ، وأبعد من أن يكون غبيا . لقد كان واحدا من هؤلاء الذين ينجحون فى أعمالهم دائما ، لا لأنهم من ذوى المواهب والمثابرة فى العمل ، ولكنهم ، لما أوتوا من النشـــاط الجم ، لا يأنفون من القيام بأى عمل من الأعمـــال التى يدركون بها ما يطمحون اليـــه ، وكيف يأنفون من شىء وهم لا يعرفون ما معنى الأنفة ؟ ثم هم لا يعرفون من القوانين شيئا الا قانون رغباتهم . وفى بعض الأحيان نلاحظ أن هؤلاء الناس يتكلمون وهم فى خشية من ضمائرهم ، بل هم قد يقاسون الكثير فى صراعهم مع هذه الضمائر . الا أن الشخص الضعيف هو فقط الذى لا يستطيع أن ينتصر على ضميره ، أما الشخص القوى فليس أيسر عليه من أن يخضع ضميره ، ويرغمه على أن يخدم المطمح الذى يسعى اليه . انه قد يضحى بليال طويلة لا يذوق النوم فيها لما يقوم به من نضال ، وربما انتصر عليه ضميره آخر الامر ، ولكنه اذا انتصر فان روحه لا تنال منها الهزيمة أبدا ، بل يظل بفضل هذه الروح القوية سائرا فيما كان فيه بمثـــل الحيوية التى كانت له من قبل .

وعندما بلغ اجنات جورديف الأربعين من عمره ، كان هو نفسه مالكا لثلاثة زوارق بخارية واثنى عشر صندلا ، وكان يحظى باحترام كبير من أول نهر الفولجا الى آخره ، بوصفه رجلا من رجـــال المال الكثير والعقول الراجحة، الا أنهم كانوا يلقبونه بلقب : أبو كيفه ! لأنه لم يكن يتبع فى حياته طريقا واحدا رتيبا لا يتعداه كما يفعل من هم مثله من الناس ، بل كان فى ثورة ضدها دائما ، لا يكاد يأخذ منها بعمل حتى يتركه الى غيره ، نافرا من الجرى وراء الثروة التى كان غيره من الناس ينظرون اليها بوصفها الغرض الاساسى من وجودهم فى هذه الحياة ·· وكان يبدو كأنما هناك ثلاثة أشخاص من هذا الرجل اسم كل منهم جورديف ! أو قل ان ثلاث أرواح مختلفة كانت تسكن جسد جورديف هذا ! وكانت احدى هذه الأرواح ، وهى أهمها جميعا ، روحا مغرمة باحراز المكاسب والجرى وراءها ·· ولا شىء غير ذلك · وكانت هذه الروح حينما تتناول السوط وتلوح به الى اجنات ، تدفعه فيفزع الى العمل بهمة عجيبة ، كأنه خلق للكدح والمكدح فحسب · ولقد كانت هذه الهمة تتأجج فيـــه ليلا ونهـــارا ، وتفنى منه روحه وجسمه ، وكان لا ينى يفتح يديه لتسلم المئات والآلاف من الروبلات — أى الريالات — كأنه لم يكن يشبع قط من سماع رنين النقود الحلو، ووقعها الساحر · لقد كان موكلا بنهر الفولجا يذرعه شمالا وجنوبا ، وفى يده شباكه التى يصيد بها ذهبه الكثير الجم · محكما قبضته على حبالها · لقد كان يشترى القمح من القرى ثم يحمله فى صنادله ليبيعه فى مدينة ريبنسنك ، وكان مغرما بغش الناس وخداعهم ، يغشـــهم قاصدا أحيانا ، ويغشهم بفطرته ومن غير قصد أحيانا ، وكان يضحك من نشوة النصر فى وجوه ضحاياه على الدوام · وقد بلغ جنونه بالمال حدا خرافيا يفوق خيال الشعراء · الا أنه بالرغم من هذا النشاط الجم الذى كان يسخره لجمع المال ، لم يكن شرها بأى معنى من معانى هذه الكلمة ، بل لقد كان فى بعض الاحيان يبدى من عدم المبالاة بأمواله ما يحير البال !

فقد حدث ذات يوم من الأيام التى كانت ثلوج الفولجا تنهار فيها في بواكير الربيع ، وكان اجنات جورديبف واقفا على الشاطىء يشاهد هذا المنظر ، أن رأى كتل الجليد تدفع صندله الكبير الجديد الذى يبلغ طوله مائتين وخمسين قدما فتصدمه بصخرة ناتئة من صخور الشاطىء، فتسحقه سحقا .

وهنا ، يصر اجنات بأسنانه متمتما : « عال ! أعصريه يا ثلوج مرة ثانية ! .. هيا .. مرة ثانية قلت لك ! »
وهنا يلتفت اليه ماياكين ، أعز أصـدقائه ، واشبين(١) أبنائه ، ويقول له : « انها كأنما تعتصر عشرة آلاف روبل بتمامها من جيبك يا اجنات ! »

ويجيبه اجنات : « لا بأس ! فما أيسر أن أجمع مائة ألف أخرى ! ولكن .. انظر ماذا يصنع الفـولجا ! يا لله ! أى قوة هذه ؟ ان فى وسعه أن يقلب الارض كما تقلب الزبد بملعقة ، لو أوتى قوة التفكير فى ذلك . أنظر ! هاهو ذا صندلى بويارينا يطفو هناك، وهو مع ذاك لم يمض عليه غير موسم واحد ! حسن .. هلم فلنشرب نخب نهايته تلك ، هل لديك مانع ؟! »

ثم تحطم الصندل ، وكان اجنات وصديقه جالسين عنـد نافذة مشرب على ضفة النهر يجرعان الفودكا ، ويشاهدان التيار وهـو يجرف حطام البويارينا فيما يحمل من كتل الجليد .
ويقول ماياكين : « لشـد ما يؤسفنى أن تفقد هذا الصـندل يا اجنات ! »

ــ ليس من الحكمة أن نأسف على شيء . لقد أعطى الفولجا ، ثم أخذ الفولجا ما أعطى .. والفولجا مع ذاك لم يقطع يدى ! »

---

(١) الاشبين هو والد الطفل الروحى اى الذى ينيبه الوالد الاصلى عنه فى ساعة تعميده عندإخواننا المسيحيين وستستعمل هذه الكلمة بكثرة فنسترعي اليها الانظار(ه)

ـ حتى اذا ... !

ـ حتى اذا ـ ماذا ؟ على الأقل ، لقد رأيت الحادث بعيني رأسى . وهذا درس طيب للمستقبل . لشد ما يحزننى أننى لم أر كيف احترقت سفينتى فولجار عندما احترقت .. لا شك أنها كانت منظرا عجيبا .. نيران للزينة فى منتصف الليل على صفحة الماء ! لقد كانت سفينة كبيرة !

ـ وأكبر الظن أنك لم تأسف على ضياعها هى الأخرى !

ـ وهذه السفينة البخارية ؟! كلا .. لا أستطيع أن أقول ذلك ! لقد أسفت على ضياعها حقا .. على أن من الجنون الاسف على شىء ، اذ ما الفائدة ؟ .. ابك ما استطعت ، ولكن الدموع لن تطفىء حريقا .. فلتشتعل السفن جميعا ، فانى لن أثور ولن أسخط اذا احترقت كلها . ما دامت النيران التى تتأجج فى روحى ستظل مشتعلة هى أيضا .

وغمغم ماياكين ثم قال وهو يضحك بصوت خافت : « ان الرجل الذى يتكلم مثل هذا الكلام هو رجل غنى ولا بد ، حتى اذا لم يكن يملك قميصا يغطى به ظهره ! »

وبالرغم من تسليم اجنات هذا التسليم الفلسفى بخسارته آلاف الروبلات . كان أعرف النـــــاس بقيمة كل كوبك ، وكان لا يمنح شحاذا أى درهم الا بخلع الضرس ، واذا فعل فانما يعطى أولئك الذين لا يقدرون على عمل مطلقا ، فاذا لم يكن الشحاذ الذى يستجديه عاجزا عجزا تاما عن العمل نظر اليه فى حزم ثم قال له :

ـ يا لك من أحمق ! ألا تستطيع أن تعمل ؟ اذهب وساعد خادم مخازنى فى رفع هذه الكومة من التراب وسأعطيك كوبكين .

وحينما كانت حمى العمل تملك عليه زمامه كان يبدو قاسيا لا يستشعر قلبه الرحمة لمن حوله ـ بل لم يكن يرأف بنفسه فى سبيل

الحصول على المال ، وحينئذ تراه وقد احس كأنه اصبح عبد أعماله الذليل ، وليس سيدها المسيطر • وكان هذا يحدث عادة في الربيع عندما تمتلىء الدنيا بالسحر والجمال ، وعندما تسبح الروح فى زرقة السماء الصافية فتنتشي وتهتز ، وعند ذلك تراه مشغول البال مستغرقا فى التفكير يرسل نظراته الفاحصة من تحت جبينه المعقد ذى الأسارير ، وقد ركبه الهم واستحوذ عليه القلق كأنما يتحدث الى نفسه بأشياء لا يستطيع أن يحرك بها لسانه • ثم تستيقظ في أعماقه روح أخرى — الروح الشهوانية الضارية ، روح الوحش الجائع ، فتراه وقد أصبح فظا يسىء معاملة الناس ويسلط عليهم لسانه البذىء ، وهنا يكب على الشراب ويستسلم لغرائزه البهيمية الجافية ، ويجمع الناس من حوله ليشاطروه الشراب ، ومن ثم يشعر بحميا شديدة ونشوة لا تعادلها نشوة ، ويصبح كالبركان الذى تغلى في جوفه الحمم • ومع ذلك تراه وكأنه يحاول أن يحطم الأغلال التى أحكم احاطتها بنفسه — فهو يشدها من هنا ومن هنا ، لكنه لا يقوى على تحطيمها • ثم تراه وقد نهض وهو فى حالته الرثة هذه ، وفى هندامه الاشعث، وبوجهه الذى ورمه الشراب وقلة النوم ، وعينيه الحمراوين الوحشيتين ، وصوته الخشن الاجش ، يهيم متنقلا من بيت فساد الى بيت فساد آخر ، غير حاسب للأموال التى يبعثرها حسابا ، فاذا سمع أحدا يردد غناء فيه شجو وفيه عاطفة رأيته يهتز متأثرا ثم ينهض فيرقص ويتخايل ، فاذا حاول أحد أن يقف في سبيله تشاجر معه •• ولكن شيئا من هذا كله وا أسفاه لم يكن يذهب عنه أشجانه ولا يرد اليه راحة باله •

وكان الناس ينسجون الأساطير عن مجالس سكره وعربداته ، وكان الكثيرون منهم يشهرون به أبشع التشهير بسببها ، ولكن أحدا منهم لم يكن يرفض دعوة اجنات اذا دعاه الى شىء منها • وكان اجنات يستمر على هذه الحال أسابيع وأسابيع فى كل مرة •• ثم تراه يعود

الى داره فجأة وعلى غير انتظار والروائح الخبيثة التى تشبع بها جسمه وملابسه فى دور الفساد تفوح منه وتغشى من حوله ، لكنك مع هذا تراه مستسلما خائر النفس بادي الانقباض ، يتقبل فى صمت وبعينين ذليلتين لا تعبران عن شيء عندئذ٠٠ الا عن الشعور بالخجل الشديد ٠٠ ما توجهه اليه زوجته من لوم وتبكيت ، ثم تراه ينسل وقد أصبح وديعا كالحمل الذى يساق الى مذبحه فيتوجه الى غرفته ويغلقها على نفسه ، وربما ركع فيهـا ساعات وساعات أمام الأيقونات المقدسة ورأسه الى أسفل وذراعاه مسترخيتان الى جانبه وكتفاه محنيتان فى ذلة وضراعة ، لكنه لم يكن يحرك لسانه بكلمة واحدة كأنما كان يخشى أن يصلى ٠ وكانت زوجته ربما مشت على أطراف أصابعها الى باب غرفته لتصغى اليه من خلال ثقبه فلا تسمع الا تنهدات عميقة أشبه بآهات الرجل المريض ، أو الجواد المنهوك ، تنبعث من داخل الغرفة ٠

وقد يناجى احنات ربه بكلمات يتمتم بها وهو يثنى يديه بشدة الى صدره الرحب قائلا :

— يا الهى ، يا من تعلم كل شيء !

وطالما كان فى هذه الحال من التوبة والاستغفار لم يكن يذوق شيئا غير الخبز والماء ٠ وكانت زوجه تضع له فى كل صباح زجاجة من الماء ورطلا ونصف رطل من الخبز وشيئا من الملح أمام باب غرفته ، فاذا ذهبت فتح الباب ليأخذ هذا الزاد الذى يشبه جراية الرهبان ثم أغلق الباب على نفسه مرة أخرى ، ولم يكن أحد يقطع عليه سكونه فى مثل هذه الخلوات ، والواقع أن كل انسان كان يتحاشى لقاءه ٠

وبعد أيام قليلة من هذا تراه وقد عاد الى سوق الحبوب والأوراق المالية ، ثم راح يضحك ويمزح ويبرم العقود لتسليم الحبوب وعيناه صافيتان كعينى الباشق لا تخطئان صـغيرة ولا كبيرة من دقائق العمل ٠

ولكن اجنات فى حالاته الروحية الثلاث هذه كانت تسيطر عليه أمنية عظيمة واحدة - هى أن يكون له ولد . وكان كلما تقدمت به السن اشتدت هذه الأمنية ، واستبدت به، وكان يكثر من التحدث الى زوجته في هذا الشأن . وكان كلما قدمت اليه فطوره أو غداءه قطب جبينه وعبس ، وراح يسائل أكيولينا زوجته السمينة المكتنـــزة ذات الخدين الموردين والعينين النعساوين قائلا :

- هيه .. ألا تحسين بشيء يا أكيولينا ؟

وكانت تعلم جيدا ماذا يقصد ، الا أنها كانت تجيبه غير حافلة :

- وكيف بالله عليك لا أحس شيئا ، ولك قبضتان تزنان عشرة أرطال ؟

- انى أسأل عما فى بطنك أيتها البلهاء !

- أى امرأة أكلت كل تلك (العلق) يمكن أن تحمل فى بطنهـــا جنينا ؟!

- المهم ليس « العلق » ، المهم هو افراطك فى الشراب . انك تتخمين نفسك بالطعام حتى لا يبقى فى بطنك موضع لجنين !

- ولماذا ؟ ألم ألد لك أطفالا ؟

وهنا يجيبها اجنات بازدراء :

- بنات !! انني انما أريد ولدا ، ألا تستطيعين أن تفهمى ذلك ؟ ولد ، و .. وريث ! خبريني لمن أترك أموالى اذا مت ؟ من ذا الذى يستغفر لى ويصلى من أجلى حينما أفارق هذه الحياة؟ أأهب أموالى كلها لدير من الاديرة ؟ لقد منحتها ما فيه الكفاية ؟ أ أتركها لك ؟ لشد ما تصبحين شفيعا مليحا، ولشد ما يمتلىء عقلك بالفطائر المحشوة حتى وأنت فى الكنيسة ! ثم أنا اذا مت فسرعان ماتتزوجين رجلا آخر ويكون مصير

أموالى الى يد مغفل من المغفلين ، فهل تظنين أن هذا هو ما أكدح فى سبيله ؟ هه ؟

وكان كلما فكر فى أن حياته حياة خاوية ولا معنى لها ما دام محروما من ولد يحمل اسمه من بعده ، ثار ودارت الدنيا من حوله ، وصار نكدا حاد الطبع بدرجة لا تحتمل ٠

لقد ولدت له زوجته فى خلال السنوات التسع من زواجهما أربع بنات ، الا أنهن جميعا قد توفين ، وبالرغم مما كان يحدوه من الشوق الى يوم ميلاد كل منهن فانه لم يكن يشعر الا بالقليل من الحزن لوفاة كل منهن ٠٠ لأنه لم يكن يريد بنات ٠٠ وقد بدأ يضرب امرأته فى العام الثانى من زواجهما ، ولم يكن يضربها فى أول الامر الا عندما يكون مخمورا فقط ولم يكن يدفعه الى ضربها حقد أو بغض ، بل كان لا يضربها الا عملا بالمثل الذى يقول :

« حب امرأتك كما تحب حياتك ، ولكن هزها كما تهز شجرة التفاح » ٠ ولكن بما أن كل طفلة وضعتها كانت تحطم أحلامه فقد بدأ يكرهها ، وأصبح مولعا بضربها لأنها لا تلد له غلاما !

وحدث مرة حينما كان فى بعض أعماله فى اقليم سامارا جوبرنيا أن تسلم رسالة جاء فيها أن زوجته قد توفيت ، فصلب على نفسه ، ثم كتب الى صديقه ماياكين يقول له هذه العبارة الساذجة :

« ادفنها من غيرى (!) وخذ بالك من أملاكى » ثم ذهب الى الكنيسة حيث أقام لها قداسا ، وبعد أن فرغ من صلاته سكنا لروحها صمم على أن يتزوج ثانية ، وبقدر ما يستطيع من سرعة ٠

وقد كان عندئذ فى الثالثة والأربعين من عمره ٠ولقد كان ، كما قدمنا ، طويلا عريض الكتفين همشرى الجسم ، ذا صوت عميق جهير ٠ وكانت نظرات عينيه المظللتين بحاجبيه الكثيفين الأسودين نظرات جريئة يشع فيهما الذكاء ٠ وكان فى وجهه الذى لوحته الشمس ،

وبلحيته الثقيلة السوداء كثير من ذلك الجمال الروسى السليم الذى كان يتدفق فى هيكله القوى كله • وكان احساسه بقوته يتجلى فى خطرات مشيته ، ورشاقة حركاته جميعا ، وكانت النساء ينجذبن اليه ، ولم يكن هو يصدف عنهن •

ولم يكد يمضى على وفاة زوجته أكثر من ستة أشهر حتى تقدم لخطبة ابنة رجل قوزاقى من أتباع المذهب القديم كان يعيش فى الأورال ، وكانت بينهما علاقات تجارية • وقد وافق القوزاقى على هذا الزواج بالرغم من شهرة اجنات بأنه (أبو كيفه) ، وبالأحرى بالرغم من وصول شهرته بالهوس الى اقليم الأورال • أما اسم الفتاة فكان ناتاليا ، وكانت طويلة رشيقة ذات عينين زرقاوين واسعتين وشعر كستنائى طويل ، وبهذا كانت نعم العروس لاجنات الرشيق • ولشد ما كان فخورا بزوجته الجديدة ، ولشد ما أحبها من صميم قلبه ••• ولكن ••• سرعان ما أخذ يدرسها فى تأمل عميق !

ان الابتسام لم يكن يعرف طريقه الى وجه زوجته الجميل البيضى الا نادرا ، وكانت تبدو ساهمة حالمة باستمرار ، وكانت عيناها الزرقاوان ذواتا هذا الصفاء الساكن تعكرهما أحيانا نظرة قاتمة صارمة ، وكانت اذا فرغت من أعمال المنزل تذهب الى أكبر غرفة من غرفه ثم تجلس فى النافذة ساكنة هادئة دون أن تنبس أو تتحرك ساعتين أو ثلاثا ، وبالرغم من أنها كانت تحملق فى الشارع فانها كانت تبدو كأنها منقطعة الصلة عن كل ما يجرى فيه ، وكان كل انتباهها مركز فى أغوار نفسها ، تبحث فيها عن ذاتها • وكانت لها مشية غريبة •• فلم تكن تمشى طليقة حرة فى غرفات المنزل الفسيحة الرحبة ، بل كانت تمشى ببطء وفى حذر ، وكان البيت مؤثثا تأثيثا ثقيلا شديد التباهى ، كل ما فيه من رياش لامع يكاد يصرخ كالذى يقول : ان المالك رجل ذو ثراء جم ومال كثير ، وكانت الزوجة القوزاقية تتحاشى أن تمس هذا الأثاث الفاخر والصواوين الزاخرة

بالفضة ، كأنما كانت تخشى أن تمسكها فتسحقها سحقا . وكانت الحياة التي تغلي غليانا في تلك المدينة التجارية الكبيرة لا تثير شيئا من البهجة في نفس ناتاليا ، واذا حدث أن خرجت مع زوجها لنزهة على ظهور الخيل ظلت عيناها ثابتتين في ظهر السائس لا تريمان عنه ، واذا سألها زوجها أن تصحبه لزيارة أصدقائه لم ترفض ، لكنها كانت تظل ساكنة هادئة في أثناء تلك الزيارات كما هو دأبها في المنزل . فاذا حضر بعض الأضياف لزيارتها قدمت اليهم الطعام والشراب بطريقة آلية دون أن تشترك معهم فيما يثرثرون به ، ودون أن توجه من الحفاوة بأحدهم أكثر مما توجهه الى الآخر . وكان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يثير شبح الابتسام على ثغرها هو هذا الرجل الذكي اللبق مایاكين .

لقد كان مایاكين يقول عنها دائما : « هذه ليست امرأة ، انما هي عصا ! ولكن .. صبرا .. فما الحياة الا شعلة من نار للزينة ، ولا بد أن تشتعل منها هذه الراهبة يوما ما .. وكل ما تحتاج اليه هو الزمن ، وعند ذلك سنرى أي زهرات يانعات ستقدم لنا ؟ »

وكان اجنات يقول لزوجته ممازحا : « وبعد ، فيا ذات الوجه الطويل ، فيم تفكرين ؟ أمشوقة أنت الى دار أبيك ؟ هيا .. امرحي ! »

لكنها لم تكن تزيد على أن تنظر اليه في سكون وصمت ، دون أن تنبس بكلمة .

« انك تقضين وقتا طويلا في الكنيسة ، ورأيي أن الأوان لم يئن بعد لهذا .. وسيكون لديك الوقت الكثير لكي تذهبي اليها وتعترفي بذنوبك .. فاقترفي هذه الذنوب أولا ، فاذا لم تقترفي ذنوبا ، فلن يكون لديك ما تتوبين منه أو تأسفين على أنك فعلته .. واذا لم تتوبي فلن تجدي خلاصا .. ولهذا .. فهلمي فاقترفي قليلا من

الذنوب وأنت لا تزالين فى حداثة العمر ·· هيا ·· لنذهب. فلنتنزه على ظهور الخيل ·· هيا » ·

ـ لا أحسب أن بى ميلا الى هذا !

فاذا قالت ذلك ، جلس الى جانبها ، ونشر ذراعه حولها ، لكنها كانت تبدو باردة ولا تستجيب لأية عاطفة ··· فلا يملك الا أن يقول لها وهو محملق فى عينيها :

ـ ناتاليا ·· ما الذى يجعلك مهمومة هكذا ؟ هل وجدتنى غثا ثقيل الظل ، اه ! لكنها لم تكن تجيب بأكثر من : كلا ·· !

ـ فماذا اذن ، يا ست أهلك !

ـ لست هذا على الأخص

ـ ففيم تفكرين ؟

ـ لا شىء

ـ فماذا ··· اذن ؟

ـ لا شىء ·

واستطاع يوما أن يجعلها تصرح بما فى نفسها بصورة أوضح :

ـ ان احساسا غامضا يخامرنى ·· وكل شىء يبدو فى عينى غامضا مبهما ·· ويبدو لى أن كل هذه الأشياء ليست حقيقية !

ثم لوحت بيدها مشيرة الى الجدران والأثاث ، وكل ما حولها ، ولم يعن اجنات بالتفكير فيما قالته ، بل لم يزد على أن ضحك ضحكة خاطفة ثم قال :

ـ ماشاء الله ! ليس هذا صحيحا ، فكلها أشياء حقيقية ، وأشياء جيدة وغالية الثمن ·· ولكنك اذا كان يسرك أن أحرقها ، أو أن أبيعها أو أن أتخلص منها وأشترى كل شىء من جديد ، فعلت ، فهل يسرك أن أفعل ؟

وتسأله فى غير احساس : ــ ولماذا ؟

لقد كان يعجب كيف تستطيع فتاة فى مثل هذا الشباب اليانع والصحة التامة أن تعيش كأنها داخل قوقعة ٠٠ لا تشتهى شيئا ولا تذهب الى مكان الا الى الكنيسة ، ودون أن تميل الى لقاء أحد ٠٠٠

وكان اجنات يقــول لها مواسيا : ليس عليك الا أن تصبرى حتى تلدى لى ابنا ٠٠ وعنـدها ٠٠ تتبدل الحال غير الحال ! ان عدم وجـود هذا الطفل هو الذى يسبب لك كل هــذا الهم ، لأنك لا تجدين الآن ما تشـغلين به نفسك ، فاذا جاء وجـدت أمامك ما يشغلك دائما ٠٠٠ وعلى هذا ٠٠ فسوف تلدين لى ابنا ٠٠ أليس كذلك ؟

وتجيبه وهى تنكس عينيها : حتى يشاء الله !

ولم تمض أيام حتى كانت أعصابه لا تحتمل تلك المناكدة ، ولا هذا التجهم

ــ وبعد فأيتها الراهبة ٠٠ أنت يا ستنا ! ما الذى يجعلك تبدين مهمومة مغمومة هكذا ؟ انك تسيرين كأنك تطئين زجاجا مكسورا ، وتظهرين بمظهر الذى ارتكب جريمة قتل ٠ انك صبية قوية ذات عضل ٠٠ لكنك باردة لا روح فيك ٠٠٠ حمقاء صغيرة ٠٠ وهذا هو ما أنت !

وقد عاد ذات يوم الى المنزل وبه آثار نشوة من السكر ، ثم راح يغازلها ، الا أنها قاومته ، فأثار هذا غضبه ، مما جعله يصيح بها :

ــ ناتاليا ٠٠ احذرى نتيجة تصرفاتك !

وتنظر اليه بملء عينيها وتقول له غير مهتمة :

ــ وماذا يحدث اذا لم أفعل ؟

ويصيح بها وهو يخطو نحوها : ماذا ؟

فتقول له وهي ثابتة في مكانها ، ودون أن تطرف لها عين :

ـ لعلك تحدث نفسك بأن تضربني !

وكان اجنات معتادا أن يرى الناس يرجفون أمامه اذا كان غاضبا أو مهتاجا ، ولهذا فقد جن جنـونه لما رأى من تحديها له بهدوئها ورباطة جأشها ، ولم يملك الا أن صاح بها :

ـ سأريك اذن ...

ثم أرسل ذراعه يريد أن يبطش بها ، لكنها أتت بحركة رشيقة في اللحظـة المناسبة فتفادت من الضربة ، بعد أن أمسكت بالذراع الهـائلة ، ونترتها بعيدا عنها ، ثم قالت له بصـوت هادىء : « اذا مسستني بسوء فلن تدنو مني بعد اليوم »

ثم أخذت عيناها العظيمتان تضيقان شيئا فشيئا ، وأخذ وميضهما النفاذ يعيد اجنات الى صـوابه ، وقد عرف من قسمات وجهها أنهـا هي أيضا وحش شرس مثله ، وأنها لن تستسلم أبدا وان ضربهـا حتى الموت . فرأى أن يقصر الشر ، فانصرف وهو يقول : « يالك من امرأة جريئة ! »

لقد استسلم لها هذه المرة ، لكنه كان ينوى ألا يتكرر هـذا مرة أخرى ، فقد كان من أشق الامور على نفسه أن توجد في هذه الدنيا امرأة تأبى أن تسجد بين يديه ، فمـا بالك اذا كانت هـذه المرأة زوجته ؟ ومع ذاك فقد أدرك أنهـا لن تستسلم له في أى أمر من الامور ، وأن نتيجة هذا لا بد أن تكون ملحمة مروعة بينهما .

وفي اليوم التـالي ، بينما كان يرصد كل حركة من حركاتهـا ، والدهشة بادية على وجهه العابس المقطب سمع نفسه يتمتم قائلا : « لا بأس ، سنرى من يكسب المعركة ! » قالها وزوبعة القلق العاتية

تتجمع فى أغوار قلبه ... وكان يؤمن بأن القتال كلما نشب سريعا أسرع اليه بالتمتع بنشوة النصر . ولكن لم تكد تمضى أيام أربعة حتى أخبرته ناتاشا بأن جنينا يتحرك فى أحشائها ، وقد سرت فى كيانه رعشة من الفرح وأخذها فى ذراعيه ، وهو يقول لها فى صوت متهدج :

ـ آه يا ناتاليا لو أن الجنين ولد ... لو أنك وهبت لى ولدا ... أقسم لأغمرنك بأكداس من الذهب ! ولكن هذا لا قيمة له ! بل أقسم لأكونن لك عبدا مدى الحياة ! وأقسم على ذلك بالله العظيم ! وأقسم لأسجدن عند قدميك لتطئينى بهما !

ـ ليس هذا بأيدينا ، بل الله وحده هو الذى يعلم ماذا يكون الجنين .. ؟

قالت هذا لتذكره فى لطف ورقة . ويجيبها اجنسات فى حسرة وأسف وقد نكس رأسه : « أوه .. أجل ... الله وحده »

ومنذ تلك اللحظة وهو يترفق بزوجته كأنها طفل صغير .

وقد سألها مرة فى لهجة حبيبة وان تكن صارمة : « لماذا تجلسين هكذا فى النافذة ؟ انك تعرضين نفسك للاصابة ببرد شديد ان لم تحذرى ، ثم انى ألاحظ أنك لا تنفكين صاعدة نازلة على السلالم ، فلماذا ؟ انك تضرين نفسك بهذا . وأرجوك يا ناتاشا أن تزيدى فى مقدار ما تأكلين ، اذ لا بد أن تأكلى لشخصين ، ولا بد أن يكون له نصيبه » .

وكانت ناتاليا قد أخذت تبدو أكثر هدوءا وتفكيرا فى أشهر الحمل ، وأشد انطواء على نفسها ، وكانت الأفكار فى حياة الأمومة المستقبلة تجيش فى نفسها ، الا أن هذا لم يمنع التبسم الهادىء من الالمام بشفتيها ، وأخذت عيناها تلمعان أحيانا بشعاع جديد أشبه فى ضعفه ورفيفه بأول أنفاس الفجر .

وبدأت أول آلام الوضع تنتابها فى باكورة يوم من أيام الخريف ، وعندما سمع اجنات أولى صرخات الألم ترسلها زوجته فى جوانب المنزل امتقع وجهه وأراد أن يقول لها شيئا لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة ، ومن ثم لوح لها بيمينه محييا وهبط الى الطـــابق الأرضى وأوى الى تلك الغرفة الصغيرة التى كانت مصلى والدته ، وأمر الخادم بأن يحضر اليه شيئا من الفودكا ، وجلس مكتئبا وراح يشرب وهو ينصت الى الجلبــة التى تجرى فى المنزل . وكانت أوجه الصـــور المقدســـة التى تتسم بالقتامة وقلة المبـالاة تتخايل فى شحوب فى الركن الذى تضيئه مصـــابيح الأيقونات . ثم سمع وقع أقـدام مصعدة فى الدرج ... وصوت شىء ثقيل يجرونه فوق الارضية .. وفرقعة أحواض وآنية ... لقد كان كل شىء يجرى فى سرعة ، ومع ذلك فقد كان يخيل له أن الزمن كسيح مقعد لا يكاد يتحرك .

وسمع اجنات صوتا يائسا يقول : « الظاهر أنها لن تستطيع أن تلد ، ولعل الواجب يقتضى أن نرســل الى الكنيسة ليفتحوا أبواب الملكوت » .

ثم دخلت الغرفة التالية لغرفة اجنات امرأة صالحة عجـوز كانت تعيش فى المنزل كاحدى الخدم ، وأخذت تصلى بصـــوت مسموع قائلة :

ـ يا مولانا ومخلصنا العزيز .. يا من نزلت من السموات لتلدك العـــذراء المقدسة .. يا عالما بضعف المخـــلوقات جميعا .. اغفر لهذه .. خادمتك الوفية ..

ومن حين الى حين كانت صرخة تمزق نياط القلب تتردد فى البيت فتعلو على جميع الاصوات ، أو ربما سمع أنين طويل يدوى فى جميع غرف المنزل ثم يتلاشى فى أركانها التىأخذت تنتشر فيها ظلال المساء ، وكان اجنات يرسل نظراته الضارعة الى الايقونات ، متنهدا من أعماقه وهو يحدث نفسه قائلا : « أما والله لو جاءت بنتا بعد هذا كله ! »

وكان يقطع انتظاره بالنهوض بين حين وآخر ليصلب على نفسه وليركع بين أيدى الايقونات ثم يعود فيجلس عند المائدة مرة أخرى ليعكف على شرب الفودكا التى لم تعد تسكره الآن ، ثم يستسلم لاغفاءة خاطفة . وعلى هذا النحو أمضى المساء كله والليل جميعه وصباح اليوم التالى .

وعند الظهر قدمت القابلة وهى تهبط مسرعة على الدرج وتصيح بصوت سعيد مسرسع :

- تهنئاتى يا اجنات ماتفييفتش لقد ولدت ابنا !

- هل - أنت لا تهزلين .. اليس كذلك ؟

- يا الهى .. أنا لا أهزل ، وما الداعى للهزل ؟

وهنا يأخذ اجنات نفسا عميقا يملأ صدره الكبير كله ، ثم يركع على ركبتيه ليصلى لله فى صوت متهدج ويداه الى صدره قائلا : « حمدا لك يا الهى - لا شك أنك لم تشأ أن تنقطع ذريتى التى سوف تكفر عما ارتكبته فى حقك من الذنوب .. فشكرا لك يا الهى الكريم ! »

ثم ينهض ويشرع فى اصدار أوامره بصوت مجلجل قائلا : « هيا ! ليذهب أحدكم الى كنيسة سانت نيكولاس ليحضر القسيس ! وليقل له ان اجنات ماتفييفتش هو الذى يطلبه ! وليخبره بأنه سيقرأ صلاة لامرأة ولدت طفلا ! .. »

ولم يكد يفرغ من أوامره حتى دخلت احدى الخدم وهى تقول فى صوت قلق :

« سيدى اجنات ماتفييفتش ! ان سيدتى ناتاليا فومينيشنا تسأل عنك . انها فى حالة سيئة »

وهنا يصيح اجنات بصوت مدو وعيناه تلمعان بشرا : « فى حالة سيئة ؟ .. بل انها ستتعافى . قولى لها اننى آت سريعا واننى فخور

يها ، واننى سآتيها بهدية عظيمة ! انتظرى ! جهزى شيئا من الطعام للنفس ، وأرسلى فى طلب ماياكين ٠٠ الاشبين ! »

والظاهر أن نشوة الفرح قد جعلت جسمه الكبير الضخم يزداد كبرا على كبره ، وكنت تراه يذرع الغرفة وهويحك يديه احداهما بالاخرى، ناظرا الى الايقونات شاكرا مصلبا ، ملوحا بذراعيه ٠٠ ثم لم يلبث أن ذهب بعد هذا الى زوجته ٠

وكان أول ما استرعى انتباهه جسم أحمر صغير كانت القابلة تغسله فى حوض صغير ، وما كاد يراه حتى عقد يديه وراء ظهره ، وراح يخطو على أطراف قدميه ، متقدما نحوه ، وهو ينظر الى شفتيه فى صورة مضحكة ٠٠ لقد كان الطفل يصرخ ، ويتحوى وهو فى الماء — عريانا ، عاجزا ، مثيرا للرأفة والرثاء !

ثم راح اجنات يقول للقابلة فى صوت كله ضراعة : « خذى بالك منه أرجوك ٠٠ حاسبى عليه ، فهو ليس له عظام بعد ! »

ونظرت القابلة اليه وهى تبتسم بفمها الأهتم الخالى من الأسنان ، وجعلت تتشاقط الوليد من يد الى يد فى خفة ورشاقة ، ثم قالت له : « اذهب الى زوجتك ! »

ولم يسعه الا أن يطيع ، ثم راح لزوجته وهو يخطو نحوها :
— هيه ناتاليا !

وما كاد يدنو من السرير حتى أزاح الكلة قليلا ، وسمع ناتاليا تقول فى صوت ضعيف : « اننى لن أسلم مما أنا فيه ! »

وراح اجنـات يحملق فى وجه زوجتـه الغارق فى تلك الوسـادة البيضاء التى كانت تنتشر فوقها خصل شعرها الاسود ، أشبه ما تكون بالافاعى الميتة ٠ ولم يكد يميز ذلك الوجه الاصفر الخالى من الحياة الذى انتشرت التجاعيد القاتمة حول عينيه الكبيرتين المحملقتين ، بل

لم يكد يميز هاتين العينين المفزعتين المسمرتين بلا حراك فى شىء ماوراء الحائط ·· وهكذا كان هذا انذارا بوقوع كارثة تؤجل دقات السعادة فى قلب اجنات ·

- حسن ·· هذا هو الذى يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال ·

قال ذلك وهو ينحنى ليقبلها ، لكنها أنشأت تقول وهى تنظر فى عينيه مباشرة :

- اننى لن أسلم مما أنا فيه أبدا .!

لقد كانت شفتاها بيضاوين باردتين ، ولم تكد شفتاه تلمسانهما حتى أيقن أن الموت قد دب فى جسمانها بالفعل ··

وأنشأ يتمتم وقد أحس بالخوف يجثم على صدره ويبهر أنفاسه : « يا الهى ! ناتاليا ·· هذا لا يمكن ! انه ·· انه لا يستغنى عنك ·· فيم تفكرين ؟ »

وهكذا وقف وهو لا يستطيع أن يصنع شيئا الا أن يهتف بزوجته· وكانت القابلة لا تنفك ترقص من حوله وهى تهدهد الطفل الصارخ فى الهواء ، محاولة أن تجعل اجنات يفهم ما تقول لكنه لم يكن يسمع شيئا ولم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن وجه زوجته المخيف المفزع· وكانت شفتاها تختلجان ، وكان فى وسعه أن يتلقف منهما بعض الكلمات الا أنه لم يكن يفهم منها شيئا · ثم جلس على حافة السرير وجعل يقول بصوت متقطع لا يعنى شيئا :

« ولكن ·· انه لا يستطيع أن يعيش من غيرك ·· لقد ولد توا ·· هيا ·· خذى بالك من نفسك ·· لا تفكرى مطلقا فى مثل هذا الامر ·· اطردى هذه الفكرة من رأسك ·· اطرديها ! »

لقد كان يتكلم وهو يعلم أن كلامه لا فائدة فيه · وكانت الدموع تتجمد فى عينيه ، وهو يحس أن شـيئا ثقيلا كالرصـاص ، باردا كالثلج ينصب فى صدره ·

ثم سمع ناتاليا تتمتم بصوت غير مسموع تقريبا قائلة :

« سامحنى · وداعا ·· اعتن به · لا تشرب »

ثم حضر القس ووضع شيئا ما فوق وجهها ، ثم شرع من خلال تأوهات كثيرة ينشد هذه الدعوات :

« يا الهنا العظيم يا خالق الكون ·· يا شافى جميع الامراض ، اشف خادمتك الوديعة ناتاليا التى وضعت طفلا توا ·· ارفعها يا اله السموات من فوق فراشها الذى ترقد فيه ·· ذاكرة ما قاله نبيك داود : « انهم ينهمكون فى المعاصى ، وهم أشرار فى عينيك »

ثم تهافت صوت القس الطاعن فى السن ، وتجهم وجهه الناحل ، وانتشر عبق البخور من ثيابه ·· ثم وصل صلاته قائلا :

« ثم نج الطفل الذى وضعته من كل شر ·· ومن كل شدة ·· ومن كل المتاعب ·· ومن الأرواح الشريرة التى تطيف بالنهار ، وتطيف بالليل » ·

وكان اجنات فى أثناء ذلك يبكى فى صمت · وكانت دموعه الغليظة الدافئة تتساقط فوق الذراع العارية ·· ذراع ناتاليا ·· لكنها لم تكن تستطيع أن تحس شيئا منها ·· فقد كانت ذراعها لا تتحرك ولا تسير فيها أية رعشة حينما كانت الدموع تنهمر فوقها ·· وعندما انتهت الصلاة ، راحت ناتاليا فى غيبوبة ، ثم وافتها المنية بعد يومين ، دون أن تنفرج شفتاها بكلمة لأحد ــ لقد ماتت فى مثل هذا السكون والصمت اللذين لازماها فى حياتها · وقد احتفل اجنات بدفنها احتفالا فخما ، وبعد أن تم تنصير ابنه وتسميته فوما ، عهد به ، والأسف يملأ قلبه ، الى صديقه ماياكين ، الذى كانت زوجته قد وضعت طفلا هى الاخرى ، لتتعهده برعايتها ·

ولقد تركت وفاة ناتاليا كثيرا من الشعرات البيض فى لحية اجنات ·· الا أنها بالرغم من ذلك زادت فى حياته شيئا جديدا ــ شيئا لطيفا ظريفا ·· ملأ عينيه بهجة ونورا ·

* * *

الفصل الثانى

كان ماياكين يعيش فى بيت كبير ذى طابقين ، تحيط به حديقة واسعة تنمو فيها أشجار جميلة طويلة العمر من أشجار الزيزفون ، التى كانت أغصانها المورقة تغطى نوافذ المنزل بستائر داكنة من الدانتلا المخرمة ، وكان كل ما فى وسع الشمس أن تصنعه هو أن تتخلل هذه الستائر المورقة ، وتتسرب الى الغرف القاتمة المثقلة بالصواوين والصناديق الكثيرة وشتى أنواع الأثاث ، مما كان يجعلها دائما تبدو فى مظهر معتم صارم • وكانت أسرة ماياكين أسرة مشهورة بالتقى والورع ، ومن ثم فقد كان جو الدار لا ينفك تجلجل فيه أصوات التوبة ودعوات الانابة والتسبيحات والصلوات ، كما كان ينتشر فيه عبق البخور ودخان الشموع ورائحة الزيت الذى تضاء به مصابيح الايقونات • وكانت الطقوس الدينية كلها تجرى فى دقة ونظام تام ، وبباعث من السرور بها والاقبال عليها كذلك ، وذلك أن أفراد العائلة الذين كانوا يعيشون فى هذا البيت كانوا يوجهون كل نشاطهم المتدفق الجياش الى مسائل الورع وأمور التقوى • وكانت أطياف السيدات المتشحات بالثياب السوداء تشاهد رائحة وغادية خلال تلك الغرف المعتمة الخانقة المقبضة ، وفى أرجلهن تلك الاكواث — أو قل الشباشب — الخفيفة ، وعلى وجوههن مظاهر الورع المصطنع •

وكانت أسرة ماياكين تتكون منه ومن زوجته وابنته ومن خمس قريبات كان عمر صغراهن أربعة وثلاثين عاما ، وكان هؤلاء القريبات جميعا يتساوين فى التقى والزهد فى المسرات ، وكن جميعا يأتمرن بأمر آنتونينا ايفانوفنا ، زوجة ماياكين ، وهى امرأة طويلة نحيفة

سمراء ، ذات عينين رماديتين تلمعان ذكاء • وكانت محبة للسلطة ، وكان لمايأكين ولد يسمى تاراس ، الا أن اسمه لم يكن يذكر قط بين أسماء أفراد العائلة ، وكان أهل المدينة يقولون ان تاراس حينما كان عمره تسع عشرة سـنة ، كان قد ذهب الى موسكو للدراسـة ، وكان قـد تزوج بعـد ذلك بثـلاث سنين ضـد رغبـة أبيه ، ومن ثم فقد تبرأ منه أبوه ياكوف مايأكين ، ولم يعد أحد يدرى ماذا صار اليه أمر هذ الابن بعد ذلك ، الا أنه قد أشيع أنه نفي الى سيبريا لجريمة ارتكبها •

أما ياكوف مايأكين فكان رجلا ضئيلا نحيفا مفتول العضل ، ذا لحية مدببة محمرة صهباء ، ونظرات عينيه المائلتين الى الخضرة تكاد تقول للناظر اليه :

« لا بأس يا صاحبى لا بأس •• اننى أعرف ما يدور بنفسك ، ولكنك اذا كففت عنى أذاك فلن أبوح بسرك لأحد »

وكان له رأس بيضى كبير لا يتناسب وجسمه الصغير • وكانت جبهته العريضة ذات الأخاديد العميقة تندمج فى صلعة رأسه بحيث يبدو كأن له وجهين ، وجه يستطيع كل انسان أن يراه ، لما يحفل به من بدوات الذكاء والنفاذ ، وما يبرز فيه من ذلك الأنف الضروفى الطويل ، ثم وجه آخر خال من العيون ، وكله تجاعيد حتى ليخيل اليك أن مايأكين قد أخفى عنك عينيه وشفتيه فى تلك الغضون حتى يحين الحين للكشف عنها ، حينما يستطيع أن يطلع على الدنيا بعينين أخريين ، وأن يبتسم لها ابتسامة جديدة !

وكان يملك معملا لصنع الحبال ودكانا على أحد أرصفة السفن مملوءا الى سقفه بالحبال والقنب والسلب ، وكان له فى مدخل هذا المحل غرفة مكتب يدخل اليها من باب زجاجى ذى مفصلات تحدث صريرا مزعجا • وكان المكتب يشتمل على درج كبير قبيح الشكل ، أكل الدهر عليـه وشرب ، وللدرج كرسى واطىء ذو ذراعين كان يجلس عليـه

مایاکین ، ويقضى عمره فى شرب الشاى وقراءة صحيفته المفضلة الموسكوفسكيه فيدوموستى . وكان يقع من نفوس زملائه التجار موقع الاحترام ، وكان معروفا بينهم بأنه رجل سريع الفهم واسع الادراك . وكان مغرما بالتباهى بآبائه وآباء آبائه ، وكان يقول بصوته ذى الأزيز :

« لقد كنا ، آل مایاکین تجارا منذ عهد الملكة كاترين ، وبالاختصار ان الدم الذى يتدفق فى عروقى دم منسب ! »

ففى هذه العائلة إذن ، أمضى ابن اجنات جورديیف السنين الست الاولى من عمره . وكان فوما ، وهو فى السنة السادسة ، يبدو برأسه الكبير وكتفيه العريضتين أكبر من سنه ، بسبب كبر جسمه ، وبسبب هذا البريق الذى كان يشع من عينيه السمراوين اللتين تشبهان ثمرتين من ثمار اللوز . وكان ولدا هادئا ، الا أنه كان من هذا النوع الذى يصر على أن يكون له أسلوبه الخاص فى الحياة . وكان ، هو والصغيرة ليوبا ابنة مایاکین ، يقضيان النهار بطوله يلعبان بلعبهما تحت رعاية احدى قريبات الاسرة ، تلك الخادمة السمينة الساكنة العجوز المتلثة بآثار الجدرى ، التى كانوا يسمونها لسبب من الاسباب « بوزيا » وكانت مخلوقا فيه وحشة وفيه انقباض ، حتى لقد كانت تكلم الطفلين اذا كلمتهما ، بكلمات قصيرة خاطفة .. وبصوت هادىء خفيض . وكانت تحفظ عددا لا حصر له من الصلوات والتسابيح ، ولكن يبدو أنها لم تكن تعرف شيئا من الحكايات .. لأن فوما لا يذكر أنه سمع منها حكاية ما .

وقد سارت الامور على خير حال بين فوما وليوبا ، لكنها كانت اذا عاكسته أو أثارت غضبه كان لونه يمتقع ، وكانت عيناه تدوران دورانا مضحكا ، وكانت خياشيمه تنبسط ، وربما هجم عليها وراح يضربها بكل ما فيه من قوة ، وعند ذلك كانت تصيح وتصرخ ، وربما جرت الى والدتها لتشكوه اليها ، ولكن آنتونينا ايفانوفنا كانت تحب فوما ولم تكن تعير شكاوى ابنتها أدنى التفات ، وكان هذا منها يقوى أواصر

الصداقة بين الطفلين • أما أيام فوما فكانت طويلة متشاكلة • وكان كلما استيقظ فى الصباح اغتسل ، ثم ركع أمام ايقونات ليتمتم بصلوات لا نهاية لها • وبعد ذلك تجلس العائلة لفطورها الذى تشرب فيه قدرا كبيرا من الشاى ، وتأكل الكثير من لقمة القاضى والكعك والفطائر المحشوة باللحم • فاذا انتهى الفطور خرج الطفلان ، ولاسيما فى أيام الصيف ، يتجولان فى الحديقة الشجراء التى كانت تنتهى بأخدود عميق مظلم تنتشر منه أبخرة وأشياء مخيفة • ولم يكن يسمح لهما بالاقتراب من هذا الاخدود ، وكان هذا يضاعف خوفهما منه • فاذا كان الشتاء لعبا داخل المنزل حتى وقت الغداء ، اذا كان الجو شديد البرودة ، فاذا كان غير ذلك ذهبا يتزحلقان بالزحافات على ثلج تل سحيق •

وعند الظهر ، كانا يتناولان غداءهما « على الطراز الروسى القديم الصالح » كما كان ماياكين يقول ! لقد كان أول ما يوضع على المائدة مطبقية كبيرة ممتلئة بحساء الكرنب ، ليس فيها شىء من اللحم ، ولكنها تشتمل على أقراص من العيش المحمر وكمية كبيرة من الدسم العائم على سطح الحساء ، ثم تقدم شرائح من اللحم على حدة لتؤكل مع الحساء ، ثم يتلو هذا لحم محمر من أى نوع •• لحم خنزير مثلا ، أو لحم أوز أو لحم عجل أو لحم كرش مخلوط بشريد من دقيق الحنطة •• ثم يلى ذلك شوربة بالكبد والكلاوى أو شوربة بشعرية ، ويختتم هذا كله بشىء من الحلوى الجيدة • أما الشراب الدائم فكان شراب الكفس المصنوع من العرعر أو عنب الديب أوالخبز — وكانت آنتونينا ايفانوفنا تحتفظ على الدوام بأنواع مختلفة من هذا الشراب • وكانوا يأكلون فى صمت وسكون ، وكان ما يبذلونه من جهد فى التهام طعامهم يجعلهم يرسلون تنهدات متعبة • وكان الطفلان يتناولان طعامهما على حدة من اناء واحد • وباقى الاسرة من اناء واحد كبير آخر • ولم يكونوا يصنعون شيئا بعد أكلة كهذه الا أن يناموا ، ولهذا كانت الحركة تخمد فى المنزل ساعتين أو ثلاثا ، ولم يكن يسمع فى منـزل

ماياكين الا الشخير والتنهدات الناعسة !

فاذا صحوا تناولوا الشاى وراحوا يرددون ما يحاك من شائعات حول شماس الكنيسة والمرتلين وأنباء العرس الاخير أو سلوك بعض التجار من معارفهم ٠

وقد يقول ماياكين لزوجته بعد الفراغ من شرب الشاى :

« وبعد فيا أماه ٠٠ على بالكتاب المقدس » ٠

وكان أحب ما يقرؤه من هذا الكتاب سفر أيوب ، وكان اذا وضع نظارته ذات السلوك الفضية على أرنبة أنفه التى تشبه منقار الصقر ، استدار حوله ليلقى نظرة على الاسرة كى يطمئن على أنهم حاضرون جميعا ، وكان يلذه أن يجدهم جميعا فى أماكنهم المعتادة ، وقد بدوا فى هيئتهم تلك الكئيبة العادية التى يظهرون فيها بمظهر التقوى والصلاح ٠

« كان يوجد رجل فى أرض أوز » ٠

وهكذا بدأ ماياكين قراءته بصوته ذى الصرير ، وكان فوما الذى كان جالسا مما يلى ليوبا على الكنبة التى فى الركن يعلم أن اشبينه ماياكين ربما توقف قليلا ليمر بيده على هامته الصلعاء ، وكان يرسم لنفسه وهو يصغى الى ماياكين صورة خيالية لهذا الرجل الذى يسكن فى أرض أوز ، فكان يتصوره طويلا عاريا ذا عينين عظيمتين كعينى المخاص المرسوم فى الايقونة ، وله صوت كصوت الطبلة النحاسية التى يطبل عليها الجنود فى ثكناتهم ٠ وكانت كلما مرت دقيقة ازداد هذا الرجل طولا ، حتى اذا أصبح طويلا كالسماء مد يديه القائمتين بين السحاب فجعله شقين وراح يصيح بصوته المزعج :

« لماذا يوهب النور لرجل طريقه خافية ، وقد حل الله فيه ! »

لقد كان فوما يرتعد من الخوف وكانت سنات النوم قد هربت جميعها من عينيه عندما كان ينظر الى اشبينه وهو يعبث بشعرات من لحيته ينتفها ويقول فى فكاهة رشيقة :

« ان ثم زميلا جسورا يليق بك يا فوما ! »

لقد كان فوما يعرف أن مایاكين يشير الى هذا الرجل الذى من أرض أوز ، وقد أكد له هذا ابتسامة اشبينه • ان الرجل لم يكن قمينا بأن يشد السماء فيوقعها على الارض ثم يمزقها اربا اربا بيديه الجبارتين• ثم رأى فوما الرجل مرة ثانية بعين خياله ، وكان هذه المرة جالسا على الارض و « لحمه مغطى بالدود وركام التراب » وكان جلده قد أصبح « مشققا كريه الرائحة » والآن أصبح الرجل ضئيلا ضعيفا وراح ينظر الى الدنيا كما ينظر اليها أحد الشحاذين الذين يقفون عند سقيفة احدى الكنائس •

وقال فوما متسائلا : « ومن ذا الذى يستطيع أن يخرج شيئا نظيفا من شيء غير نظيف ؟ »

فقال مایاكين شارحا : « لقد وجه هذا السؤال الى الله ، اذ سأله قائلا : كيف يمكن أن أكون صالحا اذا كنت قد ولدت من لحم امرأة ؟ »

وهنا جعل مایاكين ينظر الى النساء مستقصيا وفى عينيه لمعة من النصر ••

فتنهدت النساء قائلات : « لقد برهن الرجل الصالح على قيمة نفسه » ••

وهنا قال مایاكين وهو يضحك ضحكة ساخرة :
« أيتها البلهاوات اذهبن وأنمن الطفلين فى فراشهما » •

وكان اجنات جورديیف يحضر الى آل مایاكين يوميا ، وكان يحضر لابنه كثيرا من اللعب ، وكان يتلقفه من على الأرض ثم يحتضنه بلذة وشغف ، الا أنه كان يبدو أحيانا منحرف المزاج • لقد كان يسأل ابنه فى شيء من القلق المكتوم :

ـ ماذا يجعلك بادى الكآبة مهموما هكذا ؟ لماذا لا تضحك ولا تطرب أكثر ؟!

وقد قال لصديقه ماياكين ذات مرة متسائلا :

ـ أخشى أن فوما سيكون يوما ما كما كانت أمه ، لقد أصبح له مثل عينيها الحزينتين !

ولكن ماياكين أجابه ضاحكا : « ليس هذا أوان التفكير فى ذلك »

لقد كان ماياكين يحب فوما حبا شديدا ، وقد هلع هلعا بالغا حينما قال له اجنات فى احدى زياراته انه ينتوى أن يسترد ابنه ليعيش معه فى منزله · وقد قال له ماياكين يوم ذاك مفزوعا :

ـ دع الولد يا شيخ يعش معنا فقد أخذ علينا وتعود الحياة بيننا ·· انظر ·· انه يبكى ·· ألا ترى !

ـ لا بأس ·· فسيقلع عن بكائه عما قليل · أتظن أن الله قد أعطانى ولدا لكى أعطيك اياه بدورى ؟ ثم ··ان الاحوال فى منزلك هذا كئيبة موحشة ·· انه أشد وحشة من دير ·· وهذا مما يضر بالولد ·· ثم أنا ·· لشد ما أشعر بالفراغ بسبب بعده عنى ·· اننى أعود الى منزلى لأجده دارا خاوية ، ليس فيها ما يسعدنى ويثير البهجة فى نفسى ·· وأنا لا يمكننى أن آتى لأسكن معك من أجله ·· فلست أنا الذى كان المقصود أن أكون له ·· بل كان المقصود أن يكون لى ·· تلك هى المسألة يا صديقى ·· وقد حضرت أختى آنفيسا لتعيش معى ·· وستوليه عنايتها ·

وعلى هذا فقد انتقل فوما الى دار أبيه ··

وقد استقبلته عند باب هذه الدار امرأة عجوز مضحكة ذات أنف طويل مقوس وفم كبير أهتم · وكانت طويلة الجسممستديرة الكتفين ذات شعر أشيب ، تلبس ثوبا رماديا ، وتلف شعرها الذى وخطه الشيب بمنديل حريرى صغير ـ ولم يشعر فوما نحوها بشىء من المحبة أول الامر ، بل كان يوجس منها خيفة ، لكنه عندما رأى عينيها السوداوين المبتسمتين تفيضـان محبة وحنانا وسط هـذا الوجه المجعد ـ المكرمش ـ اندفع نحوها ليخفى وجهه فى نطاقها الواسع

الفضفاض ، وهنا لم يسعها الا أن تقول له بصوتها الناعم والعاطفة تهزها هزا ،وهى تربت على رأسه الصغير :

— يا ولدى الصغير اليتيم ! انظر ياأجنات كيف يحتضنني ويتشبث بى هذا الحبيب الصغير !

وكان في غرامها بفوما شيء حلو رقيق لكنه غريب غير عادى ٠٠ شيء لم يعهده اجنات جورديييف من قبل ، مما جعله يحملق فى عينى أخته العجوز فى تطلع ورجاء ٠ لقد كانت مهمة هذه السيدة هى أن تبدأ تعويد الغلام على حياة لم تكن تدور له فى بال من قبل ٠ فهى عندماذهبت به لتضعه فيفراشه ذلكاليوم الاول ، لم تلبث أن جلست الى جانبه ، ثم مالت نحوه قليلا وهى تقول :

— هل أروى لك حدوته ؟!

وتعود فوما بعد ذلك أن يستغرق فى نوم عميق لذيذ على صوتها الناعم الباغم ، وهو يزخرف لنفسه الصور الحلوة الرائعة من عالم الخيال ٠ ولقد كان يعب من جمال هذا العالم عبا ٠ وكان من حسن حظه أن عمته العجوز هذه كان فى رأسها كنز من الاساطير لا تفنى مادته ، وذاكرة عجيبة وخيال أعجب يساعدانها على سرد تلك الاساطير وكان يخيل لفوما حينما تغفو عمته أحيانا ، وهى تسرد عليه قصصها الشائقة ، أنها هى هذا ال — بابا — ياجا ، بطل أساطيرها ٠٠ بابا — ياجا صالح رحيم ٠٠ وفى أحيان أخرى كان يتصورها فى صورة فاسيليزيا الحكيمة الجميلة ٠٠ أما اذا رقد بعينيه المفتوحتين ، وأنفاسه الوانية ، محملقا فى ظلال التهاويل المرتعشة ، المتصاعدة من مصابيح الايقونات ٠٠ فقد كان خياله يملأ تلك الظلال بمناظر عجيبة يصوغها من قصص تلك الاساطير ٠ وكانت الظلال الصامتة — الحية مع ذاك — تحتشد فوق الجدران وأرضية الحجرة وتنزلق عليهـــا ، وكان فوما يستشعر شيئا من الرهبة ، وان تكن رهبة لطيفة مسلية مع ذاك ، وهو يحيل هذه الظلال فيجعلها صورا وألوانا من الحياة ، ثم لا يلبث

أن يبطش بها ويمزقها فى لحظة ، بخطفة واحدة من أهداب عينيه ، وعند ذلك كانت عيناه تأخذان تعبيرا جديدا ، أقل خطورة وجدا ، وأكثر دعة وطفولة ٠٠ لقد كان الظلام والوحشة يثيران فيه احساسا عميقا من اللهفة والترقب ، يدفعه الى حب الاستطلاع ، ويجعله لايبالى الرعب المنبعث من بعض الاركان المظلمة ٠٠ فهو يذهب اليه ليستطلع ماذا يختبىء فيه ٠٠ ولم يكن يجد فيه شيئا بالطبع ٠٠ الا أنه لم يكن يفقد الامل فى أن يجد فيه شيئا يوما ما ٠

وكان أبوه يثير الخوف فى نفسه ، الا أنه كان يحبه مع ذاك ٠ وكان جسم اجنات الضخم ، وصوته المجلجل الرنان ، ووجهه الملتحى ، وشعره الكثيف الاشيب ، وذراعاه الطويلتان الجبارتان ، وعيناه اللماحتان ٠٠ كان هذا كله يجعله فى روع الطفل أشبه بأحد لصوص الغاب فى احدى الاساطير ٠

وفى أحد الايام ، وكان فوما قد بلغ السابعة من عمره ، راح يسأل أباه الذى كان قد عاد توا من رحلة طويلة ، عن المكان الذى كان فيه ٠ فلما قال له أبوه : « من أقصى الفولجا » ٠ راح يسأله هذا السؤال العجيب : « هل كنت فى غارة من غاراتك ؟! » يريد فوما بالطبع غارة من تلك الغارات التى يشنها لصوص الغاب !

وهنا ذهل أبوه ٠٠ وراح يتساءل وقد حملق وصعد حاجبيه :

ــ ا ٠٠ ه !؟

ــ لكنك ٠٠ لص يا أبى ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠٠ أنا أعلم أنك لص !

قالها فوما وهو يدير عينيه فى خبث ، وقد بلغ به السرور مبلغه لاعتقاده أنه استطاع بمثل هذه السهولة اختراق الحجب التى تحجز بينه وبين حياة أبيه السرية !

وقد رد عليه أبوه فى صرامة :

« انما أنا تاجر !

الا أنه بعد لحظة من التفكير راح يبتسم ابتسامة ظريفة مهذبة ، ثم قال :

ـ وأنت مغفل صغير ! أنا تاجر حبوب يا أبله ٠٠ وأمتلك عددا من المراكب البخارية ! ألم تقع عيناك على السفينة يرمك ؟ هذه احـــدى سفنى ٠٠ وسفنك أنت أيضا !

وعند ذلك أنشأ فوما يقول فى تنهدة خاطفة : « يا لها من سفينة ضخمة ! »

وهنا قال له أبوه وهو يداعبه :

ـ اذن ٠٠ ما دمت صغيرا فسأشترى لك سفينة صغيرة ٠٠ على قدك ! فهل أفعل ؟

وقال فوما متلهفا : « أوه ٠٠ أجل ! »

الا أنه بعد ما أجال تفكيره فيما دار بينه وبين أبيه من حديث عاد يقول ، كالذى يعتذر : « لقد كنت أعتقد أنك لص ! »

ـ أنا تاجر قلت لك !

وقد قالها اجنات محتدا ، وهو يتفرس مشفقا فى ابنه الذى كأنما بدت عليه خيبة الرجاء فى أن أباه ليس لصا ٠

وسأله فوما بعد لحظة : « مثل بابا فيدور ماياكين ، الذى يبيع السلب والحبال ؟ »

ـ أجل ٠ مثله ، لكننى أغنى منه بكثير ٠٠ ان لدى أموالا أكثر مما لدى فيدور ٠

ـ لديك أكوام من المال ؟

ـ ربما ٠٠ ولعل بعض الناس عندهم أكثر مما عندى ٠

ـ كم خزنة ؟

ـ ماذا ؟!

ـ كم خزنة من المال ؟

ـ يا مغفل ٠٠ ان الناس لا يقيسون الغنى بعدد الخزائن ٠

ـ بل هم يفعلون !

وقد قالها فوما منتشيا وفى انتعاش شديد ، ثم رفع عينيه الى أبيه متعجلا الشرح ٠٠ ثم أكمل حديثه فقال :

ـ لقد سرق مكسيم اللص ذات مرة اثنى عشر صندوقا مملوءة بالذهب ، فضلا عن فضة كثيرة ، من رجل غنى ، ثم سطا على الكنيسة بعد ذلك ، واخترق بسيفه صدر رجل آخر ، وقذف بجسمه خارج قبة الجرس ، لأنه كان يحاول دقه طلبا للنجدة ٠

وهنا راح اجنات يسأل ابنه ، وقد سر سرورا كبيرا لما رأى من انتشاء فوما وانتعاشه :

ـ أكانت عمتك تحدثك بكل هذا ؟

ـ أجل ٠٠ ولماذا ؟

فضحك اجنات ثم قال : « لا شيء ٠٠ ولكننى فهمت الآن لماذا جعلت من والدك لصا ! »

وسأله فوما فى رجاء وتمن :

ـ لعلك كنت لصا ذات مرة !

ـ كلا ٠٠ أبدا أبدا ٠٠ واطرد هذه الفكرة من رأسك !

ـ أبدا ٠٠ أبدا ٠٠ ؟

ـ أبدا أبدا ، قلت لك : يا لك من غبى صغير أتحسب أن مما يشرف أى انسان أن يكون لصا ؟! انهم جميعا مجرمون آثمون هؤلاء اللصوص الذين تعجب بهم ٠٠ انهم لا يؤمنون بالله ، ويسطون على الكنائس ، ومن أجل هذا تستنزل الكنائس ومن فيها لعنة الله عليهم ٠٠ هم !٠٠ ولكننى جئت لأقول لك يا بنى ، انه قد آن أوان تعليمك ٠٠ وهذا هو الوقت المناسب لذلك ، أيها العفريت الصغير ٠٠ ستدرس طول الشتاء ، فاذا أقبل الربيع ، وحان موسم أعمالى ، أخذتك معى على الفولجا ٠٠

وسأله فوما فى رهبة :

ـ تعنى أننى أذهب الى المدرسة ؟

- بل تبدأ دراستك أولا مع عمتك فى المنزل ·

ومنذ ذلك اليوم وفوما الصغير يجلس كل صباح عند منضدته ليكرر ماتقوله عمته من أحرف الهجاء السلافى ، مشيرا اليها باصبعه :

آز ·· بوكى ·· فيدى ··

حتى اذا وصل الى الاحرف :

برا ·· فرا ·· جرا ·· درا ·· أخذت المقاطع ترن فى أذنيه رنينا رتيبا مضحكا ·· ولم يكن يملك نفسه من الضحك عليها فعلا ·· وكان يكررها كرا سريعا - ثم لم يمض زمن طويل حتى كان يشرع فى قراءة أولى تسابيحه :

- مبارك هو الذى ··

وكانت عمته تشجعه وهى مسرورة بنجاحه قائلة :

- عال ·· عال ·· يا حبيبى ·· صح يا فوموشـــــكا ·· صح يا حبيبى !

وحينما حدثت أباه عما ناله من التقدم فى دراسته ، التفت اليه وقال له فى لهجة فيها من الجد والخطورة ما فيها :

« عال جدا ·· مبروك عليك يافوما ·· سآخذك معى الى آستراخان فى الربيع ·· وعندما يأتى الخريف سوف أرسل بك الى المدرسة »

لقد كانت الايام تمر مرا سريعا فى نظر فوما ·· حتى لكأنها كرة تدحرج على منحدر تل من التلال ، وكانت عمته لعبته ، بقدر ما كانت معلمته · وكانت صديقة طفولته ليوبا ماياكينا تحضر أحيانا لزيارتهما ، وكانت العمة العجوز الشمطاء تنقلب فتكون طفلة مثلهما تماما ، وكانوا جميعا يلعبون لعبة الاستغماء ، وربطـــة العينين · وكان الطفلان يضحكان من أعماقهما حينما يريان العمة العجوز تتخبط وسط الغرفة والمنديل مربوط على عينيها ، ويداها ممدودتان ، وهى تتعثر بالكراسى والمناضد بالرغم مما تبديه من حـــذر ، وهى تتحسس الأماكن التى يختبئان فيها ، مغمغمة فى أنفاسها المقطوعة :

« العفريتان الصغيران ·· القردان الشقيان ·· يا ترى أين هما مختفيان ؟! »

لقد كانت الشمس ترسل أشعتها اللطيفة على هذا البدن العجوز ذى الروح الشابة ـ تلك الحياة المعتقة التى تصب ماتبقى فيها من مدخر القوة والعافية لتنضر هاتين الروحين وتزيدهما بهجة ·

وكان اجنات يذهب الى بورصة الحبوب فى الصباح الباكر ، ثم يبقى هناك فى كثير من الاحيان حتى المساء ، وربما ذهب فى المساء لزيارة أصدقائه ، أو لحضور جلسات مجلس المدينة ، أو الى أى مكان آخر · وفى بعض الاحيان كان يعود الى المنزل مخمورا لا يعى · وكان فوما ، فى أول الامر ، يهرب منه ليختبىء فى مكان ما ، حينما يراه كذلك ، لكنه سرعان ماتعود هذا منه ، وكان يسره أن يلقاه على هذه الصورة من أن يراه مفيقا واعيا ، فقد كان يبدو أكثر سذاجة وبراءة وهو سكران ، وأكثر بشاشة وودا ·· وفضلا عن هذا فقد كان يبدو أكثر سخفا ومعابثة ! وكان اذا عاد ليلا ، يرسل من صوته المدوى ما يوقظ الطفل من نومه العميق :

ـ أنفيسا ! افتحى يا أختى العزيزة لكى أرى ابنى ووريثى ·· افتحى يا أختى ·· افتحى ·· يا لك من أخت طيبة !

وربما كان جواب أخته الوحيد هو :

ـ اذهب ونم أيها السكير العربيد ·· الواقف هناك ·· تلخبط وتهذى ولا تستحى من شيبتك هذه !

ـ أنفيسا ! ألا تسمحين لى بأن ألقى نظرة واحدة على ابنى ! نظرة واحدة فقط !

ـ قلع الله عينيك من كثرة ما تشرب من هذه الخمر !

وكان فوما يعرف أن عمته لن تفتح لأبيه باب الغرفة ·· ولهـذا كان يعود الى فراشه ، تاركا اياهما فيما هما فيه من شجار ونقار ·

فان كانت عودته نهارا وهو فى هذه الحالة من السكر ، فربما تلقف به فى يديه الجبارتين ، ثم راح يضحك فى نشوة سكره ، وجعل يجىء ويروح فى الغرفة وهو يقول :

ـ ماذا تريد أن أشترى لك يا فوما ؟ تكلم ! حلويات ؟ لعب ؟ هيا ! أطلب منى أى شىء ٠٠ فلن يوجد فى هذه الدنيا شىء لا يمكن أن أشتريه لك ٠٠ تذكر هذا ٠٠ لقد جمعت مليون روبل ٠٠ ولا زلت أجمع أكثر وأكثر ، وهى كلها لك !

الا أن بشاشته تلك ربما انطفأت فجأة كما تنطفىء الشمعة فى هبه من الريح ٠ فترى خديه المنتفخين وقد انخسفا ، وعينيه الملتهبتين وقد أغرقهما الدمع ، وشفتيه وقد عرتهما تكشيرة واجمة ٠

وربما نظر الى أخته وقال :

ـ أنفيسا ! ماذا لو أنه مات ؟! ماذا أصنع اذن ؟

وكانت هذه الفكرة قمينة بأن تصيبه بنوبة من نوبات الجنون ، وعند ذلك تسمعه يجأر ويزأر ، ثم ينظر متفرسا فى ركن من الاركان المظلمة ، ويهتف قائلا :

ـ لو حدث هذا لأضرمت النار فى كل شىء ، وأتيت على كل شىء ٠٠ وجعلته كله حطاما !

وكانت أخته تصيح به :

ـ كف عن صياحك هذا أيها الوحش ، أتريد أن تشيع الرعب فى نفس الطفل ؟ أم تريد أن تجلب له المرض ؟

وكان جوابها ذاك كافيا لتراجعه ، فينصرف وهو يغمغم :

ـ طيب ٠٠ طيب ! هأنذا منصرف ، فلا تصيحى ولا تصخبى ٠٠ ولا تزعجيه !

وكان فوما اذا أصابته علة أو ألم به مرض ، ترك أبوه كل أشغاله وقد يلزم بيته لا يبارحه ، ويأخذ فى التنقل من غرفة الى غرفة أخرى

.. فلن يوجد فى هذه الدنيا شىء لا يمكن أن أشتريه لك ..

مهموما محزونا ، وفى عينيه من الخوف ما فيهما ، وفى صـــدره من الأنين والتفجع ما فيه ، ولا ينى يوجه الى اخته والى ابنه سيلا لا ينقطع من الاسئلة والنصائح .

وكانت أخته ربما نهرته قائلة :

ـ انك ربما استنزلت غضب الله وسخطه على رأسك . فأمسك عليك لسانك والا سمع ما تلغو به .. وقد ينزل بك عقابه لما تجازيه به من هذا الجزاء السيء على ما أحسن به اليك من هذه النعم كلها !

ـ آه يا أختاه ! ألا تستطيعين أن تفهمي أنه اذا أصابه أى شيء تحطمت حياتى ! فما جدوى الحياة من بعده ؟ لا شيء .. !

وكان فوما ينزعج أول الامر لهذه المشاجرات ، ولتلك التقلبات العابرة فى مزاج أبيه ، الا أنه سرعان ما تعودها .. وكان كلما أطل من النافذة ولمح أباه ينزل من مركبة الجليد فى صعوبة ومشقة أسرع الى عمته ليقول لها فى غير مبالاة :

ـ لقد عاد بابا مخمورا مرة أخرى يا عمة !

ثم أقبل الربيع ، وبر اجنات بوعده لفوما ، فقد صحبه معه فى السفينة ، حيث تكشفت لعينى الطفل ألوان من الحياة جديدة ومختلفة اختلافا كليا .

لقد كانت البرمك ، تلك السفينة الجرارة البديعة التابعة للتاجر اجنات جورديييف ، تنزلق مع التيار مسرعة رشيقة ، على حين كانت شطئان الفولجا على الجانبين تقبل للقائها .. وكان الشاطيء الايسر يمتد الى حيث يلتقى والافق نفسه كبساط من السندس الاخضر مغمورا فى أشعة الشمس ، والشاطيء الايمن يرسل قممه المغطاة بالغابات الى عنان السماء حيث تتشبث بها سكينتها الغافية . وكان الفولجا المنبسط الصدر ينساب بينهما فى هذا المدى المهيب ، وأمواهـــه تترقرق فى هدوء وجلال وتؤدة ، تنعكس فيها تلك الظلال القائمة

التى ترسلها القمم المشجرة الى اليمين ، والمخمل الاخضر والقطيفه الذهبية التى تكتسى بها المروج المائية والشواطىء الرملية الى اليسار. وكانت القرى تتراءى تارة فوق القمم ، وأخرى وسط المروج ، والشمس تعكس أشعتها على زجاج نوافذ الاكواخ ، وتلمع على الكلل المنسوجة من القش ، والتى تغطى الاسطح ، وتتلألأ فى ذهب الصلبان التى تحجب قمم الاشجار جانبا منها . وكانت مراوح الطواحين تتحرك فى وناء ورفق فى النسيم الطلق ، ومداخن المعامل تنسج خيوطا من دخانها فى صفحة السماء . وكان صمت النهر تشقه صيحات الاطفال بقمصانهم الحمراء والزرقاء والبيضاء ، وهم وقوف عند حفافى الشاطىء يشاهدون السفينة منسابة فوق الماء ، منتظرين هـــذا الموج المرح الصغير الذى ترسله قلابة السفينة من ورائها لكى يصل الى أقدامهم فيدغدغها .. وحفنة من أطفال آخرين يثبون فى زورق صغير ثم يعملون أيديهم فى مجاديفه بشدة وعنف حتى يكونوا فى وسط التيار لكى تؤرجحهم جرة (١) السفينة . وكانت تيجان بعض الاشجار العالية تبرز من تحت الماء ــ وفى بعض الاماكن كانت أحراش بأكملها تنتأ فوق صفحة النهر ، حتى لتبدو كأنها جزائر فى وسط العباب . وكانت ألحان بعض الأغنيات الكئيبة التى يتغنى بها العمال اللاهثون تصل من الشاطىء هكذا :

ــ واحد .. اثنين .. هب ! واحد ، اثنين .. شد !

وكانت البرمك تمر ببعض أرمات (٢) الخشب فتطويها فى أمواجها فتهتز اهتزازا عنيفا ، ويأخذ ملاحوها يتضاحكون ويتصايحون عندما يختل توازنهم . وكانت نقالة صغيرة مشحونة مصعدة فى النهر ، وكانت عروق الخشب الصفراء التى تحملها تتلألأ كالذهب فى أشعة

---

(١) جرة السفينة هى هذا الذيل من الأمواج والزبد الذى تحدثه وراءها وهى تمخر عباب الماء (د)

(٢) الرمث بفتحتين الخشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى البحر (القاموس)

الشمس فتنعكس فى صفحة الماء التى يكسبها الربيع قتامة · وقد أرسلت سفينة ركاب صفارتها وهى مقبلة نحو اليرمك، وكانت أصداء الصفير تنساب بعيدا لتتلاشى فى الغابات وفى كهوف الجبال · وقد دفعت الامواج بالمركبين فاصطدما وسط التيار ثم افترقا ، وهمـــا يهزان الجرارة والنقالة ، وكان على منحدرات الشاطىء الايمن شرائط من الحقول تلمع فيها سنابل القمح الشتوى ، وشرائط من الارض البور ، وشرائط أخرى من الارض المحروثة استعدادا لزراعة الربيع ·· وكانت تنتشر فوق ذلك جميعا طيور لم تكن تبدو أكثر من نقط صغيرة ترى من وراء الماء ، ومع ذاك فقد كانت ترى بوضوح تام اذا طارت وانعكست على صفحة السماء الزرقاء · وكانت قطعـــان الماشية التى تبدو كاللعب ترعى من قرب ، على حين وقف راعيها الذى يبدو كاللعبة هو الآخر ، متكئا على عصاه يمتع ناظريه بجمال النهر ·

وكان الانســـان يجد على مدى النظر الانطلاق ، والحـــرية ·· واللألاء ، وخضرة المروج البهيجة ، وزرقة السماء الصافيـــة ··· كما كان يستشعر القوة المكبوتة فى الماء الساكن · وكانت شمس مايو الساطعـــة تتلظى فى كبد السماء ، وكان الهواء ممتلئـــا بعطر النباتات ذات الخضرة الدائمة والأغصان الصغيرة ، وكانت الشواطىء على عادتها فى استقبال السفينة وامتاع العين والروح بجمالها الذى كانت لا تفتأ تبدى منه منظرا جديدا بعد منظر جديد · وكان كل شىء يتحرك ببطء ، كل شىء ·· الطبيعة والناس على السواء ··· كانوا يتسمون بالكسل والكلال ··· ولكن لا ··· لقد كان يبدو أن وراء هذا الكسل تجثم قوة هائلة ، قوة لا تقهر ، لكنها لم تشعر بنفسها بعد ، ولم تكون لها أهدافا ولا أغراضـــا واضحة ، وعـــدم شعورها بنفسها هذا كان يلقى ظلا حزينا على هذه الآفاق الجميـــلة الشاســـعة · لقد كان يمكن أن تسمع ، حتى فى صيحات الطيـــور الهائمة مع الريح ، نغمات وأصـــوات تشف عما تكتم هـــذه الطيور نفسها من الجلد وقوة الاحتمال ·· كما تشف عن الانتظار المستسلم

المتشوف الى ظهور حياة جديدة . لقد كانت الأغانى الباكية أشبه بالتماس للنجدة . وكان الانســان يستطيع فى بعض الأحيــان أن يتبين فيها ما يؤدى اليه اليأس من مخاطرة ... لقد كان النهر يتنهد مستجيبا ، والأشجار تحنى رءوسها مفكرة ، والصمت مخيما عــلى كل شيء .

وكان فوما يقضى جميع أوقاته فى قمرة الربان الى جانب والده ، وكان يلاحظ فى صمت وبعينين مفتوحتين المنظر العــام لضفاف النهر ، وكان يبدو له أنه يسبح فى طريق فضى واسع الى الملــكوت العجيب الذى يسكنه الفرسان وسحراء العصور الخالية . وفى بعض الاحيان كان يوجه الى والده أسئلة عما يرى ، وكان اجنات يجيبــه راضيا طيب الخاطر ، الا أن فوما لم يكن يقتنع بأجوبة أبيه ، لقــد كانت أجوبة سطحية لا يفهمها ولم يكن فيهــا ما كان يتشوف الى معرفته . وقد تنهد مرة قائلا :

ـ ان عمتى أنفيسا تعرف خيرا منك بكثير

وضحك اجنات وسأل فوما :

ـ وماذا عساها تعرف ؟

وأجاب فوما فى اقتناع : ـ كل شيء !

لكنه لم يصل الى الملكوت العجيب مطلقا ، وان كانوا يصلون الى مدن لا تختلف فى شيء عن المدينة التى نشأ فيها فوما ، وكان بعض هــذه المدن أكبر من مدينته ، وكان بعضها أصغر ، الا أن النــاس والمنازل والكنائس كانت كلها مثل التى كان يعرفها من قبل . وقد ذهب مع والده ليراها الا أنها لم تعجبه وفضل أن يعود الى السفينة ، فعاد اليها وهو متعب منحرف المزاج .

وقال له اجنات يوما :

ـ غدا سنصل الى أستراخان

- وهل أستراخان مثل هذه المدن كلها ؟
- طبعا . وماذا تنتظر أن تكون ؟
- وماذا بعد أستراخان ؟
- البحر . بحر قزوين ، كما يسمونه
- وماذا فيه ؟
- سمك ، أيها المغفل ، وماذا غير السمك يعيش فى الماء ؟
- ان مدينة ركتزا تقع تحت الماء !
- آه .. ركتزا ! ولكن هذه كانت مدينة خصوصية جدا ، ولم يكن يعيش فيها الا الصالحون .
- أليس فى البحر أية مدن صالحة ؟
وراح اجنات يفكر قليلا ثم قال :
- كلا .. ان ماء البحر مالح ولا تستطيع أن تشربه .
- وبعد البحر ؟ هل توجد أرض مرة أخرى ؟
- طبعا .. ان البحر لا بد أن ينتهى مهما بلغ من الاتساع ،أليس كذلك ؟ انه أشبه بوعاء كبير
- وبعد ، أفليس هناك مدن أخرى ؟
- أجل ، لكنها ليست مدننا ، انها مدن فارسية . تذكر هذه الأشياء الفارسية التى رأيتها فى السوق .. خوخ ومشمش وعناب .. و .. و ..
- أجل . أجل
قالها:فوما ثم استسلم للنوم
وقد قال لأبيه يوما ما :
- أتوجد بلاد أخرى كثيرة ؟
- بلاد كثيرة يا بنى .. كثيرة جدا
- وهل كلها متماثلة ؟
- ماذا تعنى ؟

- أعنى المدن و ٠٠ والأشياء !

- هى كما تقول

وبعد عدد من أمثال هذه الأحاديث لم تعد عينا فوما السوداوان تحدق فى الآفاق بمثل التشوف الذى كانت تحدق به من قبل ٠

وقد أخذ عمال السفينة يحبونه ، وبادلهم هو حبا بحب ٠ لقد أحب جميع هؤلاء الرجال الأقوياء المشوقين الذين دبغ الطقس جلودهم ، والذين كانوا يكلمونه مداعبين ممازحين ، وزاده حبا فيهم ما صنعوا له من غاب وسنارات لصيد السمك وزوارق صغيرة من لحاء الشجر ، وكانوا ربما يلعبون معه ويأخذونه ليجدف فى الزوارق الصغيرة عندما يكون أبوه فى المدينة فى بعض أعماله ٠ وكان فوما كثيرا ما يسمعهم يثرثرون بكلام عن أبيه ، الا أنه لم يكن يهتم بهذا ، ولم يخبر أباه قط بشىء مما كانوا يتحدثون به عنه ٠ الا أنه قد حدث ذات مرة حينما كانوا يحملون السفينة فى أستراخان بأحمال من الوقود أن سمع فوما الميكانيكى بتروفتش يقول :

« يا له من مجنون أحمق ! يأمرنا بأن نأخذ كل هذا الخشب على ظهر السفينة انه حمل ثقيل سيغطس بها الى حافتها ، ثم يأتى فيقول : «ما قصدكم من اتلاف الآلات ؟ وما غرضكم من استهلاك كل ذلك الزيت ؟ »

ثم سمع الربان الأشيب الصارم الوجه يقول : « وهذا كله لا سبب له الا شرهه الشنيع الملعون ٠٠٠ تالله انه للشيطان الطماع نفسه ، ان كان ثمة شيطان طماع !

- انه شره لا شك !

لقد كانت هذه الكلمة تتكرر على كل لسان ، حتى انطبعت فى ذاكرة فوما ، وعندما جلسا يتناولان عشاءهما فى تلك الليلة قال لأبيه فجأة :

ـ بابا !

ـ أجل ؟

ـ هل أنت شره ؟

ولما سأله عما يعنى ذكر له فوما ما سمعه من الربان وما قاله الميكانيكى ، فاربد وجه اجنات ، وبدا الغضب فى عينيه ، وأنشأ يقول وهو يهز رأسه :

« فهذا هو ما كان اذن !! حسن ، خير ··· خير لك ألا تسمع ما يقولون ··· فهم ليسوا من مقامك ··· لا تختلط بهم ، ولا تنس أنك سيدهم ، وأنهم خدمك · وفى وسعنا أن نقذف بهم جميعا من السفينة اذا أردنا · انهم لا قيمة لهم ، وكثير منهم أشبه بالكلاب الضالة ، فافهم ذلك ولا تنسه · وهم باستمرار لا يتورعون أن يقولوا فى حقى كلاما شنيعا ، والسبب الوحيد هو أننى سيدهم وصاحب الامر والنهى عليهم · اننى رجل غنى وناجح ، وكل غنى محسود دائما ، وكل الناس أعداء لصاحب الطالع السعيد » ·

ولم يمض على ذلك يومان حتى كان للسفينة ربان جديد وميكانيكى جديد ·

وقد سأل فوما أباه قائلا :

ـ أين الربان يا كوف ؟

ـ لقد تخلصنا منه ـ فصلناه !

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه قال ما قاله

ـ وبتروفتش

ـ وبتروفتش كذلك

وقد راقت فى عينى فوما تلك البساطة التى كان أبوه يستطيع بها التخلص من الناس ، وقد تبسم له ، ثم نزل من القمرة الى ظهر

السفينة حيث وجد أحد العمال جالسا يفك حبلا ليصنع ممسحه ٠ فقال له :

ـ لقد أحضرنا ربانا جديدا

ـ أعرف ٠٠ صباح الخير يا فوما اجناتيفتش ٠ هل نمت جيدا ؟

ـ وميكانيكيا جديدا أيضا

ـ وميكانيكيا جديدا أيضا ٠٠ ألا تشعر بالاسف على بتروفتش؟

ـ كلا

ـ كلا ؟ مع أنه كان دائما لطيفا معك !

ـ لماذا كان دائما يتكلم كلاما فارغا عن والدى ؟

ـ أوه ! هل حصل هذا ؟

ـ حصل ٠٠ لقد سمعته بنفسى

ـ هم ٠٠ وهل سمعه والدك هو أيضا ؟

ـ كلا ٠٠ فأنا الذى بلغته !

ـ فأنت اذن الذى أخبرته ٠٠ أليس كذلك ؟

قالها العامل وهو يعود الى عمله دون أن يزيد ٠

ـ لقد قال لى أبى اننى صاحب الأمر هنا ، وقال اننى النخلص من أى واحد اذا أردت ٠

ـ هل قال ذلك حقا ؟

وكان العامل يحملق فى الطفل الذى كان يقول ما قال متباهيا بسلطانه فى حماسة كبيرة ٠

ولاحظ فوما أن العمال قد أخذوا يعاملونه بحذر بعد الذى حدث ، بل كان بعضهم يشتد فى تملقه وابداء الضراعة له ، وبعضهم قد أخذ يغير لهجة المباسطة الى لهجة الجد ، وقد يمتنع من التحدث اليه على الاطلاق ٠ وكان فوما يحب مشاهدتهم وهم ينظفون ظهر السفينة ، لقد كانوا ينفلتون برشاقة والمماسح بأيديهم ، وبناطيلهم

مشمرة الى ركبهم ، وهم يصبون جرادل الماء على الخشب ، وينثرونه الى بعضهم مازحين متضاحكين صاخبين . وكانوا يتزحلقون فيقعون أحيانا . وكان الماء يتصبب فى كل مكان ، وكان صوت انصبابه أشبه بظهارة مرحة لأصوات العمال . ولم يكونوا يعملون حسابا لوجود فوما بينهم وهم يقومون بهذا العمل الظريف . فقد كان هو نفسه يشاركهم فيه ، وكان يداعبهم بنثر الماء عليهم .. ثم يجرى صائحا مسرورا عندما يهددونه بأن ينثروا الماء عليه هو أيضا . لكنهم بعد فصل ياكوف وبتروفتش لم يعودوا ينظرون اليه نظرة الصداقة التي كانوا يولونها اياه من قبل ، وقد أدرك أنه كان سبب ذلك ، وأن أحدا منهم لم يعد يود ملاعبته ، فكان شعور الحزن والربكه يستولى عليه ، فيترك سطح المركب ، ويولى وجهه شطر قمره الربان ، حيث يجلس مكتئبا متراخيا وهو ينظر الى شواطىء النهر الزرقاء ، وقمم الغابات الطالعة الهابطة فى أفق السماء ، والعمال من أسفل منه ينثرون الماء ويتضاحكون مرحين ، وهو يتطلع الى الذهاب اليهم ، الا أن شيئا ما كان يمنعه من ذلك .

« لا تخلط نفسك بهم ... فأنت سيدهم ! »

انه لم يكن ينسى هذه الكلمات التى قالها له أبوه

لقد كان يجد فى نفسه نزوعا الى الهتاف بهم فى لهجة آمرة ناهيه كما كان أبوه يفعل ، وكان يحاول أن يجد كلاما مناسبا يوجهه اليهم . الا أنه لم يكن يستطيع . ومر على ذلك يومان أو ثلاثة ، ثم اقتنع أخيرا أنهم لا يحبونه ، فأخذ يسأم من وجوده على السفينة ، وراح يهفو الى وجه عمته الحبيبة أنفيسا وهو يبتسم له من خلال هذه الضبابة الوردية من الانطباعات الجديدة التى حجبته عنه .. العمة أنفيسا التى كانت ابتساماتها وقصصها وضحكاتها الظريفة تجلب لقلبه الدفء دائما ، وتغمره بالسعادة باستمرار .. لقد كان لا يزال يعيش فى عالم السحر والحوريات ... الا أن يد الواقع القاسية

كانت قد مزقت هذا النسيج من عنكبوت الوهم الذى كان يتخيل من خلاله كل شىء حوله ٠ لقد اضطرته حادثة الربان والميكانيكى الى اجالة فكره فيما حوله ، فأصبحت عيناه أحد بصرا ٠٠٠ لقد اكتسبتا نظرة فاحصة لم تكن فيهما ، وكانت الأسئلة التى يوجهها الى والده تنبعث عن رغبـــة الذى يريد أن يفهم السبب فى كون أن العجل والآلات جعلت الناس يسلكون على هذا النحو الذى يسلكونه !

وذات يوم شاهد المنظر التالى :

لقد كان العمال يحملون كتلا من الأخشـاب على نقالات ، فاذا عامل منهم اسمه ييفيم ، وكان صبيا ظريفا ذا شعر مجعد ، يقول ٠

ـ أوه ٠٠ لا ٠٠ لقد زادت المسـألة عن الحـد ٠٠ أنا عمـــرى ما اتفقت معه على جر كتل الأخشاب لحضرته ! أنا عامل فى سفينة ليس الا ٠٠٠ وكل العالم يعرف ماذا يصنع العامل فى سفينة ٠٠٠ وأنا لا يمكن أن أجر كتل الخشب لحضرته ٠٠٠ شكرا ! ان هذا يعنى أنه يسلخنى مرتين ٠٠ يعنى ٠٠ يشغلنى بروحين ٠٠ وأنا لم أتفق على ذلك ٠٠٠ انه رجل لا ضمير له ، ما دام يمص دماءنا على هذا النحو ٠

وسمعه فوما ، وأدرك أنه يتحدث عن والده ٠٠٠ وقد لاحظ أن هذا الصبى ييفيم ، بالرغم من شكواه ، يضع كتلا على نقالته أكثر مما يفعل أى عامل آخر ٠٠ ثم يشتغل أسرع مما يشتغلون أيضا ، وكان العمال الآخرون لا يلقون بالا الى صخبه وجعـيره ٠٠٠ حتى العامل الآخر الذى كان يحمل النقالة من طرفها الآخر مع ييفيم ٠٠ انه لم يكن يشكو الا حينما كان ييفيم يبالغ فى الاكثـار من وضع الأخشاب فوق النقالة ٠٠٠ فكان يقول له :

ـ كفاية ٠٠ انه تيس حصانا الذى تحمله هذه الأحمال !

ـ أخرس ! انهم ما داموا قد وضعوك فى السرج فما عليك الا أن

جر الحمل من غير أن تحـــرن ... فأمسك عليك لسانك حتى ان صـــوا دمك كله ... فليس فى وسعك أن تفعل شيئا فى هـــذا لأمر .

وظهر اجنات فجأة ... من أين ؟ لا يدرى أحد ... وقد توجه نحو ييفيم ، وراح يسأله فى صراحة :

– ما هذا الذى تقوله ؟

– أقول ... آ ... أقول ان الاتفاق الذى بيننا لم يشتمل على ... على أن يظل فمى .. مقفلا !

فقال له وهو يمشى بأصابعه خلال لحيته :

– ومن هذا الذى يمص دماء الناس ؟

ولما وجد الصبى أنه قد طب فى ورطة لا يستطيع منها فكاكا ، قذف بالكتلة التى كان ممسكا بهـــا ، ثم مسح يديه فى بنطلونه . وراح يتفرس فى عينى اجنات ويسأله بجراءة :

– حسن ... ألست على حق ؟ ألست تمص دماءنا ؟

– أنا ؟

– نعم .. أنت !

ورأى فوما ذراع أبيه ترتفع فى الهواء ، ثم سمع لطمة تهوى على الصبى فيسقط بشدة على كومة الأخشاب ... وسرعان ما نهض الصبى وعاد الى عمله دون أن ينبس بكلمة . لقد كان وجهه مجروحا والدم يتصبب منه على لحـــاء عرق من خشب البتولا ، وكان يمسح الدم فى كمه ، وينظر الى البقع الحمراء ، ويتنفس من أعماق رئتيه ... لكنه لا يفوه بكلمة ... وحينما مر بفوما والنقالة على كتفه ، لاحظ فوما أن فى عينيه دمعتين غزيرتين تترقرقان فى محاجرهما .

وفى أثناء الغداء ، كان فوما شارد الذهن زائغ العينين ، يخالس أباه نظرات مضطربة خائفة ... مما جعل أباه يسأله فى رقه

— ما الذى يجعلك تنظر عابسا مكتئبا هكذا ؟

— لا شىء !

— ألا تشعر بصحة طيبة ؟

— أنا بخير

— اذا كان بك شىء ، فقل لى

وقال فوما فجأة :

— انك قوى قوة هائلة !

— أنا ؟ أجل .. أنا قوى شيئا ما .. ان الله لم يبخل على فيما وهب لى من القوة ، فى جملة ما وهب لى ، حينما خلقنى .

وصاح فوما بصوت ناعم وهو خافض رأسه :

— يا لها من لطمة تلك التى لطمته اياها !

— أتقصد هذا الولد ييفيم ؟

— نعم . لقد كان الدم يتصبب منه .. وحينما ذهب لعمله كان يبكى !

وكان فوما يقول ذلك بصوت خفيض فيه رنه من الاسى ، فتمتم احنات وهو يقضم شطيرته :

— هم ... أتشعر بالأسف مما لحقه ؟

فقال فوما وصوته تخنقه الدموع : أجل ! وهنا قال أبوه .

— فأنت اذن من هذا النوع من الأولاد الذين يتأثرون بسرعه !

قالها وهو يصب لنفسه كوبا من الفودكا ... فلما جرعها قال بلهجة مثيرة :

— لا داعى لأن تأسف من أجله . لقد استحق ما لحقه لجراءته فى الجهر عما فى نفسه . أنا أعرفه .. انه شاب طيب ، قوى ، مجد

فى عمله ، ذو عقل سليم •• غير أنه ليس من شأنه أن ينطق بكل ما يجول فى رأسه • وليس من حق أحد أن يفعل هذا ، غيرى أنا •• فأنا الرئيس هنا ، وليس من الهين أن يكون الانسان رئيسا — ثم ان هذه اللكمة الصغيرة لن تضره •• بل هى من صالحه • آه يا فوما ••! انك لم تزل صغيرا •• وأنت لا تستطيع أن تفهم الامور على وجهها بعد •• ومن واجبى أن أعلمك كيف تسلك سبيلك فى هذه الحياة ••• ومن يدرى •• فلعل الزمن المتبقى لى فى هذه الحياة ليس شيئا طويلا •

وقد أخذ اجنات يفكر لحظة ••• ثم جرع كوبا آخر من الفودكا قبل أن يصل نصائحه لابنه :

— لا شك أن من الخير أن يستشعر الانسان الرحمة للناس — وهذا يسرنى منك • ولكن يجب أن تعرف متى تستشعر الرحمة ••• وأول ما يجب عليك هو أن تنظر الى الشخص ، وماذا ينطوى عليه ، وما قيمته • فاذا وجدت أنه قوى ومقتدر فلا بأس من أن تدركك الرحمة من أجله وأن تبذل له المعونة والمساعدة ، أما اذا كان ضعيفا و (شغال ردىء) فابصق عليه ووله ظهرك • ثم تذكر ما يلى : اذا وجدت أحدا لا يمل من الشكوى فاعرف أنه لا خير فيه ، ولا معنى للعطف على مثله ، ولا جدوى فى أية مساعدة تبذلها له ••• ولن يزيده اشعارك له بالاسف الا فسادا وتواكلا ••• واشبينك ماياكين يجمع فى داره أصنافا من هؤلاء الذين لا خير فيهم ولا جدوى منهم •• من هؤلاء الصالحات المخرفات والشحاذات والعاطلات وحثالة الخلق وغيرهن ••• فاقذف بهن من فكرك ••• انهن لسن بشرا •• انهن مجرد قواقع فارغة ، ولا جدوى منهن لأحد ••• بل هن بالبراغيث والبق والهوام الأخرى أشبه ، وليس هو الله الذى يخدمنه ويقمن بعبادته ••• فهن لا رب لهن •• بل هن يستخدمن اسمه كى يتغفلن الناس ليعطفوا عليهن ، ويمنحوهن شيئا يملأن به بطونهن ••• فهن لا يخدمن الا بطونهن ، وهن لا يصلحن لعمل شىء الا أن

يأكلن ويشربن ٠٠ ثم ينمن ويحدثن الشخير ٠ انهن يصنعن من أى انسان تريدا٠٠وهن دائما يظهرن لك الضراعة والتذلل،الا أنهن يعطبن من يقترب منهن مهما كان صالحا طيبا ، كما تعطب التفاحة المتعفنة ما حولها من التفاح السليم ٠٠٠ ان المشـكلة هى أنك لا تزال صغير السن بحيث لا تستطيع أن تفهم مرمى كلامى ٠ لا ضير مطلقا فى أن تساعد انسانا لا يقف جامدا مسلوب الارادة أمام مشكلاته ٠٠ وهو ربما لا يسألك المعونة مطلقا ، لكنك اذا رأيت أنه فى حاجة الى المعونة فابذلها له دون أن يسألك اياها ٠٠٠ فاذا كان شخصا فيه كبرياء ، وممن يشعرون بكرامتهم ، ويؤلمه أن تقدم له أية معونة ، فحاول أن تساعده دون أن يشعر هو بذلك ٠ وهذا هو التصرف الوحيـــد الصحيح ٠٠٠ ثم ٠٠ اليك هذا المثال : افرض أن لوحين من الخشب قد سقطا منك فى الوحل ، أحدهما معطوب ، والآخر متين صالح ، فمـــاذا ينبغى لك أن تفعل ؟ ان اللوح المعطوب لا يســاوى شيئا ، فدعه ، وليظل مكانه فى الوحل ، وفى وسعك أن تدوس فوقه لتظل قدماك نظيفتين جافتين ٠٠ ولكن عليك أن تسحب اللوح الصــــالح المتين من الوحل ، ثم تجففه فى الشمس ، وسيصلح للاستعمال ذات يوم ولا بد ٠ فهذا هو ما يجب أن يكون يا بنى ، فاستمع لما أقول ، واجتهـــد أن تتذكره دائما ٠ ان شعورك بالأسف من أجـــل ييفيم لا معنى له ـ انه فتى مجد ، وهو يعرف قيمة نفسه ، وأنت لا يمكنك أن تقضى على ما فيه من حيوية بضربة تنزل بهـــا على أم رأسه ٠٠ ولسوف ألقى بالى اليه أسبوعا أو نحوه ، وبعد ذلك سأصعد به الى مكان القيادة ، وقبل أن تلاحظ أنت ذلك ٠٠ سيصبح مرشدا ،فاذا أنا جعلت منه ربانا ، فسيكون ربانا ماهرا ٠ وهذه هى الطريقة التى يصبح بها الانسان شيئا ما ٠٠٠ هذه هى المدرسة التى تربيت فيها ٠٠٠ وكم من لكمة تلقيتها حينما كنت فى مثل سنه ٠٠٠ ان الحياة يا بنى ليست بالنسبة لأى مخلوق هذه الأم العطوف التى تتصورها ٠٠٠ انها رئيس الاعمال المتجهم الكالح الوجه !

وظل اجنات يتحدث الى ولده مدة ساعتين عن شبيبته وعن الاعمال التى كان ينهض بها ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن القوة المخيفة الكامنة فيما نحسبه ضعفا ، وعما يميل اليه بعض الناس من التظاهر بسوء البخت لكى يستطيعوا بذلك أن يعيشوا على حساب غيرهم . ثم يعود فيتكلم عن نفسه من جديد ، فيخبره كيف استطاع أن يرتفع من عامل بسيط الى صاحب مشروع تجارى ضخم .

وبينما كان الطفل جالسا وعيناه مسمرتان فى وجه أبيه ، واعيا لكل كلمة يقولها كانت وشيجة من القربى تدنيه منه ، لم يكن يحس بها من قبل ، لقد كان ما يقصه عليه أبوه يفتقر الى الجاذبية التى كانت تتسم فى قصص العمة أنفيسا ، الا أنه كان شيئا جديدا ، الا أنه كان أوضح وأشد بيانا ، وأيسر على الفهم من أساطيرها ، دون أن يكون أقل تشويقا ... لقد خفق قلبه الصغير خفقانا سريعا وعنيفا ، وشعر به يقترب من أبيه ... ولا بد أن اجنات قد تبين هذا فى عينى ابنه ، وآية ذلك أنه نهض فجأة ، ثم تناوله فى ذراعيه ، وراح يضمه الى صدره ، فما كان من فوما الا أن لف ذراعيه الصغيرتين حول عنقه ، ثم أسند خده الى خد أبيه ، حيث ظل هكذا دون أن ينبس .

وهنا ، أخذ أبوه يهمهم :

— ياولدى ! يا حياتى وبهجة دنياى ... تعلم عن أبيك ما دام هو معك .. ان الحياة ليست شيئا هينا !

وقد أثارت هذه الكلمات المهموسة غصة فى قلب الطفل ، فشد على أسنانه ، وطفرت الدموع من عينيه حارة سخينة .

★ ★ ★

والآن ... هاهى ذى السفينة مصعدة فى الفولجا من جديد . وقد وصلوا الى قازان فى ليلة من ليالى يوليو ، تحت سماء ملبدة

بالغيوم الداكنة ، وفى سكون كئيب كان يلف النهر من كل جانب . فألقوا مراسيهم عند أسلون ، فى ذيل قافلة طويلة من السفن • وكان فوما نائما ، فاستيقظ على قرقعة سلاسل المرساة ، وعلى صيحات العمال ، ثم أطل من نافذة قمرته ، فلم يستطع أن يتبين شيئا ، الا بعض الأضواء الخافتة فى ظلام البعد ، والا الماء الذى كان حالكا ثقيلا كحلكة الزيت وثقله ••• وقد خفق قلب الطفل من الرهبة ، فصك أذنيه وجلس صامتا ••• ثم ترددت من بعد أغنية حزينة تترقرق بالدمع كأنها ترتيلة متوسل • وكان حراس السفن ينادى بعضهم بعضا فى هذه القافلة ، وكان هسيس البخار العادم الذى تطلقه البواخر الراسية يشق ظلام الليل ، والمياه السوداء تنقر جوانب السفن نقرا لطيفا حزينا • وكان فوما يحدق فى الظلام تحدية ممعنا مجهدا لعينيه فتتراءى له أخيلة سوداء لها أهداب من النور وكان يعرف أنها صنادل نقل ، الا أن معرفته بشئون المراكب لم تجعله يتثبت مما يرى •• ومن ثمة فقد كان قلبه يسرع فى نبضه ، وظل خياله يهيىء له صورا كابية ، وتهاويل مفزعة •

ثم سمع من بعد صوت نشيج طويل ينتهى بما يشبه البكاء •• يتردد هكذا :

« أو •• أ ••• أو ••• » واذا بعضهم يعبر ظهر السفينة •

ثم تردد النشيج ثانية •• الا أنه هذه المرة كان أوضح وأقرب

ونادى الشخص الواقف على الظهر يقول بصوت منخفض :

— ييفيم •• عليك اللعنة •• قم •• استيقظ هات المرساة !

ولكن النشيج كان قريبا جدا هذه المرة ، مما جعل فوما يثب من مكانه عند النافذة ، ورعشة شديدة سارية فى جسمه •

ثم اقترب الصوت الغريب أكثر وأكثر ، وجعل يعلو مرة ، وينخفض أخرى ، متلاشيا فى الظلام •• وهنا تتردد صوت خائف فوق الظهر وهو يهمس :

— ييفيم ! انهض ! ان ضيفا يسبح قريبا منا .

وما كان من ييفيم عندما سمع ذلك الا أن سأل مسرعا :

— أين !؟

وهنا سمع وقع أقدام عارية تدب فوق ظهر السفينة ، ودبدبة وجلجلة ، ثم اذا فوما يلمح مرساتين تهبطان الى الماء بالقرب من نافذته ، ثم تقعان فى الماء الثقيل دون أن تحدثا صوتا تقريبا .

وأخذ بعضهم يولول من قرب قائلا : « ضـ .. يـ .. ف » ثم تبعت هذا طربشة صغيرة فى الماء .

وقد جعل هذا النشيج الباكى جسم فوما ينتفض من الفزع ، الا أنه لم يجعله يسحب يديه من حديد النافذة ، ولا يحول عينيه عما يجرى فى الماء .

« أشعل مصباحا ... انى لا أستطيع أن أرى شيئا ! »

وفى الحال كانت دائرة من الضوء الخافت تنتشر فوق الماء . وقد لاحظ فوما أن الماء يعلو ويهبط قليلا ، والأمواج الخفيفة تنتشر فوق صفحته كأنما كان ينتفض ألما .

وهنا سمع من يقول بصوت مفزوع :

« انظر .. انظر .. »

لقد كان يسبح فى دائرة النور وجه انسان مرعب ذو أسنان كبيرة بيضاء ذات تكشيرة بادية ، وكان الوجه يعلو ويهبط وهو يمر بالسفينة ... وكانت الأسنان كأنها تتفرس فى وجه فوما ، وتقول :

« آه ، أيها الولد الصغير .. أيها الولد الصغير .. ان الماء بارد هنا » .

ثم اهتزت المرساتان ، وشدتا الى أعلى ··· ثم أسقطتا فى الماء ثانية ·

— ادفعهما بعيدا ·· خذ بالك منهما ·· خذ حذرك ·· يجب ألا تشتبكا فى العجلة القلابة فى مؤخرة السفينة ·

لقد كانت المرساتان تخبطان جانب السفينة فتحدثان صوتا كصرير الأسنان ، ثم أخذت دبدبة الأقدام العارية تبعد قليلا قليلا نحو مؤخر السفينة ، ومن هناك عاد صوت النشيج من جديد :

« أو ·· أ ·· أو ·· ؛ ضد ·· يه ·· ف ··! »

وهنا صاح فوما :

— بابا ·· بابا!··

وقفز أبوه ثم أسرع اليه ·

وصاح فوما ثانية : — ما هذا ؟ ماذا يفعلون ؟

وزأر اجنات زأرة متوحشة ، ووثب خارج القمرة فى خطوات ثلاث ، ثم عاد سريعا ·· حتى قبل أن يرتد بصر فوما من النافذة الى سرير أبيه

وقال له أبوه :

— هل أخافوك يا بنى ؟ انهم لا يفعلون شيئا ··· تعال ·· نم معى فى سريرى ·

ثم أخذه ملء ذراعيه ·· وفوما يسأله هامسا :

— ماذا يصنعون ؟

— لا شيء يا بنى ·· لا شيء ·· لقد غرق واحد من الناس »

وذهبت جثته تطفو على الماء ··· هذا كل شىء ·· فلا تنزعج ·· فالجثة بعيدة من هنا الآن

وسأله فوما وهو يتشبث به ، ويغمض عينيه :

ـ ولكن ·· لماذا كانوا يدفعون به بعيدا

ـ أو ·· كان يجب أن يفعلوا هذا ·· لأن الجثة لو علقت بالمراوح ·· لوجب أن نسأل عن ذلك ·· ان البوليس قد يراها ، ويحدث لنا كثيرا من المتاعب ·· ويدخل معنا فى سين وجيم ـ وقد يقبض علينا ويعطل أعمالنا ، ولهذا فقد دفعوا بالجثة بعيدا ··· ثم ماذا يضير الميت هذا ما دام قد مات بالفعل ؟·· ان هذا لا يلحق ضررا بجثته ولا بمشاعره ، لكنها يمكن أن تحدث لنا نحن كثيرا من المتاعب ·· اطمئن يا بنى ·· ونم ملء عينيك ·

ـ وعلى هذا فسيترك طافيا هكذا ؟

ـ قليلا من الوقت ، حتى يخرجه أحد من الماء ويدفنه

ـ ألا يأكله السمك ؟

ـ السمك لا يأكل لحم الآدميين ··· أما السراطين فتأكله

وأفرخ روع فوما قليلا ··· لكنه لم يزل تنتابه أشباح هذا الوجه المرعب ، بأسنانه العارية تعلو وتهبط فوق صفحة الماء الاسود ·

ـ ترى من كان هذا الغريق ؟

ـ الله وحده يعلم ·· اسأل الله أن يشمل بالسلام روحه ·

وهنا همس فوما :

ـ أيها الله الرحيم ·· اشمل بالسلام روحه ·

ـ عال ·· والآن تستطيع أن تنام ولا تخشى شيئا ·· لقد أصبح الآن بعيدا ··· بعيدا جدا من هنا ··· ماضيا فى طوفانه ···

وليكن فى هذا درس لك ••• فحاذر عندما تقترب من الدرابزين فقد تسقط فى الماء •• لا قدر الله ••• و •••

ـ وهل سقط هو فى الماء ؟

ـ نعم •• ربما كان سكران •• وربما يكون قد ألقى بنفسه فى الماء لسبب ما ••• كما يصنع الناس أحيانا ••• والحياة مثل هذا ••• ان الموت قد يكون بركة للانسان ونعمة ••• وربما كان موت بعض الناس بركة ونعمة للناس جميعا ••

ـ بابا •••

ـ هلم فنم •• يا ولدى •

الفصل الثالث

وذهب فوما الى المدرسة ·· وقد بهره هذا الزئيط الفظيع الذى كان الأولاد يحدثونه فى أثناء لعبهم ومرحهم ·· وفى اليوم الأول من التحاقه بها لم يلبث أن اكتشف بين لداته تلميذين كانا يبدوان أكثر ظرفا من غيرهما ، وكان أحدهما يجلس أمامه مباشرة ، ولم يكن يتمالك من النظر الى ظهره العريض ، وعنقـــه الغليظ الكثير النمش ، والى أذنيه الكبيرتين ، ورأســـه المربع المغطى بوبرة من الشعر الأحمر اللامع ·

وحينما نادى المدرس الاصلع ذو الشفة السفلى البارزة : «سمولين الافريقى» وقف الولد ذو الشعر الاحمر متثاقلا ، ثم مشى الى مقدمة الحجرة ، وجعل ينظر فى هدوء الى عينى المدرس حينما كان يقرأ له مسألة الحساب ، ثم تناول قطعة من الطباشـير وراح يكتب أرقاما كبيرة مستديرة على السبورة بمنتهى الدقة ·

وقال المدرس بعد قليل :

ــ حسن ··· كفاية ··· نيقولاى يزهوف ·· هلم ·· أكمل المسألة ·

وهنا يثب تلميذ صغير ملول بادى التبرم ، تشبه عيناه الحادتان السوداوان عينى فأر متربص ، ثم يترك التختة التى يجلس عليها مع فوما ، ويمضى فى الممر مصطدما بكل شىء فى طريقه ، مديرا رأسه من جهة الى جهة ، حتى اذا وصل الى السبورة خطف قطعة الطباشير خطفا ، ثم شب على أصابع قدميه وطفق يخربش أرقاما صـــغيرة

لا يمكن قراءتها ، وهو يضغط على الطباشيرة ضغطا شديدا يجعلها تصر وتتفتت . ويجعل المدرس يعقف وجهه الاصفر كالذى يشكو من ألم ، فيخاطبه قائلا :

ــ على مهلك .. على مهلك .. ليس سريعا هكذا !

ويجيبه يزهوف مجلجلا بصوته المرتفع :

ــ الجواب هو : التاجر الأول حصل على ربح قدره سبعة عشر كوبكا .

ــ كفاية ! جوردييف ! كيف يمكننا أن نعرف مقدار الربح الذى حصل عليه التاجر الآخر ؟

لقد كان فوما مستغرقا فى ملاحظة هذين التلميذين اللذين يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ، حتى لقد فوجىء بالسؤال ولم يستطع أن يجيب .

ــ ألا تعرف ؟ قل له يا سمولين !

وكان سمولين منهمكا فى تنظيف أصابعه من آثار الطباشير بخرقة صغيرة ، فلما سمع المدرس يخاطبه ، وضع الخرقة فى الصندوق ، ثم راح يكمل المسألة ، فلما أكملها أخذ ينظف أصابعه من جديد ، على حين كان يزهوف يمضى الى مقعده الى جانب فوما ، وما كاد يجلس فيه حتى لكز فوما لكزة خفيفة وهمس اليه قائلا :

ــ ماذا ؟ لماذا لم تستطع أن تجيب ؟ ماذا كان مجموع الأرباح كلها . ثلاثين كوبكا . وكم تاجرا ؟ اثنان ! أحدهما ربح سبعة عشر ... فكم يربح الآخر ؟!

ــ أنا عارف ..

وقد تمتم بها فوما فى اضطراب وهو يلاحظ سمولين يمضى الى مقعده رزينا رابط الجأش .. لقد كان يكره وجه سمولين .. هذا

الوجه المستدير الكثير النمش ، بعينيه الزرقاوين المدفونتين فى لجة من الشحم . ورفس يزهوف رحل فوما رفسة مؤلمة ، وسأله قائلا :

ـ من أبوك ؟ أبو كيفه ؟!

ـ آ .. ها ! اسمع ، هل تريد أن أقول لك كل الاجوبة ؟

ـ نعم !

ـ وماذا تدفع لى مقابل ذلك ؟

وفكر فوما لحظة ؛ ثم قال :

ـ وهل تعرف كل الاجوبة ؟

ـ أنا ؟ أنا أول الفصل يا سيدنا !

وسمعهما المدرس فنادى بهما :

ـ أنتم .. هناك .. ممنوع الكلام .. أهو أنت يا ييزهوف ؟

ووثب ييزهوف على قدميه وقال بطلاقة :

ـ لست أنا يا ايفان آندرييفتش .. انه جوردييف !

وهنا قال سمولين :

ـ لقد كانا كلاهما يتكلمان .

ويعقف المدرس وجهه الاصفر مرة ثانية ، ويدلدل شفته السفلى البارزة بشكل مضحك ، وينتهر التلاميذ الثلاثة ... الا أن انتهاره لم يمنع ييزهوف من الهمس ، ويقول لسمولين :

ـ لا بأس يا سمولين .. لن أنساها لك ! يا فاضح الأسرار !

ويجيبه سمولين دون أن يدير اليه وجهه :

ـ لماذا تلقى اللوم على التلميذ الجديد ؟

فهمس ييزهوف متوعدا :

ـ سترى ٠٠ سترى !

أما فوما فلم ينطق بكلمة ، ولم يزد على أن جعل يرنو بطرف عينه الى جاره الظريف ، وهو يعتقد أن من الخير أن يظل بعيدا عنه قليلا ٠٠ بالرغم مما فيه مما يجذب ٠

وفى أثناء الفسحة أخـــبره يبزهوف أن سمولين هو أيضا ولد غنى ـ وأنه ابن صاحب مصنع دبغ الجلود ـ لكنه هو نفسه ، أى يبزهوف ، ولد فقير ، وأن أباه خفير فى المالية ٠ وكان واضحا أنه فقير بالفعل ، فقد كانت ملابسه مصنوعة من الكســتور الرمادى ، ومرقعة عند الركبتين والكوعين ، وكان وجهه معروقا ممتقعا أصفر اللون ، وكان جسمه هزيلا ، وجلدا على عظم ٠ وكان يتكلم بصوت خفيض له رنة معدنية ، يؤكده على الدوام بالغمزات واللمزات ،وكان يكثر من استعمال الكلمات التى لا يعرف معناها الا هو فقط ٠ وقد قال لفوما :

ـ اننى ، أنا وأنت ، سنكون أصحابا !

ولكن فوما نظر اليه فى توجس وانقباض ، ثم سأله :

ـ ولكن لماذا وشيت بى عند المدرس ؟

ـ أو ٠٠ هوه ! وماذا فى ذلك ؟ انك تلميذ جـــديد وغنى ٠٠٠ والمدرس يتساهل دائما مع التلاميذ الأغنياء ٠٠٠ أما أنا ، فتلميذ فقير ، وهو لا يحبنى لكثرة ثرثرتى ، ولأنى لا أقدم اليه هدايا مطلقا ٠٠٠ ولو لم أكن تلميذا مجدا لقذف بى من المدرسة من زمان طويل ٠٠ ألا تدرى ؟ اننى سأشتغل بمعهد الرياضة البدنية بعـــد أن أنتهى من الدرس هنا ، وسيتم ذلك بمجـــرد أن أنتهى من الصف الثانى ٠ وأحد طلبة المعهد يمرننى ٠٠ ولا بد لى من أن أبذل جهدى فى الدراسة حينما أكون هناك ٠ لابد ! كم حصانا عندكم ؟

ـ ثلاثة ٠٠٠ ولكن ٠٠ لماذا يجب أن تبذل كل هذا الجهد فى الدراسة ؟

- لأننى فقير ·· والتلاميذ الفقراء يجب أن يستذكروا بجد واجتهاد ، لكى يصبحوا أغنياء هم أيضا ·· انهم سيصبحون أطباء وضباطا وموظفين ·· وأنا أحب أن أكون فارس سوار ·· السيف الى جانبى ، والمهماز فى حذائى ·· وحينما أمشى يسمع الناس خطواتى : طك ·· طك ·· طك ··· وأنت ·· ماذا تحب أن تكون ؟

- لا أعرف ··

قالها فوما بصوت ملجلج ، وهو يتفرس فى زميله ، كأنه يدرسه ·

- ألا يجب أن تكون شيئا ؟ هل تحب الحمام ؟

- ن ·· نعم ·

وقال ييزهوف وهو يقلد لجلجة فوما :

- يا لك من مغفل صغير ! ن ·· نعم ·· ل ··· لا ··! وكم حمامة عندكم ؟

- ولا واحدة !

- هل ترى ؟ أغنياء ، وليس عندكم ·· ولا حمامة ! ان عندى ثلاث حمامات ، حمامة من النوع الهزاز ، وحمامة رقطاء ، وحمامة شقلباظ ·· ولو كان أبى غنيا لاقتنيت مائة حمامة ، وأطلقتها فى الهواء تطير طول النهار · سمولين عنده عدد لا بأس به ··· أربع عشرة ، وهو الذى أعطانى الحمامة الشقلباظ ··· ومع هذا ·· فهو ولد بخيل ··· وكل الاغنياء بخلاء ، فهل أنت بخيل أيضا ؟

- أنا ·· لا أدرى !

- يمكنك أن تأتى الى الحى الذى يسكن فيه سمولين ، ويمكننا نحن الثلاثة أن نطارد الحمام ·

ـ لا بأس ·· ولكن اذا سمحوا لى بذلك ·

ـ ولم لا ؟ ألا يحبك أبوك ؟

ـ انه يحبنى

ـ اذن فسيسمح لك ··· ولكن لا تقل له اننى سأكون هناك أنا أيضا · فربما يمنعك من الحضور اذا عرف ·· قل له انك ذاهب الى سمولين ·· هل تسمع ؟ الى سمولين !

وهنا ، أقبل الولد السمين ، فحياه ييزهوف بايماءة من رأسه ثم ناداه :

ـ أنت يا نمام يا أبا رأس أحمـر ·· هو ··· كيف يسـتطيع صديق أن يربط أسباب وده بأسباب ودك يا عجوز يا أبا زلط !

وحدجه سمولين وقال له فى رباطة جأش :

ـ بماذا تجعجع !

وأجابه ييزهوف وهو يقمز بكل جسمه ليثير ثائرة سمولين :

ـ أنا لا أجظجع ·· وأنا لا أقول الا الحق ·· اسمع : فوما وأنا ، سنحضر اليك يوم الأحد بعد الصلاة ، حتى لو كنت فتة باردة !

فأومأ سمولين قائلا : ـ تفضلوا !

ـ سـنحضر ·· وعن اذنكم ·· فلم تبق الا دقيقـة واحدة على الجرس ·· وأريد أن أبيع هذا العصفور أولا ·

قال هذا ييزهوف ثم أخرج كيسا من الورق من جيبه بداخله شىء يخشخش ·· ثم انفتل كالزئبق ·

وعند ذلك أخذ فوما يتابعه بنظراته ، مأخوذا برشاقته وهو يقول: « هو ··· هو ·· ه ! »

وقال الولد ذو الرأس الأحمر مستجيبا لملاحظة فوما :

ـ وحاذق سريع الفهم !

ـ وظريف أيضا !

ـ أو ٠٠ هوه !

ونظر كل منهما الى الآخر هنيهـــــة دون أن يتكلما ٠٠ ثم قال صاحب الرأس الأحمر :

ـ هل ستأتى لزيارتى معه ؟

ـ نعم ٠

ـحسن ٠٠ ان حينا حى جميل

ولم يتكلم فوما ٠٠ فسأله سمولين :

ـ هل لك أصحاب كثيرون ؟

ـ ولا صديق واحد !

ـ وأنا أيضا ٠٠ لم يكن لى أى صديق حتى التحقت بالمدرسة ٠٠ أى صديق ٠٠ الا أبناء أعمامى ٠٠ والآن ٠٠ لقد صار لك صديقان

ـ أجل ٠

ـ ما أظرف أن يكون للانسان أصدقاء ! ٠٠ وهذ ايجعل الدرس أسهل ٠٠ انهم يقولون للانسان الأجوبة !

ـ وهل أنت شاطر فى دروسك ؟

ـ أنا ؟٠٠ أنا شاطر فى كل شىء !

وقالها سمولين بوجه باش

وأخذ الجرس يصلصل ·· ثم يخف صوته كالخائف الجزع ·

والآن ·· كان فوما يشعر بطمأنينة أكثر بعد عودته الى الفصل مرة ثانية ، ثم بدأ يقارن بين صديقيه الجديدين وبين بقية التلاميذ الذين فى الفصل ·

ولم يلبث أن قر رأيه على أنهما خير تلاميذ المدرسة جميعا ، وأنهم يبلغان فى بروزهما بين تلاميذها بمقدار ما يبرز الرقمان ٥ ، ٧ فوق السبورة (!) ومن ثم فقد سره أن يكون هـذان التلميذان ، وهمـ أحسن تلاميذ مدرسته ، صديقيه الحميمين ·

وعندما انتهى اليـوم المدرسى ذهب الثـلاثة الى منازلهم معا ، وسرعان ما دخل بيزهوف حارة جانبية ضيقة ··· أما سمولين فقد مشى مع فوما الطريق بطوله ··· وقبل أن يفترقا ، قال لصاحبه :

ــ هل ترى ؟ اننا نستطيع أن نمشى معا الى المدرسة أيضا !

ولما وصل فوما الى المنزل لقيه الجميع بالتحايا وبالهيل والهيلمان! فلقـد أتحفه أبوه بملعقة كبيرة فضـية ، فيها طغراء متقنة · كمـا أتحفته عمته بكوفية من التريكو ، من صنع يديها ·· ثم جلسوا الى غدائهم بمجرد أن خلع فوما ثيابه ··· وكان الغداء يتكون من أطباقه المفضلة ··· ثم أنشأ أبوه وعمته يلاحقانه بالأسئلة

فهذا أبوه ، الذى كان يحدق مسرورا محبورا فى خـدى ولده الموردين وعينيه المتلألئتين ، يسأله قائلا :

ــ هيه ·· وكيف أحببت المدرسة ؟

ويجيبه فوما :

ــ أحببتها كثيرا ··

وقالت عمته فى لهفة وشغف :

– يا قلبى ! خــذ بالك ‥ واحــذر الأولاد ‥‥ واذا حاولوا أن يضروك بشىء فاذهب الى المدرس فى الحال وقل له ·

ولكن اجنات زام قائلا :

– لا لا ‥ اياك وهذا ‥ لا تصغ اليها يا فوما ، بل خذ حقك بيمينك دائما ‥‥ أذق الأولاد طعم قبضتك ‥‥ وعلى فكرة ‥ هل هم أولاد ظرفاء ؟

– نعم

ثم ابتسم فوما وهو يتذكر وجه ييزهوف ، ثم أردف قائلا :

– ان أحدهم من أظرف الناس جميعا ‥‥ لن تقع العين على ألطف منه ·

– ابن من هو ؟

– ابن أحد الخفراء

– وتقول انه ظريف ؟

– وفيه شىء من الشراسة

– عال عال ‥ والآخر ؟

– والآخر ولد ذو رأس أحمر ‥ اسمه سمولين ·

– آه !‥ هذا ولا بد ابن ديمترى ايفانوفتشي ‥‥ اتخذ منــه صديقا لك ‥ فهو من مستواك ‥ ان ديمترى رجل واع ، واذا كان ابنه سيكون مثله ‥ يكون ولدا طيبا ‥ أما هذا الولد الآخر ‥ فهو ما سوف ننظر فى أمره ‥ فوما ‥ ادعهما لزيارتك يوم الأحد ‥ وسأشترى بعض الأشياء الطيبة لنقدمها اليهما ‥وسنلقى نظرة عليهما ·

- ولكن سمولين دعاني لزيارته يوم الاحد !

وراح الولد ينظر في وجه أبيه في شيء من الحيرة والقلق :

- أوه ٠٠ أحدث هذا ؟ هل دعاك حقا ؟٠٠ اذن فاذهب اليه٠٠ نعم اذهب اذهب ٠٠ فلا بد لك من التمرس بجميع أهل هـــذه الدنيا بمختلف طبقاتهم ٠٠ والانسان لا يستطيع أن يعيش في دنيا وحده٠٠ دون أن يكون له صـــديق ٠٠ هأنذا مثـــلا ٠٠ لقد كنت صديقا لاشبينك ماياكين لمدة تزيد على عشرين سنة ٠٠ وقد أفادني أيما فائدة بالكثير الثمين من آرائه ٠٠ وعليك أن تكون كما كان أبوك ٠٠ حاول أن تصادق من هم أحسن وأكثر اجتهادا منك ٠٠ احتك بالصديق الصالح مدة من الزمن ، كما تحتك قطعة النقود النحاسية بقطـــعة فضية ، فلا تلبث أن تصبح فضة مثلها ٠

وضحك اجنات ، وقد خامره السرور بتشبيهه ، ثم أردف :

- ولكنني أمزح ٠٠ فحاول أن تكون أنت الاصل لا التقليد ٠٠ الفضة ٠٠ لا النحاس ٠٠ عش بمخك أنت ، حتى لو لم يكن لديك ذكاء ٠٠ والآن ٠٠ هل كلفوك كثيرا من الواجبات المنزلية ؟

وتنهد فوما قائلا : « كثير جدا » وقد رددت عمته تنهدته :

- اذن فلا بد من عمل هذه الواجبات ٠٠ ولا يصح أن تتأخر عن أقرانك ٠ وبهذه المناسبة يطيب لي أن أذكر لك أنك لن تتعلم في تلك المدرسة الا القراءة والكتابة والحساب ٠٠ ولو أقمت فيها عشرين عاما ٠٠ أوه ٠٠ نسيت أن أقول الا أن تتعلم الاشياء السيئة ، فكان الله في عونك اذا حدث لك هذا ٠٠ اذن ٠٠ أعطيك علقة طيبة ! أما اذا شرعت تدخن التبغ ، فلسوف أشق لك شفتيك !

وتدخلت عمته تقول :

- وليعمر قلبك بالخوف من الله يا فوميكا !لا تنس الله أبدا !

وهنا عاد والده يقول :

ـ هذا حق ·· خف الله واخش أباك ! الا أنني كنت أريد أن أقول ان الكتب المدرسية ليست كل شيء · وأنت لن تحتاج اليها الا كما يحتاج النجار الى عدده ، فارجع اليها كما يرجع هو الى مطرقتـــه ومنشاره ، ان هذه الكتب هي عددك ·· الا أن العدد لا تستطيع أن تعلمك الغرض الذى خلقت من أجله ، وفيم تستعمل ·· فافهم ذلك ·· ولكي تدرك الأمر على وجهه ، دعنا ننظر ماذا يصنع النجار اذا أعطى بلطة وكلف أن يلحو (١) كتلة من الخشب ·· فهذه عملية لا يكفى فيها أن يكون للنجار يدان وبلطة ليقوم بها ، بل لا بد أن يكون قد حصل على الدراية بطريقة استعمال البلطة حتى لا يضرب قدميه بدلا من أن يضرب الخشب ·· وهذا نفسه ينطبق عليك وعلى كتابك ، فليس يكفى أن يكون معك كتاب ، بل يجب عليك أن تعرف كيف تستعمل الكتاب ·· وهذه المعرفة فيها فائدة أكثر من أى كتاب ·· وأنت لا يمكنك أن تحصل عليها من أى كتاب · والحياة هي الشيء الوحيد الذى يستطيع أن يعلمك هذا يا فوما · فالكتاب شيء ميت ، وهو لن يصيح من الألم مهما عصرته وضغطت عليــه ، أو ثنيته أو مزقته · أما الحياة فشيء آخر ، لأنك اذا خطوت خطوة خاطئة ، أو حللت محلا ليس لك أن تحل فيه ، تصايح الناس بك من كل جانب ، بل ربما أوسعوك ضربا بالهراوات حتى تخر ولا حراك بك ·

وكان فوما جالسا ومرفقاه الى المـائدة ، يصغى فى انتباه تام ، وحينما كان صوت أبيه يهدر كان يخيل لنفسه طرق النجار ببلطته فى لحاء الخشب ·· ثم يخيل لنفسه بعد ذلك جسمه وهو ممدود على الأرض الخداعة ، ويداه مبسوطتان يزحف نحو شيء حى ضخم يريد أن يتشبث به ، وان قلبه خلع من الرعب فزعا منه !

---

(١) Bark لحا الشجرة يلحوها لزال قشرتها ·

— ان من واجب الانسان أن يأخذ باله من نفسه ، من أجل العمل نفسه الذى كلف القيام به ، ويجب أن يعرف تماما طريقة القيام به ومباشرته . ان الانسان أشبه شيء بمرشد السفينة . وهو فى شبابه، أشبه بالنهر فى فيضانه ، يمكنه أن يسوس سفينته الى وجهتها الصحيحة ، وفى الطريق السوى ، لأن النهر عميق فى كل مكان عمق الشباب نفسه .. الا أن لكل شيء ابانه ! والانسان اذا ولى شبابه فلا بد له من الحيطة والحذر .. فالفيضان اذا انتهى أخذ ماء النهر يهبط الى مستواه ، ويكون واجب مرشد السفينة أن يتحسس طريقه ، ويحذر الصخور والنتوء والمياه الضحلة ، فيستدير حولها حتى يصل بسفينته الى بر الامان » .

ولا يكاد اجنات يصل من حديثه الى هذا الحد ، حتى يقول فوما فى كبرياء وثقة :

— لسوف أصل الى بر الامان سالما !

ويضحك أبوه قائلا :

— حقا ؟ يا لك من شجاع !!

وتضحك عمته ضحكة رقيقة هى أيضا .

* * *

لقد أصبح فوما منذ تلك الرحلة التى صحب فيها أباه على نهر الفولجا أكثر نشاطا ومرحا ، وأكثر ثرثرة أيضا فى حضرة والده وعمته وفى حضرة مايا كين . أما اذا كان بين الناس ، خارج المنزل ، فقد رأيته لا يجد طريق لسانه .. لقدكان ينطوى على نفسه ، ثم لا يفتأ يقلب فى الناس عينيه ، كأنما يشم فى جوهم روحا عدائية .. أو كأنما فى أغوارهم شيء مختبيء يتربص به !

وكان يصحو أحيانا فى منتصف الليل ، ثم يرقد طويلا مصغيا الى صمت العالم الذى حوله ، ومحدقا بعينيه فى ظلماته ٠٠ وكانت الأمور التى حدثه أبوه عنها ربما ثارت أمام ناظريه فى شريط من الرؤى المتتابعة ، وكان يخلطها ، دون أن يدرى ، بمناظر من الأساطير التى قصتها عليه عمته ، مما تكون نتيجته مزيجا تندمج فيه ألوان الوهم الصارخة بأصداء الواقع الرزينة اندماجا غريبا ٠ لقد كانت تؤلف شيئا ضخما ومحيرا ٠٠ وكان ربما أغمض عينيه عسى أن يطرد تلك الرؤى عنهما ، وعسى أن يقف تيار الوهم الذى أثار فى نفسه الخوف ٠٠ لكنه لم يكن يستطيع النوم ٠٠ وكانت الغرفة لا تزداد الا أشباحا ٠٠ وعند ذلك كان ربما نادى عمته بصوت خافت :

ــ عمتى ٠٠ عمتى ٠٠

ــ ايه ٠٠ ماذا حدث ؟

فيقول هامسا :

ــ هل آتى لأنام معك ؟

ــ لماذا ؟ نم يا حبيبى ٠٠ نم ٠

ــ أنا ٠٠ خائف !

ــ قل : تعالى الله ٠٠ وكررها فى سرك عدة مرات ، فلن تشعر بأى خوف ٠

وكان فوما يغمض عينيه ، ثم يأخذ فى ترديد التسبيحة فى سره٠ لقد كان يخيل اليه أن صمت الليل وسكونه أشبه بمدى لا نهاية له من الماء الاسود الراكد ركودا تاما ٠٠ وكان يغطى كل شىء ٠٠ وليس على سطحه أية اهتزازة ٠٠ أية حركة مهما كانت ضعيفة ٠٠ بل لم يكن فى الماء شىء قط ، بالرغم من عمقه الذى يشبه عمق البحر ٠٠ وكان شيئا مزعجا أن يكون وحيدا فريدا هكذا ٠٠ لا أنيس له ولا من يذهب وحشته ٠٠ محملقا وسط هذه الظلمات فى هذا الماء الميت ! ثم يرسل

حارس الليل جلجلة فى السكون فجأة ·· فيرى الولد سطح الماء يهتز ، ويلمح كرات صغيرة وضاءة تثب على وجهه وتغطيه بحباب كثير ·· ثم يرن ناقوس ساعة البرج معلنا الوقت ، فينداح الماء ·· ويظل زمنا طويلا وهو يموج بسبب رنين دقات الساعة ·· ثم تسقط شعاعة من الضوء على سطحه ·· وتظل تتسع حتى تتلاشى فى حواشى الظلال · ومرة ثانيه تنتاب فوما تلك الكآبة الموجعة التى يثيرها ذلك المدى الاسود ، فيضرع الى عمته وهو يصر بأسنانه :

— عمتى !

— ماذا ؟

— أنا جى !

— تعال ·· تعال يا حبيبى !

فاذا صعد الى سريرها ، لصق بها وقال :

— قولى لى حكاية !

وتقول عمته معترضة ، وبصوت ناعس :

— فى وسط الليل !

— أوه ·· من فضلك !

ولم يلح عليها طويلا ، فقدتثاءبت المرأة العجوز ، ثم أغمضت عينيها وبدأت تجر صوتها الناعس وهى تقول :

— فى مرة من المرات ، وفى بلاد بعيدة جدا كان يعيش رجل مع امرأته ، وكانا فقيرين أشد ما يكون الفقر ·· وكان يبلغ من فقرهما ألا يجدا شيئا يطعمانه · وكانا يخرجان فى كل صباح ليسألا الناس احسانا ·· ولم يكن لهما غذاء الا هذه الكسر من الخبز التى كان الناس يجودون بها عليهما ·· وبعد مدة من الزمن ولد لهما ولد · ولما يولد لأى انسان ولد فلا بد من تعميده · الا أنهما كانا فقيرين

لا يستطيعان اقامة وليمة للاشبين والضيوف في حفلة التنصير ، ومن ثمة فلا يمكن أن يجدا أحدا يكون اشبينا للمولود ٠٠ وجعلا يترددان على الناس ٠٠ على هذا مرة ، وعلى ذاك مرة ٠٠ لكن أحدا لم يرض أن يكون اشبينا ٠٠ ولهذا أخذا يصليـــان لله : « يا ربنا ٠٠ يا اله السموات »

وكان فوما يعرف قصة تعميد السيد المسيح ٠٠ تلك القصـــة الرهيبة : لقد سمعها مرات كثيرة ٠٠ ولم تكد عمته تبدؤها حتى تخيل المسيح الطفل راكبا حصانا أبيض ، وهو يبحث عن اشبين واشبينة ٠٠ وهو يسير فى الظلام فى البرية ، حيث رأى الملعونين يقاسون العذاب ، وسمع توسلاتهم وصلواتهم :

« آه أيها الآدمي الفاني ، اسأل ربك حينما تلقاه ، كم من الزمن سوف نبقى فى هذا العذاب أكثر مما بقينا ؟! »

وقد خيل لفوما أنه هو آلذى كان يركب الحصان الابيض ، وأنه هو الذى وجهت اليه تلك التوسلات وهذه الصلوات ٠٠ فخفق قلبه ، وامتلأت عيناه بالدموع ، فعصر عينيه المغمضتين ، ثم تحوى تحت البطانية ، وهو خائف من فتحهما ثانية ٠

وقطعت المرأة العجوز قصتها المخيفة لتقول له :

ـ نم يا صغيرى ، نم وليباركك الله !

واستيقظ فوما فى الصباح التالى على عادته ، واغتسل بسرعة ، وازدرد فنجاله من الشاى، ودلف الىالمدرسة وجيوبه ممتلئة بالكعك والأطايب كى يهـدى منها الى الزميل الجـائع ييزهوف ، الذى بدأ الآن يتغذى بانتظام مما يجلب له زميله الغنى الموسر الجديد ٠

وأول ما لقيه ييزهوف قال له وهو يزوى أنفه الصغير المدبب :

ـ أأحضرت لنا شيئا ؟ هلم نأكله ٠٠ لقد غادرت المنزل اليوم دون أن أذوق شيئا ٠٠ ولقد تأخرت فى النوم ليلة البارحة ٠٠ عليهـــا

اللعنة ! ظللت جالسا حتى الثانية صباحا وأنا مكب على دروسى . هل عملت مسائل الحساب ؟

— لا !

— آه يا لحمة .. ياكسول .. هات أحلها لك .

ثم راح يقضم كعكة بثناياه الحادة الصغيرة وهو يزوم كالقطة ، ويخبط الأرض بقدمه اليسرى ، على حين كان يحل المسائل :

— انظر هنا ! اذا كانت ثمانية جرادل تملأ فى الساعة الواحدة ، فكم ساعة استمر نضح الماء ؟ ست ، عال .. ما أحلى طعـــامك يا صديقى ! اذن فيجب أن نضربها فى ثمانية . هل تحب الكعك المحشو بالبصل الاخضر ؟ أنا أحبه لدرجة الجنون .. وعلى هـــذا يكون عدد الجرادل التى ملئت فى ست ساعات — ثمانية وأربعين جردلا ، ويكون مجموع الجرادل التي أفرغت فى الحوض تسعين جردلا .. وعلى هذا فماذا عليك أن تصنع بعد ذلك ؟

لقد أحب فوما بيزهوف أكثر مما أحب سمولين ، ومع ذاك فقد كان يولى سمولين مقدارا من الود أكثر ... لقد كان يفزع من ذكاء بيزهوف ومن نشاطه الجم .. وكان يلاحظ أن هذا الزميل الصغير كان أذكى منه وأحذق ، فكره ذلك ، وحسده من أجله ، وان كان يعطف عليه فى الوقت نفسه عطف الغنى المتفضل الشبعان ، على الفقـير الجوعان . ولعل هذا هو السبب فى أنه كان أكثر ودا لزميله سمولين ذى الرأس الأحمر .. منه لبيزهوف الذى كان مغرما بتوجيـه نكاته الى زملائه المتخومين المبشومين . الذين كان لا يناديهم الا قائلا :

— هو .. أنتم يا سلال الكعك والأطايب !

وكانت نكاته تسىء فوما وتثيره . حتى لقد زجره مرة قائلا :

— أنت يا شحاذ يا صعلوك !

مما جعل وجه بيزهوف الشـاحب الأصفر يصطبغ ببقع كبيرة حمراء ، ورد عليه قائلا :

ـ حسن ٠٠ عال جدا ٠٠ انى لن أساعدك فى عمل دروسك بعد اليوم ٠٠ وسنرى فلاحتك اذن ٠٠ أيها الكتلة المعتبرة !

ومضت أيام ثلاثة لم يتحدثا معا خلالها ، الأمر الذى سبب شيئا من الضيق للمدرس ، اذ اقتضى هـــذا أن يعطى ابن الرجل المحترم اجنات جورديف درجات غير مرضية !

* * *

لقد كان بيزهوف ولدا طلعة، عساسا ٠٠ لا يفوته شىء مما يجرى حوله ٠٠٠ وكان يعرف أحسن المناسبات للصيد ، وأحسن الأماكن التى يصيد فيها أسماكه ٠٠٠ وكان يعرف كيف يصنع الفخـاخ والاقفاص للطيور ، وقد أخبر زملاءه عن السبب الذى شنق الجندى نفسه من أجله فى الطابق العلوى من القشلاق ، ولماذا فعل ذلك ٠ وكان يعرف والد أى التلاميذ قدم هدايا للمدرس وماذا كانت هذه الهدايا ٠

أما ما كان يعرفه سمولين ويهتم به فكان مقصورا على حياة تجار الحى الذى يعيش فيه ٠٠٠ لقد كان يلذه أن يعرف مقدار ثرواتهم النسبية ، والقيمة الصحيحة التى تساويها بيوتهم وسفنهم البخارية ٠٠ وكان يبحث هذه الامور بحماسة ٠

وكان ميله نحـــو بيزهوف ميل المتفضل المتنزل كما كان شأن فوما نحو بيزهوف أيضا ، لكنه كان أكثر ودا وأقل تعرضا للقطيعة٠ وكان كلما نشب شجار بين فوما وبين بيزهوف، قام هو بدور حمامة السلام بينهما ، فيصلح ذات بينهما ويسوى خصوماتهما ٠ وقد سأل فوما مرة ، وهما راجعان من المدرسة :

ـ لماذا تتشاجر معه دائما ؟

فأجابه فوما مهتاجا : انه متبجح مزهو بنفسه ·· بدرجة شنيعة!

ـ هذا لأنك لا تستذكر دروسك ، ولأنه يساعدك ·· انه حاذق، ذكى ·· وليس ذنبه أنه فقير ·· وهو يستطيع أن يتعلم أى شيء يريد أن يتعلمه ، وسوف يصبح غنيا يوما ما هو أيضا ·

فقال له فوما بازدراء :

ـ انه لا يزيد على كونه بعوضة ··· هذا هو ! انه لا ينفك يزن، ويطن ··· وسيأتى اليوم الذى يعض فيه ويلدغ ··

الا أنه كان ثمــة ما يؤلف رابطة بين هؤلاء الأولاد الثــلاثة ، ويساعدهم على قضاء الساعات الطويلة بعضهم مع بعض ، متناسين ما بينهم من الفرق فى الحسب والاخلاق · فجميعهم كانوا من هواة الحمام · وكانوا يجتمعون كل يوم أحد عند سمولين ثم يتسلقون أبراج الحمام المشــيدة على سطوح المنازل الخلوية ليطيروا الحمــام الذى فيها ·

وكانت هذه المخلوقات المرحة الرشيقة تنتفض ثم تفرد أجنحتها ، وتطير من البرج واحدة بعد أخرى ، ثم تقف فى صف طويل عنــد حافة السطح ، وهى تثغو وتفلى نفســها فى أشــعة الشمس ، مما يدخل السرور على نفوس الأولاد ·

وكان ييزهوف لا يفتأ يقول لصاحبيــه وهو يختلج وينتفض : « طيروها ·· طيروها ·· » فكان سمولين يزجر الحمام بعصا طويلة ربط فى طرفها بعض النثائر والسيور ، ثم يرسل من فمه صفيرا يشق أجواز السماء ، فتطير الحمائم مفزعة فى الهواء ، وهى تملؤه بزفيف أجنحتهــا ، ثم تســتدير فتعلو وتعلو فى السماء الزرقاء الصافية ، صانعة من نفسها دوائر جميلة ، ويسطع ريشها الأبيض فى وهج الشمس ، فتبدو كأنها قطع من فضة فى بحر من الثلج ··

ويرتفع عدد منها محلقا ٠٠ محلقا ٠٠ كأنه يريد أن يمس بأجنحته قبة السماء نفسها ٠٠ فى سرعة البزاة وخفتها ٠٠ وأجنحتهـــا مبسوطة ٠٠ لا تكاد تشعر بأنها تتحرك أبدا ٠ ويبدو بعضها الآخر كأنه (يتشقلب) فى الهواء بخفة ورشاقة ٠٠ فهو يسقط ككرات من الثلج مرة ، ثم يعلو تارة أخرى شاقا الهواء كأنه السهام المريشة ، والآن ٠٠ ها هو ذا سرب الحمام كله يبدو كأنه قد تجمد فى لوحة السماء ، انه يغوص فيها ، بل يغرق فى أديمها ، والأولاد يلاحظونه فى مسرة وانتشاء ، دون أن يفـــوهوا بكلمة ٠٠ ورءوسهم مائلة الى وراء ، وأعينهم مثبتة فى السماء ، والبريق السعيد الذى يشع من نواظرهم المتعبـــة يوشيه الحســـد لهذه المخلوقات المجنحة التى تستطيع بمثل هذه الرشاقة الوثوب من الأرض والتحليق فى العلالى الصافية ، الساكنة التى تغمرها أشعة الشمس ٠٠٠ لقد أطلق خيال الأطفال من عقاله منظر هذه النقط التى لا تكاد تدركها الأبصار ، والتى تبدو كالعنقود فى لوحة الســـماء ٠٠٠ وكأنما كان بيزهوف ينطق بما فى روع الأولاد جميعا حينما قال فى صوت ناعم مفكر :

ـ يا سلام ! لو كنا فقط ٠٠ نستطيع الطيران مثل هذا !

وفى نشوة هذه المسرة، تجمع الأولاد متكبكبين ، ملتصقين بعضهم ببعض ، منتظرين فى هدوء وتشوف عودة تلك الطيور من رحلتهـا فى أعمـاق السموات ، وكأنهم قد نأوا عن هذا العـالم كله ، بقدر ما ابتعدت الحمـــائم عن تلك الأرض ٠ وقد كانوا فى تلك اللحظة السعيدة أطفالا أسعد وأصفى ما تكون الطفولة ٠٠٠ وأبعد من أن يتطرق الغضب أو الحسد الى قلوبهم ، وبقدر ما كانوا يشـــعرون بالعزلة عن كل ما فى العالم ، بقدر ما كانوا يشعرون بالقرب من أنفسهم ، لقـــد كانت أفواههم صامتة لا تلجلج بكلمة ٠٠٠ وكانوا لا تربطهم الا تلك الأشعة المنبعثة من أعينهم ٠٠٠ وكان كل منهم يعـــرف ماذا يحس صاحباه ٠٠ لقـــد كانوا سعداء بقدر ما كانت هذه الطيور الذاهبة فى السماء ناعمة سعيدة !

ثم يعود الحمام الى السطح وقد نال منه التعب والجهـد من طول ما طار ، ثم يدخل البرج من جديد ·

وعنـدما فرغوا من فرجتهم هذه فى أحـد أيام الآحاد ·· قال بيزهوف ، المحرك الحافز لجميع ما يقومون به من مغامرات :

هلموا أيها الرفاق ·· هلموا نلتمس شيئا من ثمار التفاح !

وقد قشع تحديه هذا الغشاء من صفاء النفس الذى استروحته قلوبهم من التمتع بمشاهدة الحمام ، فلم يشعروا الا وهم يتجهون نحو احدى الحدائق المجاورة ··· مندفعين اليها كما تندفع الحيوانات وراء دليلها ، مصيخة لأقل اشارة منه · وقد غلب على خوفهم من أن يضبطوا شوقهم الى القيام بغارة ناجحة · فالسرقة هى أيضا ، عمل من الأعمال ، وعمل خطر ·· وما أحلى ثمراته !·· وكلما كانت المشقة التى تبذل فيه كبيرة ، كانت ثمرته أشهى وأحلى ··

وتسلق الأولاد سياج البستان فى حيطة وحذر ، وكانوا ينثنون كرقم ثمانية وهم يزحفون نحو أشجار التفاح ، ناظرين حولهم ههنا وههنا · وكان أقل صـوت يجعل قلوبهم تدق كالمطارق · وكان خوفهم من أن يراهم أحد فيعرفهم لا يقل عن خوفهم من أن يضبطوا ويقبض عليهم ··· وكانوا يفضلون طبعا أن يكتفى بمطاردتهم دون أن تعرف شخصياتهم ـ وذلك بالصياح بهم لا أكثر ، فرب صيحة مزقت شملهم وأطلقت سيقانهم للريح فى كل مكان ··· فاذا التأم شملهم بعد ذلك ··· جلسوا ليضحكوا ويثرثروا فى هرج شديد عما كانوا يشعرون به حينما سمعوا الصيحات ووقع الأقدام التى بعثت الرعب فى قلوبهم وجعلتهم ينطلقون لا يلوون على شىء ·

لقد كان فوما يبعث الجرأة فى حوادث السطو هذه أكثر مما كان يبعثه فى غيرها من الشقاوات والمغامرات · وكان يظهر من الطيش والتهور ما يذهل صديقيه ويسلمهما للغم والضيق ، وكان يتعمد ألا يبدى أى شىء من الحيطة وهو يجوس خلال بستان من بساتين

الجيران .. فكان يتكلم بصوت مرتفع ، ويكسر فروع الشجر محدثا قرقعة عالية ... فاذا حدث أن قطف تفاحة معطوبة لم يبال أن يلقى بها فى منزل صاحب البستان . فاذا نبهه أحد صديقيه الى خطر القبض عليه فى مكان الجريمة لم يخفه هـذا ، بل حفزه الى ما هو أكثر ، وقد يصر بأسنانه ، وتغيم عيناه ، وتظهر بدوات الكبرياء والمقت على وجهه ، مما جعل سمولين يقول له مرة ، وقد صعر له خده :

ـ انك تتعمد أن تظهر بمظاهر الشجاعة

فأجابه فوما :

ـ أنا لست جبانا

ـ أعرف انك لست جبانا ، ولكن المغفلين فقط هم الذين يتكلفون هذه المظاهر .. وفى وسعك أن تقوم بما تعمل دون أن تتظاهر بأنك شجاع !

أما ييزهوف فكان رأيه مختلفا قليلا .. لقد قال مرة لفوما :

ـ يا للمصيبة فى رميل يسعى الى حتفه بظلفـــه .. ويتمنى أن يقبض عليه . انك لست لى صاحبا ! فأنت اذا قبض عليك فسيأخذونك الى والدك ، ولن يمسك بأذى .. أما أنا .. فسوف يعطوننى علقة طيبة لن تترك فى جسمى كله عظمة سليمة !

فما زاد فوما على أن أجابه :

ـ جبان !

ثم حدث أن قبض على فوما فى أحد الايام رجل عجوز هزيل الجسم يدعى تشوماكوف ، كان ضابطا من ضباط الجيش ، ثم تقاعد .. ولقد غافل فوما وهو يقطف التفاح ويدسه فى جيبه .. فصاح به وهو يمسك بتلابيبه :

ـ والآن ٠٠ قفشتك يا لص !

وكان فوما في حوالى الخامسة عشرة فى تلك الآونة ، فاستطاع أن يخلص نفسه بسهولة من يدى ذلك الرجل العجوز ٠٠ الا أنه لم يلذ بالفرار ٠ بل أخذ يحـــذر الرجل وهو يقطب وجهـــه ، ويلوح بقبضتيه ، وهو يقول :

ـ أتجرؤ أن تلمسنى بيديك ؟

ـ ألمسك ! اننى سأسلمك للبوليس ٠٠ فهذا الذى سأعمله ٠ من أبوك ؟

وهنا ارتد فوما الى الخلف لهول المفاجأة ٠٠ لقد سكت عنه غضبه ، وخذله كل ما أبداه من مظاهر الشجاعة ٠ لقد كان يؤمن كل الايمان بأن أباه لن يعفو عنه مطلقا اذا هو سيق الى البوليس ٠٠

وقال وهو يرتجف متلعثما :

ـ جورديييف !

ـ ابن اجنات ماتفيييفتش ؟

ـ نعم !

والآن كان الضابط هو الذى يتراجع الى الوراء ٠٠ لقد شد الرجل من نفسه ، وأبرز صدره ، ثم راح يبلع ريقه ٠٠ ولم يلبث أن قال فى لهجة الوالد الحنون :

ـ ألست تشعر بالخجل من نفسك يابنى ؟ أنت ! ابن رجل مشهور ، وشخصية عظيمة الاحترام كهذه ! اننى ما كنت أنتظر أن يحدث من مثلك هذا العمل أبدا ٠٠ تفضل ٠٠ انطلق الى بيتك ٠٠ ولكن ٠٠ اذا عدت الى مثلها ، فلسوف أذهب بك الى والدك ـ الذى ـ بهذه المناسبة ـ يشرفنى أن تسلم لى عليه كثيرا ٠

وحسب فوما ، من التغير السريع الذى طرأ على وجه الرجل ، أنه قد خاف سيده الوالد ! وبدلا من أن يقصر الشر ، ويمضى الى منزله كما قال له الرجل ، وقف مقطبا وجهه فى عينى الضابط ، كأنه جرو ذئب ·· على حين راح الآخر ينتقل بثقله من احدى قدميه الى القدم الأخرى ، ويبرم شاربه الذى وخطه الشيب ، وعليه أمارة مضحكة من أمارات الاهتمام والجد ·· ثم قال له بلهجة آمرة ، وهو يشير الى الطرقة التى تفضى الى منزله :

ـ تفضل فاذهب ·

ـ وماذا عن البوليس ؟

وقد قالها فوما مكتئبا · وكان يخيفه فى نفس اللحظة التى قالها فيها ما عسى أن يكون الجواب ·

ولكن الرجل تبسم ثم قال :

ـ أو ·· لقد كنت أمزح ·· انما كنت أريد أن أخيفك فقط !

ـ بل ·· لقد خفت أبى !

ولم يعتم أن أدار ظهره للرجل العجوز ، وولى فى البستان مدبرا ، أما الضابط فقد تمتم يقول :

ـ خفت ؟! أوه ·· يالها من كلمة ظريفة !

وقد أدرك فوما من لهجة الرجل أن كلمته قد نالت منه · على أن الخجل كان قد بلغ به المدى ، حتى لقد ظل يومه بطوله يتسكع هنا وهناك وحيدا فريدا ·· وعند عودته فى المساء لقيه أبوه محييا ، بوجه عبوس صارم ، ثم قال له :

ـ فوما ·· هل تسلقت سياج بستان تشوماكوف ؟

وأجاب فوما فى ثبات ، وهو يحدق عينيه فى عينى أبيه :

ـ نعم !

والظاهر أن اجنات لم يكن ينتظر مثل هذا الرد ، فلبث لحظـــة يقلب أصابعه فى لحيته دون أن يتكلم ·· ثم قال :

ــ ولماذا فعلت هذا أيهاالنصاب الصغير ! أليس لديك من التفاح ما فيه كفايتك ؟

ولم يرد فوما بكلمة ·· بل نكس رأسه ووقف صامتا ·

ــ أنت خجلان ·· أليس كذلك ؟ أحسب أن الذى دفعك الى هـــذا هو صديقك هذا ·· بيزهوف ! وعندما أراه سأرد له الكيل كيلين ·· وربما منعتك من اللعب معه على الاطلاق ·

وقال فوما وهو رابط الجأش :

ــ لقد فعلت هذا من نفسى

ــ وهذا ألعن ! ولماذا فعلت هذا ؟

ــ لا لشىء ·· الا أن

وقال أبوه ساخرا :

ــ لا لشىء ·· الا ·· اذا فعلت شيئا فيجب أن تعرف لماذا تفعله·· تعال ·

وتقدم فوما الى حيث يجلس أبوه ، وأوقفه أبوه بين ركبتيه ، ووضع يديه على كتفيه ، ثم راح ينظر فى عينيه ، وهو يقول له متنهدا :

ــ خجلان ·· هه !

وزام فوما قائلا :

ــ أو ·· هو ··

ــ أيها المغفل الصغير ·· يا من تفضح نفسك ·· وتفضحنى معك!

ثم يضم رأس ابنه الى صدره ، ويربت على شعره ، ويسأله قائلا :

ـ عجبا والله ! ماذا يدفعك الى سرقة التفاح من بساتين الناس !

ويتمتم فوما :

ـ لست أدرى ·· اننا دائما كنا نفعل هذا الفعل ·· ولقد سئمت منه ·· ولكن هذا ··

وضحك أبوه وهو يقول :

ـ ولكن هذا كان شيئا مثيرا !

ـ نعم ··

ـ أحسبك الآن قد أفقت ·· فلا تعمل هذا العمل ثانية ·· والا أعطيتك علقة لن تنساها !

ووعد فوما أنه لن يعمل هذا على الاطلاق ·

ـ يسرنى غاية السرور ألا تعول الا على نفسك ·· أما ماذا يكون من أمرك فعلم هذا عند الله ·· وانت الآن بخير كل الخير ما دمت قد تحملت تبعة عملك واعترفت بما فعلت ، وأديت عليه حسابك ·· ولعل شخصا غيرك كان يلقى تبعة ما عمل على غيره ·· فهذا هو الطريق يا فوما ، ليكن كل منا مسئول عما يعمل ·· ثم ماذا كان من أمر هذا الرجل تشوماكوف ·· ألم ·· يضر ·· بك !؟·

وقال فوما من فوره :

ـ لو فعل ·· لرددت له الصاع صاعين !

فغمغم أبوه قائلا :

ـ هه ·· هم ··!

ـ لقد قلت له : انه كان خائفا منك ·· وهذا هو السبب فى أنه جاءك وشكانى اليك ·· والظاهر أنه لم يكن عازما على ذلك ·

- ألم يكن فى نيته أن يفعل ؟

- كلا .. فقد كلفنى أن أبلغك تحياته

- أوه .. أحدث هذا ؟

- نعم .

- شخص تافه ! ان من الناس من يتصرف تصرفات غريبة . تسرق منهم فينحنون لك ويتمسحون بك ، ويرسلون اليك تحياتهم .. أو .. انى لأعلم أن ما سرقت لا يساوى أكثر من كوبك ، الا أن الكوبك بالنسبة اليه كالريال بالنسبة الى .. وليس الكوبك هو المقصود .. بل المقصود هو أن الكوبك ملكه ، ولا يمكن أن يستولى عليه أحد الا اذا أذن هو بذلك ، ولكن .. حسبنا هذا .. خبرنى الآن أين كنت؟ وماذا رأيت ؟..

وجلس فوما الى جانب أبيه وقص عليه كل ما علق بذهنه ذلك اليوم . وكانت أسارير جبين اجنات تنقبض وتنزوى ، وتغرق فى تفكير عميق وهو يدرس وجه ولده الذى كان يلتهب ويتوهج .

- لقد أهجنا بومة كانت فى الخندق .. ولشـــد ما كانت شيئا ظريفا ! لقد طارت البومة مندفعــة .. ثم .. اذا هى تنخبط خبطة هائلة فى شجرة .. وأرسلت صرخة مدوية أيضا - وأكبر الظن أنها ضرت نفسها .. ثم أهجناها مرة ثانية ، فطارت مرة أخرى .. وحدث الذى حدث أولا .. لقد كانت كلما طارت تنخبط فى شىء .. وما أروع ما كان الريش يتناثر منها ! .. ثم أخذت تطير حول الخندق مرارا وتكرارا قبل أن تجد مكانا تختفى فيه .. ولم يهمنا أن نبحث عنها بعد ذلك - وكم شعرنا بالاسف من أجلها - ان كل المخلوقات تخبط خبط عشواء هكذا . ألا يستطيع البوم أن يرى شيئا بالنهـــار على الاطلاق يا بابا ؟

وقال له أبوه :

- كلا .. يابنى . ومن الناس من يسير فى الحياة على غير هدى كهذه البومة .. يخبطون هنا مرة ، ويتخبطون هناك مرة .. باحثين عن مكان ما يناسبهم .. ثم لا يصيبون شيئا الا أن يتناثر ريشهم .. فهم يخسرون ريشهم ، ويضرون أنفسهم ، ثم يمرضون .. وفى نهاية المطاف يلقون أنفسهم فى أول شىء يصادفهم - أى شىء يضع حـــدا لنضالهم - وهذا من أشق ما يعانيه أمثال هؤلاء يابنى .. من أشـــق ما يعون !

- وماذا يجعلهم فى مثل هذه الحال ؟

- الاجابة على هذا من الصعوبة بمكان .. ان بعضهم يعميه العجب والكبرياء .. لهم أطماع عظيمة .. ثم لا شىء غير .. وبعضهم لا عيب فيهم الا الغباوة .. أوه .. ما أكثر أسباب ذلك ! ..

* * *

وعلى هذه الوتيرة أخذت حياة فوما تتكشف يوما بعد يوم .. ولقد كانت فى جملتها حياة هادئة ، وديعة ، ليس فيها الكثير مما يكدرها . وكانت روحه تجد أحيانا ما يحركها فى بعض الانطباعات التى تتنافر هى وهذا الاساس الهادىء الوديع الذى قام عليه وجوده..الا أن هذا لم يكن يدوم طويلا .. لقد كانت روحه أشبه بغدير هادىء مستقر حتى هذه الآونة .. غدير ظليل لم تصل اليه زوابع الحياة بعد - وكل ما كان يمس حواشـــيه ، أو يهب على سطحه ، أو يقع فيستقر فى أعماقه ، محركا مياهه لحظة قصيرة ، لا يلبث أن يرسل فيها موجات تتسع وتتسع ، ثم تدع البحيرة هادئة مستقرة كما كانت .

وفى نهاية أعوام تسعة من الدرس ، ترك فوما المدرسة بعد أن لم ينته الا من أربعة صفوف فقط ، .. ان فوما لم يكن تلميذا ذكيا ، وان كان صبيا أنيقا أسود الشعر ، أسمر البشرة ، وحف الحواجب ، ذا

خط دقيق من الزغب فوق شفته العليا ·· وكانت عيناه الكبيرتان السوداوان ترسلان نظرة بريئة مفكرة ، وكانت شفتاه لا تزالان ناعمتين وأشبه بشفتي طفل · لكنه كان اذا أربكه شيء رأيت انسانى عينيه ربما يتسمعان ، وشفتيه يزمان فيكون منهما خط واحد مشدود ووجهه وقد أصبح جامدا هامدا ·

وقال له اشبينه ماياكين مرة : « ان العذارى سيجدن فيك ما هو أحلى من الشهد ، يا فوما ، غير أنك لم تبد شيئا من أمارات الذكاء بعد ! »

وسمع اجنات هذا ، فتنهد ·· كأنه آسف ·· ثم قال ماياكين :

ـ لقد آن الاوان لكى يضطلع فوما بأعباء الحياة يا اجنات ·

ـ بل لا بد من الانتظار قليلا ··

ـ وفيم الانتظار ؟ ·· خذه سنتين أو ثلاثا معك على الفولجا ·· ثم الى الـ ·· مذبح ·· لقد كبرت ابنتى ليوبا ·· وقد غدت عروسا الآن !

لقد كانت ليوبا فى ذلك الوقت فى الصف الخامس بمدرسة داخلية ، وكان فوما كلما مر بها أومأت اليه متشامخة بهزة من رأسها الأشقر ، الذى تغطى قمته بقبعة صغيرة أنيقة · ولقد كان فوما يميل اليها ، الا أن خديها الموردين ، وعينيها اللطيفتين السوداوين ، وشفتيها القرمزيتين ، لم تكن تستطيع أن تنسيه هذه الايماءات المتشامخة · وكانت علاقات الصداقة تربط بين ليوبا وبين عدد من الطلبة ، زملائها فى المدرسة ، وبالرغم من أن صديقه القديم بيزهوف كان واحدا منهم ، فانه لم يجد من نفسه ميلا الى الاختلاط بهم ، لأنه كان يشعر بأنه غريب عنهم · وكان يخيل اليه أنهم يحاولون أن يظهروا له علمهم أمامه ، ثم يضحكون من جهله ، وكانوا ربما اجتمعوا عند ليوبا ثم راحوا يقرءون فى كتبهم بصوت

عال ·· فاذا قــدم عليهم فوما ، وكانوا يقـرءون أو يتناقشون فى شيء ، غضوا من أصواتهم فى الحال، بل توقفوا عن القراءةوالمناقشة· وفى يوم من الأيام ، بينما كان يزور آل ماياكين ، دعته ليوبا ليقوما بجولة فى الحديقة · وبينما كانا سائرين اذا هى تقطب له وجهها وتسأله :

ـ ما الذى يجعلك غــير أنيس هــكذا ؟ انك لا تكاد تفتح فمك بكلمة !

فأجابها ببساطة :

ـ وكيف أتكلم اذا لم أجد ما أتكلم عنه ؟

ـ اقرأ الكتب وتعلم ··

ـ لا أجد بى حاجة الى ذلك ·

ـ ان هؤلاء الأولاد على علم غزير ، ويستطيعون التكلم عن أى شيء ·· يبزهوف ·· مثلا !

ـ انه ثرثار جخاخ !

ـ بل أنت شخص غيور ! انه ولد خارق الذكاء ·· أجل ، انه كذلك ، وسيذهب الى موسكو ليلتحق بالجامعة بعد أن ينتهى من دراسته هنا !

ـ ليكن ··

ـ وأنت ؟ أتظل على حالك هذه ·· لا تعرف شيئا ؟

ـ وما عيب ذلك ؟

فقالت له ليوبا متهكمة :

ـ ألست لبيبا ذكيا ؟

وأجابها فوما بلهجة أكثر تهكما :

- سأمضى فى هذه الدنيا بدون أى قسط من التعليم ٠٠ وسأقطع علاقتى بكل أصدقائك ٠٠ هؤلاء المتعلمين ٠٠ ان التعليم لم يخلق الا للشحاذين ٠٠ ولست منهم !

وهنا صاحت ليوبا :

- أخ ٠٠٠ يا لك من شخص بذىء غبى شنيع !

قالت هذا ٠٠ ثم تركته وانصرفت ٠

وزوى فوما ما بين حاجبيه ، ثم حدجها بنظرة جريحة ، ومضى فى سبيله هو الآخر ، وقد نكس رأسه من ثقل ما فيه !

وبدأ يتذوق مباهج الوحـدة ٠٠٠ سم التفكر الحلو ! لقـد كان يشعر فى كثير من أمسيات الصيف ، حينما تكون الدنيـا متوهجة بألوان الغروب التى تشب الخيال ٠٠٠ كأن قلبه مثقل برغبة ما ، مجهولة ٠٠ وكان اذا جلس فى ركن منعزل بالحديقة ، أو رقد على سريره ، أخذ يصور لنفسه رؤى العرائس وجنيات الغاب وأميرات الأساطير ٠٠٠ وكأنها تتراءى له فى صورة ليوبا ، أو غير ليوبا ممن يعرف من حسان ، ثم تطيف فى سكون وصمت فى ظلال الغسق ، ملقية عليه نظرات ناعمة غامضة ٠٠٠ وكانت هذه الرؤى تدفع أحيانا بالدم حارا فى عروقه ، فتملؤه بالقوة ، حتى لكان يثب ، فيستعرض كتفيه ، ويستنشق أنفاسا عميقة من الهـــواء العليل المنعش ٠٠٠ وكانت فى أحيان أخرى تجعله حزينا ، كأنما يحس حاجة الى البكاء ٠٠٠ وبالرغم مما كان يجد من الخجل من البكاء ، وما كان يبذله من جهد لكى يحبس دموعه ، كانت تغلبه عـــلى أمره ، وتنهمر بالرغم منه ٠

وأخذ أبوه يعلمه أسرار العمل قليلا قليلا ، فكان يصحبه معه الى سوق الأوراق المالية ، ويعلمه عمليات القطع وابرام العقود ، ويحدثه عن زملائه ، و يروى له ســـبل نجاحهم ووصولهم الى قمة الثروة ،

خاصا بالذكر أولئك الذين ملكوا ناصية المال ، واصفا له شخصية كل منهم ... وقد حذق فوما أعمال التجارة بسرعة فائقة ، واندمج فيها باقبال وجد .

وضحك ماياكين يوما وهو يتحدث الى اجنات ، غامزا فوما :

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .. لقد أزهر اللفت فأعطى خشخاشا !

الا أن فوما ، حتى عندما بلغ التاسعة عشرة ، كان يبدو على شيء من السذاجة والطفولة يجعلانه مختلفا أشد الاختلاف عن أقرانه الذين في سنه ... لقد كانوا يستهزئون به ويحسبونه غبيا ،وكان هو يعتزلهم لما يبدونه نحوه من ذلك كله . وكان أبوه وماياكين اللذان كانا يوليانه عينا ساهرة دائما ، فى حيرة شديدة من حاله المترددة وعدم استقراره على شيء .

وقال اجنات يوما فى شيء من الحسرة وهو يتحدث الى صديقه ماياكين :

ـ اننى لا أفهمه .. انه لا يذوق الخمر ولا يهوى النساء ، وهو شديد الاحترام لك ولى ، الا أنه أقرب الى أن يكون بنتا منه الى أن يكون رجلا .. ومع هذا فهو ليس غبيا ولا بليدا ، أليس كذلك ؟

ـ رأيى أنه ليس غبيا ولا بليدا على الاطلاق .

ـ انه يبدو كمن ينتظر شيئا .. وكأن ثم غشاوة على عينيه ـ لقد كانت أمه مثل ذلك .. كانت تتحسس طريقها على الدوام .. أنظر يا أخى الى أفريكان سمولين .. انه لا يكبر فوما بأكثر من عامين،ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تقول من من الرجلين يدبر العمل جميعا .. سمولين أو أبوه ... ثم هو يريد أن يسافر ويجوب أطراف الدنيا ليدرس ـ يدرس فى مصنع أو معمل أو فى أى مكان آخر ـ وهو من أجل هذا فى شجار مع والده دائما ـ وهو يقول له

انه لم يعلمه شيئا كان يستحق أن يعلم ··· فهذا هو ·· أما ابنى!! فاننى لا أستطيع أن أقف على سره ولا أن أستطلع طلعه !

ثم تنهد الرجل تنهدة عميقة تحمل الحسرة والأسى ·

وأجاب اجنات فى لهجة حازمة :

ــ اسمع ·· هذا هو ما يجب أن تعمله ·· اقذف به فى عمل من الأعمال الكبيرة ، ودعه يغرق أو يعوم ·· فالذهب لا يعرف الا بالنار ··· وستكشف لنا هذه التجربة عن معدنه لأنه سوف يتصرف فيها بتفكيره هو ورأسه هو ··· أرسله فى مأمورية تجارية على احدى سفنك الهابطة فى نهر كاما يقوم بها وحده · كتجربة من التجارب · اه !

ــ وماذا اذا لم يحسن أو كبدك شيئا من الخسارة ؟ ·· ان الضرر الذى يلحق جيبك سيعود عليك بربح عظيم ، على الأقل ، ستعرف معدن ابنك ، وأى شىء هو ؟

وأجابه اجنات مقتنعا :

ــ لك حق ·· هذا هو ما سوف أعمله ·

★ ★ ★

وفى ذلك الربيع نفسه أرسل اجنات ابنه الى نهر الكوما ومعه مركبان يحملان قمحا ، يقطرهما الرفاص بريلزينى ، ويقودهما صديق فوما القديم ·· ذلك العامل السابق بيفيم ــ الذى لم يعد الناس ينادونه الا بيفيم اليتش ، تأدبا واحتراما ··· وقد أصبح الآن رجلا ربعة ، يناهز الثلاثين ، له عينان حادتان كعينى فهد ، وقد برهنت الحوادث على أنه ربان مستقيم مثابر واسع الادراك ·

وقد شدوا رحالهم حثيثا ، وأقلعت بهم مراكبهم فرحين مستبشرين ، ليس فيهم الا متفائل مسرور • وكان فوما فخورا باضطلاعه لأول مرة بمثل تلك المسئولية • وكان ييقيم فرحا متهللا برياسة هذا السيد الشاب الذى لا يشبعه سبابا وشتما عند كل صغيرة وكبيرة ••• وكان هذا المزاج الفكه المرح الذى يتسم به هذان الرئيسان أشبه بضوء شمس غامر يشع على سائر الملاحين • لقد أقلعا بشحنتهما فى ابريل ، فوصلا الى وجهتهما فى أوائل مايو ، وحينما ألقت السفينتان مراسيهما بجانب البر ، رسا الجرار البخارى بالقرب منهما • وأصدر فوما أوامره بتفريغ القمح بمنتهى ما يمكن من السرعه ، ثم بيعه ، وتسلم الثمن ، والاقلاع الى برم ، حيث يسق المركبين بشحنة من الحديد كان أبوه قد تعاقد عليها لكى يدفع بها الى السوق •

ورست السفن الثلاث على مقربة من قرية صغيرة عند حافة احدى الغابات • وفى أول صبيحة من وصولهم اليها أقبلت شرذمة من الرجال والنساء مشاة وركبانا الى الشاطىء وهم يضجون ويهللون ، ويغنون ، ثم تسلقوا جوانب المركبين ، وما هى الا لحظات حتى كان العمل على أشده ، وكنت ترى النساء ينزلن الى العنابر حيث يعبئن القمح فى الغرارات التى يحملها الرجال على كواهلهم ، ويذهبون بها الى الظهر ، ثم يمشون برشاقة فوق الألواح الخشبية السميكة التى كانت تصل بين المركبين وبين الضفة • وبعد قليل كنت ترى صفا طويلا من عربات الكار ممتدا على الشاطىء محملا بغرارات القمح التى طال على الناس انتظارها ، وقد أخذت العربات تدلف فى الطريق الممتد الى القرية • وكانت النساء يغنين الأغانى ، والرجال يمزحون ويتبادلون الشتائم والسباب فى رقة وطيبة قلب، وكان عمال السفينة وملاحوها الذين تحولوا الآن الى حراس يسهرون على النظام وتنفيذ القانون يضيحون بالشغالة والحمالين ، وكانت الالواح تضرب الماء والحمالون يمشون فوقها ، وكانت الخيل

تصهل وتجمجم ، والعربات تصرف وتقرقع ، والرمل يرسل صريرا غريبا تحت عجل العربات •

كانت الشمس قد أشرقت منذ قليل •• وكان الهواء المعطر بأريج الصنوبر ينعش النفوس وينشط الأرواح ، والماء الهادىء الوادع يعكس زرقة السماء ويتمتم فى رفق وهو ينتثر على جوانب المراكب ويرتطم فى سلاسل المراسى • وكانت أصوات الشغالة المرحة وهم يعملون • وجمال الشباب المتدفق فى أعطاف الربيع ملء هذا المنظر من الطبيعة الفتانة المتوهجة فى أشعة الشمس — كان هذا كله مفعما بتلك القوة الضاحكة البهيجة التى أشاعت السعادة فى أعطاف فوما ، وأثارت فى جوانحه مشاعر جديدة ، ورغبات لم يكن له بها عهد • لقد كان جالسا على الظهر فى ظل تندة وهو يشرب الشاى مع ييفيم ، وكاتب أحمر الشعر أعشى العينين ، يلبس نظارة على عينيه ، موفد من مجلس الناحية ليتسلم القمح • وكان يروى لهما وهو يهز كتفيه فى حركة عصبية وصوت به صرير وسرسعة كيف كان الفلاحون يتضورون جوعا ، غير أن فوما لم يكن يولى ما يقوله أى التفات • فقد كانت عيناه تتناوبان النظر بين العمال من أدنى ، والضفة الموشاة بأشجار الصنوبر على الجانب الآخر من النهر — ذاك المكان الساكن المهجور !

وكان فوما يتمنى لو استطاع الذهاب ثم فى قارب صغير ، وبينما هذه الفكرة تراوده اذا صوت الكاتب ، ذلك الصوت الذى يشبه صرير المنشار ، يأتى من بعيد ليصك أذنيه قائلا :

— ربما لا تصدق الى أى مدى بلغت الحال بالناس هنا ! اسمع يا سيدى : لقد أحضر فلاح من أوسا ابنته ذات الستة عشر ربيعا الى سيد ظريف يوما ثم قال له : « ها قد أحضرت اليك ابنتى يا صاحب السيادة » • فلما سأله صاحب السيادة عن السبب قال له : « لقد حسبت أنك ، وأنت رجل عزب ، قد تكون بك اليها

حاجة » . فلما عاد السيد يسـألـه عن السبب مرة أخرى ، قال له الرجل : « حسن .. لقد ذهبت أطوف بابنتى هذه فى كل مكان أحاول أن أجد من يحتاج الى خادمة لتشتغل عنده فلم أجد ... فما ذا لو أخذتها أنت ... وجعلت منها خادمتك ، و ... اذا شئت ؟ واذا لم تجد منها فائدة أخرى ... » فانظر الى ذلك الرجل يعرض ابنته .. ابنته ! هل تسمع ؟ على ذاك السيد لمثل هذا الغرض . وقد هاج السيد وماج بالطبع ، وقال لوالد البنت رأيه فيه ، ولكن الفلاح قال ، وهو يعى ما يقوله وعيا تاما : « وماذا أستطيع أن أصنع بها فى أوقات مثل هذه ، يا صاحب السيادة ؟ انها حمل مرهق ، وعندى ثلاثة أولاد غيرها ، وهم سيكبرون ويصيرون عمالا ، ولهذا بذلت جهدى فى المحافظة على حياتهم ... فأعطنى عشرة روبلات ! وخذ ابنتى ... لكى أستطيع اعاشة هؤلاء الأولاد » .

ـ فما رأيك فى هذا ؟ أليس شيئا فظيعا ؟ هه ؟

وهنا تنهد ييفيم من أعماقه وقال :

ـ يا لها من حال سيئة ! ان الجوع ، على حد قول المثل ، كالهرة التى تأكل بنيها .. ويبدو أن البطن له رأيه هو أيضـا فيما هو حق وفيما هو باطل !

ولقد شعر فوما ، لسبب لم يستطع أن يفسره ، بسرور عميق للحظ الذى كتب لهذه الفتاة . وسأل الكاتب :

ـ وهل اشترى السيد الفتاة ؟

وأجابه الكاتب بلهجة فيها شىء من التعبير :

ـ لم يشترها طبعا .

ـ فماذا حدث لها اذن ؟

ـ أو .. لقد وجد بعض أهل الخير الذين أخذوها عندهم ..

وهنا أرسل فوما آهة آسفة ، ثم قال بصوت أجش فجأة :

ـ لوجاءني بها هذا الفلاح لعرفت كيف أعيد اليه صوابه •• تالله لضربته ضربة كانت تذهب بثناياه كلها !

وسأله الكاتب وهو يرفع نظارته من فوق أنفه :

ـ ولكن •• لماذا ؟

ـ لماذا ؟ وكيف يمكن أن يباع بنو آدم ؟

ـ هذه وحشية •• أنا معك •• ولكن ـ

ـ وفتاة صغيرة كهذه !؟ لو كنت من السيد لدفعت اليه الروبلات العشرة التى طلبها •• مساعدة

وهز الكاتب كتفيه ولم يتكلم ، وقد غاظ هذا منه فوما الذى نهض من مجلسه وتوجه الى الدرابزين ، حيث كان يمكنه رؤية العمـــال وهم يهبطون من المركب ويصعدون فى حركة دائبة •• ولقد جلبت الضوضاء الى رأسه الدوار ، وتبلورت المشاعر الغريبة التى كانت تهوم فى أعماقه فأصبحت حنينا الى أن يعمل هو نفسه مع هؤلاء العمـــال بيديه وتمنى أن تكون له قوة خرافية كقوتهم ، وأكتاف هرقليـة كأكتافهم يستطيع بها أن يحمل مئات ومئات من غرارات الحبوب فى المرة الواحدة ، حتى يستولى العجب على كل من ينظر اليه •

وهتف بالعمال يحضهم على العمل قائلا :

« الهمة يا حضرات •• الهمة »

وهنا ارتفعت رءوس كثيرة ترنو اليه ، لمح من بينها وجه امرأة ذات عينين سوداوين تبسم له فى رقة ، وفى فتنة واغراء •• وقد خفق قلبه لتلك الابتسامة ، وشعر كأن شيئا يأخذه من أعماقه •• وكأن دمه يغلى ويتدفق كالحميم فى عروقه •• فلم يملك الا أن ينزع نفسه من الدرابزين نزعا ، ويعود الى المنضدة •• شـــاعرا بأن خديه كانا يلتهبان التهابا •

ثم التفت اليه الكاتب يقول :

ـ اسمع ‥ أرسل برقية الى والدك كي يبعث الينا بكمية اضافية من القمح عوضا عما ضاع من هذه الشحنة بسبب النقل والتفريغ ‥ ولعلك تلاحظ كم من الحب يضيع فيما ترى، مع أن كل حبة منه تساوى ثقلها ذهبا ‥ فواجب عليك أن تعلم ذلك ‥ ولكن ‥ هذا الرجل ‥ والدك ‥ هم ‥

وسكت الكاتب وعلى فمه اشارة لها معناها ‥ فقال له فوما على الفور :

ـ وكم ترى أن يرسل الى سيادتك مقابل هذا الضائع لايفائكم حقكم ؟ مائة وزنة ؟ مائتان ؟

فأجابه الرجل الذى استولى العجب على نفسه :

ـ الله أكبر ! هذا يكون شيئا عظيما ‥ اذا كنت تملك ‥

فقطع عليه فوما كلامه بجفاء وقال له :

ـ أنا السيد هنا ‥ وأنا أرجوك ألا تبدى ملاحظاتك الشائنة عن والدى ، وألا تدس أنفك فيما ليس من شأنك ‥

ـ معذرة ‥ وأستميحك العفو ‥ لا شك مطلقا فى أنك على حق ‥ وأنا أشكرك من أعماق قلبى ‥ أنت ‥ ووالدك أيضا ‥ بالأصالة عنى ، وبالنيابة عن جميع هؤلاء الأهالى ‥

ونظر ييفيم الى سيده الصغير شزرا ، وجعل يزم شفتيه ويمصمص بهما ‥ ولكن السيد الصغير ظل واقفا وعلى وجهه أمارات الجد والكبرياء على حين كان الكاتب يكيل له عبارات الشكر والممنونية ، وهو يفرك يديه ‥

ـ مائتا وزنة ! هذا هو الكرم الروسى على حقيقته ، أيها السيد

الصغير ! اننى سأخبر هؤلاء الفلاحين عن هذه الهدية ، وسترى كم يعترفون لك بالجميل ، ويولونك الشكران ٠

ثم مال برأسه نحو العمال وهتف بهم قائلا :

- ان مالك هذا القمح قد أهدى اليكم مائتى أردب من القمح أيها الأهالى ٠

فقال له فوما مصححا :

- بل ثلثمائة أيها الرجل

- بل ثلثمائة وزنة ٠٠ شكرا لك يا سيدى ٠ ثلثمائة أردت من القمح هدية منه لكم أيها الناس !

ولكن الاثر الذى كان يتوقعه الكاتب لم يكن هو الاثر المنشود ٠ لقد رفع الفلاحون رءوسهم لحظة عابرة ٠٠ ثم عادوا الى عملهم مباشرة دون أن يحركوا ألسنتهم بكلمة ٠٠ وأن كان قليلون منهم قد رددوا فى لهجة متلعثمة ٠٠ بل قل ، فى اشمئزاز ، بضع كلمات خاطفة :

- شكرا لك ٠٠

- بارك الله فيك ٠٠

- شكرا كثيرا ٠٠

فى حين راح بعضهم يقول فى سخرية ظاهرة :

- قمح !! جميل جدا ٠٠ وماذا كان عيب الفودكا ؟ زجاجة من الفودكا لكل منا ، الآن ، وفى هذه اللحظة ، كانت خيرا وأولى بلا شك ! ان القمح لن يصل الينا ٠٠ بل ٠٠ سيلهفه المجلس !

فصاح الكاتب محزونا :

- انهم لا يفهمون يا سيدى ٠٠ لا يفهمون ٠٠ سأذهب لأشرح لهم الموضوع ٠

وذهب اليهم ·· ألا أن فوما لم يبال رأى الفلاحين فى هديته ·· فقد رأى العينين السوداوين تنظران اليه بابتسامة خفيفة غريبة ·· لقد كانتا تشكرانه ·· تدغدغان قلبه ·· تدعوانه ·· فكيف يستطيع أن يرى شيئا آخر ؟! وكانت المرأة تلبس لبس أهل المدينة ·· بلوزة من القطن ، ونعلا فى رجليها ، ثم منديلا عقصت به شعرها الاسود ·· وكانت طويلة غيداء ·· تميس كالصفصافة حتى وهى جالسة على هذا الكوم من الخشب تصلح الزكائب والغرارات، وذراعاها العاريتان الى المرفقين ، يخطفان الابصار كلما حركتهما وهى تشتغل ، وشفتاها تبتسمان لفوما !

وسمع فوما الربان ييفيم يخاطبه معنفا :

ـ فوما اجنا تيفتتش ·· ألم تكن مبالغا مبالغة شديدة فى هـــذا التبرع المسرف ؟ ألم تكن خمسون وزنة هى الشىء المناسب ؟ أهكذا تعطى باليمين وبالشمال بلا أدنى حساب ؟ انك لم تأخذ بالك جيدا ، كان مآلنا ، أنت وأنا ·· شيئا لا يسر !

وقال فوما بجفاء :

ـ عليك نفسك فقط !

اصنع ما شئت، وفى وسعى أن ألجم لسانى، الا أنك صغير لا تزال ·· وقد أوصانى أبوك أن آخذ بالى منك ·· وأخشى أن يكيل لى ما تعلم من لكمات ولطمات اذا تركت الامور تجرى على تلك الحال !

ـ سأخبر والدى ·

ـ عال جدا ·· فأنت الرئيس هنا ·· ولكن ـ

ـ صهين ، ييفيم ، صهين

وصمت ييفيم بعد أن تنهد قليلا ·· أما فوما فقد أرسل ناظريه نحو المرأة ، ثم أنشأ يفكر فى نفسه :

ـ آه لو أن أحدا يبيع لى امرأة كهذه !

ثم أخذ نبضه يسرع •• وبالرغم من أنه لا يزال قلبا بكرا ، فانه قد ألم بشيء عن علاقات الألفة بين الرجال والنساء مما كان يسمع من أحاديث الناس • لقد كانت أحاديث تتخللها كلمات وقحة وفاحشة، حتى لكانت نفسه تعافها ، الا أنها مع ذلك كانت تثير التشوف وحب الاستطلاع فيه • ويا طالما حاول أن يعرف عن هذه الاسرار ما غاب عنه ، الا أن شيئا من الاخيلة التى كان يلفقها له وهمه عن هذه الاسرار لم يكن شيئا مفهوما ولم يكن يتصور قط أن العلاقات بين الرجـــال والنساء كانت من الشناعة والامر الواقع بمثل ما كانت هذه العبارات الوقحة المسفة تصورها • وحينما كان اخوانه يستهزئون به ويؤكدون له أنها كانت كذلك ، ومحال أن تكون غير ذلك ، كان يعبس ، ويكشر بصورة حمقاء ، ويصر على أن تلك الصورة المخجلة لم تكن هى الصورة الوحيدة التى يمكن التعبير بها عما يجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأن ثم صورا غيرها بلا ريب ، أكثر نقاء وطهـــرا ، وأقل اهانة للطبيعة البشرية •

أما الآن •• وهو واقف يرنو فى عبادة واعجاب ، الى هذه المرأة ذات العينين السوداوين •• فلم يكن يجذبه اليها الا هـــذا الجاذب الخشن • وقد أزعجه هذا وأشعره بالحقارة والهوان ••

ولا حظ ذلك بيفيم ، وكان واقفا الى جانبه ، فقال له فى شيء من الجد :

ـ ثم هأنت ذا واقف تحدق عينيك فى هذه المرأة ! قل ما تشاء ، فأنا لا يمكننى أن ألجم لسانى أكثر مما فعلت •• انك لم ترها من قبل قط ، لكنها اذا ظلت تلاحقك بعينيها هكذا فلا شك أنك ـ وأنت صغير غض كما أنت ، ولك أخلاقك التى فطرك الله عليها •• لا شك أنك ستطب يا مولانا •• وتقع فى الحيص بيص الذى يرسل بنا الى السيد الوالد ، حافيين ، وعلى الاقدام ، وسيكون من حسن حظنا أن

نبعى لنا سراويل تستر ما تعلم ٠٠ وما الله به أعلم ٠

وصعد الدم فى وجه فوما ، وقال :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ لا شىء مطلقا ، ولكنك أنت الذى تريد أن تصغى الى ٠٠ انى يا سيدى عليم بأدواء النساء خبير ٠٠ ومن حسن حظ الشباب أن برزقهم الله خبيرا بهن مثلى ليعظهم، وليعلمهم كيف يسوسونهن،وأمر النساء بسيط غاية البساطة ٠٠ فما عليك الا أن تعد مائدة حافلة بزجاجة من الفودكا ٠٠وببعض ما يؤكل٠٠ ثم لا بأس من زجاجةمن الجعة بعد ذلك ٠٠ فاذا انتهىكل شىء ٠٠ فلا أكثر منأن تنفح صاحبتك بعشرين كوبكا ٠٠ وهذا ثمن يجعلها تبذل لك من الحب كل ما فى قلبها ٠

وكان جواب فوما هذا الجواب المكتوم :

ـ هذا كذب !

ـ كذب ؟! ولماذا أكذب وقد جربت هذا بنفسى مائة مرة على الاقل؟ اسمع ٠٠ دعنى أتول عنك هذه اللعبة ٠٠ سأجعلك تتعرف الىهذه السيدة !

ـ فأنت عند قولك !

وقالها فوما وكأن يدا تقبض على عنقه

ـ سآتيك بها هذا المساء

وقضى فوما بقية نهاره فى ذهول وحيرة ، لا يلقى باله الى نظرات التبجيل والتودد التى كان الفلاحون ينظرون بها اليه ٠٠ لقد كان قلقا ، مفزوعا ٠٠كان يشعر كأنما أساء الى أحد ٠٠ وكان هذا الشعور يجعله ظريفا لطيفا يتودد الى كل انسان ، ويلقاه بما يشبه الاعتذار ٠

واجتمع العمال فى ذلك المساء على ضفة النهر ليعدوا عشاءهم الذى أشعلوا لطبخه نارا عظيمة ، وكان اللهب يعكس على الماء شآبيب من الوهج الاحمر والاصفر كانت تتراقص على أديمه الناعم ، وعلى زجاج القمرة التى كان يجلس فيها فوما متحويا فى ركن من الكنبة ٠٠ وقد شد الستار على النافذة ، ولم يشعل المصباح ٠ وكان وهج النيرار يخترق الستار ، وينفذ منه ضوء مرتعش خافت ، لايفتأ يعلو ويهبط على المنضدة والجدران ٠ وكان السكون شاملا ، ولم يكن ثم من صوت يشق هذا السكون الا غمغمة الاصوات اللاغطة فوق الشاطىء ، وا نقر الأمواج الخفيفة على جوانب المراكب ٠٠ وكان يخيل لفوما أ أحدا من الناس مختبىء فى ظلال القمرة ، وقد راح يراقبه من قرب ٠ آه ٠٠ لقد أقبلا ! وهاهو ذا وقع أقدامهم يدب على الصقالة ٠٠ وهاهى ذى الصقالة تضرب الماء فى غل وغيظ ! ٠٠ انه يسمع ضحكا وأصوا خافتة خارج الباب ٠

وأوشك أن يأمر القادم بأن ينقلب على عقبيه ٠٠ بل لقد وقف بالمع ليطرده ٠ لكنه قبل أن يستطيع تحريك لسانه ، انفتح البـــاب ع مصراعيه ، واذا بالمرأة الطويلة أمامه ٠٠ لقد دخلت ، ثم أغلقت البا وراءها دون أن تحدث صوتا ما ٠

وقالت المرأة بصوت هادىء :

ـ يا سلام سلم ! ما للغرفة مظلمة هكذا ؟ ألا من أحد هنا ٠

وأجاب فوما بصوت ضعيف مخنوق .

ـ بلى ٠

فقالت المرأة وهى تخطو فى تهيب :

ـ اذن ٠٠ سعد مساؤك !

ـ سأضىء المصباح !

لكنه بدلا من أن يفعل شيئا ، انحط على الكنبة ، ثم تحـــوى و طرفها كما كان

– أوه .. هكذا أحسن .. فبمجـــرد أن تعتـــاد العين الظلام نستطيع الرؤية فيه

– تفضلي اجلسي

– شكرا

ثم جلست على بعد ذراع منه ..

لقد كان فوما يلمح الشعاع المنبعث من عينيها ، والابتسامة التى تختلج على شفتيها .. لقد كانت ابتسامتها تبدو شيئا مختلفا الآن . انها كانت أكثر حزنا ، وأقوى على انبعاث الاسى والتسجن !

وكان هذا كله مشجعا . لقد أغضتا حينما لقيتا عينيه ، فساعده ذلك على ضبط أنفاسه .. الا أنه لم يدر ماذا يقـــول لها ، ومن ثم فقد ساد الغرفة صمت كئيب .. وكانت هي أول من وضعت له حدا .

– انك لا بد أن تشعر بالوحشة ما دمت تعيش وحيدا .. أليس كذلك ؟

وقال فوما :

– بلى .

– وكيف وجدت هذا المكان من النهر ؟

– فى منتهى الجمال .. غابات كثيرة !

ثم ساد الصمت مرة أخرى

وأحب أن يتكلم فوما فشد لسانه وقال :

– ان نهركم أجمل حتى من الفولجا .

– لقد سافرت على الفولجا .. الى سمبرسك

وردد فوما اسم هذه المدينة ، وهو لا يستطيع أن يفكر فى شىء بمفرده .. لكنها .. وقد فهمت الآن هذا الانسان الذى يجالسها ، قالت له متسائلة فى همسة رقيقة :

ـ تعال هنا ! لماذا لا تقدم لى شيئا أشربه أو آكله يا سيدنا ؟

وبدهته هذه الملاحظة فلم شعثه ثم قال :

ـ آه ٠٠ نعم ٠٠ يا لى من لخمة فى مثل هذه المناسبات ٠٠ تفضلى

وأخذ يتحسس فى الظلام ،ويأتى بالزجاجات فيضعها على المنضدة، وهو يصطدم بها ، ضاحكا كالذى يشعر بالاثم ويحس بالخجل ٠٠ فنهضت ووقفت الى جانبه ، ثم تبسمت وهى تنظر الى وجهه الخجول ويديه المرتعشتين :

وأحس أنفاسها ترف على خده ، فلم يملك الا أن يهمس : «أجل !» وعند ذلك وضعت يديها على كتفيه ، ثم ضمته الى صدرها ، وهى تغمغم فى ملق :

ـ انه لا شىء ٠٠٠ لا تخجل ٠٠٠ تم ٠٠٠ أنت لا شىء بدون ذلك ٠٠٠ انك صغير جدا ٠٠٠ وجميل ٠٠٠ وانى لأشعر بالأسف من أجلك !

وقد جعلته كلماتها المهموسة يحس كأنه يبكى ٠٠٠ تم عرت روحه استرخاءة لذيذة ، فأسند رأسه الى صدرها ثم احتواها فى ذراعيه ، متمتما بكلمات غير واضحة ٠٠٠ كلمات لم يفهم معناها هو نفسه ٠

★ ★ ★

وقال لها وهو مول وجهه عنها ، محدق بعينيه فى الحائط : «اذهبى ٠٠٠ وأطاعته المرأة ، وذهبت ، بعد أن طبعت قبلة على خده ٠

لقد كان فوما يشعر فى حضرتها بخجل شديد لا يمكن احتماله ، فلما ذهبت ، نهض ثم ألقى بنفسه على الكنبة من جديد ، بعد أن وقف طويلا ، مأخوذا بشعور غريب ، شعور الذى ضاع منه شىء ثمين. لم يكن يعرف أنه يملكه حتى فقده ٠ على أنه فى هذه اللحظة نفسها

.. انه لا شيء .. لا تخجل .. ثم ..

تقريبا كان يملؤه شعور جرىء جديد ٠٠ شــعور الكبرياء والزهو بنفسه ٠٠ وهو شعور لم يلبث أن طغى على الشعور بالخجل فنسخه، وبدلا من أن يشعر بالخجل ، شــعر بالاسف على ذهاب هذه المرأة لتسير وحدها فى الظلام ، وفى ليلة باردة من ليالى شــهر مايو ٠٠٠ ولهذا فقد أسرع بمغادرة القمرة ، وانطلق الى الظهر ٠٠٠ لقــد كان الليل ممتلئا بالنجوم وخاليا من حبيبه القمر ٠٠ وقد شعر فوما ببرده، وغمره ظلامه ، وكانت جمرات النار لا تزال تتأجج حمراء ذهبية على صــفحة النهر ٠ وأنصت فوما : لقــد كان السكون الرهيب يمسك أنفاس الهواء ، دون أن يصدعه شىء الا ضربات الماء الخفيفة اللطيفة التى تصافح سلاسل المرساة ، ولم تكن تسمع خطوة واحدة فى أى مكان ٠٠٠ وقد أراد أن ينادى المرأة ، الا أنه لم يكن يعرف اسمها ٠ ولبث واقفا بضع دقائق فوق الظهر يستنشق الهواء النقى فى لذة وشغف ٠٠٠ ثم اذا به يسمع فجأة صوت تنهدة مقبلا من الناحية الاخرى من قمرته ، من مقدمة المركب ، فهم بالتقدم الى الامام فى هدوء ورفق ، متيقنا أنه سيجدها هناك ٠

لقد كانت جالسة على ظهر المركب وهى تبكى ، وقد أسندت رأسها على حوية من الحبال ٠ وكان من اليسير على فوما رؤية كتفيها العاريتين البيضاوين تعلوان وتهبطان وأن يسمع بكاءها اليــائس ٠٠ انه هو نفسه كان يحس باليأس ٠

وانحنى نحوها فى رهبة يسألها :

ــ ماذا ؟

لكنها هزت رأسها دون أن تجيب ٠

ــ هل ألحقت بك ضررا ؟

ولم تزد على أن قالت له :

ــ انصرف !

وقال فوما وهو يلمس شعرها فى قلق وربكة :

- و ٠٠ ولكن ٠٠ لماذا ؟ لا تغضبى منى ٠٠ وعلى كل ٠٠ فأنت نفسك ٠٠٠

وهمست المرأة الباكية تقول :

- لست غضبى ٠٠٠ وماذا يغضبنى منك ؟ انك لست وحشا ، وان لك لقلبا نقيا ٠٠ آه ، يا عصفور طريقى ٠٠ اجلس الى جانبى

ثم أخذت يده وسحبته الى جانبها كأنه طفل ، ثم أسندت رأسه على صدرها ، وأهوت بشفتيها المشتعلتين على شفتيه تقبلهما ٠

وسألها فوما عن سبب بكائها وهو يداعب خدها باحدى يديه ، ويربت على كتفها بيده الأخرى ٠٠

وسألته بلهجة نائحة مشجية :

- نسدتك نفسى الا أن تخبرنى ، لماذا طلبت الى أن أذهب ؟

وأجابها فوما وقد أطرق برأسه :

- لقد كان الخجل يعصف بى !

فقالت صاحكة ، والدموع الغزيرة تساقط على صدر فوما :

- يا طفلى العزيز ٠٠ اصدقنى ولا تكذب على ٠٠ انك لم تحببنى ، أليس كذلك ؟

- ما هذا الذى تقولين ؟

وكان يقول لها ذلك والجزع يكاد يأخذه من صميمه ٠ ثم راح يصرح لها باعترافات حارة مخلصة ، ويعبر لها عما آتاها الله من جمال ورقة ، وعما شعر به من الرثاء لها والاسف عليها ، وما استولى عليه من الخجل وهما معا فى تلك الغرفة ٠٠٠ وبينما كانت تصغى اليه كانت تداعب بالقبل خديه وعنقه وصدره العارى ٠

فلما انتهى ، أخذت هى ترقرق له الحديث بصوت باغم حزين ، كأنما كانت تحدثه عن قوم انتقلوا الى عالم البقاء :

ــ وعلى هذا فقد كنت مخطئــــة ٠٠٠ ولم أفهم معنى أمرك لي بالانصراف ٠٠ لقد نهضت ٠٠ وانصرفت ، الا أن كلماتك جعلتني أشعر بمرارة شديدة ٠٠ لقد كنت أحسب أن أحدا لن يزدريني على هذا النحو ، بل كنت أحسب أنني لو طلبت ممن يهواني الدنيــــا بأسرها تمن ابتسامة واحدة ما بخل بها على ٠٠٠ هذا هو ما كنت أظنه ، فلما ازدريتني أنت على هذا النحو ٠٠ بكيت ٠٠ لقد بكيت شبابي الضائع ٠٠ فأنا الآن فى الثلاثين من عمرى ٠٠ وماذا يبقى للمرأة بعد الثلاثين ! آه ٠٠ يا فوما اجناتيفتش !

وهنــا ، كانت قد خلطت صــوتها بنغمة باكية فيها أنين وفيها شجو ، ورفعت من طابقه ، وهى تزيد شيئا فشيئا من سرعة الايقاع فى حديثها الرخيم الحنون ، الذى كانت نبراته صـــدى حلوا للماء المترقرق ٠ اصغ لما أقول : انتفع بشبابك ، فليس فى الدنيا ما هو أغلى وأثمن ! ان الشــباب مثل الذهب ، يأتيك بكل ما تشتهى فأنفقه حتى يكون ثمة ما تستطيع أن تتذكره حينما تشيخ وتكبر ٠ لقد كان شبابي هو ما فكرت فيه ، وأحسب أنه هو الذى جعلني أبكي ، ولقد انتشى قلبى حينما تذكرت كيف كنت أعيش ٠ وقد عاد الى صباى حينما رويت من الماء الحى ٠٠ آه يا صغيرى العزيز لسوف نعاود سرورنا ان كنت أقع من نفسك الموقع الذى تشتهى وعندئذ أفرغ روحى كلها بين يديك ٠٠٠ انني ان اشتعلت النار فى يوما ، فلن تدعني الا رمادا !

ثم أخذت فوما ملء ذراعيها ، وأهوت على شفتيه تقبله فى حرارة وشغف ٠

* * *

ثم ارتفع صوت أحد الملاحين من المركب المجاور ينادي في عنه

ـ « خف ٠٠٠ ير » !

وراح يخطف الراء خطفا مباغتا ، ثم تناول دقماقه(١) الخشبي وأخذ يدق به على لوح من الصـــاج يقوم مقام الجرس ٠٠٠ وكانت ذبذبات الدق تجلجل في حنج السكون الرهيب ٠

★ ★ ★

وبعد أيام قلائل ، وكانت السفينتان قد أفرغتـــا من حملهما ، واستعد الجرار البخاري لتشدهما الى برم ٠٠٠ رأى ييفيم ، ويا هول ما رأى ، عربة تهبط نحو حافة الماء ٠٠ واذا فوقها تلك المرأة بيلاجيا ٠٠ صاحبة العينين السوداوين ، ومعها حقيبة كبيرة ، وكم بقحة !!

وقال له فوما بلهجة آمرة وهو يشير الى العربة :

ـ أرسل بعض الملاحين ليحملوا متاعها ٠

وهز ييفيم رأسه هزة الساخط الناقم ، لكنه أنفذ ما أمر به ، وفي نفسه ما فيها ٠٠٠ وبعد هذا بقليل نظر الى فوما وقال له بصوت خافت .

ـ وعلى هذا فهي مسافرة معنا ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ انها مسافرة معي ٠٠ أنا !

ـ أنا لم أقصد أنها مسافرة معنا جميعا ٠٠ أو ٠٠ هو !

ـ وفيم تلهفك ؟ ٠٠ وفيم هذه الحسرة ؟

ـ اسمع يا سيد فوما اجناتيفتش ، اننا ذاهبون الى مدينة كبيرة ، وهناك من أمثالها الشيء الكثير !

وقال له فوما بلهجة صارمة :

ـ كفى ٠٠ أمسك عليك لسانك !

---

(١) الدقماق بلغة الملاحين أشبه بمدقة الخشب

فتجهم بيفيم ثم قال :

ـ حاضر ٠٠ حاضر ٠٠ ولكن يجب أن تعلم أن هذا شيء لا يجمل بك !

وأجابه فوما متغطرسا ، وهو يضغط على كل كلمة :

ـ اذا سمعتك ، أو سمعت أى شخص آخر ، يرسل فيها لسانه بمكروه ، فلسوف أحطم رأسك ٠٠ فاذكر هذا ولا تنسه !

وزام بيفيم مهمهما : ـ يا للداهية السوداء !

وجعل يحدق فى سيده كالمنكر عليه ، ثم رجع الى الوراء خطوة ، وابن اجنبات يكشر عن أنيابه كأنه ذئب ٠٠ على حين كانت حدقتا عينيه تدوران وتبرقان ، ولم ينشب أن زأر قائلا :

ـ تجاسر ٠٠ ولسوف أريك

وقال بيفيم فى شمم ، وبملء الكرامة ، بالرغم مما يخامره من خوف :

ـ وقد تكون السيد الآمر هنا ٠٠ الا أننى أوصيت أن آخذ بالى منك ٠٠ ثم ٠٠ لا تنس أننى الربان هنا !

فصاح به فوما وقد هرب الدم من وجنتيه ، وأخذ جسمه كله يرتجف :

ـ ربان ! فماذا أنا ٠٠ اذن !

ـ ليس ثم ما يدعوك الى هذا الصياح ٠٠٠ ان كان هذا كله بسبب امرأة لا قيمة لها !

واصطبغ وجه فوما ببقع حمراء ، وجعل ينب من احدى قدميه الى القدم الاخرى ، ثم كتل قبضتيه ووضعهما فى جيبيه ، وقال بصوت ثابت ، ساكن :

ـ اسمع ٠٠ أنت ربان !٠٠ اذا تفوهت بكلمة أخرى فتستطيع أن تأخذ بعضك ، وتنكشح من هنا ! أخرج من المركب ! وسيمكننا ،

أنا والمرشـــد أن نعمل بدونك ٠٠ فاهم ! لا تفكر أنك تستطيع أن تصدر أوامرك الى ٠

لقد شده بيفيم ٠٠ ووقف غاضا عينيه عن فوما ، غير مستطيع أن ينطق بكلمة !

ـ لقد سألتك ان كنت تفهم !

ـ أجل أجل ! ولكن ٠٠ فيم هذا الصخب كله ! أمن أجـل هذه المرأة ال ٠٠٠

ـ اخرس !

وعرف الربان من عينى فوما المشتعلتين ، ووجهه المتقلص ، أن من الفطنة أن ينسحب ٠٠ وسرعان ما فعل ٠

لقد كان بيفيم ناقما على فوما ، وكان يعتقد أنه عومل معـــامله ظالمة ، لكنه أدرك فى الوقت نفسه أنه أمام ســـيد حقيقى قوى الارادة ٠ ولأنه كان معتادا أن يتلقى الأوامر فى مثل هذه الظروف ، لم ير بأسا فى أن يستشعر أن اليد التى فوقه يد قوية ذات بأس ٠ وقد توجه فى الحال الى قمرة المرشد فقص عليه ما حدث ، وحسيرا فعل ٠

وقال له وهو يصل رواية القصة :

ـ فما رأيك فى هذا ؟ انهم يقولون ان كلب الصيد الجيد تنجلى مواهبه لأول مرة نأخذه للصيد فيها ٠٠٠ وقد يبرز من المزايا ما لم تكن تدل عليه مشيته المترنحة المختلجة ٠٠٠ لا بأس ٠٠ دعه ينم لعبته ٠٠ فلن يسفر هذا عن ضرر ما ٠٠ فقط ٠٠ هذه الحدة التى تتملكه ٠٠ ! وهذه الطريقة التى ثار بها فى وجهى ! لقد كان يطن كالطبل !٠٠ حقيقة انه لم يلبث طويلا حتى دل على معدنه ، وعلى الخامة التى صنع منها ٠٠٠ انه ليخيل لك أنهم كانوا يرضعونه القوة ، ويطعمونه السلطان ٠٠ لا بالملعقة ٠٠ ولكن بالجردل !

لقد كان ما قاله بيفيم حقا كل الحق ٠٠ فلقد تغير فوما فى الأيام

الاخيرة تغيرا تاما ، بفعل العاطفـة التى شبت فى أعماقه فجعلته المالك المسيطر على جسم هذه المرأة وروحها ... ولقد راح يعب عما من المفاتن المتأججة التى أصبح سيدها المسيطر ... انها قضت على جميع المتناقضات وألوان الشذوذ التى كانت تجعله يبدو شابا بليدا عببا ، كما أفعمت قلبه بشباب الكبرياء ، وبالشعور بذاته هو ، والاحساس بفرديته . ان حب الرجل المرأة خير أى خير للرجل ، أيا كان هذا الحب ، حتى لو لم يجلب له الا الضنى والألم ، وذلك أن الألم نفسه لا يخلو من الخير . ان السم هو علاج النفوس الخبيثة ، أما الحب ، فيصهر النفوس السليمة ويصلحها كما تصهر النـــار الحديد وتصلحه .

ان افتتان فوما بهـذه المرأة ذات الثلاثين ، التى كان حبهـــا له أنشودة البهجة لشبابها ، لم يلهه عن عمله الذى كان يعمل . انه لم يكن يستغرقه حبه فينسى عمله ، ولا عمله فينسى حبه ... بل كان يعدل كل العدل بين هذا وذاك ، لقد كانت المرأة كالخمر الجيـدة ، تثير فيه الحماسة للعمل ، بقدر ما كانت تثير فيه الحماسة للحب .. بل لقد كانت هى نفسها ترتد الى شـــبابها وعنفوانها تحت سحر ملاطفاته ومعابثاته .

وعندما انتهت بهم الرحلة الى برم ، وجد فوما خطابا ينتظره من اشبينه ماياكين يخبره فيه بأن اجنات كان يستعين على وحشته ووحدته بشرب الخمر .. ولما كان هذا خطرا على شيخوخته الوانيه فيخلق بفوما أن يسرع بانهاء أعماله بقدر ما يستطيع ، وأن يعود أدراجه الى المدينة . وقد استنتج فوما من ثنايا الخطاب معنى كان أشبه بالنذير الذى آتلف عليه هناءة قلبه .. الا أن هذه الغمامة القاتمة سرعان ما قشعتها أعباء العمل وملاطفات بيلاجيا . وكان الوقت يمضى حثيثا مسرعا فى سرعة تيار النهر ، وكان كل يوم يمضى يزيد فوما تجارب جديدة وأفكارا جديدة . وكان حب بيلاجيا حب الخليلة المتأجج البالغ فى

عمقه المدى الذى لا تستطيع الا امرأة فى سنها أن توفره لخليلها ٠٠ وتسقيه كأسه حتى الثمالة ٠ وكانت تتفنن أحيانا فى استحداث احساس جديد لا يقل قوة وعمقا عن الاحساس بالحب الملتهب نفسه . ولا يقل أثرا فى ربطها بفوما برباط آكد وآمن ٠٠ انه احساس بأحاسيس الامومة أشبه ، واليها أقرب ، الأمومة التى همها الوحيد وشغلها الشاغل هو المحافظة على وحيدها من الوقوع فى أخطاء قتاله ، وتعليمه حكمة الحياة ٠ لقد كانت فى كثير من الاحيان ، وهما جالسان متعانقين فى الليل على ظهر المركب ، ربما تكلمت اليه فى صوت حزين عطوف ، تقول :

ــ استمع الى كما تستمع الى أختك الكبرى ٠ ان لدىمن تجارب هده الدنيا الشىء الكثير ، وانى لعلى دراية بالناس ومعرفة ، وكم دا مر على من أحوالهم طوال حياتى ٠٠ كن على حذر وأنت تختار أصدقاءك ، لأنمن الناس من لا يقلون عن المرض الفتاك فى نقل العدوى ، وأنت لا تستطيع أن تدرك ذلك أول عهدك بصداقة أحدهم ٠ وقد يبدو الصديق من الاصدقاء كما يبدو أى صديق آخر ، الا أنك تكون قد ابتليت بما فيه من عيوب ونقائص قبل أن تفطن الى ذلك ٠ وانى ان حذرتك الرجال ، فأنت بالتحذير أولى منا ٠٠ معاشر النساء (يا رعاك الله منهن !) ٠ انك لا تزال غضا رطب العود ، وان قلبك الغرير لم يعله الصدأ بعد ٠ ان الغلمان أمثالك ــ أولئك الاقوياء الوجهاء الاغنياء ــ هم على الدوام صيد ثمين للنساء ، فاياك اياك والمرأة الناعمة الحالمة ، فهى تمص الرجال كما يمص الدم العلق ، وهى لا تفتأ تمص وتمص وتمص ، دون أن تشعر ضحيتها البائسة ، ثم ماذا يكون المآل ؟! تذهب الضحية ، وتبقى الدودة قوية طرية وفى كامل صحتها !! ان النساء يحطمن قلوب الرجال ، ولا يعوضنهم شيئا ٠٠ وقل منهن من لا تسعى الى فائدة ، ومن لا تطمع فى ربح ٠٠ فان وجدن ٠٠ فهن أولى بمثلك يا فوما ٠

وتبسمت كالتى تقول له : « مثلى »

والحق أن بيلاجيا لم تكن تفكر فى كسب مادى قط · وقد اشترى لها فوما بعض الملابس والحلى من برم · وقد فرحت بها عندما أهداها اليها ، الا أنها عندما ألقت نظرها عليها لم تملك الا أن تقول فى قلق واشتغال بال :

- أليس فى هذا اسراف وتبذير يا فوما ! ان أباك سيغضب . لا شك · اننى أحبك على أية حال كان أمرنا ·· وبدون هذا كله !

وقد حدثته منذ أول أمرهما أنها لن تذهب معه الى أبعد من قازان ، حيث أختها المتزوجة · ولم يكن فوما يعتقد أنها ستتركه ثم ، وقبل ليلة من وصولهما الى تلك المدينة ، وبعد أن ذكرته بيلاجيا بذلك ، اذا هو يشعر بالغم والكآبة ، ويرجوها ألا تفعل ، وأن تبقى معه · وتجيبه بيلاجيا :

- حلمك حلمك ·· لا تحزن مقدما ·· ان أمامنا ليلة بتمامها ، وسيكون لديك من الوقت ما يكفيك لسكب الدموع ·· اذا كنت ستشعر حقيقة بأنك تفقدنى ·

الا أن هذا لم يزده الا الحاحا فى مطالبتها بالبقاء ، وأن تبقى معه ، لأنه يريد أن ·· يتزوجها ·

وتضاحكت ·· ثم قالت :

- أوه ·· هو ·· فهذا هو ما تريد اذن ! تريد أن أهجر زوجا حبا فى أجلك ! ما شاء الله ! ما أطيب قلبك ! وما أعظم سذاجتك ، فأنت تريد أن تتزوج اذن ؟ وهل يتزوج الرجال أمثالى ؟ انك ستجد الكثير من الحبيبات قبل أن تفعل ·· أوصيك ألا تتزوج حتى تكون قد بلوت من أمر هذه الدنيا ما ينفعك ·· وحتى تكون قد شبعت من أطايب الحياة شبعا يجعلك تتوق الى خبزها الاسود ! وحينئذ يكون قد آن لك أن تتزوج · ان الرجل الذى له مثل صحتك يجب ألا يتزوج مبكرا · اذ أن زوجة واحدة لا تكفيه ، ومن ثم فلن ينفك يجرى وراء

الاحريات ! اذا أردت أن تكون سعيدا ، فانتظر حتى تتيقن أن زوجه واحدة ستكفيك !

الا أن فوما كان ، كلما زادته من هذا الحديث ، لا يزداد الا هما وعنبانا من فكرة فراقهما ،وأخيرا قالت له فى هدوء :

ــ اسمع ٠٠ اذا كنت تحمل شعلة لا حاجة بك اليها ، لأن حولك من الضوء ما فيه الكفاية ، فخير لك أن تلقى بها فى الماء ، بدلا من أن تملأ الدنيا من حولك دخانا ، ، أو من أن تحرق يديك !

ــ لست أفهم ماذا تعنين ٠

ــ حاول أن تفهم ٠٠ انك لم تسىء الى قط ، ولست أريد أن ألحق بك أية اساءة ٠٠ وهذا هو ما أريد أن أتركك من أجله ٠

ان من الصعب التكهن بما كان سينتهى اليه نقاشهما لو لم تتدخل المصادفات والظروف ٠ لقد تسلم فوما في قازان برقية من والده يقول له فيها باختصار :

ــ احضر حالا بباخرة المسافرين

وقد غاص قلب فوما فى رجليه ، غير أنه بعد هذا ببضع ساعات كان واقفا ، أصفر ، شاحب الوجه ، منكس الرأس ، فوق ظهر باخرة المسافرين التى كانت قد أقلعت ،وأخذت تبتعد عن ضفة النهر ٠ ولم يشعر الا وهو واقف بلا حراك ، وقد قبض على الدرابزين بكلتا يديه ، وراح ينظر ، دون أن يطرف ، الى وجه تلك المرأة التى خيل اليه أنه يتلاشى بعيدا عن عينيه ، مع ما يتلاشى من الميناء ومن ضفة النهر ٠ لقد كانت بيلاجيا تلوح له بمنديلها وتبتسم ٠٠ الا أنه كان يعرف أنها تبكى ! لقد كان صدر قميصه لا يزال مبللا بدموعها ، تلك الدموع التى تركت قلبه المتألم المعذب يشعر بالبرد والبلل ! ثم أخذ شخصها يتضاءل ويتضاءل وبينما كان فوما يرنو اليها كان يحس ان شعورا

ما ، فويا جديدا قد اقتحم قلبه ليسكن فيه مع حزنه لفقده المرأة ، ومع خوفه على أبيه . لقد كان احساسا بالغيظ والكراهية لشخص ما .. ولكن من هو ؟ انه لم يكن يدرى !.

وابتعدت الباخرة .. وأصبح الزحام المجتمع فوق الميناء أشـــبه بلطخة لا وجه لها ولا رجلان ولا حركة .. وترك فوما موقفـــه من الدرابزين ، وراح يذرع ظهر الباخرة جيئة وذهابا ، فى هم وتفكير .

وجلس المسافرون الذين كانوا يثرثرون ويصخبون الى شايهم . وكان الندل ـ وبالأحرى الجرسونات ـ يأتون بالآنية ويرتبونها على الموائد ، ثم ينفلتون مسرعين نشيطين ، وارتفعت ضحكة طفل من مكان ما بالدرجة الثالثة ، وأخذت فرقة موسيقية صغيرة ترسل أنغامهـــا فى عالم البـــاخرة ، وكان الطباخ يقعقع بأطبـــاقه ويهرس شريحة من اللحم بصفحة سكينه ، وكانت الباخرة الضخمة تمخر العباب ضد التيار ، وهى تهتز مما تبذل من جهد لتشق طريقهـــا وسط الامواج التى كانت تتحول كلها الى زبد ، وكان فوما وهو يحدق بناظريه فى الماء الفوار المنطلق من ذيل الباخرة يشعر برغبة طاغية الى التدمير والتمزيق والتخريب .. لقد كان يحس هو أيضا بأنه يريد أن يشق كالمحراث فى ذلك التيار ، وأن يهشم جبروته بصدره وكتفيه

وسمع شخصا ما يتنهد فى صوت مترهل أجش قائلا : « قضاء » ..وهى كلمة سمعها فوما من قبل.. اذ كانت عمته آنفيسا تستعملها كثيرا وهى تجيب على أسئلته . وقد أخطرت هذه الكلمه بحروفهـــا الأربعة ، فى ذهن فوما قوة شبيهة بقوة الله .. ورفع عينيه ليرى من المتكلم .. فلمح رجلين أحدهما عجوز وخط الشيب شعره ، ذو وجه لطيف رقيق ، أما الآخر فكان أصـــغر سنا من صاحبه ، وله عينان كبيرتان وانيتان ، ولحية سوداء مدببة . وفى وسط وجهه ينهض أنف كبير غزير اللحم ، على جانبيه خدان معروقان مما ذكر فوما بوجـــسا اشسينه ماياكين .

وأنشأ الرجل العجوز يؤكد ما قاله صاحبه :

ـ أجل ، القضاء ! انه يظل مهوما فوق الحياة كما يهوم صياد السمك فوق الغدير ، يتحسس المواضع التى يلقى فيها صنارته ، فتتلقفها السمكة الجائعة .. ثم يلى ذلك ـ كما تعلم ـ انطراح الفريسة على أرض الشاطىء وهى تلهث ، حزينة محطومة القلب .. فهذا هو القضاء ، يا صديقى !

وأغمض فوما عينيه ، كأنما بهرتهما شعاعة من ضوء الشمس . ولم يعتم أن قال بصوت عال ، وهو يهز رأسه من العجب : «صحيح، أوه .. صحيح جدا ! »

والتفت الرجلان وجعلا يتفرسان فيه ـ الرجل العجوز بابتسامة شاحبة معبرة ، ـ والاخر بنظرة استهجان وانكار من تحت جبين مقطب . وقد أربك هذا فوما ، فاحمر وجهه خجلا ، وأخذ بعضه وانصرف ، وهولايني يفكر فى هذا القضاء .. وقد تولاه العجب .. لما تلطف الى هذا الحد فمن عليه بتلك المرأة .. لالشىء الا لكى يعود فينتزعها منه بمثل تلك السرعة ، وبمثل تلك القسوة .. ثم أدرك أن الشعور القارص الذى كان كامنا فيه لا يفارقه كان حنقا على القضاء الذى كان يتلاعب به بهذه القسوة . ان فوما لم يسبق أن رأى من الحياة الا وجهها البسام المدلل ، ومن ثم لم يرقه أن يجد فى كأسهما هذه القطرة الأولى من سمها الزعاف .. لقد كان يستلقى الليالى الطوال مؤرقا ساهر العينين يفكر فى هذا الذى قاله الرجل العجوز ، وهو يجتر حنقه وما يكظم من الغيظ .. الا أن هذا الحنق أثار فى نفسه السخط ، وجعله يتشهى الانتقام ، أكثر مما جعله ذليلا منكسر الخاطر مقطوع الرجاء .

ولقى فوما اشبينه ينتظره على المرفأ ، فراح يمطره بالأسئلة ، وهو يتلهف لمعرفة ما هنالك .

ــ أبوك ! لقد جن جنونه يا مولانا !

بهذا أجابه الرجل ، وكانت عيناه الخضراوان تلمعان وهو جالس الى جانب الشاب فى العربة

ــ من السكر !

ــ ألعن ! لقد أصبح معتوها تماما !

ــ قل بالله عليك ٠٠ قل !

ــ أقول ياسيدى ٠٠ الموضوع ٠٠ فيه واحدة ٠٠ ست صغيرة ٠٠ تحمحم حواليه !

ــ جميل !

قالها فوما وقد رف فى خياله طيف بيلاجيا يداعبه مداعبة لطيفة

ــ وقد تمكن سحرها من فؤاد حضرته ٠٠ وراحت تحلبه ٠٠ وتأتى عليه !

وهنا تذكر فوما ما حذرته به بيلاجيا من النساء ولا سيما « السواهى » فراح يسأل :

ــ وهل هى من النوع الساهى ؟ هه !

ــ هى ! يا سلام ! ساهية كالبيت الذى شبت فى جوانبه حريقة ٠٠ لقد لطشت من حضرته خمسة وسبعين ألف أهيف ، وكأنها تتناول منه ريشة !

ــ يا خبر ! ومن هى ؟

ــ سونيا ميدنسكايا ٠٠ زوجة المهندس

ــ يا للمصيبة السوداء ! هل تقصد أن تقول ــ أيستطيع أبى ٠٠ أخليلته هى ؟

وأرسل فوما سؤاله هذا، وهو مشدوه مبهور الأنفاس

ورجع اشبيينه الى الخلف قليلا ، وجحظت عيناه ، ثم قال :

ــ والله انك لأكثر من أبيك جنونا أيها الولد ! ألعن منه ! فكر فيما تقول ؛ خليلة وهو فى سن الثالثة والستين ؟ وبمثل هذا الثمن ؟ ما هذا ؟ وكيف تفكر ذلك التفكير ! حاضر ٠٠ صبرا حتى أبلغ أباك هذا الكلام !

ثم انفجر يضحك ضحكة مقهقهة جعلت لحيته المشعثة تهتز اهتزازا قبيحا ٠ وقد ظل فوما لحظة وهو لا يفهم ماذا يريد هـــذا الرجل أن يقول ٠٠ ان ماياكين العجوز لم يكن فى حالته الطبيعيةعلى الاطلاق ٠٠ لقد كان قلقا وفى حالة عصبية ، لقد كان كلامه ، الذى كان يتدفق فى الاحوال العادية ، كلاما متقطعا غير مرتبط الاواصر ٠٠ وكان لا ينفك يهوشه بالســباب والبصق ، حتى لكان فوما أعجز من أن يفهم ماذا يعنى ، والام يرمى ٠ الظاهر أن صوفيا يا فلوفنا مدنسكايا ، زوجة هذا المهندس الغنى ، واحدى السيدات المشهورات فى المدينة بمساعيهن التى لا تكل فى الاضطلاع بالمشروعات الخيرية ، قد خاطبت اجنات جورديبيف بصدد التبرع بخمسة وسبعين ألف روبل لبناء ملجأ للمشردين ، ومكتبة عامة وصالة للقراءة ٠ وقد أثنت الصحف على اجنات لاستجابته لهذا النداء ، ثناء رفعته به الى عنان السماء ، عـلى كرمه وأريحيته ٠ وكان فوما يعرف هذه السيدة ، فقد رآها غير مرة وهى تسير فى المدينة ٠٠ وكانت سيدة قليلة الجسم ، الا أنها اشتهرت مع ذلك بأنها من أرشق سيدات المدينة ٠٠ وكان الأهالى لا يعفونها من الغمز وشىء من سوء الاحدوثة ٠

ولما عرف فوما جلية الأمر ، حدج الرجل ثم قال :

ــ أهذا هو كل ما هنالك ؟ ٠٠ وتتركنى مع ذاك أفكر ٠٠ ويذهب بى الظن كل مذهب ؟ وزنجر الرجل العجوز قائلا :

ـ أنت ! أنت كنت تفكر ! بل ٠٠ لقد كان ريقك يجرى !

وسأله فوما فى دهشة :

ـ وفيم كل هذا الغضب ؟

ـ خمسة وسبعون ألف روبل ٠٠ أمبلغ كبير هذا أم ماذا ؟ تفضل ٠٠ أجب أنت :

وظل فوما يفكر مليا ثم قال :

ـ مبلغ كبير بالطبع ٠٠ الا أن أبى لديه المال الكثير ٠٠ ولست أفهم لماذا ٠٠٠ وارتجف ماياكين، وراح يحملق فى عينى فوما بازدراء، ثم سأله بصوت ضعيف

ـ وأنت الذى تقول ذلك ؟

ـ ومن اذن ؟

ـ لا ٠٠ لست أنت الذى تقوله ٠٠ بل هو سفه الشباب وجنونه هو الذى يقوله ٠٠ ثم هو سفه ما أنا فيه من هذه السن الطاعنة التى حنكتها التجارب هو الذى يقول انك لا تزال جروا صغيرا ، ولن ينطى زمن طويل حتى تكبر وتتعلم النباح والهبهبة !

وكان فوما خبيرا بشغف اشبينه باستعمال التشابيه والاستعارات والجمل المجازية فى حديثه ، وقد ناله الشيء الكثير منها من قبل ــ بل لقد كان ماياكين أقسى عليه فى الحديث من أبيه ، الا أنه ضاق بهذه المرة ، ولم يملك الا أن يجيبه فى حزم واصرار :

ـ لست أدرى ما الداعى لأن تكلمنى بهذه اللهجة ! ثم ٠٠ اننى لم أعد طفلا بعد

وقال الرجل ساخرا مستهزئا وهو يرفع هامته :

- لا يا شيخ !

كان هذا كثيرا على فوما .. ولم يملك الا أن حدج الرجل بنظرة صارمة ، وأخذ يجيبه هذا الجواب الواضح الصريح :

- فعلا أنا لم أعد طفلا .. وأؤكد لك . وقد سمعت الكثـــير من صياحك ولا أريد أن أسمع أكثر !

- اهم .. اهم .. تس تس تس ! أستميحك العفو !

ولولب الرجل عينيه ، ثم أخذ يلوك شفتيه ، واستدار برأسه ، وظل صامتا دقيقة أواثنتين . وعرجت العربة فى شارع ضيق ؛ وحينما لمح فوما سطح منزله مال الى الأمام على غير وعى منه .

ثم قال ماياكين وهو يطرف بعينيه :

- أتدرى فيمن كنت تنشب أسنانك ؟

وأجابه فوما وقد سره أن يسمع اشينه يقول ذلك :

ولماذا ؟ هل كانت أسنانا حادة ؟

- الى حد ما .. وهذا شيء جميل يا بنى ، جميل جدا فى الواقع .. لقد كنا نخشى ، أبوك وأنا ، أن تطلع مغفلا .. عال ! وهل تعلمت شرب الفودكا أيضا ..

- نعم .. تعلمتها :

- من زمان ؟ وهل تشرب كثيرا ؟

- ولماذا كثيرا ؟

- كبعضهم ؟!

- كلا .. وحاشا !

- اهم .. عال عال .. ولا بأس فى هذا كله . الا أنك صريح أكثر مما ينبغى .. و .. مدب ! انك لا تبالى أن تبوح بأسرارك لاى شخص .. فخذ بالك يا بنى .. فليس من المناسب دائما أن تصارح

للناس بما تنطوى عليه نفسك ـ والبكم ، ولا أقول السكوت ، واجب ينبغى لك أن تلزمه أحيانا •• وبهذا تنسى الذنوب وتكسب الاصدقاء• ولسان الانسان نادرا ما يكون رطبا أو يعمل لما يقول حسابا •• وبعد •• فأبوك لا ينتظر حضورك •• وأغلب الظن أنه غير موجود بالمنزل•

بل كان بالمنزل بالفعل • فها هو ذا •• طنين ضحكة العميق الاجش ينطلق من النافذة المفتوحة • وحينما وقفت العربة أمام باب المنزل اذا هو يطل من الشباك •• وحينما لمح ابنه اذا هو يصيح طربا :

ـ ماذا ؟ هل عدت بالفعل ؟!

وبعد هذا بدقيقة واحدة كان الرجل يضم ابنه الى صدره باحدى يديه ، ويميل رأسه الى الوراء بيده الاخرى ليحدق بكلتا عينيه فى وجهه ، ويقول متعجبا وبصوت ملؤه البهجة :

« لوحتك الشمس ، وزاد وزنك ، وعدت معافى أيها الشحاذ !

ثم ينظر الى ماياكين ويقول :

ـ وأنت أيها المجنون •• كيف ترى فوما ؟

ويجيبه الرجل بصوت فيه رنين الفضة :

ـ ابن بارك الله لك فيه •

ولمح فوما وهو ينظر من فوق كتف أبيه امرأة نحيلة ذات شعر شبيه بالزغب ، جالسة ومرفقاها على المنضدة فى ركن بعيد من الحجرة لقد كان لها عينان دعجاوان ، وحاجبان رشيقان ، وشفتان لطيفتان حمراوان •• فى وجه رقيق شاحب ، وكان من ورائها أصيص من نبات الاقحوان انتشرت أغصانه المزهرة أعلى رأسها المتوج بذاك التاج الذهبى •

وحيا السيدة ماياكين بصوت فيه رنة عذبة ، وهو متجه اليها بيد ممدودة ، قائلا :

ـ كيف الاحوال يا سيدة صوفيا يافلوفنا ؟ألا تزالين تأكلين أمخاخ الفقراء من أمثالنا نحن الشحاذين لتجمعي التبرعات لمشروعاتك ؟ هه :

وحياها فوما بانحناءة دون أن يتكلم ، ودون أن يسمع ما أجابت به ماياكين ، ولا ماذا كان أبوه يقول ، أما السيدة الصغيرة فقد نظرت اليه بابتسامة ترحيب رفت على شفتيها .

لقد كان جسمها القريب من أجسام النبات ، المتشح ببعض الثياب السمراء يمتزج بنجادة الكرسى ذات اللون الخمرى ، فكانت هذه الظهارة الداكنة تزيد من تألق شعرها الذهبى ، وصفرة وجهها الجذاب .. لقد كانت وهى جالسة فى ذلك الركن تحت أغصان الاقحوانة أشبه بزهرة .. أو .. أيقونة !

وقال اجنات :

ـ انظرى ! انه لا يستطيع أن يصرف عينيه عنك ، صوفيا يافلوفنا .. ألا ترين أنه حصان صغير لطيف .. طلوقة ! هه !

ولم يسعها الا أن تغضى أهدابها ، وصبغت خديها حمرة خفيفة ، وانطلقت منها ضحكة أشبه برنين أجراس فضية .. ثم نهضت واقفة وهى تقول :

ـ أستأذن .. ولن أتطفل بعد

وفغمت خياشيم فوما رائحة عطر لطيف وهى تمر به ، ولاحظ أن عينيها زرقاوان زرقة داكنة .. وأن حاجبيها يكادان يكونان أسمرين

وقال ماياكين وهو ينظر فى اثرها شزرا :

ـ وهكذا انصرفت تلك ال .. الرقيعة !

وخاطب اجنات ابنه وهو يدفعه الى الكرسى الذى كانت السيدة

تجلس عليه ، ولكن فوما رمق الكرسى بنظرة ذات معنى ، ثم جلس على كرسى آخر :

- والآن .. حدثنا عن رحلتك .. هل أنفقت مالا كثيرا ؟

وقبل أن يجيب فوما ، وقوق ماياكين قائلا ، وهو يحدج فوما بعينيه المبرومتين :

- شيء قليل .. قليل جدا ، اهـ ! انك اذا وقفت أمامها بفمك مفغورا هكذا ، فانها ستلطش كل ما فى جيوبك !

ولم يعر فوما اشارة اشبينه التفاتا ، وبعد مقدمة خاطفة ، شرع يقص على أبيه ما كان من أمر رحلته ، لكن اجنات قاطعه قائلا :

- لحظة يا فوما .. أشعر بحاجة الى قليل من الشراب

وانتهز فوما هذه المناسبة فقال منكرا :

- انهم يقولون انك كنت تسرف فى الشراب يا أبى .

ونظر اليه اجنات دهشا ثم قال :

- وهل هذه هى الطريقة التى تخاطب بها أباك ؟

ونكس فوما عينيه .. فقال أبوه .

- حسن

ثم دعا بالشراب فى صفح واغضاء .

ووقف ماياكين ، وجعل يحدق فى الرجل وابنه لحظات ، ثم استأذن فى الانصراف ، وطلب اليهما ان يشرفاه بالحضور لتناول فنجال من الشاى فى حديقته ذلك المساء

وكأنما أحس فوما ببعض الضيق لوجوده على انفراد مع والده فسأل عن عمته آنفيسا .. فقال له أبوه :

- انها فى زيارة لاحد الاديرة .. والآن .. خبرنى عن أمور الرحلة ، فى حين أتناول شيئا من الشراب

وفى دقائق قليلة كان فوما قد فرغ من اعطاء أبيه خلاصة سريعة عن رحلته ، ثم قال :

ـ وقد أنفقت بعض المال على نفسى .

ـ وكم ؟

ـ ما يقرب من ... ستمائة روبل .

ـ فى ستة أسابيع ؟ يا له من مبلغ كبير ! انك وكيل كبير المرتب وفيم أنفقت هذا المبلغ كله ؟

ـ لقد تبرعت بثلثمائة وزنة من القمح !

ـ ثلثمائة وزنة ؟ لمن ؟

وقص عليه فوما أمر هذا التبرع ، فقال أبوه :

ـ حسن جدا .. ان أمثال هذه التبرعات خير فى خير ، وهى تشريف لأبيك وللشركة .. ولا يمكن اعتبارها خسائر أبدا لأنها تستثمر فى أغراض شريفة .. وليس ثم اعلان عن التاجر خير منها يا بنى . ثم فيم أنفقت الباقى ؟

ـ أوه .. فى أمور شتى .

وأصر اجنات على أن يعرف ، فقال وهو يفحص وجه فوما فحصا دقيقا :

ـ خبرنى صراحة .. اننى لا أهتم بالمال فى حد ذاته ، ولكن الذى يهمنى هو كيف كنت تنفقه ، وتزجى به فراغك .

وغمغم فوما يقول :

ـ أو .. أكلت .. و .. شربت .

ـ شربت ؟ فودكا ؟!

ـ وفودكا أيضا .

ـ أحسب أن أوان ذلك لم يحن بعد ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ اننى لم أسكر قط ٠٠ واسأل ييفيم ٠

ـ ولماذا أسأل ييفيم ؟ بل أريد أن أعرف كل شيء منك أنت ! وعلى هذا فقد شربتها ٠٠ هه !

ـ يمكنني الاستغناء عنها ٠

ـ ربما ٠٠ اليك بعض الشراب ٠

ونظر فوما الى أبيه ، ثم كشر تكشيرة كبيرة ضاحكة ، بادله أبوه مثلها :

ـ يا للعنة ! اشرب ان أحببت ، ولكن فى حـدود المعقول ، فلا يحدث شيء مطلقا ٠٠ انك تستطيع التغلب على السكر بالنوم ، لكنك لا تستطيع التغلب على الغباوة بشيء مطلقا ٠٠ فاذكر هـذا ولا تنسه ، وان لم يكن فيه كبير غناء ٠ وهل ٠٠٠ قمت بتجارب ٠٠ نسائية أيضـا ؟ قل ٠٠ صرح لى ! ماذا ٠٠ أتخـاف أن أعطيك علقة ؟٠٠

ـ حصل ٠٠ لقد اصطحبت امرأة على المركب ، أخذتها من برم ٠٠ الى قازان ٠

وزفر اجنات زفرة كبيرة ، ثم قال عابسا :

ـ لقد لوثت نفسك بهذا العمل وأنت صغير السن بعد ٠

ـ اننى فى العشرين من عمـرى ، وطالما حدثتنى أنهم كانوا يتزوجون فى الخامسة عشرة فى أيامكم ٠

ـ كانوا ٠٠ يتزوجون !٠٠ ليسوا ٠٠! أو ٠٠ كفانا من هذا ٠٠ لقد كانت معك امرأة ٠٠ فماذا هى ؟ اسمع يا فوما ٠٠ ان المرأة مثل الجدرى ٠٠ ليس من العدوى بها فرار ٠٠ وأنا لا أدعى لك أننى كنت

ملكا كريما فى شبابى .. ولقد أصبت بها قبل أن أكون فى سنك . وكل ما أستطيع أن أوصيك به هو أن تأخذ حذرك من النساء .

لقد ظل اجنات جالسا جلسته هذه وقتا طويلا وهو لا يتحرك ، ولا يتكلم ، وقد أسند رأسه الى صدره ... ثم بدأ يتحدث الى ولده من جديد فى صوت رزين هادىء :

« اليك ما أردت أن أقوله لك يا فوما . ان أيامى البواقى ليست شيئا كثيرا .. اننى رجل شيخ طاعن فى السن ، وانى لأشعر بشىء ينقل على صدرى ، ويهد صحتى .. وأنا لهذا هامة اليوم أو غد ، وعندما أترك هذه الدنيا فسوف تصبح أنت المالك لجميع أموالى ... وفى أول الأمر ، سيواليك اشبينك ببعض رعايته ، ولا بد لك من الاستماع لنصيحته ... ولقد قمت بأول عمل عهدت به اليك على صورة طيبة ... والعمل أشبه بالجواد المتوقد حيوية ، ولا بد لك من أن تتعلم كيف تروضه وتخضعه لارادتك ، وأن تشد شكيمته اليك شدا ، حتى لا يفلت زمامه من يديك، فحاول أن تشرف من عل ، على جميع أعمالك حتى يتيسر لك دائما أن ترى كل صغيرة وكبيرة منها بعينى طائر ، وأن ترى أصغر المسامير التى تمسكه من الانفلات » .

وبينما كان فوما ينظر الى صدر والده الرحب، وينصت الى صوته المجلجل القوى ، كان يقول فى نفسه : ليس ثم ما يدل على موتك قريبا . وكانت هذه فكرة لذيذة ، وقد كانت سببا لانبثاق حب جديد مفاجىء فى قلبه لهذا الوالد .

وواصل اجنات حديثه يقول :

— اصغ لما يقوله لك ماياكين ، فانه رجل غزير الذكاء ، وفى رأسه من الألمعية ما يكفى لتوزيعه على جميع الناس فى هذه المدينة ، ولو كان شجاعا بقدر ما هو ذكى ، لأصبح الآن من أصحاب الأسماء

الكبيرة ··· والآن ·· وكما سبق أن ذكرت لك ·· انه لم يبق من عمرى شيء كثير ··· ولو أن بيدى ما يجب أن يكون ، لأخذت أستعد لملاقاة منيتى ، وذلك بترك جميع أعمالى ، والتفرغ للصوم والصلاة ، والقيام بعمل يجعل الناس يذكروننى بالخير » ·

وهنا قال فوما مؤكدا :

— أو ·· انهم سيذكرونك بكل خير ولا شك !

— لست أدرى لماذا !

— وما ملجأ المشردين الفقراء هذا اذن !

ورمق اجنات ولده بنظرة وقال ضاحكا :

— اذن فقد كان لدى ماياكين من الوقت ما يكفى لأن يحدثك عن ذاك ، أليس كذلك ؟ أحسب أنه لامنى على هذا !

وقال فوما مبتسما :

— قليلا

— انه لم يكن يصح أن يكون ياكوف ماياكين لو لم يفعل ·

— لقد كان يتحدث عن هذا كما لو كان المال ماله

وعند ذلك انطرح اجنات الى الخلف ، وأخذ يضحك ضحكا شديدا ·

— يا له من غراب عجوز ··· لك حق ··· ان مالى وماله شيء واحد فى نظره ··· وهذا هو الذى أقامه وأقعده بهذا الصدد ··· ان فى رأسه نحلة تطن وتزن ··· هذا الأقرع الأصلع ··· فماذا تحزر أن تكون ؟

وأجابه فوما بعد تفكير قليل :

— لست أدرى ٠

— انه يريد ربط أموالى بأمواله

— وكيف ؟

— خمن

ونظر فوما فى وجه أبيه متفرسا ٠٠٠ وخمن

لقد غام وجهه ، ثم مال فى كرسيه الى الأمام ، وقال فى صوت مصمم :

— أنا لا أريد ذلك ٠٠ ولن أتزوجها ٠

— لا تريد ٠٠ ولماذا ؟ انها فتاة مليحة قوية ٠٠٠ وغير غبية ، ثم هى ابنة أبيها الوحيدة

— وماذا عن تاراس ٠٠ ابنه الذى اختفى ؟

— ما دام قد اختفى ٠٠ فقد اختفى والى غير رجعة ٠٠٠ وهذا هو كل ما هنالك ٠٠٠ وثمة وصية هى الفصل والمعول ، ونصها كما يلى : جميع أملاكى ، سائلة وثابتة تصبح ملكا لابنتى ليوبا بعد وفاتى ، أما أنها أختك من اشبينك ، فيمكننا التغلب على ذلك٠

وقال فوما فى اصرار :

— هذا لا يهم ٠٠ اننى لن أتزوجها !

— لا بأس ، وعلى كل فليس هذا أوان الكلام فى هذا ٠٠٠ ولكن ٠٠ فيم ثورتك عليها هكذا ؟

— أنا لا أحب البنات اللائى من هذا النوع ٠

— ما شاء الله ! والآن ٠٠ أى نوع من البنات تحب ، يا سيدى الظريف ؟

فقال فوما بانفعال :

ـ أحبهن أكثر بساطة ‥ انهـا دائما وسط زملائها الطلبـة هؤلاء ‥‥ ووسط كتبها ‥‥ انهـا من صنف متعال أكثر من أن يصلح لى ‥ وهى تسخر منى

ـ لك حق فى ذلك ٠ انها صبية رشيقة ‥ بحبوحة ‥ بحبوحة أكثر من اللازم حقا ٠ ولكن هذا لا شىء ‥ فالوسخ يزول ــ ولا بد ــ اذا حككته بما فيه الكفاية ، واشبينك رجل عجوز متعال أيضا ، وهو لم يفعل فى حياته شيئا أكثر من جلوسه هكذا بلا عمل ، وقد أتاح له هذا قدرا من التفكير والتروى فى كل شىء ، ومن ثمة فهو رجل يستحق أن يستمع الى نصائحه يا بنى ‥ فهو ذو نظرة تدرك خفايا الأمور ، ثم هو من عنصر كريم ، وحسب عريق ‥ انه من سـلالة كاترين العظمى ، وهو رجل يقدر نفسه ‥‥ وهو عنـدما انقطع نسبه بتبرئه من ولده تاراس ، أحب أن يصل هذا النسب بوضعك فى مكان تاراس ، فهل تدرك معنى ذلك !؟

وقال فوما بعناد :

ـ اننى سأبنى مستقبلى دون الحاجة الى مساعدته

فتهكم والده مجيبا :

ـ انك لم تؤت شيئا من الادراك بعد ٠

وقطع عليهما حديثهما وصول العمة آنفيسا ‥ التى تصيح قبل أن تصل الى باب الغرفة :

ـ فوموشكا ! هل قد رجعت ؟!

وهب فوما للقائها وعلى شفتيه ابتسامة سعيدة مرحة ٠

* * *

وعادت حيـــاة فوما تسير من جديد فى طريقهـــا هذا البطىء الرتيب ، وكان صـوت أبيه لا يزال يطن فى أذنيه بهــــذه النغمة الساخرة الأنيسة ، الا أن سلوكه معه كان أكثر تحفظا وتدقيقا ·· لقد كاد يلزمه دائما بأن يعمل حساب كل شىء مهما كان صغيرا ، وظل يذكره دائما بأنه رباه على اللين والتسـاهل ، دون أن يقيده بالقيود ، ودون أن يلجأ الى المعاملة الخشنة ، كالضرب مثلا

ــ ان من الآباء من يلجئـــون الى الهراوى والمقارع فى تنشـئة أولادهم ، أما أنا ، فلم أمد اليك اصبعا طول حياتى ·

وقال له فوما وهو يحدثه فى ذلك ذات يوم :

ــ أحسب أنه لم يكن ثم سبب يدعو الى ذلك يوما ما

وقد ساء اجنات هذا الرد ، وان يكن فوما قد قاله بلهجة مهذبة، فصاح به :

ــ ما هذا ؟ لقد جعلتك هذه الطريقة فى التربية ولدا جريئا ، أليس كذلك ؟ انك تعرف كيف تكيل الصاع صاعين ··· هه ! فتح عينيك ، والا فان هذه اليـد اللينة الناعمة تنقلب فتـكون يدا من حديد تجعل الدموع تنبثق من أعقاب قدميك ··· أتظن أنك صرت أكبر من أن تنصـاع لأمثالنا ؟ يا لك من ولد كريه أشبه بشجرة عش الغراب، تنتشر منها الرائحة المنتنة وهى لا تزال صغيرة لا تزيد على قيراطين !!

وسأله فوما مرة ، عندما كان اجنات صافى المزاج :

ــ لماذا تقسو على وتعاملنى معاملة خشنة هكذا ؟

ــ لأنك لا تحتمل أن يوجه أبوك اليــك انتقادا ، فأنت دائمـا تجادل وترد وتسخف فى المعارضة ·

ــ لكنك تظلمنى، فأنا لم أكن قط أردأ مما تعودت أن أكون ·

وهل تظن أننى لا ألاحظ كيف يسلك الشبان الذين هم فى سنى ٠

ـ انه لا يضرك أن ينالك شيء من الزجر من حين الى آخر ٠٠٠ ثم أنا أفعل هـذا لأنى ألاحظ أن فيك شـيئا لا يعجبنى ٠٠ أما ما هذا الشيء ، فلست أدرى ٠٠٠ الا أننى أراه رأى العين وهو لابد سيلحق بك الضرر ٠

وقد أسلم هذا الكلام فوما للتفكير ٠ فهو نفسه كان يدرك وجود خلة فيه تميزه من سائر أقرانه الذين فى سنه ، الا أنه لم يكن يعرف ما هي ؟٠ لقد بدأ يراقب نفسه فى غمرة من الشك ٠

وكان يهوى وجـوده وسط الضجيج والصخب فى البورصـة ، والاختلاط بكبار رجال الأعمال ممن يعقدون الصفقات التجارية التى تبـلغ آلاف آلاف الروبلات ، وكانت تخـدعه ألوان الملق التى كان يبديها له من هم أقل شأنا من التجار حينما يخاطبونه بهذه اللهجة المملوءة بالاحترام المصطنع ، منادين اياه : فوما جورديبيف ٠ وكان كلما عهد اليه أبوه بمهمة من مهام العمل ليقوم بها بنفسه يخامره الشعور بالفخار ، وتشيع فيه الكبرياء ، ولا سيما اذا وجه اليـه أبوه كلمة ثناء لا يقصد بها الا أن يتهكم بها عليه ٠ وكان يتشـوف الى أن ينظر الناس اليـه نظرتهم الى رجل شب عن الطوق ، نظرة فيها من احـترام رجال الأعمال ما فيهـا ٠٠٠ الا أنه كان لا يزال عزوفا عن الخلق ، وراغبـا عن عقد أواصر الصداقة مع أحـد منهم ، بالرغم من كثرة من يلقاهم من أبناء التجار ممن هم في سنه ٠٠٠ لقد كانوا يدعونه على الدوام لمشـاطرتهم فى عربداتهم ٠٠ لـكنه كان يرفض دعواتهم تلك في الحال ٠ لقد كان ربما يعتذر بقوله مازحا :

ـ اننى أخشى اذا كشف آباؤكم شقاواتكم أن يدبغوا لكم ظهوركم بالسياط ٠٠ كما أخشى أنا أن « ينتش » أبى أذنى !

انه لم يكن يحب هذه الطريقة التى يعربدون بها ويلتذون ويأثون من وراء ظهـور آبائهم ٠٠ كأن يسرقوا النقود من صـناديق هؤلاء

الآباء ، أو كأن يقترضوا الأموال بأرباح فاحشة ولآجال طويلة • وكانوا هم يكرهون فوما لما كان يبديه من ذلك التحفظ والبعد عنهم، هذا التحفظ الذى كانوا يستنتجون منه معنى من معانى الكبر الذى يسخطهم ويحز فى صدورهم •

ولقد كان فوما لا يفتأ يفكر فى بيلاجيا ••• وكان هذا فى أول الأمر يجعله يتشهاها ••• الا أنه أخذ ينساها بمضى الزمن ،وأخذت صورتها تتلاشى من خياله ••• حتى لقد كان طيفها يغيض ليحل محله ، من حيث لا يدرى ، طيف صوفيا بافلوفنا ••• تلك المرأة ذات الجسم النحيل والوجه الملائكى • لقد كانت تأتى كل يوم أحد تقريبا الى والده لحاجة من الحاجات ، التى تدور كلها حول بناء ملجأ المشردين • وكان فوما يشعر فى حضرتها بالارتباك ، وبأنه أخرق سمج ، وأنه بالنسبة الى حجمها الضئيل مخلوق هائل ضخم • وكان ربما اصطبغ وجهه بحمرة الخجل كلما التقت عيناه وعيناها اللطيفتان • وقد لاحظ أن عينيها هاتين تشتد زرقتهما كلما رنت اليه ، وأن شفتها العليا ترتجف وترتفع قليلا ، لتبدو من تحتها ثناياها الرقاق البيض •• وكان هذا يخيفه •• وقد لاحظ أبوه تلك الطريقة التى كان ينظر بها فوما الى صوفيا ، فقال له يوما :

— يحسن ألا تطيل النظر الى ذلك الوجه ••• انه أشبه بجذوة من فحم البتولا ••• ظاهره ناعم خال من اللسع والأذى ، وباطنه ••• أو •• ممتلىء نارا وسعيرا !

ان صوفيا لم تكن تثير فى فوما أية رغبة جسدية ••• وهى لم تكن تشبه بيلاجيا فى شىء قط • ولم يكن فى وسع فوما أن يفهمها • لقد كان يعلم أن الناس يتحدثون عنها ويرسلون ألسنتهم فيها ، غير أنه لم يكن يصدق من أقوالهم شيئا • ولقد تغير رأيه هذا عندما لمحها يوما راكبة فى عربة الى جانب رجل ضخم الجثة ، وعلى رأسه قبعة رمادية وخصلات شعره الطويل مرسلة على كتفيه ،

ووجهه أحمر منتفخ كالبالون ، وليس فى وجهه أثر للحية ، وكان يبدو فى أعين الناس جميعا كأنه امرأة فى ثياب رجل · وقيل لفوما ان هذا الرجل هو زوجها ، وقد ملأه هذا النبأ بانفعالات سوداء متناقضة : لقد بدا له أن يهين المهندس ويشتمه ، لكنه لم يسعه الا أن يحسده فى الوقت نفسه . وأن يحترمه أيضا ··· ولقد كانت صوفيا بافلوفنا تبدو بجانبه أقل جمالا وأيسر على أيدى المتناولين ! ومن أجل هذا أحس فوما بالرثاء لها ، الا أنه راح يفكر فى أعماق نفسه ، وفى شىء من الاقتناع ، فى أنها تكره ــ ولا بد ــ أن يقبلها هذا الرجل !

وفوق هذا كله ·· وأكثر منه ·· ما كان يملأ صدره أحيانا من الاحساس المؤلم المضنى بالفراغ الذى لم يكن من الممكن أن تملأه انطباعات الحاضر ولا ذكريات الماضى ··· الفراغ الذى كان يبتلع كل شىء ·· البورصة ، والعمل ، وتفكيره فى صوفيا · لقد كان هذا شيئا مقلقا مربكا · لقد كان يشك أن فى أعماق هذا الفراغ قوة ما تكمن له ··· عدو يتربص به الدوائر ··· غير معروف الشكل ··· الا أنه مع ذاك يحاول فى اصرار وفى ثبات أن يفرض نفسه ويؤكد ذاته ·

وكان اجنات فى الوقت نفسه لم يتغير ظاهره الا قليلا ، لكنه ازداد قلقا وتجهما ، وكان يشكو من صحته كثيرا ، وكان لا ينى يقول :

ــ اننى لم أعد أستطيع النوم ، بعد أن كنت معتادا الاستغراق فيه لدرجة انك كان يمكنك أن تسلخنى حيا ، فلا أفتح عينى ··· اننى فى هذه الأيام لا أنفك أتقلب طول الليل من جنب الى جنب ·· دون أن تزور عينى سنة من النوم الا فى الصباح ··· ثم هذا قلبى الذى لم يعد ينبض نبضا منتظما ··· فهو حينا يسرع فى دقاته : تك تك تك ·· ثم اذا هو حينا آخر يوشك أن يقف حتى يخيل الى

أنه لن تمضى دقيقة واحدة حتى يكون قد غاص فى وهدة ما ، عميقة مظلمة . آه يا اله السموات ! ارحم عبدك البائس الآثم !

وربما أدار عينيه اللتين فقدتا بريقهما الحاد الجميل ، وهو يرسل زفرات التوبة والانابة

وقد أنشأ مرة يقول فى صوت حزين ، ولكن فى صبر وتسليم

ـ ان الموت مختبىء في ركن ما .. ينتظر أن يحين حينى !

وقد صدق .. فقد أتاه فجعله حطاما !

وحدث هذا فى باكورة يوم من شهر أغسطس . حينما كان فوما مستغرقا فى نومه ، فاذا أحدهم ممسك بكتفه يهزه هزا عنيفا ،واذا صوت أجش يقول له :

ـ قم .. استيقظ !

وفتح فوما عينيه ليرى والده جالسا على كرسى بجانب السرير ، مكررا فى صوت منقبض : « قم .. قم »

لقد كانت الشمس قد بادرت بالشروق، وكانت أشعتها المتساقطه على قميص اجنات الكتانى لا تزال وردية اللون .

وقال فوما وهو يتثاءب ويشد عضلاته :

ـ اننا لا نزال فى الصباح الباكر !

ـ أجل .. لكنك ستجد من الوقت للنوم ما فيه الكفاية فيما بعد

وقال فوما وهو يتأود تحت الغطاء :

ـ أتريد شيئا ؟

فقال الرجل متعجبا ، وفى صوت الذى يرجو :

ـ انهض يا بنى .. أرجـــوك ... لو لم أكن فى حاجة اليك ما أيقظتك .

ونظر فوما فى وجه أبيه فوجده شاحبا ممتقعا ، فقال :

- أمريض أنت ؟ هل أرسل الى الدكتور ؟

وأجابه اجنات منكرا :

- الدكتور ... اننى لست طفلا بعد ... لست بحاجة لأن يقول لى الطبيب ...

- ماذا ؟

- أنا أعرف كل شىء ..

وقالها الرجل العجوز بلهجة غريبة غامضة ، وعيناه ترسلان نظرات غريبة فى جوانب الغرفة ... فهب فوما يلبس ثيابه .

وقال الرجل ثانية بصوت خفيض ، ورأسه منكس الى صدره .

- اننى أخشى أن أتنفس ... وأنا أشعر اننى اذا تنفست نفسا عميقا فان قلبى سينفجر ... اليوم الأحد ... اذهب فأحضر القسيس بمجرد انتهاء الصلاة .

وقال فوما وهو يضحك ضحكة فيها استرحام وفيها استغفار :

- وفيم تفكر يا أبى ؟

- لا شىء ... لا شىء .. هيا اغتسل واخرج الى الحديقة .. لقد أخبرتهم أن يأخذوا غلاية الشاى الى هناك ... وسنشرب الشاى فى الصباح الطلق ... أريد شايا .. شايا ساخنا ثقيلا .

وهب الرجل من مجلسه ، وراح يتمايل فى الغرفة حافى القدمين حتى خرج ، وبينما كان فوما ينظر اليه وهو ذاهب أحس بقلبه تسرى فيه رعدة باردة من الرعب . واغتسل فى سرعة ، ثم ذهب الى الحديقة .

ووجد أباه جالسا فى كرسى كبير من خشب السنديان تحت شجرة تفاح كبيرة تتخلل أغصانها أشعة الشمس ، فتنتشر منها آراد رفيعة على قميص اجنات . لقد كان السكون شاملا فى الحديقة حتى لقد انزعج فوما وهو يمس بعض الأغصان فتحدث هفيفا خفيفا . وكانت الغلاية تكركر فوق منضدتها كما تكركر قطة شبعانة ، وقد انطلقت من بزبوزها حزمة طويلة من البخار ، راحت تندفع فى الهواء . ولقد كانت كركرة هذه الغلاية البخارية الصفراء ، البراقة المزمجرة، فى تلك الهدأة الصامتة وسط الحديقة الخضراء التى جادها الغيث طوال الليل أشبه بشىء دخيل طفيلى ... لقد كانت نغمة ناشزة ، لا تتفق هى والوقت ولا المكان ولا الشعور الذى كان مستوليا على فوما وهو محدق فى أبيه العجوز المريض المتشح بذلك القميص الأبيض، وهو مكوم تحت تلك الظلة من الغصون الخضراء التى يتخللها ثمر التفاح فى رقة واحتشام .

وقال له أبوه : — اجلس .

ويجيبه فوما ، وهو يجلس قبالة الرجل فى رهبة : « ألم يكن من الخير استدعاء الدكتور ؟ »

ولكن اجنات يقول : « لا لا .. انى أشعر الآن بتحسن وأنا هنا فى هذا الهواء . وربما أشعر بتحسن أكثر اذا تناولت شيئا من الشاى » .

وكان يقول هذا وهو يصب لنفسه فنجالا من الشاى ، وكان فوما يلاحظ أن يد أبيه ترتعش وهى تفرغ الشاى . .

وسحب فوما فنجاله دون أن يتكلم ، ثم مال عليه ليشرب ، وهو يسمع بكل ما فى قلبه من هم وحزن ، أنفاس أبيه تسرع وتتحشرج وفجأة ، وقع شىء على المنضدة بشدة وقوة ، حتى لقد اهتزت الفناجيل والأوالى اهتزازا عنيفا

وذعر فوما ، ورفع رأسه ليرى أباه يرسل من عينيه نظرة مرعبا وهو يقول :

ـ تفاحة ملعونة سقطت من الشجرة ، فالى الشيطان ٠٠ لقـ كانت أشبه بطلقة مدفع !! اه !

واقترح فوما على أبيه أن يضع شيئا من الشراب على الشـاى فقال له :

ـ بل هو أحسن بحالته هذه

ثم انبثقت فى سكون الحديقة سقسقة سرب من العصافير فشق الصمت الموحش بجرسـها الجميل ٠٠٠ فلمـا ابتعد السرب عا السكون الوقور فغمر هذا الجمال الناضج كله ، الا أن عينى اجنا كانتا لا تزالان مغشاتين بالرعب ٠

ثم راح يصلب ، ويصلى لله بصـوت مكبوت : ـ يا اله السموا ٠٠٠ ها هى ذى ٠٠ الساعة الأخيرة ٠٠ قد دنت ٠

وهمس فوما يقول :

ـ ما هذا الكلام يا أبى !

ـ عندما تفرغ من شـايك ، اذهب الى القسيس ، ثم الى اشبينك ٠

ـ سأذهب حالا ٠

ـ انهم سيدقون الأجراس للصلاة فى لحظات ٠٠ وعليه فلن تجد القسيس ٠٠ ولا داعى للعجلة ٠٠٠ وربما مرت هذه الأزمة ٠٠٠

ثم أخذ فى ارتشاف الشاى من فنجاله ٠

ـ لشد ما كنت أتمنى أن أعيش عاما آخر أو عامين ٠٠٠ فأنت

لا تزال صغيرا ·· وأنا مشفق عليك ··· وأوصيك بالشرف والحزم ··· ولا تطمع فيما ليس لك · ولكن احرص على ما هو لك ·

وكان يجد صعوبة فى الكلام فمسح بيده على صدره ، ثم قال :

ـ واياك والثقة بالناس ··· ولا تنتظر منهم أى خير ··· وكلنا نعيش لنأخذ لا لنعطى ··· آه ·· يا الهى ·· ارحم عبدك الآثم وهب له المغفرة !

ثم جاء صوت ناقوس من بعيد فشق السكون المخيم ، وهنا صلب اجنات وصلب فوما ثلاث مرات ·

وتلا رنين هذا الصوت النحاسى الأول ، رنين ثان ، فثالث ، ثم جاءت أصوات النواقيس تترى من كل مكان ، بأنغامها الموزونة البديعة ·

وقال اجنات وهو يصغى الى جلجلة الأجراس :

ـ انهم يدقون للصلاة ·· فهل تستطيع أن تميز هذه الأصوات المختلفة ؟

وقال فوما : ـ كلا ··

فقال اجنات . ـ اسمع ·· هذا الرنين العميق ·· انه الناقوس الذى أهداه بيوتر دمترييفتش فياجين الى كنيسة القديس نيقولا ·· ثم هذا ·· اسمع ··· هذا الرنين الأجش ·· انه ناقوس كنيسة القديس براسكوفيا ·

لقد كان الهواء يتخطر بتموجات الأجراس المغنية التى كانت تتلاشى فى زرقة السماء الصافية ·· ولاحظ فوما وهو ينظر فى وجه أبيه أن القتامة التى كانت تتغشاه قد ذهبت ، وحل محلها نور جديد ينبعث من عينيه ·

الا أنه اصطبغ فجأة بلون أحمــــر قان ··· ثم جحظت عينـــاه جحوظا شديدا حتى لقد كانتا على وشك أن تنبا من محاجرهما ·· ثم فغر فاه كالمشدوه ، ثم أرسل آهة غريبة من ملء حلقه هكذا .

- ج · ج · ج - آخ !

ومال رأسه عقب ذلك الى احدى كتفيه ، ثم اذا جسمه يساقط من فوق كرسيه ، كأنما كانت الأرض تتشبث بحقها فى أن تسترده اليها ··· ومضت ثوان وفوما يحدق فيه بصره فى رعب ودهشه دون أن يستطيع كلاما أو حراكا ··· ثم أسرع الى جانبـــه ورفع رأســه من فوق الأرض ، وراح يحدق فى عينيه ··· لقد كانتـا جامدتين غائمتين ، شديدتى الاتساع ، وليس فيهما أى تعبير على الاطلاق - لا ألم ·· ولا خوف ·· ولا بهجة · ونظر فوما حواليه ·· لقد كانت الحديقة خالية شأنها من قبل ، وكان الهواء لا يزال يردد رنين الأجراس ، فارتعشت يدا فوما ، وترك رأس أبيه يهوى على الأرض فخبطته خبطة هينة ، وانبثق شؤبوب رفيع من دم لزج من أحد جانبى الفم على صفحة الخد الداكن ·

وراح فوما يخبط صدره ، ويرسل صرخة مفزوعة وهو يركع الى جنب أبيه ·· لقد جعله الرعب يرتجف ارتجافا ··· وأخذ ينظر فى الحديقة بعينيه المحمومتين عسى أن يجد أحدا ··

الفصل الرابع

● لشد ما صعق فوما بموت أبيه ! لقد اعتراه احساس غريب ·· احساس الذى يشعر كأنما روحه قد ملأها الصمت ··· الصمت الثقيل الراسى الذى يبتلع جميع أصداء الحياة ـ لقد كان من يعرفهم من الناس يحومون حوله ·· يجيئون وينصرفون ·· وقد يتكلمون اليه ·· ثم يجيبهم ·· لكن كلامهم لا يترك فيه أثرا ·· أى أثر ·· لقد كان هذا الكلام يهوى الى الهاوية التى لا قرار لها ·· هاويه الصمت الذى يملأ روحه · انه لم يكن يبكى ولا يحزن ولا يفكر فى أى شىء ··· لقد كان فيما اعتراه من شحوب واكتئاب وتجهم ، يركز جميع قواه فى الاصغاء الى هذا الصمت الذى أخمد جميع مشاعره ، وطرح للريح قلبه ، وأمسك بعقله كالذى يقبض عليه فى فضيحة !

واستقل ماياكين بالاشراف على الجناز · وكان وقع عقبى حذائه يسمع وهو يطرطق بصوت عال وهو يهرع بنشاط من غرفة الى أخرى ، صائحا بالخدم كما لو كان سيدهم ، ويربت على ظهر فوما كأنما يقول له معزيا :

ـ مالك هكذا كأنما تحولت حجرا يا بنى ؟ لقد كان أبوك رجلا شيخا طاعنا فى السن ، ترهل لحمه ··· والموت هو نهاية كل حىء ولا مهرب منه ، وهذا هو الذى يجعل واجب كل منا أن يحافظ على حيويته بقدر مستطاعه فى هذه الدنيا · ولن تستطيع أن ترده الى الحياة بطول بكائك عليه ، ثم هو ليس فى حاجة الى أحزانك ، لأنه

مكتوب : « لا بد من يوم يجىء فيـــــه ملك الموت فينزع الروح من الجسد ، وحينئذ تنسى كل المعارف والأقارب ، وبالاختصار ، لقد أصبح سواء عنده أضحكت أم بكيت • ومهمة الأحياء أن يحافظوا على الحيـاة ، فتجلد وسر عن نفسك ، فهـــذا هو العمل الانسانى الواجب عمله ، وستشعر بحال أحسن فيما بعد •! »

الا أن هذا الكلام أيضا لم يكن له أى أثر ، لا فى عقل فوما ، ولا فى قلبه •

لقد شعر بشىء من الانتعاش يوم الجناز بفضل الحاج اشبينه الذى لم يدع وسيلة من وسائله الظريفة لايقاظ روحه المعنوية المنسحقة الا اتبعها •

ولقد كان النهار يلوح كثيبا غائما ••• وكان آلاف من المشيعين يعثرون وراء النعش فى ضـبابة من العثير الذى تثيره أقـدامهم • وكانت ملابس رجال الدين تتلألأ بما عليها من الذهب والقصب ، ووشوشة الأقدام تنتشر فى الموكب البطىء فتمتزج بأصوات الموسيقى الحزينة التى تصدح بها الفرقة الأسقفية • وكان الناس يتدافعون حـول فوما من يمين وشـمال ومن خلف ••• الا أنه لم يكن يحس بشىء مما حوله وهو يخطو خطواته الواثبة الا ما كان يتخـايل فى عينيه من منظر رأس أبيه الأشيب ، وأصوات تلك الموسيقى التى كانت تجد لها أصداء حزينة بين جوانحه ••• وكان ماياكين ، الذى كان يلازمه دائما ، لا ينفك يهمس فى أذنه قائلا :

ـ انظر كم من الناس هرعوا لتشييع الجنازة ! آلاف وآلاف ! لقد أقبل المحافظ بنفسه ليشيع أباك الى مقره الأخير ، والعمدة ، وجميع أعضـــاء المجلس تقريبا ، ووراءك (انظر بعينك ـ انظر) صـوفيا بافلوفنا ! ان البلد كلها خرجت لتكريم اجنات •

ولم يكن فوما يعير ثرثرة ماياكين أى التفات أول الأمر ، لكنه

ما كاد يردد اسم صوفيا بافلوفنا حتى أدار رأسه فى حركة غير شعورية ، لكنه رأى المحافظ · وقد مست قلبه قطرة ضئيله من الانشراح حينما رأى تلك الشخصية الفخيمة ، وعلى كتفه هذا الوشاح اللامع ، ثم تلك النياشين كلها التى تحلى صدره . ماشيا وراء نعش أبيه بوجهه الرصين الرزين ، وعليه كل تلك المهابة والوقار ·

وغمغم ماياكين وهو يشنف بأنفه شنفات خفيفة ، مخاطبا فوما مرة أخرى :

ـ ماشاء الله ! خمسة وسبعون ألف روبل ! ان مبلغا بهذه الضخامة جدير بألا يجتذب من المشيعين أقل من هذا العدد ! هل سمعت ما يقال من أن سونيا ستضع حجر أساس الملجأ بمجردانتهاء الاربعين على وفاة والدك !

ثم أدار فوما رأسه مرة أخرى ، ولقيت عيناه هذه المرة عينى صوفيا بافلوفنا ، لقد استطاعت النظرة الرقيقة التى رشقته بها أن نبتعث زفرة من أعمق أغوار قلبه ، تحس بعدها فى الحال . كأنما تسربت شعاعة من الضوء الدافىء الى أطواء روحه فأذابت شيئا هنالك · غير أنه أدرك كذلك أن من غير اللائق أن يظل ينظر حوالبه هكذا !

وفى الكنيسة شعر فوما كأن قلبه ينسحق ويتحطم من أثر هده المهابة الحزينة والخشوع الصامت الذى كان يخيم على الصلاة ،وعندما قال له القسيس هذه الكلمات التى تزلزل النفس : « تعال يا بنى ·· وقبل أباك قبلتك الأخيرة » انفرجت شفتاه عن زفرة مكروبة جعلت الجمهور يترنح من وقع مثل هذا الحزن الأليم ·

وكان فوما هو أيضا يترنح من هول الموقف ، فأمسك به اشبينه وتقدم به نحو النعش وهو يقول له كلمات كلها بله ·· وحشوها رعونة وقلة ذوق :

— قبله قبلة قبلة أخرى ·· قبل والد ··· ك ·· المر ·· ح ·· وم ·
قبله، يا فوما قبله ·· قبله ، قبل أن يوسد التراب ويوضع من فوقه الصفاح ، مقيما بين الموتى ، فى ظلام القبر !!

وانحنى فوما ليقبل والده ·· لكنه لم يكد يمس جبينه بشفتيه حتى جفل الى الوراء خائفا يزلزله الرعب ، مما جعل ماياكين يقول له بصوت مكتوم :

— خذ بالك ·· لقد كدت توقعنى على الأرض ! وكانت هذه الكلمات البسيطة التى قالها ماياكين فى غير وعى أجدى على فوما من الذراع التى كانت تسنده ·· فقد نبهت منه ما كان غافلا ·

وكانت صيغة الصلاة تردد هذا التوسل بلسان اجنات : « أيها الاصدقاء والاخوة ·· ابكوا لى ·· أنا ، هذا المسجى أمامكم ، محروما من النور ·· محروما من الهواء » الا أن فوما لم يعرف الى البكاء من سبيل · لقد استولى على نفسه الهلع من منظر هذا الوجه ·· وجه أبيه المتورم المتقع · وقد نفعه هذا الهلع ، اذ أفاقه من تلك الغيبوبه التى غرق فيها فى أثناء ما وجهته اليه الكنيسة من تلك الندبة الطويلة · لقد كان الناس يحدقون به ، ويوجهون اليه كلمات العزاء والرثاء ، فأحس أنهم يحبونه ويرأفون له ، الا أن اشبينه همس فى أذنه يقول : « انظر كيف يتزلفون لك ويتملقونك ! لقد شم الفيران رائحة الجبن ! »

ولقد وقعت هذه الكلمات موقع المقت من نفس فوما ، الا أنها افادته على كل حال ، فقد جعلته يستجيب لمن يكلمونه يطريقة ما ·

وعندما كانوا ينشدون أنشودة الراحة الابدية ، فى المقبرة ، بكى فوما من جديد ، فأمسك اشبينه بذراعه مرة أخرى ···وعندما كانا خارجين من الجبانة أخذ يقول له مشجعا :

« والله انك لولد خرع ! أتظن أن وفاة أبيك شىء هين على ؟ اننى

أنا الشخص الوحيد الذى يقدره قدره . كما كنت أنت ولده الوحيد .... ولكن هأنذا .. لا أبكى .. لقد كنت أنا وهو أشبه بأخوين شقيقين ما يقرب من ثلاثين عاما ..لا يتكلم بعضنا الا الى بعض. ولا نفكر الا فى نفسنا ، ولا نشكو همنا الا الى نفسنا ... انك لست الا غلاما صغيرا .. وماذا تعرف أنت من أمر الحزن ؟ ان حياتك كلها لا تزال فسيحة المدى أمامك ، ولسوف تحفل بجميع ألوان الصداقات ، أما أنا .. فرجل عجوز ... تركنى أبوك وحدى كأحد الشحاذين ، بعد أن دفنت الصديق الحميم الوحيد الذى كان لى ... وأحسب أن الزمان قد تخلى عنى ، ولئن أجد صديقا آخر من بعده » .

وأخذ صوت الرجل يتحشرج ، ويصبح صريرا مؤلما ، وأخذت عضلات وجهه تتقلص ، وشفتاه تنتشران وترجفان ، وقسمات خديه تزداد عمقا ، ويجرى فيهما نثار من الدموع التى تعتصرها محاجر عينيه . وبدت عليه حال من الهم والأسى حركت الشجون فى قلب فوما ، حتى لقد وقف فأخذه فى ذراعيه ، وجعل يضمه الى صدره . فى رثاء وحنان ، ضم القوى الشجى ، للضعيف الاسيف . وهو يكثر من القول له :

ـ لا تبك أيها السيد الوالد .. لا تبك .. لا تبك أيها الوالد العزيز .

فقال ماياكين بصوت ضعيف وهو يزفر زفرة عميقة : ـ هذا أحسن ! ثم لم يلبث أن عاد الى حالته السابقة .. الرجل العجوز الداهية .. صلب العود !

ثم أخذ يسر الى فوما وهو جالس بجانبه فى العربة، اذ هما عائدان الى المنزل :

ـ لا يخلق بك أن تنفطر من البكاء ، وتستسلم للحزن هكذا . تماسك . فأنت الآن القائد .. وواجب القائد فى أثناء المعركة أن

يقود جنوده بشجاعة ··· وجنودك هى الروبلات ، ولديك منها جيش ضخم العدد ·· فهيا ·· أرنا المعدن الذى صاغك الله منه ·

ودهش فوما للسرعة التى استعاد بها اشبيينه حالته الأولى ··· ومن ثم فقد كانت كلماته هذه تقع من مسامع الشاب موقع هذا الحصى والصفاح والحجارة التى كانوا يلقونها على نعش أبيه ·

ــ ألم يحدث أن والدك قال لك مرة اننى رجل رقيق رشيق ويجب أن نستمع الى نصائحى ؟

ــ حصل !

ــ اذن ·· فيجب أن تستمع لما أقول ··· فنحن اذا ربطنا بين ذكائى وبين قوتك الشابة المتوثبة أحرزنا نصرا كبيرا ·· أنت ·· وأنا · لقد كان أبوك رجلا ضخم الجسم ، لكنه كان قصير النظر ، وكان قلما يعنى بالاستماع الى نصائحى ··· وهو مدين بما ناله من نجاح الى قلبه أكثر مما هو مدين به الى مخه ··· ولكنك ·· يبدو أنك ستكون شخصا عظيما مرموق المكانة يوما ما ··· فتعال فعش معنا ··· انك لن يعود عليك من بقائك وحدك فى هذا البيت الا الكرب والفزع وشغل البال ·

ــ ولكن عمتى ·· موجودة ·

ــ عمتك ! هه ·· هذه المرأة المريضة المحطمة ! ان ساعاتها هى أيضا معدودة فى هذه الدنيا !

وقال له فوما متوسلا :

ــ لا تقل ذلك · أرجوك !

ــ بل ·· سأقوله وأقوله · ولكن لماذا تخاف الموت ؟ انك لست امرأة عجوزا حيزبونا · فعش بلا خوف ، لتقوم بالعمل الذى خلقت له · وقد وجد الانسان لتنظيم هذه الحياة · والانسان رأس مال · وهكذا الروبل !! انه يجتمع من دراهم وكوبكات صغيرة لا قيمة لها ، جمعنا مادتها من تراب الأرض ، كما هو مكتوب · ثم يدور هذا

الروبل فى عمل من الأعمـــال ، وفى أثنـــاء ذلك يمنزج بالعرق والدموع ، كما يمتزج بهما الزبد والسمن ، وتبدو بعد ذلك أمارات القـــلوب والعقول ٠٠٠ ثم تراه وقد بدأ ينمو ٠٠٠ فيرتفع مرة الى فوق ، وينحط تارة الى تحت ٠٠٠ وقبل أن تعرف ماذا صار ،تكون قيمته قد أصبحت خمسة كوبكات ، ثم خمسين ٠٠٠ ثم ٠٠ مائة روبل ! وبعض الروبلات التى تنزل الى ميدان العمل على هذا النحو ٠٠ تبلغ قيمتها بعد حين ما لا يعد ولا يحصى ٠٠٠ والروبل ما دام قد نزل الى ميدانه ، أصبح واجبه أن يعود لصاحبه بالربح المنسود ٠٠٠ والحياة تعرف كم يســاوى كل منا ٠٠٠ ثم هى لا تدعونا الى العمل قبل أن يحين أوانه ٠ والرجل العاقل يجب ألا يعمل شــيئا يجلب عليه الخسارة ٠٠٠ أتسمع ؟

ـ أجل ٠

ـ هل تفهم أى شىء ؟

ـ كل شىء !

فقبع ماياكين ، وقال فى ريبة : « لعل وعسى ! »

ـ أنا أعرف فعلا ٠٠ ولكن الذى لم أعرفه فقط ٠٠ هو ٠٠ لماذا كتب الموت على الناس ؟

ونظر اليه ماياكين فى حنان ، وأخـذ يقول وهو يبل شـــفتبه بلسانه :

ـ هذا سؤال يجب ألا يوجهه رجل عاقل الى نفسه ٠ ان الرجل العاقل يرى أنه اذا كان هناك نهر من الانهار ، فلا بد له من أن يصب فى مكان ما ، فاذا لم يصب فسيحدث مستنقعا !

وقال له فوما منقبضا :

ـ انك لا تزيد على أنك تستهزىء بى ٠٠٠ فالبحر لا يصب فى أى مكان !

ـ ولكن البحر هو المكان الذى تلتقى فيه جميع الأنهار ... ثم لا تنس ما يهب فى البحـــــر من عواصف .. وهذا هو ما يحدث بالضبط فى بحر الحياة الذى تثيره العواطف الانسانية وتجعـــله لجيا عاصفا . والموت هو الذى يعيد الى أمواهه نقاءها ، ويحافظ عليه من أن يصبح راكدا آسنا . ولا ضير فى أن يموت كثير من الناس ، فالموجودون على قيد الحياة أكثر على الدوام مما كانوا من قبل !

ـ أحسب أن ليس ما يعزينى عن أبى .. وقد مات !

ـ ولسوف تموت أنت أيضا يوما من الايام !

وقال فوما وهو يضحك ضحكة مريرة :

ـ اذن فما الفرق فى نظرى بين أن يكون الذين على قيد الحياة أكثر دائما ممن كانوا أحياء من قبل ؟

وهنا .. أرسل الرجل زفرة .. ثم قال :

ـ لا فرق فى ذلك أبدا فى نظر أى انسان . وأحسب أن كلامك هـــذا هو ما يقوله بنطلونك أيضا اذ يســـأل اخوانه البناطيل : ما الفرق الذى يعود علينا من وجود ملابس أخرى كثيرة جدا فى هذه الدنيا ؟ .. ولكنك لا تعير ما تقوله البنطلونات أى اهتمام ـ انما أنت تخلعها عن نفسك ، ثم تقذف بها من حالق !

ونظر فوما الى الرجل نظرة تعنيف وتثريب ، الا أنه حينما رآه يضحك أحس نحوه بالاعجاب والاحترام ، ثم راح يسأله :

ـ ألست تخشى الموت حقيقة أيها الأب ؟

وأجابه الرجل العجوز بلهجة لاذعة :

ـ ان أشد ما أخشاه يا بنى هم المغفلون ... أما ماذا أقصـــد فاستمع : « اذا أعطاك أحد المغفلين عسلا ، فابصق به فى وجهه . أما اذا سقاك أحد الحكماء سما ، فاشربه . والقنفذ الذى لا ينشر ابره للدفاع عن نفسه هو قنفذ مريض القلب ! »

وقد آذى فوما وأغضبه ما أحس فى كلام مایاكين من استخفاف، فقال له غامزا :

— دائما تتكلم بالأحاجى والفوازير !!

فانفجر فيه الرجل قائلا :

— ماذا تقول ؟! ان كل انسان يتكلم بالاسلوب الذى تعود ٠هل تجد خشونة فى كلامى ؟ أهذا هو ما تعنى ؟

لكن فوما لم يجب ٠

— أما انك لشخص ظريف ! تذكر هذا المثل : « ان الذى يحبك هو الذى يعلمك ٠٠ فلا تنس هذا أبدا ٠ ثم دعك من التفكير فى الموت ٠ فالحماقة كل الحماقة أن يستغرق الانسان كل الاستغراق فى التفكير فى ذلك ٠ لقد أنعم سفر الجامعة النظر فى موضوع الموت طويلا ، وأطال الكلام فيه كثيرا ٠٠٠ ثم انتهى من ذلك كله الى أن الكلب الحى أفضل من الأسد الميت ! »

ووصلا الى المنزل ٠ وكانت صفوف من العربات متراصة فى الشارع الذى فيه بيت فوما ، وكانت أصوات عالية كثيرة تنطلق من النوافذ المفتحة ٠ ولم يكد فوما يخطو عتبة الباب حتى أمسك أحدهم بذراعه واتجه به الى مائدة حافلة بالطعام والشراب ٠٠ وكان الجميع يحثونه ليأكل شيئا ٠ وكانت الغرفة تضج بالاحاديث كأنها سوق، وكانت مزدحمة وخمة من كثرة ما ينطلق فيها من الانفاس ٠ ودون أن ينبس فوما بكلمة ، تناول كوبا من شراب الفودكا وألقى به فى لهاته ٠ ثم أتبعه ثانية وثالثة ٠٠ وكان كل من حوله يمضغ ويتمطق ٠٠ وكان هو يستمع الى بقبقة الفودكا وهم يفرغونها ، وقرع الكئوس وهم يهمون بها ٠٠٠ وكانوا لا يستحون أن يعلقوا على السمك ، وينقدوا العازف على الكمان المنفرد فى جوقة الاسقف ، ثم يعودوا الى التعليق على السمك من جديد ٠٠٠ ثم يقولوا ان العمدة كان ينوى القاء خطبة فى الجناز ، الا أنه خاف — بعد الخطبة

الرائعة التي ألقاها الاسقف ، أن يتكلم بشيء حتى لا يفضح نفسه ، ويضحك الناس عليه !

ويقول بعض الآكلين بصوت مختلط بلعاب الأكل :

ـ وهذا هو ما كان من عادة المرحوم أن يفعل . لقد كان يقتطع القطعة من السالمون ثم يرش عليها مقدارا كبيرا من الفلفل ثم يأخذ قطعة أخرى فيضعها فوق هذه ثم يرسلها فى حلقومه لتلاحق الزجاجة من الفودكا !

فيرد عليه بعضهم بصوت هادر :

ـ اذن هلم نحذو حذوه

وكان صدر فوما يكاد ينشق بالغثيان من منظر هذه الشفاه الملوثة والأشداق التى تلتهم الطعام الدسم ، وقد شعر برغبة طارئة فى أن يصيح بهؤلاء الانذال ، وأن يطردهم جميعا ، أولئك المحدثين الذين كان بروزهم فى المجتمع قد ملأه بالحنق عليهم والكره لهم .

ولاحظ ذلك ماياكين الذى أحس فوما فجأة أنه بجانبه ، فقال له :

ـ أوه .. حيلك ! كن أكثر لطفا وبشاشة .. ثم .. ثرثر معهم يا مولانا !

فرد عليه فوما بصوت مرتفع فيه حدة وغضب :

ـ ما معنى افراطهم فى الشراب هكذا ؟ أيظنون أنهم فى حان !

ـ ش ششو !

وقالها ماياكين فى هلع ، ناظرا فى سرعة البرق فيمن حوله ، وعلى فمه ابتسامة استعطاف .

ولكن .. لا فائدة .. لقد سبق السيف العذل كما يقولون ... فلقد سمع حضراتهم فوما ، وعند ذلك سكنت الأصوات ، وانقطع حديث القوم ، وبدا القلق على بعض الاضياف بصورة واضحة ،

ووضع آخرون سكاكينهم وشوكهم وعلى وجوههم أمارات الاستياء ، ثم غادروا المائدة ، ونظر بعضهم الى فوما شزرا ٠

وكان فوما ، الذى كان ساكنا يتحرق من الغيظ ، يقابل نظراتهم بلا أدنى مبالاة ٠

وهب ماياكين يهدىء ثائرتهم ، ويجرى بينهم كما تنطلق الشرارة وسط الرماد :

ـ اجلسوا اجلسوا ٠٠ تفضلوا فالبقلاوة ستقدم الآن !

أما فوما فقد هز كتفيه ، ثم أخذ طريقه الى الباب ٠ قائلا :

ـ ليست بى حاجة الى طعام !

وسمع بعض كلمات غير لائقة من أحـــدهم ، كما سمع اشبينه يحاول تفسيرها بقوله :

ـ انه حزنه يا سادة ٠٠٠ ثم لا تنسوا أن اجنـات كان كل شيء بالنسبة له ٠٠ كل شيء !

وخرج فوما الى الحديقة حيث جلس فى المكان الذى توفى أبوه فيه ، وكان الحزن والوحشة يجثمان بكلكلهما على صـــدره ، ففك ياقة قميصه ، ووضع مرفقه على المنضدة ، وجلس بلا حراك ، ورأسه مسند على راحتيه ٠ وكان مطر لطيف ينهمر ، فكانت أغصان التفاحة تمرمر فى صوت حزين وقطرات المطر تتساقط من فوقها ٠ وظل جالسا ثم وقتا طويلا وهو يلاحظ المطر ينزلق من فوق الاوراق على المنضدة ٠ وكان يشعر كأنما رأسه يملؤه صراخ من الفودكا التى شربها ، وكأنما بنفسه غثيان من أولئك النهمين ، وكانت الأفكار الغامضة المبهمة تدخل فى رأسه ثم تخرج منه ، ونظر الى صلعـة اشبينه بتاجها الصغير الفضى من ذلك الشعر الاشيب ، ووجهه المعتم المربد الذى يشبه عجائز الأيقـونات ٠٠ ذلك الوجه الذى كان ، بفمه الأهتم الخالى من الأسنان ، وابتسامته الخبيثة المحتالة ، يثير الكراهيـــة والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويزيد فيها الشـــعور

بالوحشة والانقباض ••• ثم أخذ يستذكر عينى صوفيا بافلوفنا اللطيفتين ، وقوامها الصغير المعتـــدل ، وجعل يضع فى خياله الى جانبها ••• ولسبب ما •• ليوبا ماياكين بجسمها الطويل البديع ، وخـــديها الموردين ، وعينيها الضاحكتين ، وضـــفيرتها الغزيرة النحاسية ••• لقد كان الهواء مملوءا بالأصوات الكئيبة الموحشة ، والسماء كأنها تبكى وتنثر دموعها الباردة على أغصان الشجر ،وكان الظلام والبرد يملآن قلب فوما ، وكان شعور مخيف بأنه وحده فى هذه الدنيا يستولى على نفسه ••• حتى لقد أخذ يسائل نفسه هذا السؤال : ترى •• كيف يمكن الاستمرار على هذا المنوال فى تلك الحياة ؟

وكان المطر قد بلل ملابسه، فلما أحس انه يرجف من البرد أوى الى المنزل •

* * *

لقد كانت الحياة تأخذ بتلابيبه من كل مكان ، حتى لم تكن تترك له فرصة التفكير فى شـــئونه الخاصة • وفى اليـــوم الاربعين لوفاة والده ارتدى أحسن ما عنده من ثياب ثم ركب الى حيث حفلة ارساء حجر الأساس لملجأ الفقراء المشردين ، وكانت صوفيا بافلوفنا قد أرسلت اليه قبل ذلك بيوم واحد خطابا تخبره فيه أنه أنتخب عضوا فى لجنة الاشراف على عمليات البناء ، كما أنه أنتخب أيضا عضو شرف فى جماعة الاعمال الخيرية التى كانت هى رئيستها • وقد سره هذا كثيرا ، وشغل باله أيما شغل ذلك الدور الذى كان عليه أن يقوم به فى احتفال اليوم • وحاول التفكير فيما عسى أن يكون ذلك الدور، وجعل يفكر فى هذا وهو راكب الى مكان الحفل ، وفى كيفية السلوك ثمة ، حتى لا يكشف نفسه بتصرف لا يكون لائقا •

ولمحه ماياكين فناداه وهو مسرع فوق الرصيف :

ــ أوه •• أنت هنا •• صبرك صبرك •

واستدار فوما فوجد اشبينه وقد حمل مظلة ضخمة فى كلتـــا يديه ، وعلى رأسه قبعة كبيرة ، وعليه معطف ضـــاف ذو ياقة من الفراء ، وقد استطال حتى عقبيه • وقال الرجل وهو يثب الى العربة بلا استئذان ، فى رشاقة القرود :

ـ خذنى معك خذنى ! أقول لك الحق لقد كنت فى انتظارك ••• وما كنت أشك فى أن هذا هو ميعاد حضورك •

ـ اذن أنت ذاهب الى هناك !

ـ طبعا ، فأنا أريد أن أرى كيف يحفرون لنقود أعز أصدقائى فى التراب ! وهنا رمقه فوما بنظرة من طرف عينه ، ولم يتكلم • ولكن الرجل راح يسأله :

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟! أظنك سوف تسلك أنت أيضا سبيل الخيرات !!

وسأله فوما ببرود :

ـ وماذا تعنى ؟

ـ لقد قرأت فى تذكرة الدعوة أنهم قد أنتخبوك عضوا فى الهيئة المشرفة على بناء ذلك الملجأ ، وعضو شرف فى جمعية الست سونيا كذلك ••• وهى عضوية ستخرم جيبك ان شاء الله !

وزفر وهو يقول ذلك • ولكن فوما أجابه :

ـ أحسب أنها لن تجعل منى أحد فقرائها المشردين !

فكان رد الرجل الداهية :

ـ لا أستطيع أن أحرز ذلك ، ولكن الذى أستطيع أن أحرزه هو أن عمل الخيرات عمل كله حماقة ، بل ليس عملا على الاطلاق ، ولا يزيد على كونه تضييعا للوقت •

وسأله فوما متحديا :

ــ كأنك تعتقد أن مد يد المعونة للمحتاجين عمل ضار ؟

فتبسم ماياكين ابتسامة صفراء وقال :

ــ آه منك يا ·· رأس الكرنبة ! تعال وشرفنى بالزيارة ،وسأفتح عينيك على هــذا كله ··· انك فى حاجة الى النصيحة ·· فهــل تأتى ؟

ــ سأفعل

ــ عال ! وبهذه المناسبة، يجب أن تشمخ بأنفك فى هذا الاحتفال، وعليك بالجلوس فى صدر المجلس ·· وأحسب أنك ·· لو لم أنبهك الى ذلك ·· كنت عساك تختبىء خلف ظهر واحد من الناس !

وقال فوما مستاء :

ــ وماذا كان يدعونى الى الاختباء ؟

ــ لك حق ·· اذ ماذا يدعوك الى الاختباء ؟·· ان الذى أقصده، هو أن أباك هو الذى تبرع بالنقود لذلك المشروع ·· ولا بد لك من الارتفاع الى مناط الكرامة بوصفك وريثا له : والكرامة شىء ثمين كالنقود تماما · والتاجر الذى يحافظ على كرامته يقابل بالحفاوة فى كل مكان ، وتفتح له الابواب حينما حــل ··· ومن ثم فيجب أن تبرز ، ويكون لك مكان الصدارة فى هذا الاحتفال ·· فلتجلس فى الصف الاول ، حيث يمكن أن يراك كل انسان ، ويمكنك بذلك اذا تبرعت ولو بخمسة كوبكات ، أن تكسب روبلا بدلا منهــا · فمن الحماقة اذن أن تتوارى ·· وتخفى نفسك ·

وعندما وصلت عربة فوما كان صدور أعيان المدينة قد وصلوا الى مكان الاحتفال ، وكان كثير من الاهالى قد ازدحموا حول أكوام الاخشاب والطوب ومواد البناء ، وكان الاسقف والمحافظ والرءوس

من أهالى المدينة وأعضاء الحكومة المحلية ومعهم زوجاتهم فى أبهى ملابسهم يكونون حشدا رائعا مختلف الالوان وهم وقوف يشاهدون رجلين من البنائين يعدون الحجارة ويجهزون مونة البناء ، وقد انضم ماياكين وفوما الى هذه الجماعة ٠

وهمس ماياكين فى أذنه قائلا :

ـ لا تكن خجولا ٠٠٠ فالذى يخجل على المائدة ٠٠ يموت جوعا ، والطيور الزاهية هى عادة أضعف الطيور ٠

وفى صوت مرح ، كله احترام مع ذاك ، أخذ يحيى المحافظ ، قبل أن يحيى الاسقف ٠

ـ كيف صحتك يا صاحب السعادة ٠٠٠ نهارك سعيد يا صاحب النيافة !

وحياه المحافظ بتحية ودية قائلا :

ـ آه يا كوف تاراذوفتش !

وبينما كان يقبض على يد ماياكين ويهزها هزا ، كان هذا يميل نحو الاسقف ٠ لكن المحافظ استمر قائلا : « كيف الأحوال أيها الرجل العجوز المعمر الذى لا يعرف الموت اليه سبيلا ؟! »

ويجيبه ماياكين :

ـ عظيم جدا ٠٠ شكرا لك يا صاحب السعادة

ولمح صوفيا فحياها هذه التحية السريعة :

ـ مساء الخير ٠٠ صوفيا بافلوفنا

ثم زاغ كالنحلة وسط الزحام ، حيث استطاع فى خلال دقيقة أن يحيى القاضى والنائب العام والعمدة ٠٠٠ وفى الواقع لقد تبادل

التحيـــة وكل شخص من الاشخاص الذين هم فى نظره جديرون بالتحية ٠٠ ولم يكن هناك عدد كبير من هذا النوع٠لقد كان يبتسم ويمزح ويجعل نفسه موضع الرعاية وجذب الانظار ٠ أما فوما فكان يقف خلفه مبهورا يســترق النظر الى الاشرطة الذهبيـة والملابس النفيســـة التى ترف من حوله ، وهو يحسد اشبينه على نشــاطه وجرأته ، آسفا على خور عزيمته هو نفسه وتهافته أمام الملأ ، ثم ازدياد هذا الخور وذاك التهافت حينما أدرك أنه لا شىء فى الواقع٠٠ وهنا أمسك ماياكين بيده فى الحال ثم قدمه للمحافظ قائلا :

ـ اسمح لى يا صــاحب السعادة بأن أقــدم لك ابنى الروحى ، فوما ، الابن الوحيد للمرحوم اجنات ٠

وحيا المحافظ فوما وهو يقول :

ـ آه ٠٠٠ سعيد لرؤيتك يا فوما ، وأشاطرك الأحزان من كل قلبى يا بنى الصغير ٠

ثم شد على يده ، وقد توقف عن الكلام قليلا ، ثم عاد يقول :

ـ من أكبر النكبات أن يفقد الانسان أباه

وانتظر أن يرد تحيته ، لكنه لم يفعل ، ومن ثم ، التفت المحافظ الى ماياكين يقول : كم كان خطابك رائعـــا فى المجلس بالامس ٠ رائعـــا ٠٠ وفى منتهى الابداع ٠٠ يا كوف تاراذوفتش ٠ ان هؤلاء الناس لا يعرفون حاجات السكان الحقيقية ٠

ـ وعلاوة على ذلك يا صاحب السعادة ٠ انهم لا يملكون رأس المال ٠٠ وبعبارة أخرى ، أرى أنه يجب على المدينة أن تضم مالها هى أيضا ٠

ـ تمام ٠ تمام ٠ هذا حق ٠

ـ ان الاعتدال بلا شك خصلة ممدوحة ٠ وشرب الخمــر شىء سيىء ـ وأنا أوافق على ذلك ٠ وأنا نفسى لا أذوق الخمر، وأكره من

يشربونها ـ ولكن لماذا ننشىء دور الكتب وصالات القراءة العامة ما دام الجمهور ··· أعنى العوام ·· لا يعرفون القراءة ؟

ووافق المحافظ فى زفرة تشبه قباع الخنازير ·

ـ أما اذا سألتنى عن رأيى ، فهو أن تأخذوا هذه النقود وتضعوها فى مشروعات صناعية · وسيكون فى هذا المبلغ الكفاية اذا سرتم فى ذلك على مستوى ضيق · واذا لم يكف فلتكتبوا الى سنت بطرسبرج(١) ترسل لكم مبلغا آخر ولا تضيف المدينة شيئا من مالها ، وتشغل أموالها فيما هو أجدى ·

ـ تمام ·· ولكن كيف صاح هؤلاء الأحرار فى وجهك !

ـ انهم لا يصلحون الا لهذا ··· للصياح ! يا صاحب السعادة

وهنا تنحنح القسيس من داخل الكنيسة ، وكان هذا يعنى ابتداء صلاة التدشين ·

وأقبلت صوفيا بافلوفنا وحيت فوما ، وقالت له بصوت ناعم حزين :

ـ لقد كاد قلبى يتفطر وأنا أنظر الى وجهك يوم الجناز ··· لقد كنت أدرك كم كنت تقاسى !

وكانت كلماتها بردا على قلب فوما ·

ـ لشد ما هزنى بكاؤك ·· فوا رحمتا لك يا بنى الصغير ·· واسمح لى أن أخاطبك هكذا فقد أصبحت أنا امرأة عجوزا بالفعل ·

وأجابها فوما مشدوها :

ـ أنت ؟

وسألته وهى تنظر فى وجهه بلا تكلف :

ـ ألا تصدقنى ؟

---

(١) ليننجراد الآن ·

ونكس فوما رأسه ولم يتكلم . فقالت له صوفيا :

ـ اذن فأنت لا تصدقنى . ألست امرأة عجوزا ؟

وأجابها وكأنه يحتج بصوت منخفض :

ـ أصدقك وان كان هذا ليس صحيحا

ـ ما الذى ليس صحيحا .. هل هو أنك تصدقنى ؟

فقال فوما وقد استولى عليه الخجل الشديد :

ـ لا لا .. ليس هذا .. ولكن هو أنك ... هو أنك .. معذرة .. فأنا لا أستطيع التعبير ، اذ لبست واحدا ممن تعرفين من هذا الشباب المتعلمين .

وهنا أسرعت صوفيا الى الجواب التالى وكأنما أرادت به أن ترد عنه عادية هذا الشعور :

ـ ليس هذا شيئا يستدعى الخجل على الاطلاق .. فأنت لا تزال شابا يافعا ، وأى شخص يستطيع أن يحصل على التعليم الذى يريد ... الا أنه يوجد من الناس من لا يحتاجون الى تعليم . بل قد يضرهم التعليم ولا ينفعهم ـ أناس أنقياء القلوب .. أطهار أبرار أصفياء النية كالاطفال تماما . وأنت واحد من هؤلاء .. أو كذلك .. أليس كذلك ؟

فأنى لفوما الاجابة على ذلك ؟

انه لم يزد على أن قال : ـ شكرا

ولاحظ أن كلماته قد ابتعثت بريقا مرحا فى عينى صوفيا بافلوفنا ، فأحس بأنه كان شديد البله والحماقة .. مما جعله يثور فى أعماقه على نفسه . ومن ثم استدرك يقول :

— اذن فهـذا هو رأيك فى ! اننى أقول ما أعتقـد ·· ولم أتعود الرياء والتظاهر ··· وعندما أرى شيئا مثيرا للضحك، فانى أضحك من كل قلبى · ولم أرزق المقدرة على اخفاء ما فى نفسى ·

— حيلك حيلك ! ما الداعى لأن تقول هذا كله ؟

وكانت تكلمه كأنها تلومه وتعتب عليه ·· وبينما كانت تصلح «كسر جونلتها» تصادف أن مست بيدها يد فوما التى كان يحمل بها قبعته ·· فنظر فوما الى يده نظرة تفيض بالخجل ·· وبالسعادة أيضا ·

وسألته صوفيا :

— أرجو أن تشرف البوفيه ·· أليس كذلك ؟

— بلى ·

— وأن تشرف الاجتماع الذى سينعقد غدا فى منزلى ؟

— بكل تأكيد !

— وأن تتنزل بزيارتى كلمـا سمحت لك الفرص بذلك ·· وبدون أى تكليف !

— أو ·· شكرا لله ·· ان شاء الله !

— بل أنا التى يجب أن أشكرك على هذا الوعد ·

ثم لزما الصمت بعد ذلك كلاهما ··· وجاء صوت القسيس فى وقار وخشوع من بعيد وهو يبارك بيده أرض الملجأ ، ويدعو دعاءه قائلا :

« ··· ونسأل الله ألا يصيب هذه المؤسسة بريح أو فيضان أو طاعون ·· وألا يقع بساكنيها أى شر أو أذى ··! »

وقالت له صوفيا :

- لله ما أجمل صلواتنا وأحفلها بالمعانى ! ألا ترى ذلك ؟

ولم يزد على أن قال لها : « بلى » وقد عاوده حياؤه مرة أخرى .. لأنه لم يفهم ماذا كانت تقول له

وقال ماياكين هامسا فى أذن العمدة الذي يقف قريبا من فوما :

- انهم دائما يأخذون الجانب الذى يكون ضد مصالحنا نحن التجار . وماذا يهمهم ؟ ان كل ما يحرصون عليه هو أن ينالوا ثناء الصحافة . وهم قلما يتعمقون معاني الاشياء .. ولا يعنون الا بالمظهر ، ولا يعملون على تحسين الحياة نفسها أبدا . الصحافة والسويد ! هذان هما القاعدتان اللتان يقيسون كل شيء بهما ! فصاحبنا الدكتور ظل يضرب طول النهار أمس على وتر السويد .. ولم يفتأ يقول ان التعليم العام ، بل كل شيء آخر ، على أحسن ما يرام . ولكن ... ما تلك السويد اذا وقفت على حقائق الاشياء فيها ؟ اه ؟ .. ان كل ما نعرفه عن تقدم السويد التى يطنطنون بها هو القفازات والكبريت ... ومهما يكن ، فنحن غير السويد ، ولا يمكن أن تكون السويد نموذجا لنا . ولا بد لنا من أن يكون لنا أسلوبنا الخاص فى كل شئوننا . أليس كذلك ؟

وهنا ، كان الكاهن قد مال برأسه الى الخلف وهو يقول :

« فالراحة الأبدية لروح ذلك الذى أنشأ هذه المؤسسة الخيرية »

وقد انتفض فوما عندما صافح أذنيه هذا الدعاء ، غير أن اشبينه تنبه الى ذلك فشده من كمه على الفور وقال له :

- هل ستذهب الى البوفيه ؟

ثم مست يده مرة أخرى تلك اليد الدافئة الناعمة البضة .. يد صوفيا بافلوفنا .

لقد كان البوفيه محنة شقى بها فوما ... فلأول مرة فى حياته يجد نفسه فى طبقة راقية . وكان يدرك أن هؤلاء الناس يأكلون ويتحدثون ويفعلون كل شىء آخر أحسن مما يستطيع هو أن يفعله، وأن المائدة لم تكن هى التى تفصل بينه وبين صوفيا بافلوفنا التى تصادف أنها كانت تجلس قبالته تماما .. بل كان يفصله عنها جبل حقيقى، جبل بأكمله . وكان يجلس فى المقعد الذى يليه سكرتير الجماعة التى أنتخب فيها فوما عضو شرف. وكان كاتبا حدث السن فى المحكمة ، وكان يحمل هـــذا الاسم الغريب : أوختيشيف . وكأنما أراد أن يجعل اسمه أشـــد غرابة ، فلم يكن ينقطع عن السرســـعة بصوته الرفيع العالى - أضف الى ذلك منظره العام الأشـــد غرابة ... اذ كان قصيرا سمينا مستدير الوجه ، فاذا تذكرت صوته خارجا من هذا الرأس العجيب خيل اليك أنه جرس ... جرس آدمى !

اسمع اليه يتملق السيدة صوفيا بهذا الكلام السمج :

- ان أعظم ما يحق لمجتمعنا أن يفخـر به هو راعيته ، صـــوفيا بافلوفنا . وأهم عمل يمكنه أن يقوم به هو أن يقدم لها التشكرات التى ترتضيها ، وأحسن طريقة تقدم بها هذه التشكرات هى عبادتها وتوقيرها فى سكون وفى صمت ... وهكذا نرى أيها السادة أننا فى الحقيقة لسنا أعضاء فى جمعية مكرسة لقضية الخ ... بل فى جمعية من طيور أبى قردان فى خدمة سيدتنا المعبودة صـــــوفيا بافلوفنا .

وكان فوما يســـتمع الى هذا الهـــذيان ، وهو ينظر الى صوفيا مستغرقة فى حديث خطير بينها وبين رئيس البوليس . وكان يجيب عما يوجهه اليه جاره من أسئلة باجابات خاطفة ، متظاهرا بالانهماك فى طعامه ، وهو فى الحقيقة يتمنى لو انتهى هذا الاحتفال ، وانفرط عقده ، فقد كان يحس كأنما جميع عيون القوم متجهة نحوه ... وأن كل انســـان قد لمس فيه البـــله والسخف ، وأنه شىء تافه لا يستأهل الا الزراية والاحتقار .

وكان ماياكين يلوح بشوكته فى الهواء ، ويلعب أسارير وجهه وهو يشرح أمرا ما للعمدة ذى الوجه الأحمر الأشيب الرأس الذى لا رقبة له ! وكان العمدة يحملق فيه بعينيه كما يحملق العجل ، وهو ينقر بابهامه على المائدة من وقت الى آخر ، كأنما نقره هذا هو علامة بالموافقة على ما يقول محدثه • وكانت الأحاديث المرحة ، والضحك المتواصل يطبقان على ما يقوله ماياكين ، فلم يكن فوما يميز كلمة واحدة منه ، وبخاصة أن سرسعة السكرتير الفصيح كانت تطن فى أذنيه طول الوقت •

ثم قال السكرتير أخيرا بلهجته السمجة :

ـ انظر •• ان الكاهن يأخذ نفسا طويلا ••• وهو موشك أن يصلى على روح المرحوم اجنات مانفييفتش !

وسأل فوما بصوت خافت :

ـ ألا أستطيع الانصراف ؟

ـ ولم لا ؟ ان الناس سيفهمون

ـ كان صوت الكاهن قد طغى على الأصوات الاخرى •• أو قل •• انه قد نسخها جميعا ، فراح هؤلاء التجار ينظرون فى اعجاب الى ذلك الفم الكبير المفغور الذى كانت تتدفق منه مقاطع الكلمات الرنانة ••• وانتهز فوما هذه الفرصة ، فغادر الغرفة •

ولم تمض دقيقة حتى كان متكئا بظهره على مسند عربته ، وهو يشهق كالذى أتاه الفرج بعد الضيق ، ويحدث نفسه بأن مجتمع هؤلاء الناس ليس مجتمعه • فقد أدرك أنهم قوم متكلفون ، فكره أناقتهم وتباهيهم ، وكره وجوههم ، وابتساماتهم وأحاديثهم • الا أن ما كانوا يبدونه من حرية وثقة بالنفس ، وقدرتهم على التحدث فى أى موضوع ، وملابسهم الجميلة الانيقة ــ كل هذا أثار فى نفسه

أحاسيس يختلط فيها الحسد والاحترام • وقد آلمه وأحزنه ما لمسه في نفسه من عدم القدرة على التعبير عما فى خاطره بهذه الطلاقة التى كانوا يعبرون بها عما فى أنفسهم ، وفى أى موضـوع يشاءون • وذكر أن ليوبا ماياكين كانت طالما تستهزىء به من أجل ذلك •

لقد كان فوما لا يميل الى ابنة ماياكين ، ولم يكد يعلم من أبيه أن والدها يريد تزويجها منه حتى امتنع من مقابلتها اطلاقا • الا أنه منذ أن توفى أبوه لم ينقطع عن زيارة آل ماياكين يوميا •

وقالت له ليوبا مرة :

ــ أتعلم يا فوما أنك لا تبدو عليك أية أمارة تدل على أنك ابن تاجر ؟

ورد عليها بمثل لهجتها قائلا :

ــ وأنت أيضا لا يبدو عليك أنك ابنة تاجر •

ولم يكن يعلم هل قالت له ما قالت وهى تتعمد جرح مشاعره أو لم تتعمد ، بدليل أنها قالت له : حمدا لله ! ثم أولته ابتسامة حلوة تفيض ودا ، حتى لقد سألها :

ــ لماذا أنت مسرورة ؟

ــ لأننا لا نشبه والدينا

وقد نظر اليها فوما متعجبا حينما قالت ذلك ، وأدركت هى هذا فقالت له بصوت خافت :

ــ اصـــدقنى القول يا فـــوما •• أنت لا تحب والدى ، أليس كذلك ؟

فأجابها فوما بصراحة : ــ ليس كثيرا !

فقالت له :

— أوه ‥ اننى لا أحبه بالمرة !

— ولماذا ؟

— أوه ‥ لأسباب كثيرة مختلفة ، وحينما يتسع ادراكك للامور أكثر مما هو الآن ، ستفهم كل شيء ٠ لقد كان أبوك خيرا من أبى ٠

وشاع الكبر فى أعطاف فوما وقال :

— أجل ، لقد كان خيرا بكثير ٠

وكان من نتيجة هذا الاعتراف أن بدأ كل منهما يميل الى صاحبه ، ثم تطور هذا الميل يوما بعد يوم حتى أصبح أقرب الى لون غير عادى من الصداقة ٠

لقد كانت ليوبا فى سن فوما نفسها ، الا أن ميلها اليه كان أشبه بميل بنت كبيرة الى ولد صغير ٠ لقد كانت تتحدث اليه بلهجة استعلاء ، وكانت طالما تتهكم عليه ٠ وكانت تستعمل فى حديثها اليه على الدوام عبارات لم يكن معتادا سماعها ، وكانت تنطق هذه العبارات بلهجة خاصة فيها سمة التأكيد ، والاقتناع الواضح ٠ وكانت تحب أن تتحدث اليه وبخاصة عن أخيها تاراس، الذى ، وان لم تره قط ، كانت تصوره فى ألوان وأضواء تدنيه من لصوص الخرافات الشجعان الشرفاء فى حكايات العمة آنفيسا ٠ وكان فوما اذا شكا اليها من والدها أجابته قائلة :

— ستكون أنت نفسك يوما ما هذا الهولة الوحش الذى هو أبى !

ولم يكن يسره أن يسمع ما تقوله من ذاك عن أبيها ، بل كان هذا يضايقه منها ، الا أنها كانت تبدو فى بعض الظروف بسيطة ساذجة ، صريحة ، بل لطيفة فياضة الود ٠ وكان هو يستجيب لذلك فيفتح لها أبواب قلبه ، وطالما كانا يجلسان معا ينفض كل منهما لصاحبه أخص أفكاره وخفايا مشاعره ٠

لقد كانا يتحدثان فى صراحة وفى اخلاص ، الا أن فوما كان يشعر أن أفكار ليوبا لم تكن مما يمكن الموافقه عليه ، بل كانت مما يجلب الضرر لها • وفى الوقت نفسه كان يلاحظ أن أحاديثه المهوشة العرجاء لم تكن تسرها على الاطلاق ، وأنها لم تكن تفهمه قط ••• وبالرغم من كل هذه الاحاديث الطويلة بينهما لم يزدد بعضهما الا تبرمابعض وقلةرضا• لقدكان يخيل اليه ان حائطا لاتراه الانظار يفصل بينهما ، ولم يكن أى منهما يجرؤ على أن يمس هذا الحائط ، أو أن يعترف حتى بوجوده ••• وهكذا استمرا فى هذه المحادثات العقيمة ، وكل منهم مدرك ادراكا مبهما لما يتسم به الآخر من تلك السمات التى كانت أحرى بأن تقرب مسافة الخلف بينهما •

لقد ذهب فوما بعد عودته من الحفلة الى منزل اشبينه فوجد ليوبا وحدها • وبمجرد أن دخلت الغرفة لاحظ أنها اما متوعكة ، أو مشغولة البال بأمر ما ، فقد كانت عيناها محمرتين ، وحولهما دوائر داكنة •

وقالت مجيبة بابتسامة خفيفة ، وهى تشد شالها الصوفى حول كتفيها :

ـ يسرنى أنك جئت • لقد كنت أشعر بوحشة ، ولم أكن أحس برغبة فى الذهاب الى أى مكان •• أتشرب شايا ؟

ـ أجل •• ولكن •• ماذا ؟ ألا تشعرين بصحة جيدة ؟

وقالت وكأنما تتجاهل سؤاله :

ـ تفضل فى غرفة الطعام • سأخبرهم بايقاد غلاية الشاى •

ودخل فوما الى غرفة ضيقة لها نافذتان تطلان على حديقةأمامية• وكان بين النافذتين مائدة بيضية حولها كراسى من (الدقة) القديمة منجدة بالجلد ، وعلى الحائط ساعة قديمة فى صندوق زجاجى طويل، وفى أحد أركان الغرفة دولاب صينى مملوء بالأدوات الفضية •

وسألته وهى تدخل الغرفة :

ــ أعائد من الحفلة ؟

فأجابها فوما بايماءة

وعادت فسألته بأسلوب عال :

ــ حسن ·· وكيف كانت ؟

فأجابها بضحكة خفيفة :

ــ شنيعة ! لقد كنت أجلس هنــاك على أحر من الجمر ، بل على أشد من وخز الابر · لقد كانوا جميعا أشبه بالطواويس ، أما أنا ·· فكنت بالبومة أشبه ·

ولم تعلق ليوبا بكلمة ·· بل كانت ماضــــية فى اعداد أدوات الشاى · ولما لاحظ أنها تنظر الى وجهه المكتئب راح يسألها :

ــ ما الذى يجعلك تبدين كئيبة منقبضة هكذا ؟

وخطت منه خطوة مغرية ثم أخذت تقول له فى ألم وانشراح معا :

ــ آه يا فوما لو علمت أى كتاب فرغت من قراءته الآن فقط ! وآه لو كنت تستطيع أن تفهمه ؟!

وضحك فوما ثم قال :

ــ انه يكون ولا بد كتابا عجيبا ما دام قد راقك الى هذا الحد !

ــ لقـــد ظللت طول الليل أقرؤه ·· ولم يغمض لى طرف لحظة واحدة · وأنت اذا قدر لك أن تقرأ كهذا فكأنما تتفتح لك أبواب عالم جديد لم يكن لك به عهد من قبل·· ان الناس فى هذا الكتاب يختلفون عنا ، وما يقولونه مختلف عما نقول ··· كل ما فيــــه مختلف ·· كل ما فيه ··· الحياة نفسها مختلفة ·

وأجابها فوما فى لهجة المنكر المستهزىء :

ـ اننى لا أحب مثل هذا الهراء .. انهم يزخرفون أمثال هذه الكتب ليتغفلوكم بها ... وشأنهم فى هذا شأنهم فى المسرح، حيث يظهرون التجار كشرذمة من الحمقى والمغفلين ، فهل هم حقيقة من الغباوة بهذا الحد الذى يظهرونهم فيه ؟ كلا بالطبع ... واليك والدك مثلا !

وتجيبه ليوبا متحدية :

ـ ان المسرح لا يقل عن كونه مدرسة يا فوما ... وكم من التجار من هم كما صورهم المسرح . وكيف يمكن أن يتغفلك الكتاب ؟

ـ كما تفعل بنا الاساطير .. وليس منها ما هو صحيح .

ـ أنت مخطىء . وأنت لم تقرأ كتابا ما ، فكيف يمكن أن تحكم هذا الحكم عليها ، بالعكس فالكتب هى الشىء الصحيح . انها تعلم الناس كيف ينبغى لهم أن يعيشوا .

وقال فوما وهو يلوح بيده مستهزئا :

ـ يا سلام ! لتسقط كتبكم ! انها لا يمكن أن تعلمكم شيئا ... واليك والدك .. انه لم يقرأ كتابا طوال حياته .. ولكن أنظرى كم هو شخص ماهر ... لقد كنت أحسده وأنا أنظر اليه فى الحفلة اليوم ... ما كان أرشق أسلوبه فى لقاء الناس ! انه دائما يعرف ما ينبغى أن يقال . وما ينبغى أن يفعل ... وأينما حل فكأنه فى بيته ... ورأى الناس فيه جميعا أنه رجل لا يعجز عن الوصول الى ما يريد .

وتعترض ليوبا قائلة :

ـ ولكن ماذا يريد ؟ لا شىء . الا المال ... ان من الناس من يريدون السعادة ـ السعادة لكل من فى الدنيا ، ومن أجل هذا تراهم

يرغبون فى العمل ، وفى المقاساة، بل فى التضحية بأنفسهم اذا لزم الامر · فهل تستطيع أن تقارن بين أبى وبين هؤلاء ؟

ـ وفيم المقارنة ؟ ان أباك يرغب فى شىء ، وهم يرغبون فى أشياء أخرى ·

ـ انهم لا يحبون أى شىء !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انهم يريدون تغيير كل شىء !

ويجيبها فوما مدركا ما تعنيه تماما !

ـ لا بد أن يكون لهم غرض وراء هذا ، ولا شك فى أن لهم هدفا يسعون اليه ·

وتعيد ليوبا ما سبق أن قالته فى عنف واصرار :

ـ السعادة لكل انسان ·

ويهز فوما يده هو أيضا ويقول :

ـ هذا ما لا أستطيع أن أهضمه · من ذا الذى يعنيه أمرى سعدت أو شقيت ؟ وفضلا عن هذا ، كيف يستطيعون معرفة ما يجعلنى سعيدا، اذا كنت أنا لا أستطيع معرفة ذلك ـ لكن ـ كان يجب أن ترى الى هؤلاء الآخرين ··· أولئك الناس الذين كانوا فى الحفلة اليوم !

وتقول ليوبا مستهزئة :

ـ هؤلاء ليسوا ناسا

ـ أنا لا أعرف ماذا يمكنك أن تسميهم ، ولكن الواضح أنهم يعرفون مركزهم فى الحياة ··· انهم قوم يفيضون حيوية ونشاطا وثقة بأنفسهم

وتجيبه ليوبا متعجبة وكأنما أدركتها خيبة الرجاء :

ـ أوه فوما .. انك لا تفهم شيئا ... وكل شيء لديك سواء ، انك كسول كسلا شنيعا !

ـ وهكذا تعودين الى رأيك القديم من جديد ! فأنت لا تزالين ترين أننى لا خبرة لى بأمور هذه الحياة ، لأننى لم أتمرس بها بعد !

وهنا تقول له ليوبا مؤمنة :

ـ انك لا تزيد على أن تكون انسانا ذا رأس فارغ !

ويحتج فوما بأسلوب هادىء :

ـ وكيف تعرفين ماذا فى رأسى ؟

وتهز كتفيها وهى تقول له :

ـ انك ليس لديك ما تفكر فيه .

ـ بل لدى ما أفكر فيه . اننى أعيش فى هذه الحياة وحدى لشىء واحد ، وكان لا بد أن أعيش لشىء آخر .. وأنا لا يمكن أن أظل عائشا بالحالة التى أعيش فيها الآن . وأنا أعرف هذا معرفة تامة .. اننى لا أريد أن أكون أضحوكة يتلهى الناس بها . وأنا لا أعرف كيف أتحدث الى الناس ، بل لا أعرف كيف أفكر .

وتجيبه ليوبا وهى تتمشى فى الغرفة :

ـ فيجب أن تقرأ ، ويجب أن تدرس .

ويقول لها فوما دون أن ينظر اليهـــا ، وكأنما كان يتحدث الى نفسه :

ـ ان ثم شـــيئا يضطرب فى أعمـــاق نفسى ، لـــكننى لست أفهم ما هو ... وأحسب أن ما يتحدث به والدك الى شىء معقول ، الا أنه

لا يرضينى الى حد ما ··· وأشعر أن أولئك الآخرين ألطف منه وأظرف ·

ـ تعنى أولئك الارستقراطيين !

ـ أجل

وتختلج شفتا ليوبا ، ويبدو عليهما الاشمئزاز ، وتقول :

ـ اذن ·· فأنت من ذلك الصنف نفسه ·· منهم ! يا للعار !؟ كيف تسمى هؤلاء ناسا ؟ أتحسب أن لهم قلوبا يحسون بها !

ـ وماذا تعرفين عنهم ؟ انك لم تجلسى الى أحد منهم قط !

ـ لقد قرأت عنهم ·

وقطع عليهما حديثهما مجىء الخادمة ومعها الغلاية · وشرعت ليوبا فى عمل الشاى دون أن تنطق بكلمة · وكان فوما وهو يلاحظها متجها بأفكاره كلها نحو صوفيا بافلوفنا · متمنيا لو كان فى قدرته أن يتحدث اليها ·

وحينما فرغت ليوبا من عمل الشاى ، انطلقت تقول فى استغراق وتأمل :

ـ انى لا يكاد يمر علىّ يوم حتى يتضح لى أن الحياة شىء شاق مرير · فأنا مثلا ·· ماذا يكون من أمرى ؟ أتزوج ؟! ومن ؟! تاجرا يقضى وقته كله فى سرقة الناس ، وفى السكر ، وفى لعب الورق ؟ كلا ·· ان هذا لن يكون أبدا ! ـ انى أريد أن أكون شخصية ! ـ وأنا بالفعل شخصية ، ولو لسبب واحد ، وهو أنى أدرك مدى ما فى الحياة من بشاعة وشناعة · هل أصل دراستى ؟ كأنهم يحسبون أن أبى سيسمح لى بذلك ! هل أهرب ؟ لست أجد الشجاعة ! فليت شعرى ، ماذا علىّ أن أفعل ؟

ثم قبضت باحدى يديها على الاخرى بحالة عصبية ، ونكست رأسها .

- آه لو عرفت مقدار ما أمقت هؤلاء الناس وأزدريهم ! انك لا تجد فيهم واحدا ٠٠ واحدا فحسب ٠٠ فيه أثارة من الحياة ٠ لقد طرد أبي من هنا كل مخلوق بعد وفاة والدتي ٠٠٠ وسافرت جميع صديقاتي لمواصلة الدرس - ومن هؤلاء أعزهن جميعا على نفسى ٠٠ صديقتى ليبا ، التى لا تنى تكتب الى ، توصينى بقراءة الكتب ٠ ولكن ٠٠ هأنذا أقرأ ، وأقرأ ، ولا أنقطع عن القراءة ٠

وانشأت ليوبا تزفر زفرات يائسة ، ثم عادت تقول بعد قليل :

- ان الكتب لا تنبئك بما تهفو نفسك الى معرفته ٠٠٠ وأنا نفسى لا أفهم الكثير مما تقدمه لنا ٠٠٠ ثم انه مما يبعث الملال فى النفس ألا تفعل شيئا الا أن تقرأ وأنت وحدك ولا سمير لك ٠ انى فى حاجة الى سمير أتحدث اليه ويتحدث الى ٠٠ ولكن ٠٠ أين هو ؟ لا أحد ! لشد ما مللت هذه الحياة ! ان الانسان لا يحيا الا حياة واحدة ٠٠٠ ولقد بدأت زهرة حياتى منذ حين ، الا أن الرجل الملائم لما يأت بعد ٠ فما يا ترى هذا الهدف الذى أعيش من أجله ؟٠٠ لعمرى ان هذه الحياة التى أحياها سجن ٠٠٠ سجن !

وكان فوما يحدق بعينيه فى أصابعه وهو ينصت اليها ٠ لقد كان يلمس بلواها ٠٠ الا أنه لم يكن يدرك من أمرها شيئا ٠ ولم يفتح الله عليه بشىء يقوله لها ، بعد أن فرغت من كلامها ،والتعاسة تكاد تسحقها ، الا أن قال لها فى لهجة أشبه بالتأنيب :

- أرأيت ؟ انك أنت نفسك تعترفين بأن الكتب لا تستطيع أن تمدك بشىء من المعونة ، ومع ذاك ، فأنت لا تنفكين توصيننى بقراءتها ٠٠

ولم تملك ليوبا الا أن ترمقه بنظرة شزراء ، والغضب ينقدح من عينيها :

— آه لو كان فى وسعك أن تتذوق شيئا من الآلام التى أعانيها ... وآه لو كان قد كتب عليك أن تسهر الليالى ، كما أسهر ، يضنيك الفكر ، ويؤرق عينيك شغل البال ! وآه لو كنت مثلى تتقزز من كل شيء ، كما أتقزز ، وتغثى من كل شيء ، حتى من نفسك ! يا لله ! لشد ما أمقتكم جميعا ! بل لشد ما أمقتك !

لقد كان وجهها يلتهب من الغضب ، وكانت نظراتها اليه مملوءة بالحقد ، وكلماتها له فياضة بالضغينة، حتى لقد ذهل ذهولا شديدا، وسقط فى يديه فلم يدر ماذا يصنع ، بالرغم مما قدمت اليه من اساءة . لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تكلمه فيها ليوبا بهذه الطريقة .

وسألها فوما واجما :

— ماذا ؟ ما الذى جرى لك ؟

وردت عليه وهى تزوم بغل :

— أجل .. أنا أمقتك .. أمقتك أنت بالذات .. أنت ؟ من أنت ؟ ومن عسى أن تكون ؟ شخص خرع لا يعرف شيئا فى الوجود ! ما الدور الذى سوف تؤديه فى هذه الحياة ؟ وماذا فى وسعك أن تقدم من خير للآخرين ؟

وأجابها فوما وهو يتعمد اغاظتها ، وتأجيج نيران غضبها :

— اننى لن أقدم اليهم شيئا .. ولماذا لا يحصلون على ما يحتاجون اليه بأنفسهم ؟

لقد كان استذنابها له من القوة والشدة بحيث لم يسعه الا أن يستمع اليها ، فتقدم بكرسيه خطوة منها ، لكنها نفرت وابتعدت

عنه محنقة مغضبة ، ورفضت أن تقول كلمة أخرى ٠

وكانت الدنيا لا تزال نورا فى الخارج ، وكانت أشـــعة شمس الاصيل تنعكس على أفنان أشجار الزيزفون القريبة من النافذة ، الا أن الغرفة كانت معتمة مع ذاك ٠ وكان بندول الســـاعة النحاسى الأغبش ربما تبدى فى كل ثانية من خلال زجاج صندوقه وهو يجىء ويروح فى دقات ضعيفة وانية ٠ وعندئذ وقفت ليوبا لتضىء اللمبة المعلقة فى السقف أعلى المنضدة ، وكان وجهها يبدو شاحبا ممتقعا فى وهج النور المفاجىء ٠

وقال لها فوما وهو يكبح جماح نفسه :

— لقد وجهت الى حملة من التعنيف الشديد ، ولكننى لست أدرى لماذا !

فأجابته ليوبا وهى تتعمد المشاكسة :

— لا أريد أن أكلمك !

— لك هذا ٠٠ ولكننى ما زلت أسألك ماذا فعلت ؟

— ألا تستطيع أن تلاحظ أننى أكاد أغص بريقى ؟ أكاد أختنق ! أى حياة هذه الحياة التى أحياها ! من أنا ؟ ان أبى رجل عاجز يعتمد فى الحياة على غيره ، وهو يحتفظ بى لأباشر له شـئون المنزل ٠٠٠ فاذا انتهى ذلك الدور من حياتى ، بدأ الدور الثـانى وذلك حينما أتزوج ٠٠٠ ومن ثم يكون واجبى أن أرعى شئون منزل آخر ٠

— ولكن ٠٠ ما شأنى وهذا كله ؟

— انك لست أفضل من هؤلاء جميعا

— ولكن ٠٠ أى شىء تأخذينه على ؟

— انك يجب أن ترغب فى أن تكون أحسن مما أنت الآن

— ولكنى أرغب فى ذلك وأتمناه ٠

وكانت على وشك أن ترد عليه لولا رنين جرس البـــــاب ٠٠٠ فارتمت فوق كرسيها وهى تقول عندما لمحت والدها :

— ابى

وقال فوما :

— لم يكن ظريفا مجيئه سريعا هكذا ٠٠ فلقد كنت أود أن أسمع ما عسى أن تقولى أكثر مما قلت ٠٠ بل كنت أتلهف الى ذلك ٠

وراح ماياكين يقول بمجرد ظهوره فى الغرفة :

— آه يا طفلى العزيزين ٠٠٠ أيهـــا القمريان الحبيبان ! أتشربان الشاى ؟ أفرغى لى كوبا يا ليوبا ٠

وجلس الى جوار فوما وهو يدعك يديه ، ويبتسم مبتهجا

وتساءل وهو يرسل بزغدة ظريفة الى أضلاع فوما :

— وفيم كنتما تهدلان يا ترى !

وأسرعت ليوبا تقول :

— فى لا شىء على الاطلاق ٠

وقال لها أبوها وهو يلوى بوزه :

— أنا لا أسألك ٠٠٠ فألجمى لسانك ، وعليك بشئون الســتات فقط ! و ٠٠٠

وقاطعه فوما بقوله :

— لقد كنت أحدثها عن المأدبة ، عن الحفلة ٠٠٠

ـ عال عال ٠٠ والآن جاء دورى فى الكلام عن المأدبة ٠٠٠ لقد كنت لا أنقل عينى عنك يا فوما ٠٠٠ ولا مفر لى من أن أقول لك انك لم تكن تدرى كيف تتصرف

وعبس فوما وهو يقول :

ـ أتظن ذلك ؟

ـ أجل ٠٠ أظن هذا ٠٠٠ انك لم تكن تدرى كيف يسلك الناس فى هذه المناسبات ، فمثلا ٠٠ لقد كلمك المحافظ ، لكنك لم ترد عليه بكلمة ٠

ـ وماذا كان على أن أقول له ؟ لقد قال ان فقد الانسان أباه كارثة ٠٠٠ وهذا شيء لم أكن أجهله ، فماذا كان في وسعى أن أقول ؟

ـ كان في وسعك أن تقول : ما دام الله سبحانه قد أراد أن يصيبنا بهذا يا صاحب السعادة ، فنحن لا نملك الا التسليم بما أراد الله !٠٠ أو شيئا من هذا القبيل ٠ ان الحكام يحبون من يحتمل الامور فى صمت يا بنى !

وضحك فوما ثم قال :

ـ وهل كان الواجب يقتضينى أن أنظر اليه كما تنظر النعجة ؟

ـ لقد كانت نظراتك كنظرات النعجة بما فيه الكفاية ٠٠ وهذا هو ما يجب ألا تكون ٠ والواجب أن تكون لا نعجة ولا ذئبا ٠٠ ولكن ٠٠ بين بين ٠٠٠ فمرة هذه ٠٠ ومرة ذلك ـ فكنت تقول له مثلا ! انك والدنا العزيز يا صاحب السعادة ، ونحن أبناؤك الأعزة ٠٠٠ وكان هذا يكسبك عطفه التام قبل أن تفطن أنت الى ذلك ٠

ـ وما قيمة أن يعطف على ؟

ـ قد ينفعك هذا فى حينه يا بنى ··· انك تستطيع أن تنتفع على الدوام بصلتك بالحكام يا فوما ·

وهنا تقول ليوبا مشمئزة :

ـ ماذا تحاول أن تجعل منه يا بابا ؟

ـ وماذا تظنين أنت ؟

ـ متزلف !

ـ غلط أيتها العلامة الحمقاء ··· بل هى السياسة والدبلوماسية التى أعلمه اياها ··· وليس التزلف ··· الدبلوماسية التى تعلم الانسان كيف يظفر فى هذه الحياة · ولكن ·· اسمعى ·· الأفضل أن تتركينا ··· هلمى ·· اغربى عن وجهى أيتها الشـــيطانة ·· وأعدى لنا شيئا نأكله ··· هيا ·· هيا ···

ونهضت ليوبا مسرعة ، وألقت الفوطة التى كانت فى يدها على مسند أحد الكراسى ، ثم خرجت ، وكان أبوها يوارب عينيه ،وينقر على المنضدة ، وهو يتبعها بعينيه

ـ وعلى هذا يا فوما ، فلسوف ألقنك درسا ··· انى سأعلمك علم الفلسفة الحق الموثوق به ، وأنت اذا تفهمته فلســـوف تشق طريقك فى الحياة دون أن تقع فى أى خطأ

ورفع فوما عينيه ليرى الأسارير التى تلعب بحركة عجيبة فوق جبين اشبينه ، والتى كانت تذكره بسطور من الكتابة السلافية

ـ فأول ما يجب عليك معرفته يا فوما ، أنه لا بد لك، اذا قدر لك العيش فى هذه الحياة ، أن تكون لك فكرة عن كل ما يدور حولك من أمورها · لماذا ؟ لكيلا يترتب على جهلك بهـــذه الامور ما يسوءك ، وما قد يسوء غيرك أيضا · ثم يجب أن تعلم بعد هذا أن كل شىء يفعله الانسان له ناحيتان · ناحيته الخارجية التى تقع عليها عيون

الناس . وهى الناحية الزائفة التى لا قيمة لها ، ثم الناحية الداخلية المستترة التى لا تراها الأعين ٠٠٠ وهــذه هى الناحية الحقيقيــة ٠ وهذه هي الناحية الهامة التى يجب أن تعنى بها اذا أردت أن تقف على حقائق الأشياء ٠ ولنضرب مثالا لذلك بهذه الملاجىء ، والمنشآت العمالية وغيرها وغيرها من المؤسسات الخيرية ٠٠٠ هل يمكنك أن تحزر لماذا أقيمت ؟

ويجيبه فوما فى فتور :

ـ ولماذا أحزر ؟ ان كل انسان يعرف لماذا أنشئت ٠٠ ألم تنشأ للفقراء والعجزة ؟

ـ آه يا صديقى ! يحدث أحيانا أن يعرف الناس أن فلانا وغد خسيس ، ومع ذلك لا ينادونه الا بحضرة السيد المحترم ، بدلا من مناداته بما يستحق من ألقاب التحقير ؟

ـ لست أدرى ماذا تقصد ؟

ـ أقصد هذا بالذات ٠٠ فأنت تقول ان هذه الملاجىء والمنشآت للفقــراء والمشردين والشحاذين ـ وبعبارة أخــرى لتنفيذ تعليمات المسيح ٠٠٠ حسن جــدا ٠٠٠ وأنا أسألك عن الشحاذين من هم ، وما هم ؟ ان الشحاذ هو ذلك الرجل الذى هدفه من الحياة هو أن يذكرنا بالســيد المسيح - انه حبيب المسيح ٠٠ انه هذا الجرس الذى لا تفتأ السموات تصلصل به لكي توقظ ضمائرنا ٠٠ لــكى تحرك ما خمد من لحمنا الشبعان البشم ٠٠٠ انه يقف تحت نوافذنا ولا ينفك يصيح : « لقمة لله يا أسيادى ! » وهذه الصيحة تذكرنا بالله فعلا ، وبالطريقة التى علمنا بها كيف يساعد أحدنا أخاه ٠ الا أن الناس قد نظموا الحياة بطريقة أصبح من المستحيل عليهم بمقتضاها أن يتبعوا تعاليم الله ٠٠٠ وبهذا لم يعد ثم متسع لهذه التعاليم فى حياتنــا التى نحياها وفقا للمنوال الذى رسمناه ٠ اننــا لم نصلبه

المسيح مرة واحدة فحسب ، بل لقد صلبناه مئات الآلاف من المرات .. ومع هذا فنحن لا نستطيع التخلص منه طالما أحباؤه ، هؤلاء الشحاذون ، لا ينفكون يجوبون الشوارع ، هاتفين باسمه ، ليذكرونا به ... ثم اهتدينا آخر الأمر الى وسيلة طيبة تخلصنا من هذا الكرب ... لقد قر رأينا على أن نحشد هؤلاء الشحاذين فى دور خاصة ، تمنعهم من الضرب فى الشوارع ، وايقاظ ضمائرنا .

وما كاد فوما يسمع ذلك حتى قال للرجل وهو يحدق فيه عينيه :

ـ فكرة عظيمة !

ويجيبه ماياكين وقد زوى ما بين عينيه الصغيرتين، وبريق الانتصار يلمع فيهما :

ـ هل فهمت !

ويسأله فوما وقد بدا عليه القلق :

ـ وكيف غاب هذا عن والدى ؟

ـ ولكن .. صبرك ! دعنى أكمل حديثى ـ فالآتى منه أدهى وأمر . لقد فكرنا فى مشروعات مختلفة من المنشآت نقيمها لهم لنسجنهم فيها ... حتى اذا حشدناهم ثم جئنا لهم بأعمال يقومون بها ... هؤلاء العجزة الطاعنون فى السن ... العميان الصم . المقعدون..وفعلنا ذلك لكى ينتجوا أشياء تدر ربحا يعوضنا مما ننفق فى سبيل المحافظة عليهم ... وبهذا لم يعد ثم مجال لاعطائهم زكاة وصدقات ، من يوم أن نظفنا من أسمالهم الطرقات ، ومن هنا لم تعد أنظارنا تقع على مشاهد بؤسهم وتعاستهم ... وأصبح يبدو لنا أن الناس فى أطراف الدنيا جميعا يلبسون النعال ويقتنون الملابس ويطعمون ويشربون بما فيه الكفاية . فهذا اذن هو ما أقيمت تلك المنشئات من أجله ـ لحجب الحقائق عن الأنظار ! لابعاد السيد المسيح من حياتنا ... فهل رأيت ؟

ويجيبه فوما مأخوذا مبهوتا من طريقة اشبينه البارعة فى سوق الحجج :

ـ ن ٠٠٠ ع ٠٠٠ م !

ويسارع ماياكين بقوله ، وهو يلوح بيديه فى الهواء :

ـ وليس هذا هو كل ما هنالك ٠ اننا لم ننزح كل ما فى الغدير من ماء بعد ٠

لقد كانت أسارير جبينه ترتجف ، وكان أنفه الطويل الذى يشبه منقار الصقر ينتفض ويختلج ، وصوته مشوبا بفرحة خبيثة :

ـ ولننظر الآن الى المسألة من وجهة أخرى ٠ فمن الذين يسهمون أكثر من غيرهم فى اقامة هذه الدور والملاجىء وسائر المنشئات الخيرية الأخرى ؟ الأغنياء بالطبع ٠٠ أعنى التجار ٠٠٠ حسن جدا ٠٠ ومن الذى يصدر الأوامر ويقرر ما يجب أن يتبع فى التنفيذ ؟ لسنا نحن طبعا ! بل هم ٠٠ الذوات ، وأولاد الأعيان ، وموظفو الحكومة ومن اليهم ٠٠٠ انهم أولئك الذين يقننون القــوانين ويؤسسون الصحف ويصنعون العلم ! انهم هؤلاء الذين كانوا يملكون الاراضى يوما ما ٠٠٠ فلما اهتزت الاراضى تحت أقدامهم ، ثم طارت منهم ، اضطروا الى التوظف ٠٠٠ ولكن ٠٠٠ من أقوى طبقــة فى الشعب اليوم ؟ أليس التجار هم القوة الحقيقية الفعالة فى البــلاد الآن ، لأنهم يملكون الملايين ؟ أليس الأمر كذلك ؟

ورد فوما بالايجاب ، وهو أشد ما يكون شوقا الى النتيجة التى كانت قد بدت تباشيرها فى عينى ماياكين بالفعل ٠

ومضى الرجل يقول بلهجة المطمئن الواثق :

ـ اذن فاستمع لما أقول ، وحاول أن تفهمه جيدا ٠ اننــا نحن التجار لسنا الذين جعلنا الحياة ما هى عليه الآن ٠٠ ونحن الى هذه

الأيام لم يكن لنا رأى فى تكييفها ... ولم يكن فى مقدورنا أن نتدخل فى تدبير أمورها بصغيرة أو كبيرة ... انهم هم هؤلاء الآخرون الذين جعلوا الحياة ما هى الآن . انهم هم الذين خلقوا هذه الطبقة من الشحاذين والعجزة والمقعدين ومن لا يصلحون لشيء . انهم هم الذين لطخوا الحياة بهذا القذر ... واذا حق للعدالة أن تأخذ مجراها ، فالواجب يقتضى أن يتولوا هم تنظيفها ... ومع هذا فنحن الذين نتولى عملية التنظيف ... نحن الذين نتبرع بالمال للفقراء ، ونحن الذين نتولاهم بالرعاية . وما الداعى الى ذلك ؟ ما الداعى الذى يلزمنا أن نرقع ثياب غيرنا ، ما دمنا لم نكن نحن الذين مزقناها . ما الداعى الذى يلزمنا ترميم بيت غيرنا ما دمنا لا نعيش فيه ؟ أليس من الأسلم ، والأحكم أن نقف جانبا فى الوقت الحاضر ، لنشاهد الحشرات والهوام تجتاح غيرنا من هؤلاء السادة ، والعلية الأعيان ؟ انهم لا شك سيعجزون عن مدافعتها ، لأنهم لا يملكون وسائل المدافعة ، وعند ذلك سيهرعون الينا ويسألوننا العون ، قائلين لنا متوسلين : « نضرع اليكم بعامل الرأفة أن تخفوا لنجدتنا » ثم نجيبهم نحن : « اذن فاتركوا لنا الحرية فى تنظيم الأمور واقامتها بحسب ما نراه موافقا . اتركوا لنا الفرصة لنقول كيف يجب أن تنظم الحياة » وبمجرد أن يعطونا هذه الفرصة ، فلسوف نتخلص من القذر ومن الهوام فى غمضة عين ، وسيرى صاحب الجلالة القيصر بملء عينيه من رعاياه المخلصون ، وما كانوا ينطوون عليه من الحكمة والسداد وهم منزوون لا يقدرون على شيء ! فهل رأيت ؟ »

وقال فوما متعجبا :

ـ هذا شيء لا تصعب رؤيته !

وحينما كان ماياكين يتحدث عن الموظفين تراءت لعينى فوما وليمة الحفلة بمن حولها من تلك الوجوه ، ولا سيما وجه ذلك السكرتير

النشيط البحبوح ! ثم خطر لفوما أن هذا السكرتير، الكرة، العجيب الشكل ربما لا يزيد ايراده فى العام عن ألف روبل ، على حين ايراد فوما يزيد على ألف ألف ··· ومع ذلك فالسكرتير يشعر بالسعادة وببهجة الحياة فى حين يشعر فوما على الدوام بالضيق والقلق وغربة النفس · وقد ضاعف هذا التباين بين حالته وحالة السكرتير مما حدثه عنه ماياكين منذ لحظة ، وأثار عاصفة من الأفكار فى رأسه ، الا أنه لم ينجح الا فى الامساك بفكرة واحدة منها وصياغتها فى السؤال التالى :

ـ قل لى ·· ولنترك كل هذا اللف والدوران ·· هل نحن لا نعمل فى هذه الحياة الا للحصول على المال ؟ وما فائدة المال اذا لم يمنحك القوة والسلطان ؟

ولم يزد الرجل على أن قال متعجبا : ـ آها !·· وهو يزم أجفان عينيه ··· وعاد فوما يسائله :

ـ وكيف لم يفطن والدى الى ذلك ؟ هل نبهته اليه ؟

ـ لقد ظللت عشرين عاما أنبهه الى ذلك

ـ وماذا كان رأيه ؟

ـ كان كلامى يذهب أدراج الرياح دائما ·· لقد كان مخه ثخينا : سيدك الوالد عليه رحمة الله ! لقد كان رجلا رقيق القلب فياض المشاعر ··· أما عقله ·· فقد كان كأنه فى بئر من شدة عمقه ! هم ! لقد أندب فى هذه الغلطة الفاحشة ، ووا أسفاه على تلك النقود !
ـ أنا لا يهمنى خسارة النقود !

ـ طبعا ·· ولكن حاول أولا أن تربح عشر هذا المبلغ ، ثم تعال فحدثنى : هل كان هذا المبلغ يهمك أو لا يهمك ·

وهنا يسمع صوت ليوبا وهى بالباب :

ــ هل أدخل ؟

ويأذن لها أبوها ، فتدخل وتقول :

ــ هل أنتما على استعداد لتناول العشاء ؟

ويقول لها أبوها : ــ هيا ٠٠ أعديه

وتذهب الى دولاب الفضية ، وتشرع فى تنظيم الأطباق ، على حين كان أبوها يمضغ شفتيه وهو ينظر اليها ، ثم اذا هو يضرب فوما فجأة فوق ركبتيه ويقول :

ــ فهذا هو الموضوع يا بنى العزيز ، فتدبره ، وفكر فيه جيدا ٠

ويجيب فوما بابتسامة ، ثم يتحدث الى نفسه قائلا :

ــ يا له من رجل ذكى حاذق ٠٠ أذكى مما كان والدى نفسه !!

ثم اذا صوت آخر فى أعماقه يقول :

ــ أذكى ٠٠ ربما ٠٠ ولكن والدى كان أحسن وأطيب قلبا !

الفصل الخامس

ه واستمر فوما على هذا الاتجاه المزدوج نحو اشبينه ... فكان يصغى اليه بمنتهى الاهتمام وفى تشوف شديد وهو يشرح آراءه ، الا أنه كان يزداد له بغضا وكراهية . وكان ماياكين يثير فى نفسه احساسا أقرب الى أن يكون خوفا ، بل أقرب الى أن يكون اشمئزازا ماديا . وكان هذا يحدث عادة حينما يقع شيء يسر الرجل ويجعله يضحك ، فكانت أساريره تتراقص ، محدثة تغييرا مستمرا فى تعبيرات وجهه ، وكانت شفتاه النحيلتان الجافتان تبرزان الى الامام فتتحولان الى تكشيرة تنفرج عن أسنانه الملطخة بالسواد ، وكانت لحيته الحمراء تتوهج كما يتوهج اللهب ، وكان صوت ضحكه أشبه باحتكاك مفاصل باب علاها الصدأ ! وكان فوما يعجز أحيانا عن ضبط مشاعر الكراهية له ، فتراه يشتد عليه ويخاشنه .. الا أن الرجل العجوز الداهية يتجاهل غلظة الشاب ، ويظل يتابع بنظراته جميع حركاته .. بل كان يهمل دكانه ، ويكرس جميع وقته لاشغال فوما جوردييف الملاحية ، ومن ثم فقد كان فوما يجد متسعا من الوقت يقضيه بعيدا عن متاعب العمل . وقد ازدهرت أعمال فوما أيما ازدهار بفضل نفوذ ماياكين ومركزه فى المدينة ، وصلاته الكبيرة فى جميع أطراف اقليم الفولجا . ولكن هذه الغيرة التى كان يبديها ماياكين فى ذلك كله قوت اعتقاد فوما في أن مصدرها هو ما يقصده ما ياكين من تزويجه ابنته ليوبا ، وكان هذا الشعور يزيده كراهية له .. أشد الكراهية .

لقد كان مغرما بليوبا حقا ، الا أنه كان يعدها خطرا أى خطر . وكانت لا تزال بنتا لم تتزوج بعد ، الا أن أباها لم يكن يبدى رغبة فى تزويجها ، ولم يكن يقيم الحفلات يبتغى بها اظهارها ، بل لم يكن يدعو الشباب لزيارته ، ولم يكن يسمح لها بالخروج من المنزل . ولقد تزوج جميع أترابها . وقد ذهل فوما لما كانت تقوله ليوبا ، الا أنه كان يصغى اليها بالاهتمام الذى كان يصغى به الى أبيها . لقد كانت تتحدث عن أخيها تاراس بلهجة حبيبة وفى شوق زائد ، حتى لقد كان فوما يحسب أنها تتخذ من اسم أخيها ستارا لشخص آخر ، لعله بيزهوف ، ذلك الشاب الذى كانت قد حدثته يوما أنه اضطر الى ترك الجامعة ، والى مغادرة موسكو لسبب من الأسباب . ولقد كانت ليوبا على قدر كبير من السذاجة والرأفة مما كان موضع تقدير فوما . وكان ما تقوله له يثير فيه عاطفة الرثاء لها والعطف عليها فى كثير من الأحيان وكان يخيل اليه أنها تقع فيما يشبه الغيبوبة وهى تنفض اليه بذات نفسها .

ولقد انتشرت أنباء ما صدر من فوما فى وليمة جناز أبيه بسرعة البرق بين طبقة التجار ، وقد نال ذلك من سمعته مما عاد عليها بأذى كبير . وكان يلاحظ أن زملاءه فى البورصة ينظرون اليه بشىء من الامتعاض ، واذا كلموه كلموه بلهجة خاصة .. وقد سمع أحدهم مرة يقول دبر ظهره ، وبصوت مرتفع فيه غطرسة واستهزاء : « هذا اللوح المخنث ! » ولم يلتفت ليرى من قائل هذه العبارة ، لكنه لم يعد يعجب بأحد من هؤلاء الأغنياء بعد ذلك قط ، وهم الذين كان يرتجف قبل ذلك اذا كان فى حضرتهم . لطالما كانوا يلقفون الأذون الرابحة من بين يديه ... ولم يغب عنه أنهم لا يتورعون عن عمل ذلك فى المستقبل ، فهمهم الوحيد هو الحصول على الأرباح ، والحصول عليها بشراهة ، وقد كانوا دائما ، فى سبيل المال ، على استعداد تام لغش بعضهم بعضا ، وفى أى وقت .

وعندما أخبر اشبينه برأيه هذا فيهم قال له :

ـ وماذا تنتظر منهم غير هذا ؟ ان التجارة مثل الحرب ، عمل كله مغـــامرة • فهم يقتتلون فى ســـبيل الأرباح ••• وأرباحهم هى أناجيلهم •

وقال فوما :

ـ انى أمقت التجارة •

فأجابه الرجل :

ـ ان فى التجارة أشياء أمقتها أنا أيضا ـ ومن ذلك الخداع الذى يجاوز الحد • الا أنك لا يمكن أن تكون صريحا ، وممن يلعبون على المكشوف اذا كان الأمر متعلقا بالتجارة ••• انك ينبغى أن تكون دبلوماسيا ، فاذا تكلمت مع شخص ما فى شأن من الشئون التجارية، وجب عليك أن تحمل نقودك فى احدى يديك ، وسكينك فى اليد الأخرى •

وعلق فوما على ذلك فى تفكير وترو :

ـ وهذا أيضا شىء لا يليق

ـ الشىء الذى يليق يأتى فيما بعد ، وذلك عندما تفوز بالغنم فى الصفقة • ان شريعة الحياة يا فوما يا ولدى شىء فى منتهى البساطة : انك ان لم تعض ، فانبطح على الأرض لتطأك أقدام الناس •

وكشر الرجل قليلا فبدت أسنانه الملطخة بالسواد ، وهنا جعل فوما يوسوس الى نفسه :

ـ أوه ! انك ، ولا بد ، قد عضضت ونهشت بما فيه الكفاية فى حياتك الطويلة !

ثم خاطب صاحب تلك الأسنان فقال :

ـ أليس ثم طريقة خير من هذه ؟ هل هذه هى الطريقة الوحيدة ؟

ـ وأى طريقة أخرى يمكن أن تكون هنالك ؟ ان كل انسان يريد أن ينتفع من حياته على أحسن وجه ! وما معنى أن ينتفع على أحسن

وجه ؟ معنى ذلك السبق فى الحلبة ، والارتفـــاع أكثر مما يرتفع الآخرون • ان كل انسان يحاول أن ينال مكان الصدارة لنفسه •• فبعضهم يسلك الى ذلك سبيلا ، ويسلك بعضهم سبيلا آخر ، الا أن كلا منهم يحـاول أن يحلق فوق منافسـيه كما يحلق البرج الشامخ ، لكى يراه الجميع ••• فهذا هو ما خلق الانسان من أجله •• أن يسمو الى المكان اللائق به فى الحياة ••• انك تجد ذلك فى سفر أيوب نفسه : « ••• الانسان مولود للمشقة ، كما أن الجوارح لارتفاع الجناح » والأطفال أنفسهم يحاولون أن يبذ بعضهم بعضا فى حلبة ألعابهم ، وكل لعبة يمكن أن تكسب ، وهذا هو الذى يجعلها شيئا ممتعا • فهل هذا مفهوم ؟ »

- نعم •• مفهوم

- ولـكن الذى أنت فى حاجة اليه هو أن تحس هـذا ، فالفهم وحده لا يجديك نفعا •• انك لا بد أن تريد •• وأن تريد من كل قلبك •• وحينئذ تصبح الجبال وكأنها تلال قميئة تحت رجليك ، والبحار وكأنها أوشال ضحلة لا عمق لها • أوه •• اننى عنـدما كنت فى سنك ، كنت أتقن لعبة الحياة والعمل أيما اتقان ••• أما أنت •• فهأنت ذا لا تزال تفـكر فى كيف تبدأ الحيـاة ، وقد بلغت من عمرك ما بلغت !

وبالضرب على هذا الوتر يوما بعد يوم استطاع الرجل الداهيـة أن يصل الى الهدف الذى أراد • فقد استقر رأى فوما على الغاية التى يعمل لها فى هذه الحياة • وهو لم ينفك يقول لنفسه : انك لا بد أن تكون خيرا من الآخرين •• ولقد استقرت فى أعماق نفسه بوادر الطمع التى زرعها فيه والده الروحى ماياكين • استقرت فى أعماقه ، الا أنها لم تملأها تماما ، لأن صلاته بصوفيا بافلوفنا سارت فى الطريق المقدر لها • لقد كان منجذبا اليها بصورة لا يمكن مقاومتها ، وكان مشوقا الى رؤيتها على الدوام ، لكنه كان اذا جلس اليها استولى

عليه الارتباك والخجل واستغلاق الذهن • وكان يعرف هذا فى نفسه ويقاسى منه كثيرا • وكان كثير التردد على منزلها ، الا أنه كان لا يجدها وحدها الا نادرا ، وكان الفتيان المتأنقون يحومون حولها كما يحوم الذباب على قطعة من الحلوى •• وكانوا يغنون لها ويضاحكونها ويتكلمون معها بالفرنسية ، على حين كان هو يجلس صامتا مبهوتا ، تكاد تشق مرارته الكراهية والحسد • وكان ربما جلس الساعات الطوال فى هذه الحالة فى أحد أركان صالونها الفخم المؤثث بأجمل الأثاث • وكان يشعر بالخدر يدب فى قدميه وهو جالس ينظر اليها فى هم واكتئاب •

وكانت تلقى نحوه بنظرات وابتسامات رقيقة وهى تتحرك خفيفة رشيقة جيئة وذهابا فوق السجادة الثمينة اللينة بين المعجبين المعطرين الذين كانوا ينسلون من حولها برشاقة انسلال الثعابين ، بين المناضد والكراسى والسواتر الكثيرة والتحف المنتشرة انتشارا فنيا بارعا وان بدت أنها موضوعة وضعا خاليا من العناية ، فيه من الخطر عليها بقدر ما تتعرض له من الخطر من السيد فوما • لقد كان اذا دخل الحجرة لم تقو السجادة على تخفيف صوت خطواته ، وكانت التحف تعلق بمعطفه الرحب فتهوى من مواضعها على الأرض • وكان بالقرب من البيانو تمثال من البرونز لبحار موشك أن يلقى فى البحر بعجلة نجاة محلاة بسلوك رقيقة لا تدرى كيف اشتبكت بشعر فوما ، مما جعل صوفيا بافلوفنا هى وأصدقاءها يضحكون ضحكا شديدا ، فى حين كان فوما تتناوبه الحرارة والبرودة على التوالى •

ولم يعد فوما يحس بغير القلق كلما جلس هو وصوفيا على انفراد •• لقد كانت تحييه بابتسامة رقيقة ، ثم تنطوى على نفسها كالقطة فى أحد أركان الأريكة قبل أن تكلمه ، وعندئذ تشرع نحوه عينيها الظليلتين اللتين يشع منهما ذلك البريق الجائع !

همست اليه مرة وهى تمط كلماتها مطا موسيقيا رشيقا :

ـ لشد ما أحب أن أتحدث اليك أنت ـ لقد ضقت ذرعا بجميع هؤلاء الآخرين ... أولئك الأغبياء ، العاديين ، التافهين ـ أما أنت فلا تزال ناضرا غض الاهاب .. مخلصا طاهر القلب .. ويبدو أنك تضيق بهم مثلى .. هه !

وانطلق فوما يقول :

ـ انى أمقتهم :

فسألته صوفيا :

ـ وأنا ؟؟

وزوى فوما وجهه وهو يقول :

ـ أنت دائما تسألينني هذا السؤال !

ـ وهل من الصعب عليك أن تجيب ؟

ـ ليس صعبا .. ولكن .. ما الفائدة ؟

ـ أريد أن أعرف !

وأجابها فوما مكتئبا :

ـ انك تعبثين بى .. هذا هو كل شىء !

ـ أعبث بك ؟ ما معنى هذا ؟

وقد سألت سؤالها هـــذا فى نغمة مذهلة ، وهى تفتح عينيهـــا الـــكبيرتين ، وقد بدت فى وجهها براءة الملائكة ، مما جعـــله يؤمن باخلاصها . فأجابها بحرارة :

ـ انى أحبك ، أحبك من صميم قلبى ! وكيف يمكن ألا أحبك !

ثم أردف يقول فى رقة وحزن :

ـ ولكن هذا لا يعنى شيئا بالنسبة اليك !

وتجيبه صوفيا بافلوفنا مسرورة وهى تبتعد عنه قليلا قليلا :

ـ هأنت ذا تقولها مرة أخرى ! انى تلذنى الطريقـــة التى تقولها

نبها • انها دائما تحمل رنة الشباب ! وفيها من الاغراء ما فيها :
أتحب أن تقبل يدى ؟!

وينحنى فى سرعة البرق ، ويتناول يدها النحيلة الجميلة ، ليطبع عليها قبلة طويلة •• طويلة •• تفيض حماسة ، حتى لتنزعها صوفيا آخر الأمر وهى تبتسم ، غير متأثرة بحماسته • ثم جلست ترمقه وتحدق فيه كأنه احدى العجائب ، وعيناها تتألقان بتلك الطريقة الخاصة التى كانت تبلبل فوما دائما وتحيره •

وقالت له متعجبة :

ـ لله ما أوفر قوتك وأتم صحتك وأطهر قلبك ! لماذا كنتم أيها التجار طبقة وحدكم ، جيلا طاهر القلب لم تتلف روحه ، لكم تقاليدكم الفذة ، وقواكم الجسمية والروحية العظيمة ؟ فهأنت ذا مثلا •• انك جوهرة صافية ! وآه لو أتيح لى أن أجلوك !

وكانت كلما قالت : أنت أو أنتم ، أو أنتم أيها التجار ، أحس فوما كأنها تنتقى الألفاظ التى من شأنها أن تباعد بينها وبينه • وكان هذا يؤلمه ويحزنه ، ولم يكن يجيب بشىء ، بل يجلس صامتا ، ويرقب جسمها النحيل الرقيق الذى هو الى أجسام العذارى أقرب منه الى أجسام السيدات •• جسمها النضر كالزهرة الفيحاء ، والذى تكسوه بطريقة نادرة وذوق غير عادى • لقد كان فى بعض الأحيان يشعر برغبة طاغية عاتية تغريه بأن يتلقفها بين يديه ليطبع على فمها قبلة ، الا أن جمالها ورقتها كانا يخيفانه •• ويلقيان فى روعه أن هذا العمل ربما آلمها ، على حين كان صوتها اللطيف ، ونظراتها الصافية ، الحريصة الحذرة مع ذاك ، كفيلة بأن تكبح جماح عاطفته الجياشة الثائرة • لقد كان يخيل اليه أنها تنظر الى أعمق أغوار نفسه ، وتقرأ أدق أفكاره • وكانت هذه الفورات العاطفية لا تقع الا فى النادر ، اذ كان حبه لصوفيا بافلوفنا حبا أشبه بالعبادة ـ

كان كل ما فيها يروقه ويثير اعجابه ـ جمالها ، كلامها ، ملابسها .. ولم تكن عبادته اياها هى كل ما هنالك ... فقد كان يؤلمه ويجرح كبرياءه ما يعلم من وجود هذه الفجوة الكبيرة بينه وبينها .. لقد كانت أرفع منه تفكيرا ، وأوسع أفقا ، وأقدر فى كل شىء !

ثم تطورت العلاقات بينهما بسرعة كبيرة ... ولم يكد يخلو اليها مرتين أو ثلاثا حتى كانت قد استعبدته استعبادا وأسرت فؤاده أسرا تاما ، ومن ثم بدأ يتعـذب عذابه الأليم العظيم . ولم يكن خافيا أنها كانت تجد لذة فى فرض سلطانها على شاب قوى سليم البنيـة مثل فوما ، وفى اثارة الوحش السـاكن فى صميمه ثم ترويضه واخضاعه بمجرد كلمة أو نظرة ... لقد كانت هذه المعابثة تلذها لأنها كانت على يقين من سلطانها . وحينما كان ينصرف من عنـدها كان يخامره شىء من توفز الأعصـاب ، ويشعر بالسخط عليها وبالغضب على نفسه ، الا أنه لم يكن يصبر على لقائها أكثر من يوم أو يومين ، ثم يعود اليها ليتلقى مزيدا من الألم .

قال لها يوما والخجل آخذ بزمامه :

ـ صوفيا بافلوفنا ... ألم تنجبى ... يوما ما .. أطفالا ؟

كلا !

ـ هذا هو ما كنت أعتقد .

وقد قال هذا متهللا جذلان .

وقالت له وهى تنظر اليه كأنه طفل برىء حدث :

ـ وماذا جعلك تعتقد ذلك ؟ ولماذا أردت أن تعرف هل كنت قد أنجبت أطفالا أو لم أنجب ؟

وشاعت حمرة الخجل فى وجه فوما وغض عينيه . وغار صوته ، وأخذ يتكلم وكأن كل كلمة تزن قنطارا ، وكأنه ينزع كلامه هـذا الثقيل من الأرض نزعا .

ـ لأنه حدث ذات مرة أن امرأة ··· أقصد ··· امرأة ··· لها أولاد ··· لم تكن عيناها ··· مثل عينيك !

ـ لم تكونا مثل عينى ؟·· فماذا كانتا اذن ؟

فقال بلهفة وعلى عجل :

ـ كانتا جريئتين ··· ولا تشعران بخجل !

وأرسلت صوفيا بافلوفنا ضحكتها الفضية ، ورفع فوما عينيه ثم ضحك هو أيضا

وقال مستغفرا :

ـ معذرة ! ربما أكون قد قلت شيئا ··· شيئا لا يليق !

ـ أوه ·· أبدا أبدا ·· انك لست ممن يقولون شيئا غير لائق ·· انك ولد طيب القلب ·· لطيف· وعلى هذا : فهل عيناى جريئتان لا تعرفان الخجل ؟

وأجابها هامسا والسعادة تغمر قلبه ، وعيناه تلمعان :

ـ ان عينيك عينا ملك

ونظرت اليه هذه المرة كما لم تنظر اليه من قبل قط ·· لقد نظرت اليه نظرة تفيض أمومة ··· نظرة يغشاها الحزن ··· لقد كان حبها له يوشيه الاشفاق عليه والرثاء من أجله ·

وصرفت عينيها عنه وهى تهم بالوقوف ، قائلة له :

ـ اذهب الآن يا عزيزى ·· فأنا متعبة ، وأريد أن أستريح ·

وانصرف فوما طائعا ممتثلا ·

وظلت فترة من الزمان بعد هذا تلزم التحفظ والجد فى حديثها اليه ، كأنما كانت ترأف به وترثى لحاله ·· غير أن هذا لم يستمر

طويلا ... فقد عادت من جديد الى معابثته ولعبها به ، كما تلعب القطة بالفأر .

ولم يكن فى مستطاع فوما أن يخفى علاقاته بصوفيا بافلوفنا عن اشبينه ، الذى قال له مرة ، وهو يرمقه بعينى ثعلب :

- فوما ! تحسس رأسـك لحظة بعـد لحظة يا بنى لتتيقن أنه لا يزال فى مكانه.. ولم يطر !

وسأله فوما :

- ماذا تعنى ؟

- سونيا ! .. انك تقضى كثيرا من وقتك عندها

فسأله فوما بجفاء :

- وما شأنك أنت وهذا ؟ وبأى حق تدعوها سونيا ؟

- لا شأن لى ... ولا يضيرنى مطلقا اذا هى التهمتك التهاما .. أما دعائى لها سونيا .. فهذا هو اسمها كما يعلم الناس جميعا .. وكما يعلمون أيضا أنها تحب أن يقوم الناس بما لديها من أعمال دنسة بالنيابة عنها .

ويجيبه فوما مقطبا وقد وضع يديه فى جيوب معطفه :

- انها امرأة ماهرة .. على قسط حسن من التعليم .

- ماهرة ، ما فى ذلك شك ولا ينكر هذا أحد ، ومتعلمة تعليما حسنا أيضا . وهى لا بد سوف تلقنك أنت دروسا ... كما سوف يلقنك دروسا هؤلاء البلطجية الصائعون الذين يلزمونها ويحومون حولها !

وقال فوما كالذى يرد الاهانة ، منكرا ما يعتقده هو شخصيا فى ثورة غضبه :

- انهم ليسوا بلطجية ولا صائعين ... وسوف أتعلم الكثير منهم ... ما الذى أعرفه أنا ؟ لا الكلام .. ولا أساليب الاجتماع .. ان أحدا لم يعلمنى شيئا مطلقا . وهم يتناقشون فى جميع الامور فى منزلها ، وكل منهم يدلى برأيه ... اننى عزمت على أن أصنع من نفسى شيئا ، فلا تحاول أن تقف فى سبيلى .

- ماشاء الله ! اسمعوا يا عالم هذا الانسان ماذا يقول ! كلام أثقل من الهم على القلب ! عال ! تصنع من نفسك شيئا ... ولكنك اذا أردت أن تفعل ذلك فخير لك أن تنقطع له فى حان أو خمارة .. على الأقل تجد هناك أناسا خيرا ممن تجدهم عند سونيا . انها فكرة طيبة أن تتعلم كيف تقدر الناس حق قدرهم ، أيها الرجل الصغير - أن تعرف قيمة هذا وقيمة ذاك ، الصالح منهم والطالح .. ولنضرب لذلك مثلا .. سونيا نفسها .. ترى ؟ ماذا عسى هذه السيدة الشابة أن تكون ؟ حشرة ! فراشة جميلة اللون تزين الحقول .. لا أكثر ولا أقل !

وأحفظ فوما هذا الكلام الجارح عن سونيا فصر بأسنانه ، ووضع يديه الى قاع جيوبه بحركة عصبية ... وخرج .

ولم تمض مدة حتى أثار ماياكين موضوع صوفيا بافلوفنا مرة ثانية ، وكان هو وفوما راكبين فى زلاقة واسعة ، وهما يتحدثان حديثا أخويا عن شئون العمل، وذلك فى عودتهما من جولة تفتيشية على المراكب والصنادل الراسية فى أحد الخلجان منتظرة انتهاء فصل الثلوج . لقد كان الشهر شهر مارس .. وكان الماء ينسرب من تحت طارات الزلاقة ، وأوشك الجليد أن يتلاشى كله ، والشمس ترسل دفئا بديعا ينتشر فى السماء الصافية .

وحول ماياكين حديثه عن شئون العمل فجأة ليقول :

- أحسب أنه لن تمضى دقيقة واحدة على وصولك الى المنزل حتى

تنطلق فى الحال الى منزل صديقتك ! اياها ٠٠٠ أليس كذلك ؟

ويجيبه فوما مشدوها ٠٠٠ منحرف المزاج :

ــ طبعا !

ويسأله مایاکین بلهجة مهذبة :

ــ هم !٠٠ أتكثر من تقديم الهدايا اليها ؟

ويجيب فوما متعجبا :

ــ هدايا ؟٠٠ ولماذا أقدم اليها هدايا ؟

ــ لا هدايا ؟٠٠ ماشاء الله ! أتقصد أنها تصادقك لغير شيء ؟ من أجل الحب ٠٠ والحب فقط ؟

ويصطبغ وجه فوما بحمرة الخجل وحمرة الغضب ، ويقول :

ــ انك رجل عجوز ٠٠٠ الا أنك تقول أشياء تخجل من يسمعها

ثم زاد محتجا :

ــ كأنك تعنى أنها ترتكب مثل هذه الأشياء ال ٠٠٠ كأن في وسعها أن ٠٠٠ !

ومصمص مایاکین ثم قال وهو ينفث وينفخ ويبصق :

ــ يا أمير المغفلين ، ويا سيد الحمقى ! بفو ! لقد رحض جميع الحلاليف من ذلك الحوض ٠٠٠ والآن ٠٠ وبعد أن لم يبق فيه الا ما سال من أنوفهم ومن مخلفاتهم ٠٠٠ يأتى حضرة المغفل الكبير ويشرع فى عبادته ، والسجود بين يديه ، من بين الأصنام الملعونة كلها !! اسمع ! اذهب اليها الآن فى الحال وقل لها فى غير لف ولا دوران : انى أريد أن أكون حبيبك ، وأنا لا أزال صغير السن بعد ، خلك حياتى وما أملك ! وكيسى وما فيه !

وقال فوما مقطبا منذرا :

ـ يا سيدى الوالد ، اننى لا أصدق هذه الأشياء ٠٠٠ ولو أن أحدا غيرك ٠٠٠

وأدركه الشيخ وهو يزوم ويلقى بيديه فى الهواء فقال مولولا :

ـ ومن غيرى يهمه أمرك ويحرص على مصالحك ؟ هل صحيح أنها ظلت الشتاء بطوله مستولية عليك، وتقودك من منخرك !٠٠ فيالك من منخر ، ويا لها من حية رقطاء !

لقد كان الرجل فى منتهى الاستياء ، وكان فى صوته سورة من الغضب ولفحة من الغم ، بل لقد كانت عيناه شرقتين بالدمع ٠ لقد كان فى حال لم يره فوما فى مثلها من قبل ، حتى أرغمه هذا على أن يلزم الصمت ٠

ـ انها ستجر عليك الخراب ٠٠٠ هذه البغى البابلية !

وجعلت عينه تطرف بسرعة ، وشفتاه تختلجان وهو يحمل على صوفيا بافلوفنا حملته الشعواء وبتعبيراته المخزية المخجلة التى كانت تتخللها صرخات الغضب وصيحات الاستياء ٠

وأدرك فوما أن الرجل كان صادقا فى كل ما يقوله عنها ، ومن ثم شعر بعبء ثقيل من الهم يجثم على صدره

ثم راح يغمغم مهموما يائسا وهو يزوى وجهه عن الرجل :

ـ حسن ٠٠ حسن جدا ٠٠٠ فى هذا الكفاية يا سيدى الوالد !

فصاح به ماياكين :

ـ ان ما يلزمك هو الزواج ٠٠ والزواج بمنتهى السرعة

وتوسل اليه فوما يقول :

ـ كفى بالله عليك كفى !

ونظر اليه الشيخ ولم ينطق بكلمة ٠ وشحب وجه فوما ، وكان

من السهل ادراك ما ينطوى عليه من ألم ممض ، من شفتيه المغورتين ونظراته المعذبة

لقد كانت الحقول ممتدة عن يمين وشمال وعليها بقايا أسمال م سرابيل الشتاء • وكانت الأغربة السحم تثب وتتطاير رشية طليقة فوق قطع الأرض السمراء التى ذاب من فوقها الثلج • وكار الماء يخر خريرا لطيفا تحت طارات الزلاقة ، على حين كانت قطع م الثلج ملوثة بالوحل تنتثر من حوافر الخيل

وراح ماياكين يزوم فجأة وهو يصر بأسنانه :

ـ يا للانسان فى شبابه من جحش لا يفقه شيئا ! كلما نظر ا زرزور ، حسبه أحد النسور ! فواخيبتاه ، وألف ألف خيبتاه !

وقال له فوما مخاشنا :

ـ كفى كلاما بالاحاجى والالغاز •

ـ وبماذا نتكلم الا فى هذا ؟ كل شىء واضح • البنات قشم •• والنساء •• شرش ! وفى امكانك أن تمسك النساء ، أما البنا •• فيزغن منك كما يزوغ الزئبق ! وبعبارة أخرى يمكنك أن تذه الى سونيا اذا لم تستطع أن تعيش بدونها •• ثم قل لها فى وجه كذا وكذا ••• ثم ••• كذا وكذا ! مالك مقطب الجبين هكذا ؟ ف تفكر أيها المغفل ؟ ما الداعى الى كل هذا العبوس ؟

وقال له فوما فى هدوء :

ـ أنت لا تفهم !

ـ أنا لا أفهم ؟•• بل أنا فاهم كل شىء !

ـ القلب •• الانسان له قلب !

ويزوى ماياكين عينيه ثم يقول :

ـ واذا كان الانسان له قلب ، فلن يكون فى رأسه مخ !

الفصل السادس

ولم يكد فوما يصل الى منزله حتى كان طائف من الغضب المؤلم النزاع الى الانتقام يعصف به عصفا . لقد كان يحدوه شوق طاغ الى تحقير صوفيا بافلوفنا وصب الاهانات على رأسها ، وهاهو ذا يذرع حجرات منزله الخالية جيئة وذهابا مدة ساعات تباعا ، وقد علا وجهه الوجوم والاكتئاب ، وأسنانه تصر صريرا شديدا ، ويداه غائرتان فى جيوبه ، ورأسه منتشر كرأس الصل ، والغيظ يملأ صدره ويكاد يشق مرارته ، وقدماه تدقان الأرض دقا كأنهما مطرقتان يسحق بهما غيظه .

ـ الساقطة ... فى زى الملائكة !

يقول ذلك .. ثم يراوده الأمل أحيانا فيقول بصوت خافت :

ـ ومن يدرى ؟ فقد يكون هذا كله وشايات ومحض افتراء !

لكنه لا يكاد يذكر تلك القوة التى كان يتكلم بها اشبيينه عنها واللهجة الفائرة التى كان يؤكد بها ما يقول ، حتى تعود أسنانه الى صريرها ، ويعود رأسه الى الانتشار أشد مما كان .

وقد خيل لفوما أن صوفيا بافلوفنا قد أصبحت ، بعد الذى رماها به ماياكين ولوث به سمعتها ، سهلة المنال ، وسرعان ما سر هو بذلك . ومضت أيام طويلة كان العمل يستغرقه استعدادا لبدء موسم الملاحة ، وانتفع فوما بهذا ، فقد هدأت سورته بتفرغه الى أعماله ، وخفت حدة المرارة التى كان يشعر بها نحو صوفيا كامرأة ،

لأسفه عليها ككائن بشرى ، وشحذت فكرة أنها أصبحت سـهلة المنال من رغبته فيها • ثم انتهى شيئا فسيئا ، ومن حيث لا يشعر ، الى أن من واجبه أن يذهب اليها ، وأن يطلب اليها صراحة ما يريده منها ، من غير محاورة ولا مداورة •

وكانت وصيفة صوفيا قد تعودت زياراته لسيدتها ، فلما أقبل هذه المرة ، وسألها : هل سيدتها موجودة ، أشـارت الى الصـالون قائلة :

- تفضل الى الصالون •• ان سمحت

وخذلته شجاعته لحظة ، لكنه حينما لمح نفسه فى المرآة ، بجسمه السمهرى فى بزته القصيرة، وبوجهه الجاد ذى الاطار من تلك اللحية السوداء المجعدة ، وبعينيـه الكبيرتين السمراوين ، شـد كتفيه ، وانفتل فى اعتداد كبير داخل الصالون

وانسابت موسيقى وترية فى أذنيه •• موسيقى ذات أصـوات غريبة تشبه ضحكا هادئا مكتئبا ، أصوات فيها حنين وفيها توسل يجعلها تتدفق فى قرارة القلوب غير مستأذنة ، وان كانت تثير فى نفس فوما الهواجس ، وتوحى بضآلة الامل فى تحقيق آماله • لقد كان لا يحب الاصـغاء الى الموسيقى لما تثيره فى نفسـه من الهم والشجن • وعندما كان الدولاب الموسيقى فى الحان يرسل بعض النغمات المحزنة كان فوما يشعر بالكآبة والانقباض وضيق الصدر فكان يطلب اغلاقه أو يقوم فيغلقه بنفسه ، لأنه لا يطيق موسيقاه الصامتة المتوسلة المبتهلة المملوءة بالدموع والأحزان ••• وبعـد •• فقد رأى نفسه يدلف داخل الصالون ، وكأن يدا مجهولة تدفعه اليه دون رغبة منه •

وكان باب الصالون محجوبا بشبكة من حبال خرز ملون تؤلف رسما لزهرة غريبة الشكل وقد تحركت حبال الخرز برشـاقة وهى تنتثر من حولها ايحاء عجيبا بأن الهواء كله مملوء بأشباح زهـور

باهته ، وكانت شفافية الشبكة تتيح للانسان رؤية ما فى داخل الغرفة ··· وكانت صوفيا بافلوفنا جالسة على أريكتها المحببة تعزف على الماندولين ، وعلى الحائط مظلة يابانية كبيرة تكون عريشا ملونا فوق جسم صوفيا النحيل المظلل ، الذى كان مغمورا فى وهج دافىء ينسكب من مصباح طويل برونزى مغطى بأباجور أحمر · وكانت أنغام حبال الخرز الناعمة تنتشر منتشية مرتعشة فى ضوء الفستق المعطر الذى كان يملأ الغرفة الصغيرة · وكانت صوفيا فى هذه اللحظة قد وضعت الماندولين فوق ركبتها ، ثم مدت يدها ومست بها حبال الخرز وهى ذاهلة شاردة اللب على حين ذهبت عيناها محملقان فى فراغ الغرفة ·

وعندما وقعت عليها عينا فوما ، لاحظ أنها لا تبدو جميلة رائعة الجمال وهى جالسة وحدها ، كما تبدو جميلة ساحرة الجمال وهى بين الناس ··· فقد كان وجهها أكثر رزانة ووقارا · وكانت تبدو أكبر سنا ، وقد حلت سيماء الضجر والسآمة محل النظرة اللطيفة ذات الخفر فى عينيها ، وكان فى أعضائها ارتخاء ووناء ، كأنها تريد أن تقف فلا تستطيع

وسعل فوما سعلة خفيفة ··· فأفاقت صوفيا ، ونادت :

— من ؟

واهتزت يدها فوق حبال الخرز فأحدثت هذه صوتا منبها

وأجابها فوما وهو يفرق حبال الخرز جانبا :

— أنا !

— أوه ·· ! انك لم تحدث أى صوت وأنت داخل ··· سعيدة برؤيتك · اجلس · ما الذى منعك من زيارتى كل هذه المدة ؟

ومدت احدى يديها نحوه ، وأشارت بالأخرى الى كرسى صغير بجانبها ··· وقد نفحته عيناها بنظرة سعيدة

وقال فوما فى عجلة مبالغ فيها وهو يسحب الكرسى قريبا من الكنبة :

ـ كنت فى جولة تفتيشية على سفننا الراسية فى الخليج
ـ أو لا يزال قدر كبير من الثلوج فى الحقول ؟

ـ لا يزال مقدار كبير منها ، الا أنها تذوب بسرعة ٠٠ والطرق مملوءة بالبرك ٠ ثم نظر اليها وراح يبتسم ، ولا بد أنها لاحظت سلوكه غير عادى ، وان ابتسامته تحمل معنى جديدا ، بدليل أعادت ترتيب ثنايا جـونلتها ، ثم أشـاحت بعيدا عنه ٠٠ وال عيناهما ٠٠ ولكن صوفيا بافلوفنا أغضت قليلا ٠

ثم تمتمت وهى تحدق فى خاتم فوق خنصرها :

ـ اذن فالثلوج تذوب !

وأجابها فوما وهو ينظر الى مقدمة حذائه :

ـ أجل ٠٠ والنهريات ومسايل الماء فى كل مكان ٠

ـ ما أجمل هذا ! ان ذلك يعنى أن الربيع على الأبواب ٠
ـ وأنه أصبح وشيكا ٠

ورددت صوفيا بصوت ناعم كأنها تختبر مقاطع كلماتها :

ـ الربيع ٠٠ يدنو !

ويقول فوما وهو يتضاحك ويدعك يديه بخفة ونشاط :

ـ الربيع ٠٠ فصل الحب ٠٠ وموسم الذين يحاولون أن فيه !

وتسأله صوفيا بجفاء :

ـ وهل أنت موشك أن ٠٠ تطب ؟

ـ أو ٠٠ كلا ٠٠ فقد حدث هذا منذ زمن بعيـــد ٠٠ وأنا غارق فى الحب بالفعل الى آخر لحظة من حياتى

ورشقته بنظرة خاطفة ، ثم قالت وهى مستغرقة فى تفكير ع وقد بدأت تعزف على الماندولين من جديد :

ما أسعد حظك أن تكون هذه أولى تجاربك فى الحياة ! وأن يكون قلب قوى جرىء خال من الأشباح التى تكمن فى جوانبه !

ناداها فوما بصوت رقيق :

صوفيا بافلوفنا !

ومنعته من الكلام بايماءة رقيقة وهى تقول :

انتظر يا ولدى العزيز • فأنا أريد أن أذكر لك اليوم شيئا • لطيفا • ان ثم لحظات تمر بالانســـان الذى عرف الكثير من بب الحياة ، تجعله ينظر فى حنايا قلبه فيجد فيها أشياء لم ينتظر أن يجدها هناك مطلقا ••• أشياء موغلة فى القدم ،أشياء عليها النسيان أذياله منذ عهد بعيد ، لطول ما اندست فى أعمق القلب سنوات وسنوات ••• الا أنها لم تفقد أريج الشباب هذا الزمن • وحينما تغمرها الذاكرة بضوئها ، يشعر الانسان ملأ رئتيه بجرعة طويلة من نسيم الصباح المنعش ، صباح !

وهنا ••• راحت الأوتار تتنهد وترتعش تحت أصابعها ،وأخذت صوات المنطلقة من الماندولين ، وترنيمات صوتها وهى تتكلم ، :عب بمشاعره وأحاسيسه ••• وأخذ ينصت فارغ الصبر وهو بفهم كلمة واحدة مما تقول • مما جعله يهمس فى قرارة نفسه : ســـتمرى ! تكلمى ! وان لم أعد أومن بشىء مما تقولين بعد ! » أن ما كان يهمس به هو قراره الأخير الذى لن ينثنى .•

وقد ســـاءه ذلك • وشعر بالأسف يغمر نفســـه لأنه لم يكن ستطيع أن يصغى الى صوفيا بالثقة التى كان يصغى اليها من قبل وسألته صوفيا :

- هل فكرت يوما فى أسلوب الحياة التى يجب أن تحياها ؟

قال وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- أراني أحيانا أفكر فيها ... ولكن هذا لا يستغرق منى وقتا طويلا ... فليس عندى وقت كاف للتفكير فى ذلك . ثم .. ماذا هنالك يستحق التفكير اذا أردت الحقيقة ؟ أجيلى عينيك فيما حولك، ثم انظرى كيف يعيش الآخرون ، وانسجى على منوالهم .

- أو .. أو ! احذر أن تفعل هذا ، بل ارفق بنفسك ، ولا تنس أنك شخص .. شخص ظريف ! وفيك شيء يختلف عما فى هؤلا الناس ، وان كنت لا أعرف ما هو ، غير أننى أحسه وأشعر به ولشد ما أخشى أن تكتشف أن الحياة فى هذه الدنيا ليست شيئ هينا .. وأنا على يقين أنك لن تسلك فيها سبيل أبناء طبقتك . ا من المحال أن ترضى عن حياة ينفقونها بأكملها فى جمع المال .. أ .. كلا !.. ان ثم شيئا آخر أنت بحاجة اليه .. أليس كذلك ؟

وكانت تتكلم بسرعة وطلاقة ، وكانت عيناها ترسلان بنظرة فيه رعب وفيها انزعاج . وكان فوما ينظر اليها وهو يتساءل فيما بين وبين نفسه : « ترى ؟ الام ترمى ؟

ودلفت صوفيا قريبا منه ، ثم جعلت تحدق فى عينيه، وهى تحد جاده :

- بل اتخذ لك مثالا آخر تحتذيه فى بناء حياتك ، فأنت صغ وقوى و ... طيب .

وأجابها فوما وقد لمس ما يعروه من ارتباك ، وما ينتاب قلبه م دق عنيف :

- ان كنت طيبا حقا ، وجب أن يكون الآخرون طيبين !

وتقول له صوفيا محزونة :

- ان الصالحين من الناس يعاملون دائما بأسوأ مما يعامل ب الطالحون فى هذه الدنيا !

ثم انطلقت الأنغام من تحت أصابعها مرة أخرى . وخيل الى فوما أنه ان لم يصارح لها بما جاء من أجله ، فلن يجرز على مصارحتها به بعد ذلك .

وتوكل على الله .. وتوسل اليه أن يعينه، ثم أخذ يغالب الاحساس المكبوت فى صدره ، وقذف بنفسه فى اللجة وهو يقول :

ـ صوفيا بافلوفنا ! كفاية من هذا ! لقد آن لى أن أصارح لك . لقد جئت بخاصة لكى أقول لك : كفاية من هذا ! لقد آن لك أن تكونى شريفة معى .. صريحة وشريفة ! لقد اتبعت معى أول الأمر كل الطرق التى تجعلنى أحبك ، والآن .. هأنت تشيحين عنى ـ ـ وأنا لا أفهم الذى تقولين ـ فعقلى عقل مظلم ، الا أننى أشعر أنك تريدين الاختباء منى ... وأحسب أنك قد عرفت الآن الغرض من مجيئى

وكانت عيناه تبرقان ، وكان طابق صوته يرتفع مع كل كلمة ، ويزيد حرارة .

وقاطعته بصوت فيه رنين النذير ، وهى تتقدم خطوة نحوه :

ـ أوه .. لا تزد

ـ أو .. لا ! وما دمت قد بدأت الكلام .. فسوف أقول كل شىء

ـ وأنا أعرف ما تريد أن تقول .

ويجيبها فوما مهددا ، وهو يهم واقفا :

ـ بل أنت لا تعرفين كل شىء .. لكننى .. أنا .. أعرف عنك كل شىء .. كل شىء !

وتسأله صوفيا وهى متمالكة كل أعصابها :

ـ أحقا ؟ اذا كان ذلك فهو خير لى

ونهضت واقفة هى أيضا ، وكأنها تهم بالانصراف ، غير أنها عادت الى جلستها الاولى بعد لحظة من التفكير ، وقد تجهم وجهها وقطب . وانطبقت شفتاها ، وغضت عينيها ، حتى لم يكن فى مستطاع فوما أن يميز ما تنطويان عليه . لقد خيل اليه حينما قال لها انه يعرف عنها كل شىء أنها سوف تنزعج وتخجل ، وتشفق من الخطر الذى يتهددها ، ثم ترتبك ، وتسأله الصفح والمغفرة لمعابثتها اياه واستغفالها له ، فلا يسعه الا أن يأخذها ملء ذراعيه ويعفو عنها .. الا أن هذا لم يحدث .... والذى حدث هو أنه الذى ارتبك بالفعل عند مرآه برودها ورباطة جأشها ، فوقف يحدق فيها ويبحث عن كلمة يقولها فلا يجد .

وعادت تكرر ما قالته فى جفاء وبجنان ثابت :

ـ خير لى أن تعرف عنى كل شىء ... وعلى هذا فأنت تعرفه جميعا ، أليس كذلك ؟ وبالطبع أنت تعرف عنى ما لا يسر ، كما لا يمكن أن يكون شيئا آخر .. على أننى أفهم ... فلقد كنت أعبث بك ... ولكن .. لا .. فلن أحاول أن أعتذر بشىء !

وجلست لا تتكلم بشىء ، ثم أمسكت برأسها فجأة ، وراحت تثبت دبابيس شعرها . وترسلها فيه ارسالا .

وزفر فوما زفرة عميقة .. لقد قضت كلمات صوفيا الاخيرة على ذلك الأمل الذى بدت بوادره فى نفسه .. الأمل الذى لم يشعر به الا بعد أن صار لا شىء .

وهز رأسه ، ثم انطلق يقول بمرارة ، وفى جفاء وغلظة :

ـ يا طالما كنت أنظر اليك فأقول لنفسى : انها جميلة ووديعة كالحمامة .. وهأنت الآن تعترفين أنك كنت تعبثين بى ، فويل منك !

فقالت له صوفيا وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة :

ـ لله ما أظرفك ! ولله أنت من شخص مسل !

وتحقق وهو ينظر اليها أنها جردته من جميع أسلحته بهذه الرقة كانت تقطر من كلماتهـــا ، وذلك الحـــزن الذى كان يغشى تسامنها . فيا لله ما أعجب ماذابت تلوج الخبائث التى كانت تنطوى بها جوانحه ، فى الأشعة الدافئة التى كانت تنسكب من عينيها !

كانت تبدو جميلة نحيلة لا حول لها ولا قوة حتى لكأنها طفل . لقد ظلت تبتسم وتتكلم بهذه الطريقة اللطيفة المقنعة ... الا أنه يصغ الى ما كانت تقول . بل قاطعها بقوله :

ـ لقد جئت الى هنـــا مصمما على ألا تأخذنى بك رحمة . ولقـــد أقول لنفسى : لا بد أن أصارح لها بما أعتقده فيها ، الا أننى لم قل لك شيئا . ولن أقول لك شيئا .. لأننى لا أجد فى الشجاعة للازمة لذلك . انك تلقين على بما يشبه تعاويذ السحر ... فيا لله ! اذا قدر لى أن ألقاك ؟ وأى الوشائج تربطنى اليك ؟.. عن اذنك .. آن لى أن أنصرف .

ولكن صوفيا قالت له فى لهجة خاطفة وقد مدت اليه يدها :

ـ بل انتظر ... فلم يحن الأوان للانصراف بعد .. قل لى .. ما الذى يدفعك الى كل هذه ... هذه الخشونة ؟ أرجوك ألا تحنق على ... اننى لست الانسانة الجـديرة بك ... انك فى حاجة الى صنف آخر من النساء ... انك فى حاجة الى امرأة لها سذاجتك وسلامة بنيتك .. امرأة مرحة جريئـــة القلب .. أما أنا .. فامرأة عجوز بلغت من الكبر عتيا .. كل ما تعمله هو أن تجلس ليتولاها الوجوم والاكتئاب . ان حياتى أتعس حياة وأشدها فراغا ـ فراغ موحش يثير الحسرة والغم . انه لأمر مرعب يشق على النفس أن يجلس انسان تعود أن يحيا حياة مرحة كلها نشاط وكلها حركة ، ولا يجد شيئا يثير فيه المرح بعد . فاذا رأيته يضحك فلا تظنن أنه

هو الذى يضحك ، بل الحياة هى التى تضحك عليه !٠٠ أما عن الناس ٠٠ فآه منهم ٠٠ أصغ الى يا عزيزى كأنك تصيخ الى أمك ٠٠ اننى أرجوك وأتوسل اليك ألا تصغى الى شىء مطلقا الا الى ما يمليه عليك قلبك ٠ عش وفقا لما يرسم لك هو ٠٠ لأن الناس لا يعلمون شيئا ، وهم لا يستطيعون أن يزجوا اليك أية نصيحة حق ، فلا تصغ اليهم ٠

لقد كانت كلماتها ، من أثر ما كانت تبذله من جهد لكى تجعل ما تقوله واضحا بسيطا بقدر المستطاع تندفع فى سيل سريع متقطع ٠ ولم تغادر شفتيها قط تلك الابتسامة الحزينة النائحة ٠

ـ ان الحياة صارمة ذات قلب من حجر ٠ وهى تصر على أن يخضع الناس جميعا لما تريد ، ولا يستطيع أن يتحداها ويفلت من عقابها الا الاقوياء ٠ بل انهم لا يستطيعون ذلك أيضا ! أواه ٠٠ لو أنك فقط تدرك مبلغ ما فى العيش فى هذا العالم من عناء ! انه يجعل الانسان يفزع حتى من نفسه هو ! انه يصبح شخصية مزدوجة ٠٠ قاضيا وحكما ٠٠٠ يتهم نفسه دائما ويدافع عنها أبدا ! ولكى يهرب من الخلوة الى نفسه تراه يرغب فى تزجية وقته ، ليلا ونهارا ، مع من يكرههم ويزدريهم ٠٠٠ مع من تتقزز منهم نفسه !!

ورفع فوما رأسه ، وكان صوته ينطوى على الدهش والريب فيما قالته صوفيا ٠٠ وهو يجيبها :

ـ لست أدرى ما الذى يجعلك تتكلمين مثل هذا الكلام ؟ والعجيب أن ليوبا تقول هذا الكلام نفسه !

ـ ومن ليوبا ؟ وماذا تقول ؟

ـ أختى الروحية ٠٠٠ انها تقول ما تقولين ـ وهى دائمة الشكوى من الحياة ٠٠ وتقول ان من المحال مواصلة الحياة !

ـ يا للسعادة أن يكون هذا هو رأيها ، وأن تتكلم هى أيضا فى هذه الامور !

- سعادة ؟ انها سعادة غريبة تلك التى تجعل الانسان يجار ويضج بالشكوى !

- بل أصغ لما تقول . ان فى الشكوى لحكمة عظيمة .. والحكمة هى .. الألم !

لقد كان فوما وهو يصغى الى هذا الكلام العجيب يحدق عينيه مرتبكا . وكانت الغرفة العادية تبدو مختلفة اليوم ، وان كانت غاصة كعادتها بالاثاث الكثير ، وعلى جدرانها نفس الرفوف والصور ، مزدانة بالأشياء البديعة والطرف الرائعة التى كانت تزدان بها من قبل . وكان وهج المصباح الأحمر داكنا مرتعشا ، وكان كل شيء تغشيه الكآبة وفى كل ركن ، وفى كل مكان كان يرى بريق هذا الاطار المذهب ، ولألاء تلك الطرفة الصينية اللامعة ، والستائر التمينة الضافية مرخاة بلا حراك على الأبواب والنوافذ . لقد شعر فوما بالضيق من هذا كله .. ووجد نفسه غرقا فى بحر من الحيرة .. لقد استشعر قلبه الاسف لهذه المرأة ... وفى هذه اللحظة نفسها هاجته بقولها :

- أأنت مصغ لما أقول ؟ اننى أود أن أكون لك أختا ! بل .. أما ! اننى لم أشعر نحو أحد قط بما أشعر به نحوك من الشفقة والمحبة والحنان ... ومع هذا .. فأنت تنظر الى نظرات كلها عداوة وبغضاء . هل تصدقنى أو لا تصدقنى ؟

وأجابها متنهدا :

- لست أدرى .. فقد كنت أصدقك من قبل !

فسألته مسرعة :

- والآن ؟

فقال :

- الآن .. يحسن أن انصرف .. اننى لا أفهم شيئا .. اننى لا أفهم حتى نفسى !

لقد كنت أعرف ما كنت أريد أن أقوله عندما جئت الى هنا ٠٠ الا أن كل شيء اختلط على ٠٠٠ لقــد أثرتني ، بل نخستني ٠٠٠ والآن تريدين أن تكوني أمي ٠٠٠ وبعبارة أخرى ٠٠ تفضل ٠٠ من غير مطرود !

وتقول له صوفيا بصوت لطيف :

— ولكن ! ألا ترى أنني أشعر بالرثاء لك ، والشفقة عليك ؟

لقد ازداد سخط فوما عليها ٠٠ وكان كلما تكلم أكثر ، زاد من سخريته بها وازرائه عليها ٠ وكان لا ينفك يشد كتفيــه ، كأنهما مصفدتان بأغلال وسلاسل يريد أن ينثرها عنهما ٠

— تشعرين بالرثاء لى ؟ عجبا ٠٠ بل لا أريد أن تشعرى لى بأى شيء ! آه لو كنت فقط أستطيع التعبير عما يجول فى خاطرى ! اذن ٠٠ لأخبرتك عمــا أعرفه عنك ! انك لم تنصفى فى معاملتك لى ٠ ما الذى دفعك الى اثارة مشاعرى ؟ أكنت تتخذين منى لعبة تتلهين بها ؟

وتجيبه ببساطة ، وكأنها تشعر بذنبها :

— لقد كنت أريدك الى جانبى ٠٠٠ قريبا منى ٠

لكنه لم يسمع ما قالت ٠ وشرع هو يصل كلامه فقال :

— وعندما بلغت علاقتنا ذروتها ، اذا بك تخافين ، وتقيمين بيننا سدا ، واذا بك تبدئين دور الاسف والرثاء ، وتقولين ان الحياة هى الملومة ٠٠٠ ولست أدرى ما الذى يجعلك تلقين بالتبعة على الحياة ؟ ما الحياة ؟ ان الناس هم الحيــــاة ٠ وخارج الناس ليس ثم حيــــاة مطلقا ٠ لكنك تخترعين نوعا من الناطور أو ما يسمونه خيال المزرعة الذى يذود الطير عن المزروعات ٠٠٠ وما ذاك ! الا لتخــدعى غيرك وتتلمسى الأعــذار لنفسك ٠٠٠ فأنت تلذين بكل ما تشــتهين ، وتنصبين للناس شراك المخاتلة والخداع من كل لون ، ثم تصيحين

بعد ذلك : يا لها من حيـاة خبيثة ! من حياة قاسـية ظالمة ! فماذا جعلهـا خبيثة وقاسـية ، ان لم تكونى أنت ؟ وأنت حينما تخفين نبعتك وراء هذه الشـكاوى كلها ، توقعين الربكة والاضطراب فى نفوس الآخرين · لماذا تريدين أن أسلك سبيل العوج لا لشىء الا لأنك سلكتها وترديت فيها ؟ أكنت تتشهين الانتقام لنفسك من النـاس ، أم ماذا ؟ أم تقـولين على وعلى أعدائى ؟ أليس كذلك ··؟ يا للعـار ! لقد جعلك الله جميـلة كالملائكة ··· ولـكن ··· أين قلبك ؟!

لقد كان يقف فى مواجهتها وجسمه يرتجف، وهو ينظر اليها من رأسها الى قدميها بنظرة كلها اتهام وكلها تأثيم ·· والكلمات تتدفق من فيه دون أن يمنعها مانع أو يصـدها ارتباك ·· وكان يتـكلم بلهجة هادئة الا أنهـا لهجة قوية ·· وقد سره هذا وأثلج قلبـه · ورفعت صوفيا رأسها ثم حدقت فيه بعينيها الواسعتين النفاذتين ·· وقد اختلجت شفتاها وتعقدت الخطوط العميقة فى طرفى فيها ·

وعاد يقول ملوحا بيده : اذا كانت المرأة جميلة كان من الواجب أن تكون عيشتها جميلة أيضا

ثم ختم كلامه بهذه التحية السريعة : وداعا ·

فحيته صوفيا بتحيته ، وانقلب على عقبيه دون أن يمد اليها يده ·· الا أنه لم يكد يبلغ الباب حتى أحس نحوها باحساس من الأسف والتوجع ، فاستدار ، ورآها واقفة فى ركن الغرفة منكسة الرأس ، ويداها مرتخيتان على وسطها ·

وأيقن أن من قلة الذوق أن ينصرف هكذا ·· من غير كلمة أخرى يوجهها اليها ، ومن ثم فقد تمتم فى هم شـديد ، وبدون أن يجرح كبرياءه :

- معذرة ان كنت قد آذيت احساسك ••• وعلى كل •• فأنا •• أحبك !

وهنا •• زفر زفرة عميقة ••• فلم يسع صوفيا الا أن تضحك ضحكة غريبة ، وتقول :

- كلا ••• انك لم تجرح احساسى

فأجابها فوما وهو يكاد يسيل رقة :

- اذن ••• فوداعا !

وتمتمت المرأة :

- وداعا

وفرق فوما حبال الخرز ، فخشخشت ، ومست صفحة خديه ، فسرت فيهما رعشة من برودة الحب ••• ثم مضى وقلبه مثقل بالهموم ، وكأنه قد صيد فى شبكة مهما كانت ناعمة فانه لا فكاك له منها !

وكان الليل قد أرخى سدوله عند ذاك ، وكان القمر يسكب أضواءه على الصقيع الذى يغطى البرك بغشاء رقيق فضى من الجمد • وكان وهو يخطو فوق الرصيف يضرب الجليد بعصاه فيفتته ، وكأنما كان الجليد يشعر بالألم لذاك • وكانت المنازل تلقى ظلالها فى عرض الطريق ، والأشجار تطرح على الأرض المثلوجة برسوم غريبة أشبه بأصابع نحيلة مغروسة فى هذا الأديم المتجمد •

- ترى ! ماذا عساها تصنع الآن !

بهذا كان يحدث فوما نفسه ، وهو يرصد صوفيا بعين خياله واقفة وحدها فى الظلال المحمرة التى يلقيها المصباح فى تلك الغرفة المكتظة بالأثاث •

وقال لنفسه في اصرار : « ان أحسن ما أستطيع عمله هو أن أنساها ! ولكن .. لقد كان من المستحيل عليه أن ينساها . فلقد كانت تفرض نفسها فرضا على ذاكرته ، فتثير الرأفة فى قلبه مرة ، ثم تثير السخط عليها مرات .. بل الغضب والحقد ! وكانت صورتها رسيقة حية بحيث لم يكن من الممكن أن يغمض عنها عين خياله ، مهما كان حمل أفكاره ثقيلا فادحا .. حتى لكان يخيل اليه أنه يحملها بجسمها وهيكلها بين طيات قلبه . ورأى عربة تقترب ، وعجلاتها تصدع سكون الليل وهى تدرج على البلاط المرصوف . وتتشقشق فوق الثلوج . وكان السائق وزبونه يميدان ويتمايلان مع حركة العربة ، وكل منهما قد انثنى بجسمه الى الأمام انثناء سديدا . وكانا ... والجواد أيضا ... يكونون قطعة من الظلام واحدة فى جنح الليل . وكان الشارع مرقشا بقطع من الظلام وفجوات من النور ، الا أن الظلام كان أغلب فى نهاية الشارع ، حتى لكان يبدو كأنه سد يرتفع من أدنى الأرض الى صميم السماء . وبدا لفوما أن السائق وزبونه كانا يدلجان فى هذا الليل الى غير عرض . ثم أخذ يفكر فى منزله ذى الغرف الست ، وفى عمته آنفيسا التى ذهبت الى الدير ، وما يحتمل من موتها فيه دون أن تعود الى المنزل أبدا . ولم يكن بالمنزل من السكان غير ايفان خادم الاسطبل ، وسكليتيا التى تقوم بطهو الطعام وادارة المنزل فى وقت واحد ... ثم هذا الكلب الأسود الأشعث ذو الأنف البليد الكليل ... وكان الكلب نفسه عجوزا كهذين !

ولما استقرت هذه الصورة فى ذهن فوما .. تنهد آسفا ثم حدث نفسه فقال :

ـ أحسب أن لا مفر من الزواج .

لقد بلبلته فكرة الزواج ، بل ربما كانت وسيلة لتسلينه ، فقد خيل له أنها من الممكن أن تتم بمنتهى اليسر وقلة المشقة . وهو اذا

كلف اشبينه ماياكين غدا أن يبحث له عن زوجة فلا يكاد يمضى شه
أو نحوه حتى تكون فتاة ما تشاركه فى حياته فى بيت واحد ، وتكو
قريبة منه ليلا ونهارا ، ويقول لها : هلمى نتنزه قليلا ، فتـكون
أطوع من يمينه ، ثم يقول لها : هلمى ننم ، فلا تملك الا أن تطبع
واذا تشهت أن تطبع على فمه قبلة فلها أن تفعل ذلك ، حتى لو
يشأ هو • فاذا أمرها بأن تتركه لأنه لا يريد قبلاتها فقد يؤذيه
ذلك ويؤلم مشاعرها ••• ولكن يا ترى ؟ ماذا عساه أن يتحدث
اليها ؟ ثم أخذ يستعرض فى ذاكرته جميع معارفه من البنات ••
لقد كان بعضهن على قسط من الجمال ، وكلهن يتمنين الزواج منه •
الا أنه لم يجد بينهن من ترضيه كزوجة ••• ثم راح يسائل نفس
عما عسى أن يحدث به الأزواج الصغار أنفسهم حينما يجدون أنـ
فى تلك الخلوة بعد حفلة الزفاف ! ولقد حاول فوما أن يتخيل ذا
لكنه لم يستطع ، وكل ما كان فى مقدوره أن يفعل هو أن يضح
على خيبته ! وقد فكر فى ليوبا ماياكينا • وكان على ثقة من أنها
تكون لحمة ذاهلة فى هذا الموقف ••• الا أن كلامها قد يكون كـ
زائفا ومحض اختلاق • لقد كان واقعا تحت فكرته غير الطيبة عـ
•• أى أن أفكارها جميعا كانت أفكارا غير أصيلة ، أفكارا ملف
مستعارة من الكتب التى تقرؤها • وكان من رأيه أنها أفكار لا تلـ
بفتاة فى سنها وفى مظهرها وفى تربيتها •

وقد توقف عند هذه النقطة ليستعرض ما فاهت به من صنو
القذف فى الحياة وفى الناس • وهنا ، أبطأ فى خطوه ، وقد بده
هذه الظاهرة التى لاحظها فيمن تربطه بهم صلات تكفى لأن يبادل
مناحى الفكر ••• انهم جميعا يتحدثون عن الحياة الأحاديث المختل
••• ومن هؤلاء أبوه وعمته واشبينه وليوبا وصوفيا بافلوفنا — لـ
كانوا جميعا اما يشكون من الحياة ، واما يحاولون أن يعلموه كيـ
يفهمها •• ثم تذكر ما قاله له الرجل العجوز على ظهر السفينة حيـ
كان يتحدث عن القضاء ••• وقد أورد هذا الحديث فى خاطره جمـ

السروح وألوان النفد والشـــكاوى المرة التى ترددت على أذنيه من أفواه الناس .

وراح يحدث نفسه قائلا : « لبثت أدرى لماذا ؟ ما الحياة ان لم نكن هى الناس ؟ غير أن الناس يتكلمون عن الحياة دائما كأنها شىء مستقل عنهم وخارج عن أنفسهم ، شىء يتلف عليهم الحياة دائما !! »

وأحس بيد الخوف الباردة تقبض على قلبه ، فاقشعر وجعل ينظر حوله . لقد كان الشارع هادئا خاليا من الناس ، ونوافذ البيوت السوداء تحملق فى ظلام الليل ، وخياله هو نفسه يثب مخالسا متواريا فوق الجدران والأسوار من ورائه .

ثم نادى فجأة : « سواق ! » وكان قد أخذ يغذ السير ، وراح ظله يلهث وراءه .. ويزحف خائفا مذعورا ... أسود .. ساكنا .. لا صوت له !

الفصل السابع

● ومضى أسبوع على الحديث الذى دار بين فوما وصوفيا بافلوفنا كانت صورتها لا تبرح ذهنه طواله ٠٠ لا ليلا ولا نهارا ٠٠ وكانت تشب فى قلبه آلاما مبرحة لا تخطر لانسان ببال ٠ وجد به الشوق الى زيارتها ، واستبدت به الرغبة فى أن يكون بالقرب منها ٠٠ لكنه كان يعود فيصر على عدم الانصياع لتلك الرغبة ، فينصرف عنها وهو يمضع أسنانه من شدة الكبت ، ويلقى بنفسه قلبا وقالبا فى أعباء العمل ، نافخا بخياله فى نيران غيظه واستيائه اللذين كان يضمرهما لها ٠ وخيل اليه أنه اذا ذهب لزيارتها الآن فربما وجدها تغيرت ـ ولعل شيئا يكون قد حدث لها بعد ذلك الحديث ، وأنها ربما لا تكون لطيفة معه كما تعودت أن تكون ، وربما لا تبتسم له تلك الابتسامة الرشيقة التى كانت تثير فى نفسه الأفكار والأحلام دائما ٠٠٠ لقد كان خوفه من هذا كله هو الذى يجعله يقاوم فى عناد وفى عنف هذه الرغبة التى تغريه بالذهاب اليها ٠٠ ومن ثم ايثاره أن يتعذب وأن يقاسى ٠

ولم تصرفه أعماله ، ولا حنينه الى صوفيا بافلوفنا عن التأمل فى الحياة ، وادمان التفكير فيها ، وان لم يحاول أن يحل لغزها المستعصى ، ذلك اللغز الذى جعله فى حيرة دائمة ، وقلق لا ينتهى ـ لقد كان أعجز من أن يصل الى هذا الحل ، الا أنه شرع يستمع فى اصاخة وانتباه الى كل ما يقوله الناس من حوله عن الحياة ٠ وبدلا من أن تلقى أقوالهم تلك شيئا من الضوء على لغز الحياة ، كانت تزيد فى حيرته ، وتضاعف ريبه وشكوكه ٠ وكان من اليسير عليه ان

يلمس ما فطر عليه النـــاس من دهاء ومكر ولوذعية ، وأن واجب الانسان دائما هو أن يأخذ حـذره منهم ٠ وكان قـد فطن الى أنهم لا يقولون ما يعتقدون أنه الحق فى الامور المهمة ٠ وكان كلما زاد من دراســته لهم قلت ثقتـه فى تأوهاتهم وشـكاياتهم ٠ وهكذا أخذ فى هدوء وفى ريبة ، يفهم كل مجريات الحياة التى كانت تجرى حوله ٠ وأخذ خط ضئيل نحيل من نورها يتلألأ فوق جبينه ٠

* * *

وقال له اشبينه ذات صباح وهما فى بورصة الحبوب :

ــ تشوروف فى البـلد ، وهو يريد أن يتحدث اليـك ، فاذهب للقائه الليلة ، ولكن ٠٠ لا تنس أن تشكم لسانك جيدا وأنت تكلمه ــ انه سيظل يستدرجك حتى تبوح له بأسرار أعمالك ٠٠٠ انه ثعلب عجوز ماكر ، هذا الرجل أنانى تشوروف !٠٠ وهو حينما يمد عينيه الى السماء داعيا الله مبتهلا ٠٠ متضرعا بالدعاء ، تكون يده الأخرى ممدودة الى جيوبك لينشل ما فيها من مالك كله ! فخـذ حذرك !

ويسأله فوما : ــ وهل نحن مدينون له بشىء ؟

ــ آى ٠ اننا لم ندفع ثمن هذا الصندل ، فضلا عن ثمن مائتى حمل من الوقود ٠ ولكن اذا طلب منك دفع المبلغ برمته ، فلا تجب طلبه ٠٠٠ فالروبلات يا فوما شىء لزج ٠٠٠ كلما أطلت امساكك بها وقبض يديك عليها جمعت لك كوبكات كثيرة ٠

ــ ولكن كيف نمتنع عن الدفع اذا أصر على ذلك ؟

ــ لا تسأل عنه ٠٠ ليبك ما شاء وليتوسل ما أراد ٠٠ وما عليك الا أن تنهنه وتتباكى ، وتغل يدك الى عنقك !

لقد كان أنانى سافتش تشوروف تاجر الأخشاب الناجح يملك معملا كبيرا لنشر الأخشـاب ، كما كان يبنى المراكب والصنادل ،

ويشغل السفن لحمل البضائع فى نهر الفولجا ·· وكانت بينه وبين اجنات جورديف معاملات تجارية ، ومن ثم فقد رآه فوما مرارا · وكان رجلا طاعنا فى السن ، الا أنه كان طويلا منتصب القامة كأنه شجرة من أشجار الصنوبر ، وله لحية كبيرة بيضاء ، وذراعان طويلتان · وكان تكوينه البديع ، ومحياه الطلق ، ونظراته الصافية تبعث الرهبة والاحترام دائما فى نفس فوما ، وذلك بالرغم مما سمعه عنه من أفواه الناس من أنه لم يجمع ما جمعه من ثروته الضخمة من طريق شريف ، ومن أنه يحيا حياة مريبة فى احدى القرى النائية فى وسط الغابة · وقد سمع فوما قصة هذا الرجل يرويها أبوه ، وكان أبوه يقول ان تشوروف كان فلاحا فقيرا فى صدر شبابه ، وأنه تصادف أن لجأ اليه مجرم هارب محكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة فآواه عنده ، وكان هذا المجرم ممن يزيفون النقود ، فكان تشوروف يحبسه فى حمام منزله ليزيف له المبالغ الضخمة ··· ومن هنا مصدر هذه الثروة التى بدأ بها حياته · وقد حدث أن اشتعلت النار ذات يوم فى الحمام ، ووجدت رفات الرجل محترقة تحت الاطلال وقد كسرت جمجمته ، فانطلقت الاشاعات فى القرية بأن تشوروف قد قتل الرجل ثم أحرق جسمه· وكانت تروى أمثال هذه القصص عن كثيرين من أغنياء المدينة — أولئك الذين دأبوا جميعا على جمع ملايينهم بالقتل والسرقة ، أو ، كما كانت الطريقة الغالبة فى جمع الثروات ، بتزييف النقود وترويجها · وكان فوما يستمع الى أمثال هذه القصص والشائعات منذ نعومة أظفاره ، ولم يكن يعنى بالتثبت من حقيقتها أو كذبها ·

وكان يعرف أيضا أن تشوروف هذا قد تزوج زوجتين ، ماتت أولاهما وهو يعانقها فى ليلة زفافها اليه ، فلما ماتت لم يبال أن يتزوج زوجة ابنه هو وقد حزن ابنه حزنا موجعا ممضا كان يستعين عليه بالاكباب على الخمر وادمان الشراب حتى أشفى على الموت بمرة لو لم ينقذ نفسه بتوجهه الى احدى التكايا التى على

ضفاف نهر الأرغيز ليقضي بقية حياته فيها • ولما ماتت زوجته الثانية هذه ، لم يبال تشوروف أن يتخذ له خليلة من فتاة شحاذة صماء بكماء • وكان الى ذلك الوقت لا يزال يعاشرها ، وقد ولدت له وليدا وضعته ميتا • وكانت هذه الحكايات التي سمعها فوما من أبيه ومن أناس آخرين تثب في ذاكرته وهو في طريقه الى الفندق الذي ينزل فيه ذلك الرجل ، مما أضفى على شخصيته سحرا عجيبا في ذهن فوما •

ولما فتح فوما باب الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة المطلة على سطح كئيب قذر لمنزل مجاور لاحظ أن تشوروف لم يكن قد هب من نومه الا هذه اللحظة فقط وكان يجلس على حافة سريره ممسكا اياها بكلتا يديه ، وقد ثنى ركبتيه فاسترسلت عليهما لحيته البيضاء ••• وكان يبدو ضخما كبير الجرم حتى في جلسته تلك •

وفي صوت غضوب أجش ، ودون أن يرفع رأسه ليرى من بالباب، نادى الرجل « من ؟ » ويجيبه فوما :

— أنا •• كيف الأحوال أناتي سافتش ؟

ويدير الرجل رأسه ببطء ، ويعمش بعينيه في جهة فوما ، ثم يقول :

— ابن اجنات ؟

— أجل

— تفضل •• اجلس قرب النافذة •• دعنا ننظر كيف صرت • أتشرب شايا ؟

— لا بأس •

وينادي تشوروف الجرسون ، ثم يتناول لحيته في يمينه ، ويشرع يدقق نظره في فوما في عناية وامعان ، ويبادله فوما نظراته دون أن يطرف !

لقد كان الجزء الأعلى من جبين هذا الرجل العجوز غائرا شديد الغور ، وكانت خصلات مجعدة من الشعر الأشيب تنسدل فوق صدغيه وأذنيه المنتصبتين ، وكانت عيناه الزرقاوان الوديعتان تتسمان بسيماء الحكمة والرزانة ، بل بسيماء الشرف حتى الجزء العلوى من وجهه ، الا أن شفتيه كانتا غليظتين حمراوين ، ولا تنسجمان هما وسائر الملامح الاخرى • وكان أنفه الطويل النحيل يتقوس فجأة فى طرفه ، كأنه يريد أن يختبىء فى شعر الشارب الأبيض • وكان الرجل العجوز اذا حرك شفتيه استطاع محدثه أن يخطف لمحة من أسنانه الصفراء الحادة • وكان يلبس قميصا قرمزيا من القطن مربوطا من وسطه بمنطقة من الحرير ، وكان بنطلونه الفضفاض الأسود ملموما داخل رقبة حذائه الطويل • وكان بحسب فوما أن ينظر الى شفتى هذا الرجل نظرة واحدة ليقتنع بصدق ما كان الناس يقولونه فيه •

وقال تشوروف فجأة :

ـ لقد كنت وأنت أصغر من ذلك أقرب شبها الى أبيك منك الآن • هل تتذكر أباك ؟ هل تصلى من أجله ؟ هل تدعو له وتطلب له المغفرة ؟

وكان يقاطع فوما عندما كان هذا يدلى باجابته القصيرة، ثم قال

ـ لقد كان اجنات آثما كبيرا ، وقد مات دون أن يتوب •• مات بغتة هذا الآثم الكبير !

وأجابه فوما وقد ساءه أن يتحدث الرجل عن أبيه بتلك الطريقة

ـ لم يكن آثما أكثر من الآخرين !

وسأله تشوروف مقطبا :

ـ مثل من ، مثلا ؟

- فى الدنيا عدد عظيم من الآثمين الأشرار

ويجيبه الرجل ، وهو يؤكد ما يقول :

- ليس فى هذه الدنيا الا آثم عظيم واحد هو أعظم اثما من المرحوم اجنات جورديبف ... وذلك هو ... اشبينك ياكوف .. هذا المنافق الملعون !

وسأله فوما مستهزئا :

- متيقن أنت من ذلك كل التيقن ؟

ويجيبه الرجل وهو يهز يده ، وقد غامت عيناه :

- هذا أعرفه كل المعرفة ... لقد اضطررت أن أرفع أمره الى لقضاء ليفصل فى جريمته الثقيلة التى أنقض حملها ظهرى . لقد سلك الشيطان مسلكا عجيبا ضدى ، لكننى أومن بنعمة الله . أما اكوف ، فلا يؤمن بالسماء ولا بالجحيم ولا بالساحرات .. بل هو لا يؤمن بالله نفسه .. انه لا يؤمن به .. ومن أجل هذا فلسوف يكون عقابه هنا .. فى هذه الدنيا .

وسأله فوما :

- وأنت متيقن ذلك أيضا ؟

- نعم .. متيقن . وأنا ألاحظ أنك تضحك منى وتقول : هل حسب نفسك نبيا ؟ ولكن الرجل الذى يكون قد ارتكب من الخطايا الآثام قدر ما ارتكبت يكون قد عرف أشياء كثيرة جدا . والخطايا علم عظيم ... وهذا هو السبب فى أن ياكوف ماياكين أمهرنا جميعا !

وعندما كان فوما يستمع الى صوته الأجش الممتلىء ثقة ، كان حدث نفسه قائلا : « لقد أصابته لفحة من ريح الموت بالفعل .

وأحضر النادل «الجرسون» هذا المخلوق الصغير الشاحب ذو الوجه الملوث غلاية الشاى ، ثم أسرع بالخروج من الغرفة . وأخذ تتسوروف يشتغل ببعض اللفافات التى على افريز النافذة .

وقال يخاطب فوما دون أن ينظر اليه :

- انك وقح . وأنت تنظر الى الناس نظرة سوداء ، لقد كان الناس لا ينظرون هذه النظرة الى الامور . لقد كانوا ينظرون اليها نظرة بيضاء ، وكانت نفوسهم بيضاء كذلك ... وكان كل شىء بسيطا لا تعقد فيه .. والناس أنفسهم كانوا أكثر بساطة مما هم الآن ... حتى خطاهم كانت بسيطة ... أما اليوم .. فكل شىء معقد تعقيدا شديدا .

وصب الشاى ، ثم جلس قبالة فوما . وراح يحدثه فقال :

- كان أبوك وهو فى مثل سنك هذه ، وعلى فكرة لقد كان والدك يشتغل فى الايام الخوالى عاملا ممن يكسحون الماء المتسرب الى بطون السفن ، وحدث أن السفينة التى كان يشتغل فيها ألقت مراسيها مرة أمام قريتنا .. أقول كان أبوك وهو فى مثل سنك رجلا صافى القلب كالبلور .. وكان من اليسير على الانسان لهذا السبب أن يرى بمجرد نظرة خاطفة أى نوع من الرجال هو ... أما أنت فأنا لا أستطيع أن أعرف أى نوع من الناس أنت .. بل أنت نفسك لا تدرى . وهذا سيكون السبب فى خرابك . وكل أهل هذه الأيام سينتهون الى الخراب لأنهم لا يعرفون أنفسهم . ان الحياة غابة .. وواجبك أن تكتشف طريقك فيها . والناس يضلون طريقهم فى غابة الحياة بفعل الشيطان .. هل أنت متزوج ؟

- لم أتزوج بعد

- هل رأيت ؟ انك لست متزوجا ، ولكن الراجح أنك لوثت نفسك منذ عهد بعيد .. هل تخصص لأعمالك وقتا كثيرا ؟

- لا بد .. اننى لا أزال أشتغل مع اشبينى

وقال الرجل وهو لا يفتأ يهز رأسه ، وعيناه لا تنفكان تومضان وتغضبان :

- تشتغل ؟ وأى نوع من الشغل شغل هذه الأيام ؟! ان هذا ليس شغلا . لقد كان التجار يتجولون بأنفسهم على خيولهم فى جوانب الريف - ولم يكن شيء يمنعهم من هذا قط - لا العواصف الثلجية ، ولا وحشة الليل ، ولا قطاع الطرق الذين كانوا يتربصون لهم ليقتلوهم ... لقد كانوا يموتون كما يموت الشهداء ، فيغسلون آثامهم بدمائهم ... أما تجار هذه الأيام فيركبون القطر . ويسافر وكلاؤهم بالنيابة عنهم ... أو .. هل سمعت آخر خبر . ان الرجل يجلس فى مكتبه فيسمع صوته على بعد خمس مراحل ! حقا ان هذا من عمل الشيطان وايم الحق ! فجلوس الانسان وعدم قيامه بأى عمل هو الذى يجلب الى نفسه السآمة ، فلا يملك الا أن يأثم ويقترف الخطايا . ان الآلات هى تقوم له بجميع أعماله هذه الأيام . أما هو فيجلس دون أن يؤدى عملا .. وفراغ الانسان مقتله .. انه يزود نفسه بالآلات التى تؤدى له أعماله .. ثم يجلس راضيا عن نفسه لا يعمل شيئا . ألا ان الآلات هى فخاخ الشيطان . ان الرجل اذا وجد ما يعمل ، لم يجد وقتا للتردى فى الاثم . ولكنه يجد نفسه حرا يصنع من الخطايا ما يشاء ما دامت الآلات قد حلت محله فى عمله . ان الحرية تقضى على الانسان كما تقضى الشمس على الديدان التى تعيش فى أحشاء الأرض ... انها الحرية هى التى تدنى الى الانسان خرابه !

وبعد أن فرغ تشوروف - هذا الداهية العجوز - من القاء هذه الخطبة بلسان واضح لا غموض فيه ، انشأ يدق المنضدة باصبعه . حتى دقها دقات أربعا . ثم تطلق وجهه بنشوة ظفر مشئومة ، وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وشعرات لحيته الفضية ترتعش على بطنه ..

وكان هـذا يجعل من فوما آذانا مصغية تنصت اليه • فقـد كانت
ترن رنينا تملؤه الثقة التى لا تتزعزع بحيث جعلت الشـاب يميد
ويضطرب ، مما جعله ينسى الشائعات التى سمعها عنه ، والتى كان
يؤمن بصحتها من قبل •

وأخـذ تشوروف يتفرس فى فوما بطريقة مكشوفة خاليـة من
الاحتراس ، كأنما كان ينظر خـلاله الى شخص آخر غير الشـاب
الجالس أمامه ••• شخص كان يساوره الخوف ويخامره الألم بفعل
كلماته ••• مما كان يجلب السرور الى قلب الرجل العجوز •

ـ وأنتم جميعا يأهل هذا الزمان سـتقضى عليكم تلك الحرية •
فلقد أمسك الشـيطان بخناقكم حينما سلبكم العمل ووضع لـكم
الآلات والوكلاء مكانه •• ترى ! ما هذا الذى يجعل الأبنـاء أرذل
من آبائهم ؟ انها الحرية •• الفراغ ! ان الفراغ هو الذى أدى بهم الى
السكر وفقدان لذة العيش •

وقال فوما فى هدوء :

ـ أوه •• ان الناس كانوا يسكرون فى الماضى ، ويحيون حياتهم
الفارغة السائبة بمثل ما يصنع الناس اليوم !

وصاح الرجل وعيناه تكادان تقدحان الشرر :

ـ اخرس ! لقد كان الناس أقوى ••• وكانوا يأثمون وفقـا
لقوتهم • لقد كانوا كدوح السنديان العظيم ، ولسوف يحاسبهم الله
على قدر قوتهم •• انه سيزن أجسادهم ، وسيكيل الملائكة مقدار
الدماء التى تجرى فيهم ، وسيرى الملائكة أن آثامهم لا ترجح وزن
أجسـادهم ودمائهم • ولن يرضى الله بأن يناقش ذئبا الحسـاب لأنه
افترس حملا • ولكن اذا حدث أن غرس فأر لعين أسنانه فى لحم حمل
فقد يدعو الله هذا الفأر لمناقشته الحساب !

وراح فوما يسأل الرجل فى تفكير وروية :

- وأنى لنا أن نعرف : هل الله سيجرى هذه المناقشة ؟ انما نريد محاكمة يستطيع الجميع أن يروها ·

- ولماذا يجب أن يروها ؟

- حتى يستطيعوا أن يفهموا

- ومن غير الله يستطيع أن يحاكمنى ؟

ونظر فوما الى الرجل نظرة نكس بعدها رأسه ولم يقل شيئا بعد· لقد أخذ يفكر فى المجرم الهارب المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة الذى قيل ان تشوروف هذا قد اغتاله وأحرقه فى حمام منزله ، وعاد اليه يقينه فى صدق هذه الشائعة ··· كما عاد اليه يقينه فيما روى الناس عن زوجاته وخطاياه ··· لا جدال فى أن هـذا المجرم كان يميتهن خنقا بوساطة قبلاته ··· وأنه كان يعصرهن فيقضى عليهن فى حضنه ذى العظام الجبارة ، بل كان يمص دماءهن بشفتيه هاتين الكريهتين، اللتين كانتا لا تزالان حمراوين من أثر دماء هؤلاء النساء للاتى قضين بين ذراعيه القويتين المعروقتين وكأن دماءهن لما تجف على شفتيه بعد ، والآن ، وهو فى انتظار الموت فى أية لحظة ، كان يحسب حساب جرائمه وخطاياه ، ويصدر أحكامه على الآخرين · قائلا انه ما من أحد غير الله يستطيع أن يحاكمه ·

وعندما كان فوما يحدجه بنظرة تنسرق من خلال أهدابه ، كان يحدث نفسه قائلا : - ترى ·· هل هو خائف ؟

ولكن الرجل عاد الى حديثه قائلا وهو يهز رأسه :

- فكر فى هذا أيها الصغير ! فكر فى الطريقة التى يجب أن تعيش بها · لقد عشت السنين الطوال فى هذه الدنيا - آه ! ما أطول ما عشت ! لقد نمت أشجار وترعرعت ثم قطعت ، وبنيت بيوت من

احتسابها ثم تقادم الزمن عليها فتهدمت ·· وقد رأيت هذا كله ·· ولا أزال حيا أرزق · اننى حينما أرتد بطرفى الى حياتى الحالية أحدث نفسى : ليت شعرى ! أمحتمل أن يكون فى مقدور رجل واحد القيام بكل تلك الأعمال ؟ وهل أنا حقيقة الذى عشت لأقوم بكل هذا ؟

ثم نظر الرجل الطاعن فى السن فى وجه فوما فى صرامة وتقطيب ، وعاد يهز رأسه ثانية ، وغاص فى بحر من الأحلام !

لقد كان السكون شاملا فى الغرفة ··· ثم اذا دبدبة فوق سطحها ، واذا قرقعة عربات وأصوات أناس مهوشة تصل من الشارع ، واذا الغلاية التى كانت لا تزال فوق المنضدة ترسل صوت غليانها الحزين · واذا تشوروف يحدق عينيه فى كوب الشاى ويداعب لحيته الهائلة بيده ، وخيل لفوما أنه يسمع جيشانا وغرغرة فى صدر العجوز فى أثناء تنفسه ·

وأخيرا يقطع العجوز هذا السكون بقوله :

ـ لا بد أنك تشعر بالوحشة والمرارة بعد أبيك ؟ أليس كذلك ؟
ويجيبه فوما :

ـ لقد اعتدت ذلك ·

ـ انك غنى · وحينما يموت ياكوف ستكون أكثر غنى ، فلسوف يترك لك كل شىء · ان له ابنة واحدة · والأفضل لك أن تتزوج هذه الابنة · ولا يهم مطلقا أنها أختك الروحية وأختك فى الرضاع ـ لقد آن لك أن تتزوج · اذ كيف يمكنك أن تعيش بلا زواج · أكبر الظن أنك تزنى !

ـ كلا !

وقال الرجل مستهزئا :

ـ ربما ·· آه ·· أجل ·· ان طبقة التجار موشكة على الزوال ·

ولقد حدثني أحد سكان الغابات مرة بما لعله أن يكون صحيحا ، وقد يكون غير صحيح .. أن الكلاب كلها كانت ذئابا يوما ما ، ثم انحطت الى مرتبة الكلاب ! .. وها نحن أولاء نذهب الى المدارس لنتعلم ، ونضع على رءوسنا القبعات المزخرفة ونصنع كل ما من شأنه أن يظهرنا كالأمم الأخرى . ولن يمضى زمن طويل حتى تعجز عن تمييز التاجر عن أى شخص آخر من أفراد الشعب ... وقد أصبحت موضة العصر أن يرسل الناس كل أطفالهم الى المدرسة حيث يطبعون بطابع واحد ، ويلونون بلون واحد ... أبناء التجار وأبناء الأشراف وأبناء أصحاب الحرف - لا فرق ! كلهم يلبسون الزى الرمادى ، ويتعلمون الشيء نفسه فنحن نزرع الناس كما نغرس الأشجار ، لأى غرض ؟ لا أحد يدرى ! وأنت تستطيع أن تميز هذه الكتلة من الخشب من تلك ، بالعلامات التى عليها .. أما هم فيحاولون أن يمسحوا الناس جميعا مسحا تاما ناعما حتى يصبحوا نمطا واحدا لا يمتاز بعضه من بعض .. لا بأس .. فأيامنا نحن العواجيز موشكة على الزوال ... ولعل أحدا لن يذكر بعد خمسين عاما أن أمثالى كانوا يعيشون فى هذه الدنيا .. أنا .. أنانى ابن سافا الذى لقبه تشوروف - أو أننى .. أنانا .. لم أكن أخشى أحدا سوى الله .. وأننى .. كنت فى صباى فلاحا لا يملك الا فدانين ونصف فدان من الأرض ، حتى اذا كبرت ، ودلفت الى الشيخوخة أصبحت مالكا لأحد عشر ألفا من الأفدنة مغطاة كلها بالأشجار ، فضلا عما يقرب من مليونى روبل .

وهنا قال فوما محنقا :

- المال .. كل مخلوق لا حديث له الا المال ! وأى لون من ألوان البهجة أو السعادة يستطيع المال أن يقدم للانسان ؟

فتمتم الرجل قائلا :

ـ اهم ٠٠ ما أتعس ما تكون تاجرا غلبان ان لم تعرف ما للمال من سلطان !

ويسأله فوما :

ـ ومن ذا الذى يعرف هذا السلطان على حقيقته ؟

ويجيبه الرجل جواب ذى ثقة :

ـ أنا ٠٠ أنا أعرف سلطانه ، ويعرفه أى انسان أوتى سعة من الذكاء ٠ وياكوف ، اشبينك الداهية يعرف هذا ٠ المال ! المال هو كل شىء يا صغيرى ٠ انثره على صفحة أمامك وتأمل ماذا يمثله هذا القوى الجبـــار ؟ انك لن تلبث ، اذا فعلت ، أن تؤمن بأن المـــال هو السلطان ٠٠ هو القوة المفكرة ٠٠٠ لقد صب آلاف من النـــاس أرواحهم فى هذا المال الذى تملكه ٠٠٠ وأنت تستطيع أن تقذف به فى موقد ، وتنظر اليه وهو يحترق اذا أردت ٠٠ وأنت اذا فعلت هذا ٠٠ أفلا يثير فيك شعورا بالقوة والسلطان ؟ هه !

ـ ولكن أحدا من الناس لا يفعل هذا

ـ والسبب فى ذلك أن المال لا يأخـــذ سبيله الى أيدى المغفلين مطلقا ٠ ان المال مكرس للعمل ٠ وبهذا العمل يحصل النـــاس على قوتهم اليومى ٠ وأنت سيد هؤلاء النـــاس جميعا ٠ لمـــاذا خلق الله الناس ؟ لكى يعبدوه ٠ فى البدء ، كان الله ، ولم يكن معه شىء آخر، وهو القادر ذو السلطان ٠ ومذ كان مكتوبا أن الانسان مخلوق على صورة الله ، فالانسان أيضا بحاجة الى السلطان ٠ وأى شىء غير المال يأتى للانسان بالسلطان ؟ فهذا هو الموضوع يا صغيرى ٠٠٠ وعلى فكرة ٠٠ هل أحضرت لى نقودى ؟

ـ كلا ٠ ٠

وقالها فوما ورأسه يشكو الثقل والدوار من طول ما أنصت هذا العجوز ، وقد سره أن ينتقل الحديث الى العمل ٠

وقال الرجل وهو مقطب :

- ولماذا ؟ لقد آن أوان الدفع بحسب الشروط !

- سأدفع لك نصف المبلغ ٠٠ غدا ٠

- النصف ؟ انى أريد المبلغ كله ٠

- اننا فى أزمة شديدة فى الوقت الحاضر ٠٠ و

- ولم تحصل على حاجتك منه ؟ عال ٠٠ وأنا أيضا فى حاجه الى مالى ٠

- لا بد أن تنتظر !

- آوه ٠٠ كلا ٠٠ لن أنتظر يا صديقى ٠٠ فأنت شيء ٠٠ ووالدك شيء آخر ٠٠ ولا يمكن أن تكونوا موضع ثقة لأحد ، أيها الخطافون النهابون الصغار ٠٠ انكم تستطيعون أن تصبحوا على الأرض السوداء فى شهر واحد ، وأكون أنا الذى أدفع الثمن ! سمع ٠٠ اذا لم تدفع لى المبلغ بأكمله غدا فسأعمل لك البروتستو للازم ، ولا تنتظر شيئا آخر غير هذا ٠

وذهل فوما وهو ينظر الى هذا الرجل الشيخ ! أممكن أن يكون بذا هو الرجل الذى كان يتحدث الآن عن الشيطان بلسان نديس ؟ لقد تغير الوجه ، والعينان كذلك ٠ وأصبحت نظرتهما سارمة قاسية ، وراحت العضلات على جانبى خياشيمه تختلج ختلاجات الشراهة والجشع ٠ وأيقن فوما أنه ان لم يقم بسداد كمبيالته بتمامها فلن يتردد تشوروف فى جر الفضيحة التجارية على لشركة باجراء هذا البروتستو عليها ٠

وقال تشوروف بصوت أشبه بصوت الخنازير :

- تقول ان الحالة سيئة ؟ فهل هى كذلك حقا ؟ عال ٠٠ قل لى ذن ٠٠٠ فيم بعثرت نقود والدك اذن ؟

وأحس فوما بالرغبه فى أن يكشف خبيئة هذا الرجل أكثر م
انكشفت ، فقال وهو يتعمد العبوس :

ـ الحالة ٠٠ سيئة جدا ٠٠ فلا حوالات ، ولا دفع سلفا ٠٠ وم
ـم فالمال شحيح !

ـ وتريدينى على أن أمد اليك يد المساعدة !

فقال فوما وهو ينكس عينيه بوداعة :

ـ اذا سمحت بمد أجل الدفع ٠

ـ ٠٠ من أجل خاطر والدك فقط ٠ اه ؟ لا يأس ، ربما ٠ ربما ،
ربما ٠

ـ ولمدة كم ؟

ـ لمدة ستة أشهر ٠

ـ شكرا ٠٠ شكرا كثيرا ٠

ـ عفوا ٠٠ انك مدين لى بأحد عشر ألفا وستمائة روبل :
فاسمع يا بنى : عليك أن تكتب لى كمبيالة جديدة بخمسة عشر ألفا
وأن تدفع لى فائدتها مقدما ، وضمانا لذلك ترهن لى مركبين م
مراكبك ٠

وهنا هب فوما واقفا ٠ وأخذ يضحك وهو يقول :

ـ ارسل الى الكمبيالة غدا ، فسأدفع لك المبلغ بتمامه ٠

وشخصت عينا تشوروف فى ثبات وفى غير اختلاج تحت نظر
فوما الساخرة ، وأفاق مما كان فيه ، وأخذ يهرش صدره ويقول .

ـ هذا أحسن أيضا

ـ أشكر لك حنانك واشفاقك !

فقال الرجل مكشرا :

ـ لقد أردت أن أشفق عليك ٠٠ لكنك لم تدعنى أفعل ٠

ـ كان الله فى عون أى بائس يقع فى مخالبك !

ـ يا سلام ! انه يكون سعيدا

ـ بل يكون شقيا منكودا !

ويجيبه تشوروف فى غلظة :

ـ كفى يا صغيرى كفى ٠٠ ان هذا درس لك سرعان ما تحتذيه ، وهذه لعبة لها سحرها الجذاب ٠٠ وستعرف كيف ترقص طربا حينما تكسبها ٠٠٠ وداعا ٠ جهز النقود كاملة غدا ٠

ـ سأفعل ٠٠ وداعا ٠

وحينما كان فوما يغلق البـاب خلفه اذ به يسمع الرجل يتثاءب تثاؤبا طويلا ، ثم يأخذ فى دعاء عميق مبحوح :

ـ أيتها العذراء المقدسة ، يا أم يسوع ٠٠ افتحى أبواب السموات على مصاريعها ٠٠!

وانصرف فوما وهو ينطوى على احساسين متناقضين : انه يحب هذا الرجل ، الا أنه يحتقره !

وحينما استعرض ما قاله تشوروف عن الاثم والخطايا ، وقوة ايمانه برحمة الله ٠٠٠ لم يملك الا أن يكبر من شأنه ٠

ـ انه هو أيضا يتحدث عن الحياة ! وهو يعترف بذنوبه فى غير بكاء ولا شـكوى ٠ لقد أذنبت ، وعلى تبعـة ذنوبى ، أما هى !٠٠ وعندما تذكر صوفيا بافلوفنا ٠٠ استولى عليه الحزن وعاد يحدث نفسه قائلا : « انها تتوب وتنيب ٠٠٠ ولكن من يدرى ٠٠٠ هل كانت توبتها توبة صادقة ٠٠ أو هى مجرد ادعاء ؟ »

لقد كاد فوما يغبط الرجل ويحسده .. لكنه عاد الى غثيان منه عندما ذكر كيف كان يحاول أن يسلخه سلخا . ولما شعر بالعجز عن تهدئة هذه الانفعالات المتصارعة ، ضحك من نفسه ضحكة خفيفة حائرة .

وقال وهو يجلس فى كرسيه بغرفة الطعام فى منزل ماياكين :

ـ ألم تعلم ؟ لقد عدت الآن من لقاء صاحبنا .. تشوروف !

وكان ماياكين لابسا بيجامة قذرة ملوثة ببقع من الدهن ، وبيده صحفة فارغة ، ولما سمع ما قاله فوما اضطرب فى كرسيه المنجد بالجلد ، وقال وهو فى شدة الشوق لمعرفة ما جرى :

ـ صبى له كوبا من الشاى .. ليوبا ... والآن .. خبرنى يا فوما بكل ما حدث .. هيا أسرع .. لأنى يجب أن أكون فى المجلس فى تمام التاسعة .

وقص عليه فوما وهو يضحك ، كيف حاول تشوروف أن يأخذ عليه كمبيالة ثانية .. فلما فرغ من قصته ، جعل ماياكين يصمصم، وقد علت وجهه سحابة من الغم ، وأخذ يقول :

ـ لقد خيبت رجائى فيك هذه المرة يا ولدى ! لماذا ؟ أيصح أن يتصرف أحد فى شئون العمل على هذا النحو ؟ أف !.. ليت شعرى لماذا أرسلتك ولم أذهب اليه أنا نفسى ! تا لله لكنت فردته ثم لففته حول خنصرى !

ـ لا أظن ذلك .. انه يقول انه قوى كشجرة السنديان !

ـ شجرة سنديان ! عال .. ! اذن .. فأنا منشارها ! ان شجرة السنديان شجرة طيبة ، ولكن ثمرها لا يصلح الا للحلاليف ! على أن خشب السنديان خشب صلب !

- ولكننا لم يكن لنا مفر من الدفع !

- المهرة من الناس لا يعجلهم الى ذلك شيء - لكنك لست منهم - فأنت تبرطع دائما الى الدفع ٠٠٠ فيا لك من تاجر شاطر !

وبدا الاستياء على أشده فى وجه ماياكين ، وكانت تجاعيد وجهه تتراقص وتتبرم بصورة بشعة وهو يقول لابنته فى اهتياج :

- هاتى السكر ! ألا ترين أنه بعيد عن يدى !

لقد كانت ليوبا شاحبة ممتقعة الوجه ، وكانت عيناها مكتئبتين كذلك ، ويداها تتحركان فى خمول واسترخاء ٠

وكان فوما يلاحظ ذلك ويحدث نفسه قائلا : انها أمام أبيها تكون وديعة كالحمل !

وسأله ماياكين :

- وبماذا تحدث اليك يا بنى !

- عن الذنوب ٠٠ والمعاصى !

- طبعا ! فالناس يحبون دائما أن يتحدثوا فى خصوصياتهم ! أليس يدير مصنعا للمعاصى ؟ لقد كان ينبغى أن يكون من نزلاء السجون من سنين طويلة مضت - ثم هم ينادونه فى سواء الجحيم : انه لا يستطيع صبرا حتى يصل الينا ٠

ويجيبه فوما بروية وهو ينظر فى شايه :

- الا أن ما يقوله له قيمته ٠

ويسأله ماياكين بعبوسة خبيثة :

- وهل ذكرنى بسوء ؟

ـ فعلا

ـ وماذا قلت له ؟

ـ لقد كنت أصغى اليه فقط •

ـ اهم •• وماذا سمعت ؟

ـ لقد قال ان الأقـوياء مغفورة لهم خطاياهم •• ولكن الضـعفا لا يغفر لهم !

ـ يا سلام •• ان البراغيث نفسها تعرف ذلك !

وظل فوما فترة ما وهو متضايق من بغض اشبينه لتشوروف وأخيرا ضحك وهو يقول لماياكين متفرسا فى وجهه :

ـ انه لا يتصورك !

ويجيبه الرجل فى كبر واعتداد :

ـ لا أحد يتصورنى ••• ولست أدرى ما الذى يدفعهم الى ذلك انني لست حسناء ساحرة الجمال •• الا أن الجميع يحترموننى ••• والناس لا يحترمون الا من يرهبونهم •

ثم نظر الرجل العجوز الى فوما تياها مفاخرا •

وأخذ فوما يعيد ما قاله :

ـ ان أقواله لها قيمتها • وهو يتحسر على أن طبقة التجار موشكا على الزوال ، وأن الناس جميعا يتعلمون أشياء بعينها ، وأنه لن يمضى زمن طويل حتى تعجز عن تمييز أحد من النـــاس عن سائر الباقين ، لأنهم سيكونون جميعا سواء •

ويقول ماياكين متحسرا :

ـ وهذا لا يعجبه ؟ هذا المغفل !

ويسأله فوما وهو ينظر اليه متشككا :

ـ ويعجبك أنت ؟

ـ ان من أمهر الأشياء وأحسنها أن نجمع الناس ذوى المشارب المختلفة فى مكان واحد ونعلمهم التعليم الذى يوحد آراءهم • ولنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الفرد من وجهـة نظر الدولة ؟ لا شىء الا لبنة • لبنة عادية • ومن شأن اللبنات أن تكون متسـاوية الأحجام والأشكال • واذا تساوى الناس فى حجومهم وأشكالهم استطعت أن تبنى منهم ما تشاء •

ويقول له فوما مقطبا :

ـ أحسب أنه لا يسرك أن تجد نفسك لبنة !

ـ ربما •• ولـكن هذا هو الشىء العملى • وأنت لا يمكنـك أن نسوى وجه كل شىء •• الا أن الطرق الشديد يحول بعض الأشياء فيجعلها ذهبا • أما اذا تكسرت تحت الطرق •• فما باليد حيلة •• ان هذا يعنى أنها كانت أضعف من أن تبدأ البناء بها •

ـ وقد تكلم عن العمل ، فذكر أن الناس صائرون الى التلف لأن الآلات تقوم لهم بأعمالهم بالنيابة عنهم •

ويقول ماياكين مستهزئا وهو يلوح بيده علامة على الاستهجان :

ـ انه يدس أنفه فى كل شىء •• وكأنما قد ضاع منه أنفه فهو يبحث عنه ! ويا عجبا كيف جازت هـذه الثرثرة ، وذلك الهذيان عليك ؟ الآلات ؟ مدهش ؟ هلا وقف لينظر مم تصنع هذه الآلات ، هذا العجوز الهرم ! من الصلب ! هذه هى ! وبعبارة أخرى ، انك لن تأخذك بها رحمة ـ فقط أدرها ـ ثم دعها تشـتغل وتدر لك الروبلات بدون أن تثرثر ، وبدون أن تقدح فيك من وراء ظهرك ـ

وما عليك الا أن تضع الكوبس ، ثم تنظر الى العجـــل كيف يدور ويدور . أما العامل .. فهو باستمرار بائس ولا يقنع بشيء ، وهـو فى بعض الأحيـــان يبـــلغ به البؤس مداه ، ولا ينفك يجأر ويئن ويشكو ويتوجع ويبكي ... فيكب على الشراب حتى يفقد وعيه . ان فى العامل أمورا كثيرة يمكننى الاستغناء عنها بسهولة أما الآلة فهى أشبه بالمتر الذى نقيس به ، تستخدمها فيما صنعت من أجله ولا شيء غير ذلك ... أوه .. لقد آن أن ألبس وأنصرف .

وينهض الرجل وينصرف ، وهو يطرقع بشبشيبه .

ويغمغم فوما عابسا وهو ينظر اليه خارجا :

ـ الشيطان نفسه لا يستطيع أن يحل أو يبرم معهذين ! أحدهم يقول هذا ... والآخر يقول ذاك !

وتقول ليوبا بصوت ناعم :

ـ وهذا هو الحال مع الكتب !

وينظر اليها فوما نظرة مهذبة ، فتبادله بابتسامة حائرة ، وفي عبنيها نظرة حزينة متعبة ... ويسألها :

ـ لا تزالين تقرئين كعادتك !

وتجيبه بانقباض : نعم

ـ وأنت على ما أنت من الهم والتقطيب !

ـ وألعن ! لأننى كما يرى لا أنيس لى هنا ... ليس ثمة مر أتحدث اليه .

ـ انك فى حالة سيئة !

ولم تجب . بل أخذت تعبث بوشي فوطتها وقد نكست رأسها ويقول لها فوما بلهجة دمثة ، وقد أخذ الأسف منه مأخذه لحالتها :

ـ يجب أن تتزوجى يا ليوبا .

ولم يكد يقول لها هذا حتى قطبت جبينها بطريقة غير ظريفة ثم قالت :

- أوه ٠٠ لا تقل هذا

- لا أقول ماذا ؟ انك ستتزوجين يوما ما ٠

فزفرت الفتاة ثم قالت :

- ربما ٠٠ أنا أيضا أقول هذا ٠٠ ولكن كيف يمكنني ذلك ؟ انني أشعر كأنما ٠٠ كأنما ضباب يقف بيني وبين غيري من الناس - ضباب كثيف ٠

ويجيبها فوما بلهجة الواثق بما يقول :

- هذا الضباب ٠٠ هو تلك الكتب !

- انتظر ٠٠ انني لم أعد أفهم شيئا ، لقد أصبح كل شيء كريها٠٠ وليس في الدنيا شيء هوعلى ما كان ينبغي له أن يكون ٠ لا شيء مطلقا ٠ وأنا أدرك ذلك ، الا أنني لا أستطيع أن أذكر لك ما هو الخطأ ، ولماذا ؟

ويتمتم فوما :

- ليس كما ينبغي أن يكون ٠٠ هذه هي الكتب ، أؤكد لك ٠ الا أنني أنا نفسي أستطيع أن أرى أن الاشياء ليست كما ينبغي لها أن تكون ٠ وقد يكون السبب في هذا أننا لا نزال صغيرين ، جد صغيرين !

واستمرت ليوبا تقول ، متجاهلة ملاحظة فوما :

- لقد كنت أظن أول الامر أن الكتب تستطيع أن تساعدني على أن أفهم الاشياء ٠

ويقول لها فوما ساخطا :

- قلت لك انسي كتبك هذه !

- ماذا ؟ كأنك تحسب أن من السهل على الانسان أن ينساها ! انك ربما لا تصدق كم فى هذه الدنيا من الافكار الكثيرة المتناقضة .. وبعضها أفكار مرعبة .. ففى أحد هذه الكتب مثلا .. يقولون ان وراء كل شيء ، على هذه الارض سببا

- وراء كل شيء ؟

- كل شيء .. وفى كتاب آخر عكس هذا الرأى تماما .

- ولكن .. ألا يمكنك أن تدركى أن هذا عبث وهراء !

وقطع عليهما حديثهما صوت ماياكين الواقف بالباب ، لابسا معطفه الطويل ذا الفراء ، وقد تدلت نياشينه من حول عنقه على صدره :

- فيم تتحدثان ؟

وتجيبه ليوبا عابسة :

- ليس عن شيء خاص

وقال فوما :

- عن الكتب

- أى كتب ؟

- الكتب التى تقرؤها ليوبا . أحدها يقول ان وراء كل على وجه الارض سببا .

- عال !

- وأنا أقول ان هذه كلها أكاذيب .

وجعل ماياكين يزوى ما بين عينيه ، ويمس لحيته بيمينه ، وهو يفكر فى الموضوع ، ثم سعل سعلة خفيفة وسأل ابنته بعد لحظة :

- فى أى كتاب جاء هذا الكلام ؟

وتجيبه ليوبا بشىء من الضيق :

- كتاب صغير أصفر ٠

- ضعيه على مكتبى ٠ ان الناس لا يكتبون كلاما كهذا لغير غرض ٠٠ اهم ٠٠ سبب وراء كل شىء ٠٠ ان الذى فكر فى ذلك شخص ذكى ولا بد ٠ لقد صاغه صوغا جميلا ٠ وهو كلام ان لم يكن المقصود به المغلفين فى هذه الدنيا ، جاز أن يصدقه الانسان ٠ الا أننـــا حينما نرى أن المغفلين لا يصلحون لشىء فى أى مكان ، فمن رابع المستحيلات القول بأن ثمة سببا وراء كل شىء ٠٠ لا بأس ٠٠ وداعا ٠ فوما ٠٠ هل أنت باق ، أو تأتى لأوصلك الى المنزل ؟

- بل سأبقى قليلا ٠

ثم عاد فوما وليوبا فخلا بعضهما الى بعض مرة أخرى ٠

وأومأ فوما وراء اشبينه مستهزئا :

- ذكر بط ٠٠ غريب الاطوار !!

- ولماذا ؟

- له رأيه الخاص فى كل شىء ، ويسمى كل شىء باسم غريب :

وتجيبه ليوبا والحزن باد عليها :

- انه ذكى ٠٠ لكنه لا يفهم لماذا أنا غير سعيدة ؟

- ولا أنا والله ٠٠ انك تعقدين الأشياء وتجعلينها تبدو على غير حقيقتها

وتسأله بمزاج منحرف :

- مثل ماذا مثلا !

- أوه ٠٠ كل شىء ! وهذه ليست أفكارك - انها أفـــكار ناس آخرين

ـ أفكار ناس آخرين ! أفكار ناس ـ ٠ :

وكانت على وشك أن تقول شيئا جارحا ٠٠ الا أنها أمسكت ولم تفه ٠ وبينما كان فوما يجيل فيها عينيه لم يملك أن يقارن بينها وبين صوفيا بافلوفنا

وأنشأ يحدث نفسه محزونا محطوم القلب : ما أشـــد اختلاف الناس ٠٠ حتى النساء !وكل منها تجعلك تحس احساسا مختلفا

لقد كان الظلام يوشك أن يرخي سدوله في الخارج ٠٠ وفي الغرف أيضا ٠ وكانت الرياح تهب خلال أغصان الزيزفون فتضرب هـــذه الجدران بأفنانها كأنما كانت تشتكي البرد هي الاخرى وتود لو يؤذن لها بالدخول ٠

وقال فوما بصوت باغم :

ـ ليوبا

ورفعت ليوبا رأسها وحدجته بعينيها وهي تقول :

ـ أعلمت أنني تشاجرت مع صوفيا بافلوفنا ؟

وتسأله ليوبا منتعشة :

ـ ولماذا ؟

ـ ليس لأمر خاص ٠٠ لم تكن أمينة معي

ـ حسن ٠٠ يسرني أنكما تشاجرتما ٠٠ لقد كانت قمينة أن تلفا حول خنصرها ٠٠ انها امرأة قذرة ٠٠ آه لو عرفت ما أعرفه أنا عنها

ويجيبها مغموما :

ـ انها ليست كما تحسبين أبدا ٠٠ وأنت لا تعرفين شيئا عنها ٠ هذه كلها أراجيف !

ـ أوه .. كلا .. ليست أراجيف مطلقا .

ويقول لها متوسلا :

ـ اسمعى يا ليوبا .. أرجوك ألا تقدحى فيها أمامى .. اننى أعرف كل شىء .. شرفا أعرف .. فلقد ذكرت لى كل شىء .

وتسأله ليوبا فى دهشة :

ـ أحقا ؟ يا لها من مخلوقة عجيبة !! وماذا قالت لك ؟

وقال فوما وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ملتوية :

ـ لقد اعترفت لى بأنها .. آثمة !

ـ وهذا كل ما قالته ؟

وأثارت رنة خيبة الامل فى سؤال ليوبا الأمل فى نفس فوما ، فقال :

ـ أليس فى هذا الكثير ؟

ـ وهل تحبها حبا شديدا ؟

وجعل فوما ينظر خلال النافذة دقيقة أو نحوها وهو لا يجيب ، حتى قال أخيرا :

ـ لست أدرى . يخيل لى أحيانا أننى أحبها فى وقت ما أكثر مما أحببت .

وتهز ليوبا كتفيها وتقول :

ـ بصراحة ، لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تحب مثل هذه المرأة !

ـ أوه .. وأى صعوبة فى هذا ؟

ـ لا يمكنني أن أفهم ذلك • ولعل السبب هو أنك لم تر أجمل منها •

وقال فوما موافقا :

ـ فعلا

ثم يصل حديثه بعد برهة فيقول :

ـ ولعله ليس ثمة من هي أجمل منها • لشد ما أحن اليها وأريدها انني أخشاها ـ أعني أنني لا أود أن أجعلها تأخذ فكرة سيئة عني • وأحيانا تنهكني هذه الفكرة حتى لأوشك أن أتغلب عليها بالشرب الى أن تدور رأسي •• لكنني لا أكاد أهم بذلك حتى أتذكرها •• فلا أجد من نفسي القدرة على شرب قطرة واحدة •• وهكذا في كل شيء •• انني كلما فكرت فيها ، وما عسى أن تقول •• ضعف قلبي واضطرب •

وتسأله ليوبا وهي في لجة من الفكر :

ـ اذن فأنت تحبها حقيقة • وأنا ، اذا قسم لي أن أحب أحدا فقد أكون مثل هذا أيضا •• لن أفتأ أفكر فيه ، وفيما يقول •

ويقول فوما :

ـ ان كل ما فيها مختلف عما في غيرها ـ انها تتكلم كما لا يتكلم أحد سواها ، ويا لله ، ما أرقها ! انها نحيلة نحيلة •• كالطفل !

ـ وماذا حدث بينكما ؟

ويقترب فوما بكرسيه منها ، ويميل الى أمام ، ثم يشرع في حديثه بصوت خفيض ، فيذكر لها كل شيء ، وكان كلما استعاد الكلام الذي وجهه الى صوفيا بافلوفنا ، أحس كأن المشاعر التي جعلته يقول هذا الكلام تحيا من جديد •

ـ قلت لها : يا للعار ! ما الذى جعلك تتلاعبين بى ؟

وكان صوته مليئا بالانفعال والثورة ، وكانت ليوبا التى هزتها الحماسة لا تنى تومىء برأسها علامة على موافقتها ، وتشجيعا لفوما على الكلام • وتقول له :

ـ مرحى مرحى ! وبماذا أجابت ؟

فيبدو الهم على وجه فوما ، ويهز كتفيه ، ويقول :

ـ لا شىء ! وبالأحرى •• انها كانت تتمحل المعاذير •• ولكن ماذا يفيد الكلام ؟

ثم ساد الصمت ، وسكت ، وسكتت ليوبا أيضا وان جعلت تلعب ضفيرتها • وكانت الغلاية قد خمدت نارها ، والظلام قد أخذ يخيم فى الغرفة ، وأصبحت النوافذ أشبه ببقع معتمة

وقال فوما :

ـ لماذا لا نضىء المصباح ؟

وتجيبه ليوبا متنهدة :

ـ لله ما أشد تعاستنا •• أنا •• وأنت !

أما فوما •• فلم يرضه هذا الكلام •• ولهذا اعترض قائلا ، وهو رابط الجأش :

ـ اننى لست تعسا ••• والمسألة أننى لم أتمرس بالحياة بعد •

وتجيبه ليوبا محزونة :

ـ ان الانسان يكون تعسا اذا لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل غدا • فأنا لا أعرف •• وأنت لا تعرف أيضا • وقلبى لا يعرف طعم الراحة أبدا •• وهو دائم الاضطراب بفعل حنين لا يمكن تفسيره

- أوه .. أنا أيضا أشعر بهذا .. والآن .. حان موعد ذهابى الى النادى

- لا تذهب ..

- بل .. لا بد .. فان صديقا ينتظرنى ثمة .. وداعا ..

- وداعا .

ثم مدت اليـــه يدها ، وعيناها تبحثان فى حـــزن ووجوم فى عينيه .

وسألها فوما بعد أن ضغط يدها ضغطة خفيفة :

- أتنوين أن تنامى ؟

- بل سأقرأ قليلا أولا

ويجيبها وهو غير موافق على أنها تنوى القراءة :

- الكتب بالقياس اليك ، كالفودكا بالقياس الى السكارى !

- حبذا لو فكرت فى تشبيه غير هذا .

وعندما كان فى الشارع رفع رأسه الى نافذتها فلمح فيه وجهها .. وجهها الشاحب كأفكارها ورغبـات نفسها . ثم أومأ اليهـا ، وهو يحدث نفسه قائلا : انها مختلطة الفكر .. كصاحبتنا الأخرى .

وجعلته هذه الفكرة يسرع فى خطاه ويضرب برأسه ، كأنه يحاول طرد كل فكرة فيها عن صوفيا بافلوفنا .

وكانت لفحات من الرياح الباردة تجتاح الشــــارع من جميع جوانبه فتثير التراب فى أوجه المارة . وكان النـــاس يدلجون فى الظلام ، وكان فوما يزم وجهه ويكاد يغمض عينيه .

وجعل يحدث نفسه قائلا : اذا لقيت امرأة أول من ألقى فيــكون

يعنى هذا أن صوفيا بافلوفنا ستقابلنى بمثل البشاشة التى كانت تلقانى بها من قبل ٠٠ وسأذهب لزيارتها غدا ٠ أما اذا لقيت رجلا ، فلن أذهب غدا ، بل سأنتظر قليلا ٠

لكنه لقى كلبا ، وقد غاظه هذا حتى لقد أوشك أن يركل الحيوان المسكين ٠

ولقى فى بار النادى هـــذا الشـــاب المرح أوختيشيف الذى كان واقفا قرب الباب وهو يتحدث الى رجل سمين ذى شوارب ٠ وعندما لمح الشاب فوما دلف مسرعا ، وناداه مبتسما :

- ها للو أيها المليونير المحتشم !

وكان فوما يحب هذا الشـــاب لبشاشته وطلاقة وجهـــه ، وكان يسره دائما أن يراه ٠ وقد صافحه بوجه يفيض ودا ثم سأله :

- ما الذى يجعلك تظننى محتشما ؟

- ان أى انسان يستطيع أن يدرك ذلك ٠٠ فأنت شخص تعيش كما يعيش النساك ٠٠ لا تشرب ولا تلعب الورق ولا تغازل - أوه ٠٠ على فكرة ٠٠ هل علمت أن راعيتنا التى لا نظير لهـــا ستسافر غدا وستقضى الصيف فى الخارج ؟

فسأله فوما فى هدوء :

- صوفيا بافلوفنا ؟

- نعم ٠٠ ان شمس حياتى ٠٠ وربما حياتك أيضا ؟٠٠ تميل الى الغروب !

وغمز بوجهه غمزة مضحكة ، ورمق فوما بنظرة كلهـــا خبث ٠٠ أما فوما ، فقد جمد فى مكانه ، وشعر بدوران ينتاب رأسه ، وأنه عاجز عن جمع شتات نفسه ٠

ثم قال أخيرا وفى صوت خفيض عميق صادر بلا وعى :

— اذن ·· فســـونيا مسافرة ·· أليس كذلك ! شىء لطيف لشد ما أنا مسرور !

ويسأله أوختيشيف متعجبا :

— حيلك ! لماذا تقول هذا !!

ويبتسم فوما ابتسامة بلهاء وهو يرمق رفيق صديقه المشـدود بنظرة حائرة · أما أوختيشيف فيداعب شاربه باصبعيه ، ويوجه دشا من الكلمات الغيظة المنــكرة الى فوما ·· على حين يقول رفيق أوختيشيف :

— لأن المدينة ستنقص احدى فاجراتها !

ويحتج أوختيشيف ويقول متجهما :

— أو ·· لا لا يا مارتن نكتتش !!

وتثور ثائرة فوما ·· ويتقدم خطوة من نكتتش ويسأله متجهما

— ومن أين لك أنها فاجرة ؟

ولا يزيد الشاب الأنيق على أن يمسح فوما بنظرة متشامخة ، ثم يدير رأسه فى ناحية أخرى ، وهو يقول فى نفخة عجيبة ، وعضلات بطن ساقه اليمنى تختلج :

— اننى لم أقل انها فاخرة ·· بل قلت انها فاجرة !

وهنا تدخل أوختيشيف يقول بعنف :

— يجب ألا تقول مثل هذا الكلام عن امرأة هـ ···

ولكن فوما يقاطعه بقوله :

ـ لحظة من فضلك ٠ اذ لا بد أن أسأل هذا السيد عما يعنى ٠ ما الكلمة التى استعملها ؟

وكان فوما يتكلم فى هدوء ووضوح ، وهو واضع يديه فى أعماق جيوبه ، وقد شد صدره الى أمام كأنه موشك أن يدخل معركة ، أما السيد المتشامخ فقد حدجه بنظرة ثانية ، وابتسم ابتسامة ساخرة جعلت أوختيشيف يدرك ما وراءها من شر ، فناداهما متوسلا :

ـ أيها السادة !

وقال الشاب وهو يتشدق :

ـ ان ما قلته هو أنها : فاجرة ٠ وان لم تكن تعرف معناها ، فأنا أشرحه لك !

فقال فوما وهو يملأ رئتيه بنفس عميق ، وعيناه لا تريمان عن وجه الشاب :

ـ نعم ٠ اشرح معناها من فضلك ٠

وأدار أوختشيف حدقتى عينيه ٠٠ ثم انتحى ناحية أمينة ٠

وقال الشاب المنتفخ بصوت هادىء وهو يدنى وجهه الممتلىء من وجه فوما :

ـ فاجرة ٠٠ ولا أزيدك علما ٠٠ معناها امرأة لا عرض لها ٠

وزأر فوما زأرة خفيفة ٠٠ وقبل أن يعرف الشاب ماذا حدث له ، كان فوما قد أمسكه من شعره المجعد الداكن ، وجعل يهزه هزا عنيفا بيده اليمنى ، ثم جعل يلوح فى الهـواء بيده اليسرى وهو يبرق ويرعد قائلا :

ـ لا تسب الناس ٠٠٠ وراء ظهورهم ٠ وقل لهم ما تشاء فى ٠٠٠ وجوههم ٠٠٠ قل هذا فى وجوههم صراحة ٠

كان فهما قد أمسكه من شعره الجعد الداكن وجعـــل يهزه

وقد طاب قلب فوما وثلج صدره ، حينما رأى الشاب المغرور وهو يضرب فى الهواء بيديه السمينتين على هذه الصورة المضحكة ... وكيف كانت ركبتاه تصطكان من شدة الهز ، وكيف كانت قدماه تخربشان الأرض . وقد انتثرت ساعة الشاب الذهبية من جيبه ، وتدحرجت من سلسلتها الذهبية على بطنه . وقد بلغ من طرب فوما الذى انتشى لما أحس من قوته ، وما كان يخامره من لذة الانتقام ، بما أذاق هذا العين المحترم ، من مهانة وتحقير ... بلغ من طربه الذى كان يقرب من الجنون أن أخذ يصيح مسرورا مبتهجا وهو يجرجره الى وراء ثم يدفع به الى أمام والمسكين صعق مأخوذ لا يملك عن نفسه دفاعا . ثم شعر آخر الأمر بأن العبء الثقيل الذى كان يجثم على صدره قد انزاح ... العبء الذى ملأ نفسه قنوطا كل هذا الوقت . ولم يشعر الا وشخص ما يمسكه من وسطه وكتفيه ، ويقبض على أصابعه ، ليثنيها الى خلف ... وشخص آخر يثب فيقف على أصابع قدميه ... لكن عينيه اللتين كانتا تقدحان الشرر لم تكونا تريان شيئا الا هذه الكتلة الثقيلة التى كانت تئن وتتوجع فى قبضته . وأخيرا وجد نفسه ينتزع من فريسته ، وقد أفلت من قبضته ... ثم يرى .. وكأنه ينظر من خلال ضبابة حمراء .. الى الرجل الذى صنع به هذا الذى صنع ملقى عند قدميه ، ولا حراك فيه . ثم أخذ الرجل المكوم ، المشعث ، يبدى بعض الجهد اليائس لكى ينهض على قدميه ، حتى أدركه رجلان يلبسان ملابس سوداء فحملاه ، وكانت ذراعاه مسترخيتين بينهما كالأجنحة المتكسرة ، وقد جعل يلهث بصوت مجروح :

- انك لا تستطيع أن تمسنى بيديك .. انك لا تستطيع .. اتعرف من أنا أيها الوغد ؟ اننى ممن يحملون أوسمة الدولة .. ولى أطفال .. وكل الناس يعرفون من أنا .. أيها الوغد .. أيها الوبش ! يا آكل لحوم البشر .. لا بد من مبارزة !

ويهتف أوختشيف فى أذن فوما قائلا :

- هلم بنا .. بالله عليك .. هلم بنا .

- بل انتظر لحظة .. سأحطم له وجهه !

ولكن أوختشيف جذبه ، ومشى به ... ورأسه يتمايل ، وقلبه يدق ، الا أنه مع ذاك يشعر بانشراح وسعادة ... وعندما كانا عند باب النادى ، أخذ نفسا طويلا فأنعشه .

وراح يسأل أوختشيف وعلى فمه ابتسامة لطيفة :

- أظنه لن ينسى هذا الدرس بسرعة ، هه :

وأجابه السكرتير الشاب وهو يلهث :

- لا بد أنك مجنون ! فيم كل هذا ؟ اننى لم أر مثل هـذا طول حياتى !

- ولكن .. يا صديقى العزيز .. ألم يكن يستحق تلك العلقة الساخنة ؟ أليس سافلا قليل التربية ؟ كيف يجرؤ أن يقول هـذا عنها فى غيابها ؟ ليذهب وليقل لها هذا الكلام فى مواجهتها !

- حيلك - حيلك ! ما لنا نحن وهذا كله ؟ أرجو أن تكون قد ألحقت به ما ألحقت لحسابها هى :

- وما معنى قولك لحسابها ؟ لحساب من اذن ؟

- لست أدرى . ولكن .. لا بد أن تأثرا قديما كان بينك وبينه،

وكنت تصر على تسويته .. ما شاء الله يا لها من خنـاقة ! اننى لن أنساها الى آخر حياتى !

- هذا الرجل .. من هو ؟

ثم انفجر ضاحكا ووصل كلامه قائلا :

— كان شكله ظريفا وهو ينهق ·· هذا الجحش ·· الأحمق !

وحملق فيه أوختشيف لحظة قبل أن يقول :

— عجيبة ! صحيح انك لا تعـــرف من هو ؟ وهل صحيح أنك عملت ما عملت لحساب صوفيا بافلوفنا ؟

— بل عملته باسم الاخلاق والواجب

— بل باسم الحماقة والتغفيل ··!

وقالها أوختشيف مرتبكا مترددا ، رافعا كتفه فى تململ ،وملوحا بيده ، وقد عاد الى الرصيف من جديد ، ثم قال لفوما وهو يحدجه بطرف عينه :

— انك ستلقى جزاء ما فعلت ·· فوما اجناتيفتش !

— وماذا عساهم أن يصنعوا بى ؟ يقدموننى للمحكمة ؟

— لو اكتفوا بهذا يكون من حسن حظك · انه زوج بنت المحافظ !

— م ·· ما ·· ماذا ؟

وسقط فى يد فوما ·· ولم يلبث أن نكس رأسه !

— أقول لك الحق ·· انه وغـد ومن أسـفل خلق الله ··· وأنا أستنتج مما أصابه أنه يستحق ما حدث ··· ولكنك اذا فكرت فى أن السيدة التى كنت تنافح عنها هى أيضا ···

وقال له فوما وهو يضع يده على كتفه ، هادئا رابط الجنان :

— اسمع يا صديقى ·· لقد أحببتك دائما ·· وقد تركتهم جميعا لتمشى معى ·· وأنا أفهم ذلك وأقدره · الا أن هناك شيئا أسألك أن تجيبنى اليه ·· ذلك ألا تتحدث عن هذه السـيدة باستخفاف أمامى ·· وهى مهما تكن بالنسبة اليك ·· فانهـــا بالنسبة الى ··

بالنسبة الى ·· عزيزة جدا ·· وليس فى هذه الدنيا كلها من هو أعز على منها ·· ولهذا ، فأنا أقولها لك صريحة وفى غير مواربة · ما دمت رضيت أن تمشى معى، فأرجوك ألا تتحدث عنها ·· وما دمت أنا أرى أنها سيدة صالحة ·· فلنقف عند هذا ·

وكان فوما يتحدث وهو يحس كأنما أوختشيف ينظر اليه متعجبا ·

وقال له أوختشيف :

ـ حسن ·· انك شخص ظريف ·· ولا شك فى ذلك ·

ـ بل أنا شخص بسيط ·· وقد أكون متوحشا ·· ولقد مسحت الأرض بهذا الانسان ·· وأشعر من أجل هـذا بمنتهى الفخر ·· ولست أبالى ما يحدث بعد ذاك

ـ وأخشى أن الذى قد يحدث شىء كثير ·· أقول لك الحق ؟ أنا أحبك أيضا ··· وان كنت أرى أنك ـ اهم ـ شخص خطر ! ولست أدرى متى تعاودك نوبة أخرى من الفروسية ، فتمسح بى الأرض أنا أيضا !

ـ ·· أو ·· اطمئن ·· فأنا لا أفعل هذا كل يوم ·· بل الحق ·· اننى لم أفعل هذا قبل اليوم

وضحك أوختشيف ، لأن فوما كان يتكلم وقد بدا عليه الأسف·

ـ ان ما صدر منك هو البشاعة بعينها · ولكن اسمع يا فوما · ان الشجار عمل من أعمال التوحش · انه شىء دنىء ، وأرجـو أن تغفر لى هذا التعبير ، وان كان الواجب أن أعترف بأنك أحسنت اختيار فريستك للشجار هذه المرة ·· انه حشرة ·· بل داعر ·· واغل فى أعراض الناس ·· رجل يرتكب أفحش المنكرات ولا يقع تحت طائلة القانون ·

ويقول فوما متلذذا :

ـ يسرني أن أسمع ذلك ٠٠ وليس ما ناله منى الا قليل مما يستحق من العقاب ٠

ـ قليل ! لا بأس ! لنفرض أنه كان قليلا ، ولكن اصغ الى يا بنى ـ كلمة نصح من كاتب محكمة ٠٠ ان هذا الرجل وغد زنيم ما فى ذلك شك ٠ ولكن تذكر أنك لا تستطيع أن تمسح الأرض حتى بالأوغاد ، لأنهم هم أيضا ذوات اجتماعية ، ويتمتعون بحماية القانون ، انهم لا يمكن أن ينالهم أذى الا فى حالة ما اذا تخطوا حدود القانون ، وحتى فى هذه الحالة ، لست أنت ، ولكن نحن القضاة الرسميين ، الذين نحدد ما يستحقون من العقاب ٠٠٠ وعلى هذا ، فان لم يكن شىء يهمك ، فلا أقل من أن تحاول التذرع بالصبر ٠

ويسأله فوما فى سذاجة وبراءة قلب :

ـ وهل يمضى زمن طويل قبل أن يقع فى أيديكم ؟

ـ هذه مسألة فيها نظر ٠ فاذا كان صاحب القضية رجلا لا غباء فيه ، كان محتملا ألا يقع فى أيدينا ٠٠ وسيظل فى نظر القانون الى آخر أيام حياته مواطنا جديرا بالإحترام مثلى ومثلك ٠٠٠ أوه ! يا الهى ! ماذا أنا قائل ٠

ثم تنهد أوختشيف بلهجة ساخرة

وضحك فوما وسأله :

ـ ماذا ؟ هل تكشف أسرارا لا يصح أن تكشفها ؟

ـ ليست أسرارا تماما ٠ ولكن ٠٠ ليس يليق بى أن أكون خفيف العقل الى هذا الحد ٠ اللعنة على كل شىء ! لقد كاد ما حدث يطيش

صوابى ٠ ان رغبة الانتقام تستطيع ، كما يقولون ، أن تقوم بعملها بمجرد الرفس والركل خبط عشواء ، كما يرفس الجواد الجامح ٠

وتوقف فوما فجأة ، كأنه ازاء عقبة صبدته عن المسير ، ثم قال ببطء وبصوت عال :

ــ وقد بدأ هذا كله عندما قلت أنت ان صوفيا بافلوفنا مسافرة

ــ انها مسافرة ٠٠ وماذا فى ذلك ؟

وأخذ أوختشيف موقفا ازاء فوما ، ثم جعل ينظر اليه ، وفى عينيه بريق له معناه ٠ ووقف فوما ساكنا ، ورأسه منكس ، وهو يضرب الحجارة المرصوفة بعصاه ، حتى دعاه أوختشيف قائلا :

ــ هيا ٠٠ سر بنا

وسار فوما وهو يزوم بلا مبالاة :

ــ لا بأس ٠ فلتسافر

وراح أوختشيف يدير عصـــاه فى الهواء ، ويصفر بفمه لحنـــا ، على حين كان يرمق فوما بطرف عينيه ٠ وأخيرا قال فوما :

ــ لكأنى لا أستطيع الحياة بدونها !

وكأن عينيه معلقتان فى نقطة بذاتها فوق رأسه ٠٠٠ ثم تمضى لحظة ويعود الى الـــكلام مرة أخرى ٠٠ وبصـــوت هادىء ٠٠ الا أنه ممتلىء اقتناعا :

ــ بل فى وسعى ٠٠ طبعا ٠

ويقول له أوختشيف :

ــ اسمع ٠٠ اليك نصيحة تنفعك : لا بد أن تكون لك شخصيتك القوية ٠٠ ويجب أن يكون للشخص دائما شخصيته ٠ ان مزاجك هو مزاج أبطال الملاحم ٠٠ ان صح أن نقول هذا ٠ أما مزاج أصحاب

الغناء والغزل فلا يليق بك .. وهو ليس من ذوقك ولا يوائمك .

وقال فوما ، وقد حاول أن يفهم ما يقوله أوختشيف :

- استعمل كلمات أسهل فى حديثك لى أيها الصديق .

- لا بأس . ان ما أردت أن أقوله لك هو أن تسقط تلك السيدة من حسابك .. انها سم قتال لمن كان مثلك

وقال فوما أسيفا محزونا :

- ان هذا هو الذى قالته بالضبط !

- أصحيح قالت لك هذا ؟ اهم .. حسن .. هل نذهب الى مكان ما للعشاء ؟

ووافق فوما قائلا ، وهو يزأر ويضرب الهواء بقبضتيه :

- هيا بنا . واذا ذهبنا فلنذهب بالاسلوب الذى يليق بنا . وأنا لا أقبل أن أذهب الى مكان ما للشرب والقصف ، وبعد كل الذى حصـــل ، لست أرضى لنفسى ذاك الجنـــون ، والا .. قبضت على شعرك .. و .. !

- وما الداعى لكل هذا ؟ انه سيكون عشاء محتشما .. نظيفا !

ويمسكه فوما من كتفه ثم يقول له :

- اصدقنى القول يا أوختشيف .. هـــل أنا شر من أى شخص ممن تعرف ؟ ان بعض الناس يبدو عليهم أنهم يتمتعون بالحياة - تراهم دائما يقصدون الى هذا المـــكان أو ذاك ، وراء غـــرض من الأغراض ، أما أنا .. فأرانى منقبضا انقباضا شديدا .. بل قل انقباضا مهلكا - وهم جميعا راضـــون عن أنفسهم - واذا سمعتهم يشكون ، فشـــكاواهم محض ادعاء ، هؤلاء الأوباش ! وهم دائما يسلكون مسلك التعاظم والاستكبار ، الأمر الذى لا أجيد منه قليلا ولا كثيرا . اننى شخص مغفل .. على نياته ! لا أفهم الأمور الخبيثة ،

ولا أستطيع النفاذ الى بواطن الأمور . وهذا أمر يؤلمنى ويمضنى وبعض الناس يقول هذا .. وبعضهم يقول ذاك ... وأما عنها . فوا أسفاه ! لو أنك فقط تعرف ! لقد وضعت جميع آمالى فيها .. لقد كنت أنتظر منها أن ... أن ... ؟ ليت شعرى ماذا كنت أنتظر حتى هذا لا أعرفه ! الا أننى أعلم أن أحدا لا يمكن أن يذهب اليه ... وأننى كنت على يقين أنها كانت ستطلعنى يوما من الأيام على أمر من أخص شئونها . ان عينيها عينان عجيبتان حقا ... ويا لله ان الانسان ليرتجف خوفا وهو ينظر فيهما ... اننى لم أكن أحبها فقط ، بل لقد وهبت لها روحى وقلبى جميعا . ولقد كنت أحسب أن مجرد قربى من سيدة فى جمالها وعذوبتها سيخلق منى رجلا .

وكان أوختشيف يصغى الى تلك الكلمات المتقطعة وهى تتدفق من فم فوما ، ويرى عضلات وجهه وهى تتقلص من شدة ما يبذل من جهد فى التعبير عن أفكاره ، كما كان يلمس الحزن العميق الكامن وراء هذه الاعترافات المهوشة . لقد كان ثمة فى الواقع شىء مؤلم أشد الألم ، موجع أشد الايجاع فى عجز ذلك الشاب القوى المتوحش، وقلة حيلته ... ذلك الطاغى الذى كان يطوى الشارع طيا بخطواته الواسعة غير المتساوية . وقد شعر أوختشيف ، وهو يثب خلفه لاهثا ، برجليه القصيرتين ، أن من واجبه أن يواسيه ويسليه بأية طريقة من الطرق ، اذ كان كل ما صدر عن فوما وما قاله فى تلك الأمسية قد أثار اهتمامه ، وهذا ، بالاضافة الى ما خامره من الزهو حين أحس أنه قد أصبح موضع ثقة هذا الشاب الغنى ، فوما جوردييف . لقد ناء بحمل هذه الثقة ، وكادت بثقلها أن تبهر أنفاسه . وبالرغم من أنه ، على صغر سنه ، قد أعد من العبارات ما يلزم للتعبير عن كل حادث من أحداث الحياة ، الا أنه كان يجد صعوبة فى تذكر هذه العبارات فى المناسبة الحاضرة .

وقال وهو يدفع بذراعه تحت ذراع فوما بطريقه تفيض ودا :

ـ يا لله ! انك لا تستطيع أن تسير فى الحياة على هذا الأسلوب ٠ انك تفلسف ولما تكد تقف على عتبة الحياة ٠٠ الواقع أنك لا تستطيع ٠ وأنت تعرف هذا ٠ لقد أعطينا الحياة لنحياها ـ وبعبارة أخرى : عش ودع غيرك يعش ٠ وهذا هو جماع الفلسفة ـ أما عن هذه المرأة ٠٠ فيا عجبا لك ! ان السماء لا تشرق وتغرب فى أفقهـــا فقط ٠٠ وبالأحرى انهـا ليست المرأة الوحيدة فى هـذه الدنيا ٠٠ ودعنى أقدمك ـ اذا أردت ـ الى امرأة أشـــد منها فتكا ، امرأة تنســيك فلسفاتك جميعــا فى اللحظة التى تقع عيناك عليهـــا ٠٠ ســيدة أرق من الرقة نفسها ٠٠٠ السيدة التى تجعلك تنتفع بحياتك على أحسن الوجوه ! وهى تشبهك من حيث أن مزاجها هو مزاج أبطال الملاحم ٠٠٠ ثم هى جميلة ٠٠٠ بل هى هيلين نفسها ٠ لكأنها خلقت لك ، وفصلت على قدك ! يا للفكرة البديعة ٠ انى سوف أقدمك اليها ما فى ذلك شك ٠٠ وسأداويك بالتى كانت هى الداء ٠

ويقول له فوما مكتئبا :

ـ لا تنس أن لى ضميرا ٠٠ وطالما أن صوفيا بافلوفنا على قيـد الحياة فلا تفكر فى أننى أستطيع مجرد النظر الى أية امرأة أخرى ٠

ـ اه ! رجل معافى سليم البنية مثلك ٠٠ يقول هذا ! أوهوه !

ثم شرع أوختشيف يشرح له نظرية حاجة الانسان الى التنفيس عن مشاعره بالمناومة والانبساط وذلك بطريقة تعليمية ٠ قال :

ـ بل هذا هو ما أنت فى أشد الحاجة اليه ٠٠ وصدقنى ٠ أما مسألة ضميرك ٠٠ ومعذرة ٠٠ فأنت غير مصيب فى هذه النقطة ٠ وضميرك ليس هو الذى يصدك ويقف بينك وبين الاستمتاع ٠٠ بل هو خجلك ٠٠ فأنت لم تتعود الاختلاط بالناس ، ومن ثمة فأنت تشعر بالتهيب والاستحياء ، وبالضيق وأنت فى حضرتهم ٠ وأنت تفهم هذا فهما خاطئا ، وتحسب أنه الضمير ـ ولكن لا يمكن أن

يفسح المجال لذكر الضمير هنا - اذ ماذا هنا مما يمكن للضمير أن يعترض عليه ، أذا لم يكن بد للانسان من أن يلذ ويمتع نفسه ، واذا كان هذا الالتذاذ وذاك الاستمتاع من حقه ومن صميم حاجته !

وكان فوما يحملق فيه وهو يسايره ، ويوفق بين خطواته وخطواته . وكان الشارع بصفى المنازل على جانبيه أشبه بهوة هائلة ممتلئة بالظلام ، وكأنه لا نهاية له ، وكأن مجرى لا ينضب من شيء أسود خانق يتدفق فيه ببطء وتراخ . وكان صوت أوختشيف .. ذلك الصوت اللطيف ذو القدرة على الاقناع يأتى رتيبا ، وبينما لم يكن فوما يستمع الى الكلمات ، كان يدرك أن فيها لزوجة تجعلها تلصق فى ذهنه بالرغم منه .. كما كان يخيل اليه ، بالرغم من وجود رفيق الى جانبه يحدثه ، أنه يسير وحده ، تائها فى ظلام الليل الذى لف نفسه حوله ، وجعل يهدهده الى الأمام . وكان يعرف أنه مسوق للغواية فى مكان ما ، الا أنه لم يكن يملك أية قدرة على المقاومة ، وقد جد به التعب والضنى فلم يعد يستطيع الى التفكير من سبيل . ولم تكن به رغبة فى معارضة ما يقول أوختشيف ... ولماذا يفعل !

واستمر أوختشيف فى حديثه مزهوا بحكمته فقال :

- اننا انما نحيا حياة واحدة ، ومن ثمة وجب ألا نضيع أى قدر من الوقت هدرا .. وصدقنى . ولكن .. فيم هذا الاسراف فى الكلام ؟ اسمح لى بأن أنتشلك مما أنت فيه ... هلم بنا الى منزل تعيش فيه أختان .. ويا حسن ما تعيشان ! تعال .. تعال .. هل تقبل ؟

ويجيبه فوما وهو يتثاءب فى غير مبالاة :

- ولم لا ؟ ولكن .. ألا ترى أن الوقت لم يعد مناسبا ؟

- ان الوقت لا يكون غير مناسب مطلقا ما دمنا سنذهب ونراهما ، قالها أوختشيف وهو يكاد يطير فرحا .

الفصل الثامن

وجد فوما نفسه بعد ثلاثة أيام من حادثة النــادى ، فوق المرفأ الخشبى الذى يملكه التـــاجر زفانتسيف ، والذى على بعـــد سبعة أميال من المدينة ، وفى صحبته أربع نساء ، وصديقه أوختنسيف ، وابن التاجر زفانتسيف ، ورجل أنيق آخر ، أصلع الرأس ، أحمر الأنف ، ذو شوارب مدلاة على جانبى فمه • وكان زفانتسيف فتى حدث السن شاحب اللون نحيل الجسم ، يلبس نظارة من النوع الذى يشبك على الأنف • وقد جعلت عضلات بطن ساقيه تختلج مع أنه واقف ساكن لا يتحرك ، كأنهــا تكره حمل جسمه النحيل المنتهى من أعلى بهذا الرأس الصغير المضحك المغطى بهذه الطاقيـة الجوكى التى أرخى فوقها طرطور معطفه الطويل ذى التربيع •وكان السيد الأنيق ذو الشوارب المدلاة يدعوه جان ، وتسمعه ينطق بهذا الاسم بشىء من الخنف كأنه مصاب ببرد مزمن فى أنفه •

أما فتاة جان فطويلة مملوءة الصدر ، ذات رأس مبطط يبدو كأنه دق من الجانبين ، ولهــا جبين يتقلص من أعلاه الى الخلف تقلصـــا شديدا ، وأنف بالغ الطول يضفى عليها هيئة الطير • ولم يكن شىء من هذا الوجه القبيح كله يبدى أية حركة ، إلا العينين الصغيرتين المســـتديرتين الباردتين اللتين كانت حدقتاهمـــا تدوران الى أعلى باستمرار فى ابتسامة ماكرة • أما فتاة أوختشيف فاسمها فيرا ، وهى بنية طويلة شاحبة ذات شـــعر غزير أصحر ، يبدو لغزارته كقبعة ضخمة مكبوسة دائما على أذنيها وخديها وأعلى جبينها ، وهذه لزوج من العيون الزرق الذى يفتر تفترا حلوا من تحتها •

وكان السيد ذو الشوارب المدلاة يجلس بجانب فتاة صغيرة بضة يانعة ، لا تقلع عن الضحك لأشياء يسرها السيد فى أذنها وهو مائل فوق كتفها ٠

أما فتاة فوما ، فقمحية اللون ، هيفاء القوام ، وملابسها كلها سوداء ٠ ولها بشرة سمراء وشعر مموج ٠ ورأس مرفوع لا يطأطىء ، وتلقى نظراتها على كل ما حولها فى ترفع واستعلاء ، حتى ليدرك الانسان بسهولة أنها تعتبر نفسها فوق مستوى زميلاتها ٠

وكانت الجماعة قد انتظمت فوق آخر عوامة من سلسلة العوامات الممتدة الى مدى بعيد فى داخل النهر الوديع الخالى من السفن ٠ وقد صفت ألواح الخشب فوق العوامة ، وقامت فى وسطها منضدة خشنة ، وانتثرت سلال الطعام والزجاجات الفارغة وأكياس البونبون وقشر البرتقال فى كل مكان ٠ وكانت كومة من التراب تشاهد فى أحد أركان العوامة ومن فوقها موقد جثم بالقرب منه فلاح لبس فروة من فراء الغنم ، وجعل يدفىء يديه ، هلقيا نظراته على أسياده الذين كانوا قد انتهوا توا من تناول شىء من حساء السمك ، ثم حفلت المائدة التى أمامهم بعد ذلك بألوان الشراب والفاكهة ٠

وكان ما بشموا به من كثرة الأكل والشرب ، فضلا عن يومين متصلين من الفسق والفجور قد أنهكهم وجعلهم جثثا هامدة لا حياة فيها ٠ وقد سمرت عيونهم جميعا فى صفحة النهر ، وهم يثرثرون بأحاديث لا تلبث أن تنقطع ٠ وكان اليوم من أيام الربيع الصافية التى تبعث النشاط فى النفوس ، شأن أيام الربيع ، والسماء الصافية الباردة تمتد فى جلال وروعة فوق النهر المعتم المفعم بالماء ٠ وقد لف ضباب المساء المائل الى الزرقة شعاف التلال الممتدة على ضفاف الماء ، وأخذت صلبان الكنائس الباسقة فوقها تتألق كأنها النجوم والنهر المنساب فى أكتاف التلال البعيدة يبدو رشيقا غامر

الجمال ، والزوارق البخارية هابطة فيه مصعدة ، وأصواتها وهى تمخر فى الماء تصل فى زفرات ثقيلة متعبة الى الشاطىء ذى المروج ، حيث يملأ الهواء خرير الأمواج الخفيفة المتلاحقة بأصوات لطيفة متكسرة ٠ ثم اذا صف من الصنادل الكبيرة يشق طريقه ضد التيار فيبدو أشبه بصف من الخنازير ذات الأجسام الضخمة المهولة وهى تحرث الماء بخطمها وأنوفها حرثا شديدا ، والدخان الأسود ينبعث فى دفقات متقطعة من مداخنها ، ثم يتذاوب ببطء فى الهواء الصافى ٠ والصفارات التى تنطلق بين فترة وأخرى توحى بما يشبه زئير بعض الوحوش المهولة التى ألجمتها الجن وسخرتها فى القيام بأعمالها ٠ لقد كان كل شيء هادئا ساكنا فى المروج المائية ، وكانت الأشجار التى تبرز رءوسها هنا وهناك فوق صفحة الفيضان مجللة ببعض الأغصان الخضر النضيرة ، والماء يخفى جذوعها ويعكس فى أديمه فروعها فيجعلها أشبه بكرات خضراء تتراشق فى الهواء ، فى جمال خيالى ساحر ٠٠٠ وأقل هبة من النسيم تدغدغ سطح الماء المجلو الناعم فتجعله نثارا ٠٠ يجرى بعضه فى اثر بعض ٠

وبدأت المرأة ذات الشعر الأصحر ٠٠ هذا الشعر الأحمر الداكن ٠٠ تغنى بصوت هادىء حزين ، وعيناها ترمقان البعد

يا شراعا فى يم فلجة يجرى
ناعم البال صانه تياره ٠٠٠

وتقطب قمحية اللون وتغضى عينيها الكبيرتين استخفافا ، ثم تقول وهى تشيح بوجهها :

ــ كفى ما نحن فيه من وحشة فلا تزيدينا كآبة بغنائك ٠

ويقول فوما لفتاته ، وهو ينظر فى وجهها نظرة رقيقة :

ــ بل دعيها تغنى !

ثم اذا هو شاحب الوجه جدا ، وقد انطفأ بريق عينيه ، وأخذ ابتسامة غامضة حزينة ترف حول شفتيه ٠

واقترح السيد ذو الشوارب المدلاة أن تغنى الجماعة كلها ٠ ولكن أوختشيف أسرع يقول :

- لا ٠٠ بل تغنى فيرا وبافلنكا فقط ٠ فيرا ٠٠ غنى أغنية سأذهب مع الفجر - غنى معها يا بافلنكا ٠

وأومأت الضاحكة الى القمحية وقالت مستأذنة :

- هل أغنى يا ساشا ؟

وتجيبها ساشا ، صاحبة فوما :

- بل ٠٠ سأغنى أنا ٠٠

ثم تلتفت الى الفتاة التى لها أنف كمنقار الطير ، وهى ، على فكرة أختها ، وتقول :

- غنى يا فاسا

وتجرى فاسا احدى يديها على حلقها ، وتنظر الى اختها ، فتقف ساشا ، وتتكىء على المنضدة باحدى يديها ، وتميل الى الوراء برأسها ثم تشرع فى الغناء بصوت يشبه فى قوته وفى عمقه صوت الرجال :

السعيد السعيد من لا يبالى
بالذى تنذر البرايا الليالى
ذو فؤاد لا ينثنى فى نضال
وجنان أجرا من الرئبال ٠٠٠

وتومىء أختها بحركة من رأسها ، ثم تغنى بصوت واطىء حزين متدرج النغمات :

يا لقلب حملت ذات شجن

وتلمع عينا ساشا ناحية أختها وهى تستجيب بنغمات عميقة :

قد ذوى منها كما يذوى الشجر

وتعانق الصوتان وأتلفا ، ثم طفوا فوق الماء فى نغمات خصبة ممتلئة كانت ترتجف من فرط ما فيها من قوة • لقد كان أحد الصوتين يشكو من شجو فوق ما يسع الصبر نفسه ••• شجو كان مما بصاحبه من ظمأ يجرع سموم شكواه ، وهو ينشيج نشيجه الذى لم يكن يجدى معه عزاء •• أما الصوت الآخر •• الصوت العميق الجرىء ، فكان يذرف الدمع ليطفىء نيران العذاب ، وكان يجلجل محنقا وهو يدوى قويا فى الهواء ، كما كان يتدفق بمقاطعه الجلية الواضحة ، فى فيض جياش ، يحمل فى كل كلمة من كلماته نذر الانتقام •

وسيلقى ذلك القاسى جزاءه •••

★ ★ ★

لقد كانت فاسا تغنى هذا اللحن النائح وهى مغمضة العينين ، على حين كانت ساشا تغنى لحنا عاصفا ، فيه نذير وفيه تحذير ، كانت تقذف بالكلمات فى الهواء قذفا ، وفى تصميم مخيف :

سوف أصليه وأشوى جلده

ثم غيرت الوزن والنغمة فجأة ، وكان الابتهاج يغمرها وهى تصب لشتائم واللعنات بصوت طويل ممدود كصوت أختها :

أجف من الريح •• ريح الصحارى

أجف من العشب فى الشمس ملقى

ألم به منجل لا يبارى

ألم به منجل لا يبارى •

وكان فوما متكئا بمرفقه فوق المنضدة ، وهو يحملق فى وجه الفتاة ، وبالأحرى فى عينيها السوداوين الناعستين ، المحدقتين فى الفضاء ، وروح الانتقام يشع منهما فيجعل صوتها الناعم الباغم المتدفق من حنجرتها القوية أسود حالك السواد مثل عينيها ، متلألئا كما يتلألأ الآن ! وهنا .. تذكر ملاطفاتها له بيديها الناعمتين ، فراح يسأل نفسه : ترى ؟ ما الذى أصارها الى تلك الحال من الثورة والعنف ؟ انى لألمس فيها شيئا مخيفا مفزعا !

أما أوختشيف ، فقد قبع الى جانب صاحبته ، وراح يستمع الى الغناء ، وعلى وجهه سيماء الانشراح والرضا . على حين كان زفانتسيف والسيد ذو الشوارب المدلاة مكبين على شرابهما ، ويتهامسان . أما الفتاة ذات الشعر الأصحر فكانت ممسكة بيد أوختشيف ، وهى تدرسها بعناية وروية . وقد اكتسى وجه الفتاة الضاحكة بسيماء الوداعة ، وهى تنصت الى الموسيقى ، برأس منكس لا يكاد يتحرك ، وكأنما كانت تحت سحر احدى الرقى ! وترك الفلاح مقعده عند الموقد ، وهب واقفا ، ثم جعل يمشى على أصابع قدميه فى حيطة وحذر ، ويداه خلف ظهره وعلى وجهه العريض ذى الشارب ابتسامة تختلط فيها الدهشة والبراءة .

آه .. رفقا بى .. صغيرى !

بهذا كانت تتغنى فأسا ، وهى تهز رأسها نائحة باكية .. على حين كانت أختها تختم الأغنية ، رافعة ذقنها أكثر مما كان مرفوعا ، بهذه الفقرة :

هكذا آلام حبى .. وغرامى .

حتى اذا فرغت ، جعلت تنظر حولها معجبة مزهوة ، ثم جلست الى جانب فوما ثم لفت عنقه بذراع قوية متينة . وسألته :
« أغنية جميلة ؟

فقال لها وهو يبتسم لها :

« حلوة ·

وصاح أوختشيف :

« مرحى ساشا ·· مرحى ساشا ··

ودوت أكف الجميع بالتصفيق ، لكنها لم تلتفت اليهم جميعا ·· بل راحت تعانق فوما في دلال وتقول له :

« لابد من هدية على هذه الاغنية ·

« لابد ·· لابد ·

« وما هي ؟

« أي شيء تشتهين ·

« حينما نعود الى المدينة ·· أوه ·· سترين من حبي ما لا يخطر لك ببال اذا أهديت الى ما أطلب !

وقال لها فوما وقد ضحك ضحكة يشوبها الشك :

« لهذا السبب فقط ! ألا يمكن أن تحبيني من أجلي أنا لا من أجل شيء آخر ؟

وجعلت تنظر اليه بهدوء ، وبعد لحظة من التفكير قالت له :

« والله ·· لا أستطيع أن أقطع في ذلك برأى ·· وأنا لا أستطيع أن أكذب ·· والذي أستطيع أن اقوله بصراحة ودون أن أكذب هو انني لا أحب أحدا الا من أجل ماله أو من أجل هداياه ، وان كنت أعرف أن الانسان يمكن أن يحب بغير هذين · ولكن بالنسبة الى حالتنا ، فلم يحن الأوان للحكم بعد ·· ولعلي ، بعد أن تزداد معرفتي بك ، أحبك بلا مقابل ·· مجانا ! اما الآن ·· فلا تقس في حكمك على ·· فمن كانت تعيش العيشة التي أعيشها تكون في مسيس الحاجة الى النقود ·· والنقود الكثيرة » ·

وكان فوما ينصت اليها .. ويبتسم ، وكان يرتجف كلما مس جسمها جسمه .. وكان يدرك ما يقوله زفانتسيف بصوت عال مشروخ تضطرب له أعصابه .

« لست أدرى لماذا يهرف كل انسان بما لا يعرف عن جمال الاغانى الروسية ؟ ماذا فيها من الجمال ؟ أعواء شرذمة من الذئاب الجائعة - المتوحشة التي تتضور من الجوع - أم نباح قطيع من الكلاب ؟ ماذا فيها من البهجة او الرقة ؟ انما يجب أن تسمع الفرنسيين وهم يغنون .. أو الايطاليين !

وقال أوختشيف محتجا فى غيظ واستياء شديد :

« كفى هذيانا ، ايفان نيكولا ييفتش !

ووضع السيد ذو الشوارب المدلاة كأسه ليقول :

« أتفق أنا وايفان فى هذا .. فالأغانى الروسية ، أغان رتيبة ومبتذلة .

* * *

وغربت الشمس ، وكانت وهى تغرب ترقش الماء بأصباغ القرمز والذهب فى مكان ما وراء المروج المائية . وبينما كان فوما واقفا يشهد مسرحية الألوان المرتعشة على صفحة النهر اللامعة ، خيل اليه أن نقف الأحاديث التي كانت تصك سمعه ، لم تكن الا أشباها بفراشات سوداء تطير هنا وهناك ، خبط عشواء ، وبلا غرض .. وهنا وضعت ساشا رأسها على كتفه وهمست بكلمات فى أذنه جعلته يصطبغ بحمرة الخجل ، ويود لو أخذها فى ذراعيه ، ويوسعها لثما وتقبيلا .. والى ما لا نهاية ! لقد كانت هى وحدها من دون هذه المجموعة كلها ، التى لا تعجبه بأية حال من الأحوال . كما كان يخشى زفانتسيف والسيد ذى الشوارب المدلاة .

وأنشأ أوختنشيف يصيح فجأة .

« فيم تحملك ؟

وكان يوجـــه صيحته الى الفلاح الذى انتـزع الطرطور من فوق رأسه وضرب به ركبته ، وقال وهو يبتسم :

« لقد .. لقد .. كنت أحب أن استمع الى غناء السيدة .

« وهل أعجبك ؟

« ومن فى الدنيا لا يعجبه هذا الغناء .

ثم نظر الى ساشا نظرة كلها طرب وقال

« ان صدرها فيه قوى لا يستهان بها .

وأثار قوله ضحك المرأة ، كما أثار تعليقات ظريفة بين الرجال .

وسألته ساشا :

« وهل تغنى أنت ؟

ويجيبها فى احتقار :

« اذا أمكن أن تسمى غنائى غناء .

« وأى الأغانى تغنى ؟

وضحك ضحكة خفيفة فيها ما يشبه الاعتذار ثم قال :

« أوه ! كل الأنواع .. لقد أفنيت عمرى غناء .

« اذن هلم .. لنغن معا .. أنا .. وأنت .

« اننى لست أهلا لمشاركتك فى الغناء ، ولا من مقامك يا آنسة !

« لتبدأ أنت ..

وقال زفانتسيف وهو يبدى امتعاضه :

« أليس هذا لطيفا !

وتقول له ساشا وهى تنظر اليه نظرة كلها ازدراء :

« اذا لم يعجبك غناؤنا ، فلك أن تقذف بنفسك فى النهر لتريحنا منك ٠

وانتفض زفانتسيف لهذا الكلام ، ثم قال :

« ان الماء بارد جدا ٠

لكن الفرصة مناسبة ، فالنهر فى الفيضان ، وأنت لا يمكنك أن تنشر السم فى كل هذا الماء بجثتك هذه المنتنة المتعفنة ٠

وخشن الشاب عليها فى الرد ، وقال لها بازدراء :

« وحتى الساقطات فى روسيا مجردات من الرقة ٠

ثم انصرف عنها الى زميله الذى ابتسم له ابتســامة ثملة ٠ وكان اوختشيف سكران هو أيضا ، وعيناه العمشاوان لا تريمان عن صاحبته على حين كان يتمتم اليها بكلام متقطع مفكك ٠ أما فتاة منقار الطير (!) فكانت تنقر فى اصبع من الشكولاته وقد حملت الصندوق كله تحت أنفها ، على حين انسحبت بافلنكا الى طرف العوامة تأكل البرتقال وتقذف بقشره فى الماء ٠

وقال زفانتسيف شاكيا لجاره :

« أبدا ما اشتركت فى شلة غريبة كهذه فى حياتى ٠

وكان فوما ينظر اليه وعلى فمه ابتسامة ساخرة ، وقد سره ما كان فيه من غم وانقباض ، وأثلج صدره ما سلقته به ساشا من لسانهــا الحاد ٠ وكان يرمق ساشا مبتهجا ٠٠ لقد أحب فيها أجوبتها الناشفة، وما تصون به نفسها من تلـــك الكبرياء والترفع ٠٠ كأنها احـــدى سيدات الطبقة الراقية ٠

ونادها الفلاح الذى كان واقفا الى جوارها :

« يا آنسة .. لعلك لا تبخلين على بقليل من الشراب أبل به ريقى .. وأرد به روحى !

« املأ له كأسا يا فوما .

وجرع الفلاح الكأس جرعة واحدة ، ثم أخذ يتمتق !

ثم تقول له ساشا :

« والآن .. فابدأ اذن .

ومط الرجل أحد أركان فمه ، ثم انشأ يغنى بصوت عال :

أنا لا أستطيع الشرب .. بل .. لست آكل (!)

فراحت الفتاة تتم البيت الثانى من الصوت نفسه :

فروحى لا تلقى المزيد من الخمر

وابتسم الفلاح ابتسامة تفيض بشرا ، وهز رأسه ، ثم أغمض عينيه ، وشرع يقذف بسيل من الألحان العالية ذات السن :

وقد آن لى أن أرحل اليوم عنكمو

فأكملت الفتاة بصوت باك :

وأناى عن الأهل الكرام وعن صهرى

ثم خفض الفلاح صوته وأخذ يردد البيت الآتى بين الغناء وبين الكلام :

وآوى الى أى المدائن ؟ لا أدرى !

وعندما تردد الصوتان الباكيان فى حواشى سكون الأمسية الباردة ، بدا أن كل شىء قد شاع فيه الدفء والخير ، وبدا أن جميع ما فى الوجود كان يفتر عن ابتسامة ملؤها الحنان والرثاء لهذه النفس البائسة التى كانت القوى والظروف الغامضة تنزعها من الأهل

والوطن انتزاعا ، وتذهب بهـــا الى أرض غريبة ٠٠ لتذوب نفســه حسرات فى شقاء العمل ٠ ان شكواه لم تجد صداها فى الصوت أو فى الأغنية ، ولكن فى دموع الانسانية المنبثقة من قلبه الدامى ٠٠ ان شقاء الروح التى أتعبها النضال ، وألم الجراح التى نكأتها يد الحاجة الحديدية ـ ان هذا كله هو الذى كانت تعبر عنه تلك الكلمات الفجة، وهذا الايقاع الباكى الذى يستحيل وصفه ، والذى كان يطفو عاليا ٠٠ فى السموات الخالية البعيدة الآفاق ٠٠ التى تمتنع فيها الأصداء على الأصوات ٠

واعتزل فوما المغنين ، وراح يلاحظهم بشعور أقرب الى الخـوف ٠ لقد كانت الاغنية تنساب فى قلبه انسياب الماء المغلى ، فتستولى على روحه بما فى فيض أشجانها من قوة ، ومن ثمة ، أحس برغبته فى أن يذرف دمعه صببا ، كما أحس بانقباض فى حلقـــه ، واختلاج فى عضلات وجهه ، ولقفت عيناه نظرة مهوشة لعينى ساشا السوداوين ـ هاتين العينين العظيمتين الراسختين اللتين كانتا كأنهما تكبران فى كل لحظة عما كانتا ٠٠ وخيل اليه أن الغناء لم يكن صادرا عن شخصين فحسب ، بل أن الكائنات كلها كانت تغنى وتنشج وترتجف مما بها من شجن ، وأن كل النسيم ، وكل ما فيه نفس يتردد كان يلوذ بعضه بكنف بعض فى قنوط وفى يأس ٠

وحينما انتهت الأغنية أحس برجفة تسرى فى كيانه ، ورآه يبتسم للمغنى والمغنية والدمع ينهمر من عينيه ٠

وسألته ساشا :

« هل بلغ تأثيرها فيك هذا المدى !!

لقد كان وجهها ممتقعا ممـــا بذلت من جهد ، وأنفاسـها تتلاحق بسرعة ٠ ونظر فوما الى الفلاح الذى كان يجفف العرق المتصبب على جبينه ، وهو ينظر من حوله فى دهشة ، كأنه لا يفهم ما جرى ٠

ولم يكن يسمع أى صوت ، ولا يحس لهذه الجماعة أى ركز ، لقد كانوا جميعا يجلسون صامتين مبهوتين لا ينبسون !

ويقول فوما وهو يحاول أن يفيق مما غرق فيه من ذهول :

« يا الله ! ساشا ! وأنت .. أيها الأخ الفلاح .. ترى ؟ من أنت ؟

ويجيبه الفلاح كالمعتذر ، وعلى فمه ابتسامة :

« استبان .. اسمى استبان .

ويقول فوما وهو مأخوذ من الدهشة :

« ما أروع ما تغنى !

ويزفر الفلاح الروسى ويقول :

« عفوا سيدى . انما هو البؤس الذى يصنع بنا هـذا ـ البؤس الذى يستطيع تحويل العجول الى بلابل . أما هذه السيدة الصغيرة ـ فليس يعلم الا الله ماذا يجعلها تغنى هذا الغناء الجميل . ان الانسان اذا سمعها ، وشبع منها .. هانت عليه الدنيا وما فيها .. انهـا جوهرة يا سيدى .. انها جوهرة !

ويقول أوختشيف وهو سارح من السكر :

« أداء جميل جدا ..

أما زفانتسيف فيقول فى هياج وانفعال :

« لعنة الله على الجميع ! لقد جئت هنا لأستمتع بوقت طيب .. لأمتع نفسى .. لا لكى أسمع ندبا فى مناحة .. ان هذا شىء مهيج .. محطم للاعصاب .. ولا أسميه غير هذا .. لقد ضاق صدرى .. وذاب صبرى .. ولم أعد استطيع البقاء هنا .. أنا منصرف ! » .

ويقول له ذو الشوارب المدلاة :

« خذنى معك يا جان » .

ونادى زفانتسيف صاحبته :

« فاسا .. البسى ..

وتقول الفتاة ذات الشعر الأصحر لأوختشيف :

« هيا .. حان أن ننصرف . والبرد يشتد ، والدنيا توشك أن تظلم .

وتأمر فاسا الفلاح استبان بجمع كل ما يخصها .

ويأخذ الجميع فى التحدث والاستعداد للانصراف ، وفوما ساهم واجم ، ينظر اليهم وهو لا يكاد يفهم شيئا .. ولا ينفك يرتجف من حين الى حين .. والجميع يترنحون ، وقد ظهر الشحوب والذبول على وجوههم ، وبعضهم يوجه الى بعض كلمات قذرة فى عبارات مخمورة متقطعة ، وكانت ساشا تدفع بهم دفعا وهى تجمع حاجاتها وتقول :

ـ استبان .. ناد الخيل .

أما صاحبنا ذو الشوارب المدلاة فكان لا يزال يهلوس ، ويلوح بزجاجة وكأس في كلتا يديه .. ويقول :

« اننى أشرب كأسا أخرى .. فمن يريد أن يشاركنى ؟

ولفت فاسا ايشاربا حول رقبة زفانتسيف الذى كان يقف أمامها مقطبا كالطفل العابس وقد ملأت وجهه التجاعيد ، وعضلات رجليه تختلج بحالة عصبية . وقد ملأ منظره فوما بغثيان شديد حتى لقد زوى وجهه عنه ، بل ترك له العوامة كلها ، وقفز الى العوامة المجاورة . وكان مثار عجبه أن هؤلاء الناس كانوا يتصرفون وكأنهم لم يستمعوا الى تلك الأغنية الساحرة .. وكان هذا لا ينفك يشغله ، ويثير فى نفسه رغبة فى أن يقول شيئا ، أو يفعل شيئا .

وكانت الشمس قد غربت تماما فى تلك الآونة ، واتشح المغرب

بوشاح من الضباب الأزرق الذى لم يكد فوما يرمقه حتى أشـــاح بوجهه عنه • ولم يرد فوما أن يعـود الى المدينة فى صـــحبة هؤلاء الأحلاس الذين كانوا لا يزالون يتنقلون فوق العوامة بأرجل متخاذلة ثقيلة ، مترنحين من جانب الى جانب وهم يتمتمون بما لا يفهم • لقد كانت النساء أكثر رزانة من الرجال ، وان مضى بعض الوقت على الفتاة القمحية حتى استطاعت أن تنهض ، مما كان بها من خمار ، وقـــد ادركت هى ما بها من السكر حينما همت بالوقوف وهى تقول :

« حسنا •• الظاهراتى •• سكرى ! » •

وجلس فوما على قرمة من الخشب سواها الفـــلاح بساطوره ، ثم تناول هذا الساطور وراح يقذف به فى الهواء ثم يتلقاه بمهارة ، مما جعل زفانتسيف يزوم قائلا : « يا للسوقية والفظاظة !

ولم يكن فوما يتصور هذا الانسان •• بل لم يكن يحب من هـــذه المجموعة كلها سوى ساشا •• تلك المرأة التى ملأت قلبه رهبـــة ، وجعلته فى خوف دائم من أن تأتى عملا غير منتظر من الأعمـــال التى تجلب الكوارث •

وصرخ زفانتسيف :

« أنت أيها القذر !

ورآه فوما وهو يدفع بالفلاح الذى خطف طرطوره وولى مستخفيا ، وصاح زفانتسيف وهو يقتفى أثره مهتاجا محنقا :

« يا أحمق •• يا أبا رأس جامد !

وهنا ، صاح فوما محذرا :

« قف • حذار أن تمسه بأذى •

وصرخ زفانتسيف ، وهو ينظر الى خلف :

« آه !

وحنى فوما ظهره متوثبا .. ثم دلف نحوه . وهنـــا ، لمعت فى رأسه فجأة فكرة فكهة .. فهمس فى أذن الفلاح وهو يضحك ضحكة تفيض جذلا :

« هل العوامة مربوطة فى ثلاثة أماكن ؟

« نعم ..

« اقطع الحبال بالساطور .

« ولكن .. الناس !

« صه .. اقطعها قلت لك .

« ولكن .. اذا ..

« اقطعها .. واقطعها دون أن يتنبه اليك أحد .

وأخذ الفلاح الساطور وسار متباطئا الى طرف العوامة حيث كانت الأربطة . وضرب الحبال ضربات متتابعة .. ثم عاد الى مكانه بجانب فوما ، وهو يقول له :

« انى لا أريد أن أرد على ما قال يا سيدى .

« لا تخف .

وقال الفلاح وهو مذعور ، وقد راح يصلب على نفسه بسرعة .

« ان التيار يجرفها بشدة !

وضحك فوما فى نفسه ، وأن يكن قد أخذ يحس باضطراب فى بطنه ! وشعور شائك ملتهب ناشىء من خوف لم يكن له عهد به من قبل .. وان وجده شعورا لذيذا حلوا .

وكانت الجماعة لا تزال تتنقـــل فوق العوامة ، يصطدم بعضهم ببعض ، ويساعد بعضهم بعضا فى ارتداء معاطفهم ، ضاحكين مثرثرين على حين كانت العوامة تنفصل عن الشاطىء « ببطء » وتبتعد عن العوامات الأخرى .

وهمس الفلاح شبه معترض :

« انهم اذا اصطدموا بسلسلة من العوامات ·· لتحطموا ·· وانتهى الأمر ·

« أسكت أنت ·· نأخذ زورقا ونتبعهم ·

« نعم نعم ·· الا أنهم ناس ·· لا تنس هذا ·

وقفز الفلاح وراء فوما وهو يبتسم من عوامة الى عوامة حتى بلغا الشاطيء · ثم وقف فوما يحملق فوق الماء ، وبه شوق الى أن يصيح بالجماعة ·· الا أنه كان يكتم هذا الشوق حتى تكون بين العوامة وبين البر مسافة لا يجرؤ رفاقه المخمورون أن يقفزوها ، والا وقعوا فى الماء · وقد كان يجد فى نفسه متعة وسرورا وهو واقف ينظر الى العوامة ، والتيار يحملها بعيدا بعيدا · وكأن ابتعادها عنه كان يبعد عن قلب فوما ما خامره من الخوف والتوجس من قبل ، فراح يستنشق أنفاسا عميقة من الهواء النقى المنعش الذى أعاد الى رأسه صفاءه ، وكانت ساشا تقف وظهرها اليه فوق حافة العوامة التى يجرفها التيار ، وقد ذكره منظر قوامها الجميل بقوام صوفيا بافلوفنا ، الا أن صوفيا كانت أصغر وأنحل ·

وكأنما أحس بوخز ذكرياته ، فصاح فى لهجة ساخرة :

« وداعا ! أيتها الرحلة السعيدة !

وفجأة ، وفى وقت واحد ، تقوم جسوم الجماعة الدكناء بحركة نحوه ، فاذا هم جميعا يتكتلون فى وسط العوامة ، وقد أصبح بينهم وبين فوما ست أقدام من ماء النهر ·· وبهتوا !·· ولم ينبس منهم احد بكلمة فترة من الوقت ·

ثم اذا عاصفة من الصراخ والصياح والولولة الرهيبة تنبعث من غريزة الخوف الفطرى المركبة فى طبائع الأحياء جميعا · وكانت أشد

الصيحات وأقواها جلجلـــة وأعلاها دويا ، تلك الصـــيحة الرفيعة المصرصرة المسرسعة التى أرسلها زفانتسيف وهو يصرخ :

- الـ ٠٠ نـ ٠٠ جـ ٠٠ ـدة !!

ثم يسمع بعضهم يزأر فى صوت عميق ٠٠ لابد أنه صوت السيد ذى الشوارب المدلاة ٠

- انه يريد اغراقنا ٠٠ انه يغرق أناسا أحياء !

وصاح بهم فوما الذى كانت صيحاتهم تخزه وتقرصه كما تقرص الحشرات السامة :

- أتسمون أنفسكم ناسا ؟

ووقفت الجماعة تزوم فوق العوامة فى فـــزع ، وكانت حركاتهم تؤرجح العوامة مما جعلهـا تنجرف أسرع وأسرع ٠ وكان من الممكن سماع الماء وهو يرتطم عـــلى جوانبها ومن أسفل منهـــا ، وأخذت صيحاتهم تشق الهواء ، وهم يثبـــون ويلوحون بأيديهم ٠٠ وكانت ساشا وحدها هى التى ظلت حيث هى ٠٠ لا تريم ٠٠ ســاكنة ٠٠ رابطة الجاش ٠

وصاح فوما مازحا :

- تحياتنا للأسماك والسراطين و ٠٠ أبو جلمبو :

وكان قلبه يزداد نشوة وابتهاجا ٠٠ كلما أبعدت العوامة فى اليم وأخيرا صاح أوختشيف فى صوت رزين ، وان تكن به رجفة :

« فوما اجنا تيفتش ! فكر فيما أنت صانع ٠٠٠ ان هذه لعبة خطرة وسأقدم فيك بلاغا !

وضحك فوما وهو يقول :

« ان شاء الله ·· بمجرد ان تطلع روحك ، أرجو أن تسارع الى تقديم هذا البلاغ ·

وعاد زفانتسيف الى نشيجه وبكائه صائحا :

« أيها القاتل !

وقبل أن يجيبه فوما ، اذا شيء يرتطم فى الماء فيحدث صوتا يجعل النهر نفسه كأنه يذعر ويرتجف ، ويفغر فاه هلعا ·· وسرعان ما ارتجف فوما هو أيضا ، وتثلج ·· لقد أرسلت النسوة صرخة مفزوعة ، وجعل الرجال يصيحون مرعوبين ، واخذ أثر الارتطام يبدو على وجوه الجميع فيملؤها بالذعر ··· وراح فوما يحملق فى الماء مبهوتا ··· لقد كان فيه شيء أسود اللون يجاهد فى الوصول اليه·

وقذف فوما بنفسه فى الماء بدون تفكير على العوامة ، ثم مد ذراعه فوق صفحة الماء ·· ومضت ثوان لم تكن من عمر الزمان ··· ثم أحس أخيرا بأصابع باردة ·· مبللة ·· تمسك بأصابعه ، ثم اذا عيناه ترمقان عينين سوداوين تحدقان ·

وحل الفرح فى قلبه محل الذعر ··· لقد شد الفتاة ، ثم انتزعها من الماء ، وضمها الى صدره ، وراح يتفرس فى عينيها دهشا مسبوها وهو لايدرى مادا يقول لها ··· وابتسمت الفتاة اليه ابتسامة رقيقة·

وقالت ، وقد سرت فيها رعشة :

ـ برد !

وعند ماصافح رنين صوتها سمع فوما ·· ضحك مبتهجا مسرورا ، ثم حملها فى ذراعيه ، وراح يتواثب فوق العوامات حتى كان على الشاطىء ، وكان يشعر بها باردة مبللة كأنها سمكة ، الا أن أنفاسها كانت تفيض دفئا وحرارة ، لقد كانت تلفح وجهه ، وتغمر فؤاده مسرة وبهجة ·

وقالت له وهى تتشبث به :

- وهكذا كنت تريد أن تغرقنى ٠٠ أليس كذلك ؟

فقال وهو يهرب من الاجابة :

- ظريف جدا القاؤك بنفسك فى الماء :

- وقد كان ظريفا منك أيضا ماصنعت ، من كان يتصور كل هذه الجرأة يفيض بها قلبك ؟

- اسمعى اسمعى ٠٠ انهم لايزالون يصيحون ٠

- الى الجحيم جميعا! لكن ٠٠ اسمع ٠٠ انهماذا غرقوا ،فستذهب أنت وأنا الى سيبريا ٠

ثم عادت اليها قشعريرتها ٠٠ ولما احس فوما ذلك ، راح يعدو بها ٠٠ ويعدو ٠

وكانت الصيحات تنبعث من ورائهم طالبة النجدة ٠٠ وكانت العوامة قد ابتعدت ، وأخذت تبدو كأنها جزيرة نحيلة فوق صفحة الماء المنبسط ، وعليها أشباح آدمية داكنة تمرمر وتتململ ، والتيار يجرف الجميع فى أديم الغسق ٠٠ بعيدا ٠٠ بعيدا ٠٠ عن الشاطى ٠٠ نحو ثبج التيار نفسه ، وأقوى جزء فيه ٠

وكان الليل يرخى سدوله ٠

الفصل التاسع

ى ظهيرة أحد أيام الآحاد كان ياكوف ماياكين جالسا يشرب الشاي في حديقة منزله تحت شجرة ظليلة من أشجار الكريز ، وياقة قميصه مفتوحة ، وحول عنقه فوطة يمسح بها عرقه المتصبب ، وقد جعل يرمي بيده هنا ويرمي بيده هناك ، وهو ممتلىء نشاطا وحيوية ، ولسانه لا يكاد يقف من طول ما يثرثر ·

ـ ان الذي يسمح لبطنه بالتحكم في عقله مجنون أحمق ··ووغد

لقد كانت عينا الرجل العجوز باديتى الغضب ، وشفتاه تختلجان

اختلاجة ظاهرة التأفف والازدراء ، والنصف الاسفل من وجهه ممتلىء بالتجاعيد التى تلعب وتهتز ·

ـ اذا كان فوما ابنى الروحى أو ابنى من صلبى ، أفلا أعلمه شيئا او شيئين ؟

وكانت ليوبا جالسة تعبث بعود من أعواد الاكاشيا، وهي تتفرس ى وجه أبيها الشديد الانفعال ، المختلج العضلات ، وكانها تدرسه ، ولكن فى صمت وبلا تعقيب ، وكان ميلها الى أبيها أخذ يقل عما كان متورا ونفورا ، وان لم تدرك هي ذلك ، وكان ماياكين ، بالرغم من ذكائه الجم وحيويته التى لاحد لها ، منطويا دائما على نفسه ، مؤثرا للعزلة ، وكانت ليوبا تدرك وحشته هذه ، وتعرف أنها مما لايطاق ، وكان فى هذا مثار حنانها عليه ورثائها له ، وكانت أحيانا تتعمد محاورته ومناقشته · وكان يكره دائما أن تعترض عليه بأي اعتراض

ولهذا كان يسخر منها ويستهزىء باعتراضاتها ، وان كان يصغى الى حججها دائما بانتباه وامعان وطول أناة ٠

وأخذ الرجل يتحدث الى ابنته وهو يضرب بيده على المنضده بقبضته قائلا :

ـ لو استطاع المرحوم اجنات أن يقرأ ماتكتبه الصحف عن ابنه لقتله ٠٠ يالهول ماتنشره هذه الصحف ! ٠ فضائح !

وتجيبه ليوبا :

ـ انه يستحق ٠

ـ أنا لم أقل انه لايستحق ٠٠ ولا دخان بلا نار ٠٠ ولكن ٠٠ يا ترى ، من هذا الشخص الذى كتب هذا الكلام ؟

ـ وماذا لو بقى اسمه مجهولا أو عرف الناس من هو ؟

ـ جميل ! لقد أبدع الوغد في وصف سلوك فوما ٠٠ انه كان ولا بد أحد أفراد هذه الجماعة ، وانه ممن شهد الحادث القذر بنفسه ٠

ـ انه ليس من أصدقاء فوما بحال ٠

وقد شاعت حمرة الخجل فى وجه الفتاة وهى تقول هذا ، ولا سيما عند ماحدجها أبوها بنظرة لها معناها ، وعند ذلك قال لها ببطء وبلهجة قارصة :

ـ ماشاء الله على أصدقائكم الظرفاء ياآنسة ؟ حسن ٠٠ فمن كتب هذا اذن ؟

ولم تكن تود أن تخبره ٠٠ الا أنه أصر على أن يعرف ، وبصورة فيها غلظة وفيها خشونة :

وأخيرا قالت ليوبا :

ـ عدنى أولا انك لن تناله بأذى ٠

ـ لاأناله بأذي ؟ ماشاء الله ٠٠ انى سأقصف رقبته أيتها المجنونه ٠٠ انهم ليسوا حمقى ، هؤلاء الذين يكتبون فى الصحف ٠٠ انهمقوة مهولة ٠٠ عليهم لعنة الله ! ثم أنا لست المحافظ ٠٠ وحتى لو كنت المحافظ ما استطعت أن أكسر أيديهم ولا أن أقيد ألسنتهم ٠٠ انهم كالجرذان ، لاتنى عن الحفر والنقب ٠٠ قولى اذن ٠٠ من كتب هذا ؟

ـ هل تذكر الطالب الذى كان مع فوما فى المدرسة ، والذى اسمه بيزهوف ؟ الذى كان يحضر لزيارتى عندما كنت لاأزال فى المدرسة ؟ هذا الشاب ذا الشعر الاسمر !

ـ أذكره ٠٠ فهو اذن كاتب هذا كله؟ انه جرذ بالفعل! ان الانسان لم يكن يتوقع أى خير من هذا الملعون بالرغم من صغره فى تلك الايام! ولو قد عرفته لاحتضنته ، وربما كنت صنعت منه رجلا !

وهزت ليوبا كتفيها ، ثم راحت تسأل أباها متحدية :

ـ وماذا جرى ؟ أليس رجالا هؤلاء الناس يكتبون للصحف ؟

ولم يعجل ماياكين بالجواب ٠٠ بل ظل ينقر على المنضـــــدة وهو يتأمل صورته فى سطح غلاية الشاى النحاسى اللامع ٠

ثم قال أخيرا ، وهو يرفع رأسه ويفتر عينيه :

ـ كلا ٠٠ ليسوا رجالا ٠٠ انهم قرح وخراريج ! لقد فسد الدم الروسى ٠٠ وهذا الدم الفاسد هو الذى يغذو مؤلفى الكتب وكتاب الصحف ، ومن اليهم من أولئك الفريسيين الهمج ٠ انهم خراريج انتشروا فوق جسم روسيا كله ٠٠ ولا تزال العدوى منتشرة ٠٠ ولنتساءل : لماذا فسد دم روسيا ؟ الجواب : لأنها تسير ببطء شديد ٠٠ ان فيها مستنقعات يتكاثر فيها البعوض ٠٠ ان كل أنواع

الطفيليات تنمو في المياه الراكدة .. وهذا هو مايحدث تماما حينما تصبح الحياة راكدة .

وقالت ليوبا في ظرف :

- لا احسب أنك على حق في هذا أيها السيد الوالد :

- ولماذا ؟

- لأظنك على حق . ان الكتاب من سائر الناس في الدنيا كافة هم الذين لا يسرهم شيء .. ولا يعجبهم العجب . ان من واجب الناس ان ينظروا اليهم باحترام ، ويعتمدوا عليهم كل الاعتماد .. انهم لا يكتبون لغرض ، ولا يلتمسون شيئا لأنفسهم . وليس لهم هدف الا العدالة .. والا الحق .. انهم ليسوا بعوضا .. بل هم ..

ولم تكن ليوبا تستطيع كبت انفعالها وهي تتغنى بمحامد أولئك الذين تعجب بهم الاعجاب كله .. وقد صبغ خداها بلون الدم .. وكانت عيناها تنظران الى أبيها متوسلتين أن يصدق ليوبا حتى لو لم تكن قادرة على اقناعه بالكلام .

وقاطعها الرجل بقوله وهو يتنهد :

- يا حول الله ! انك تقرئين كثيرا ياليوبا .. فقولي لي اذن . من هؤلاء الكتاب وما هم ؟ لا أحد يعلم ! فهذا ييزهوف مثلا - من هو ؟ انه بثرة ! دمل ! ولا يزيد عند الله عن هذا ! انك تقولين انهم لا هدف لهم الا الحق .. يا سلام ! ما شاء الله ! ولكن ماذا يصنعون اذا وجدوا أن الحق أندر من الكبريت الأحمر في هذا الوجود؟ ثم ماذا اذا كان كل منهم يبحث عن الحق بطريقته هو ، ومن وجهة نظره هو ؟ صدقيني ، انه ليس في الوجود هذه الخرافة التي يسمونها الشخص غير الأناني ! وليس في الدنيا من يشتهي الحرب دفاعا عما ليس له ! واذا وجد هذا الشخص فهو مغفل أبله ، ولن يرجى

منه اى خير ، لا لنفسه ، ولا لأى شخص آخر . واذا أراد انسان ان ينجح فى هذه الحياة فلا بد له من أن يتعلم كيف ينافح عن حقوقه هو ، عما يخصه هو شخصيا . الحق ؟ الله الله ! لقد ظللت حوالى اربعين عاما لا أقرأ الا صحيفة واحدة لا غير ، واليك ما تعلمته . انظرى الى وجه حضرتى ! هذا هو .. يحملق فيك .. ثم هذا هو ايضا ، على سطح هـــذه الغلاية الوجه نفسه ، ولكنه شيء مختلف . عال .. فهذا الوجه الذى يبدو فى سطح الغلاية هو الوجه الذى تعرضه الصحف لحضرتك يا آنسة .. والصحف لا تستطيع أن ترى حتى الوجه الأصلى .. وتأتين حضرتك فتأخذين هذا الوجه الخيالى على أنه الشيء العظيم الفـــاخر .. أما أنا .. فاعرف أن وجهى يبدو ملتويا مبروما شائها على سطح الغلاية .. وهـــذا الوجه الذى ارى لا يمكن أن يكون وجهى الحقيقى أبدا !

وتجيبه ليوبا معترضة فى امتعاض :

- ولكن الكتب والصحف ياسيدى الوالد تحارب من أجل المصلحة العامة ، وتحمى مصالح كل فرد .

- اذن فأريئى الصحيفة التى كتبت عنك أنك تضيقين ذرعا بحياتك وانك كان يجب أن تتزوجى منذ زمن بعيد . فهذه هى الطريقة التى يدافعون بها عن مصالح حضرتك ! وهم لا يدافعون عن مصالحى انا الآخر ، وكيف يمكنهم أن يفعلوا ؟ ومن منهم يعلم ماذا أريد ؟ ومن غيرى يعلم ما مصالحى ؟

ونادت ليوبا تعترض فى يأس مرة أخرى :

- يا سيدى الوالد : ان هذا كله خطأ .. ولست ادرى كيف اعبر لك عن ذلك . الا أننى أشعر ان كل هذا خطأ فى خطأ .

ويجيبها الرجل العجوز فى ثقة وتصميم

- بل هو حق كل الحق .. والصواب كل الصواب ! لقد فقدت روسيا صوابها ٠٠ لم يعد فيها صلابة زمان ! لقد أصبح كل مافيها رخوا مائعا ٠ وأهلها يعيشون فى تحيز وتحزب ، ويمشون فى غير الطريق المستقيم ٠ وكل ما فيها منحرف عن الجادة ٠٠ انك تسمعين ضجيجا من الأصـــوات المختلفة ، الا أن أحـــــدا لا يدرى ماذا يحتاج غيره من الناس ٠ فثمة ضباب على كل شيء ، والناس يتنفسون فى هذا الضباب فيتلف الهواء الفاسد الرطب دماءهم ٠٠ وهذا هو السبب فى تلك القرح وهذه الخراريج ٠ ان الناس يمنحون الحرية لكى يفكروا كما يحلو لهم ، لكنهم لا يسمح لهم بعمل أى شيء ٠ ومن ثمة ، فبدلا من أن يحيوا حياة كاملة مملوءة يعطبون ويأسنون

وتسأل ليوبا أباها وقد وضعت مرفقها على المنضدة ومالت نحوه ٠

- فما العمل اذن ؟

ويقول الرجل صائحا :

- ما العمل ؟ يجب عمل كل شيء ! على كل منا أن يقوم بكل مافى وسعه ، ولكن يجب قبل كل شيء أن نسلس القيادة للشعب ٠ ولكن اذا تركنا الامور على غاربها ، وسمحنا لكل مختال مغرور بأن يتوهم أنه قادر على صنع العجائب ، وأنه انما خلق لتنظيم الحياة ، ولتنظيم الحياة فحسب ، ولينظمها وفق ما يرى هو ٠٠ فتفضلوا ٠٠ سلموا لحضرته القياد ٠٠ سلموا القيـــاد لابن الكلبـــة هذا ، وليرنا ماذا فى وسعه أن يصنع ٠٠ ومن هنا ٠٠ تبدأ المهزلة ٠٠ فبمجرد شعوره بأن العنان قد أفلت تراه يثب الى ما هو أعلى من رأسه ، ويندفع هنا وينطلق هناك ، مزهوا ، منتفخة أوداجه بالغرور ٠٠ يحسب نفسه رجل الخوارق والأعاجيب ٠

وسكت ماياكين لحظة ، ثم ابتسم كما يبتسم الثعلب ، واستأنف يقول :

ـ ولكن ٠٠ صاحبك هذا ! رجل الخوارق والأعاجيب اياه ! مقطوع النفس الذى لا رمق فيه ٠٠ المنفوخ الذى لن يلبث حتى يغيظ : هذا البائس الحقير الذى يسرى فيه السوس ! انه لابد أن يخلى مكانه ، هو وأمثاله ، ليحل محلهم السادة اللوذعيون ٠٠ الرجال المقتدرون ذوو الكفاية ، الذين من حقهم أن ينظموا الحياة بما يرون أنه المناسب، والذين لن يحكموا بالعصـــا والأقلام ، ولكن بالعقول والأفهام ، لا كهؤلاء الأدعياء الذين يقولون لك اذا جسرت على انتقادهم : ماذا ؟ ٠٠ هل تجرؤ على مثل هذا ؟

وهنا يتخذ العجوز لهجة المتغطرس المتشدق ، المهدد المنذر :

ـ حسن ٠٠ أنت يا من صفتك ونعتك ، ويا من كذا وكذا ٠٠ اخرس ٠٠ اسحب لسانك ! ٠٠ ولاكلمة ! ٠٠ واذا جرؤت ، فستنظف الأرض منك ومن أمثالك كما تنظف الدار من الحشرات ٠٠ اخرس ! ٠٠ فهـــذا هو الحال يا ليوبا ٠٠ هـ هـ هـ هىء ! لقـــد كان مايا كين العجوز منتشيا يفيض بهجة ، وكان سروره يتدفق فى ملامحه وتجاعيد وجهه ٠٠ بل فى جسمه جميعا ، وهو يشرح آراءه ٠٠ وكان يغمض عينيه ويتلمظ بشفتيه كأنه كان ينضج حكمته فى غلاية صلعته

ـ وحينئذ يكون هؤلاء الذين كانوا يمسكون بالدفة حينما كان كل شىء فى فوضى شاملة هم الذين يقومون ببناء الحياة بحســب طريقتهم ٠٠ تلك الطريقة المعقولة ٠٠ وعند ذلك لا يكون شىء من هذا الهرج والمرج ، بل تكون الحياة أشبه بلحن موزون يغنيه الناس وفقـــا لنوتة مكتوبة ٠٠ ولكن ٠٠ واأسفاه ! انى لن أعيش لأرى هذا !

لقد كانت كل كلمة من كلماته ، فى نظر ابنته ، أشبه بعين فى شبكة قوية أحكمت حلقاتها حول ليوبا التى لم تكن تستطيع تخليص نفسها منها ، فجلست تصغى وهى صامتة صمتا مذهلا ، منعمة النظر

في وجهه ، باحثة عن الشواهد الاخلاقية فى أقواله ، لامسة فيه أشياء أشبه بتلك الأشياء التى قرأتها فى الكتب ، والتى كانت تؤمن بأنها الحق كل الحق ٠٠ ولكن ضحك والدها ، هذا الضحك الذى كان يفيض نشوة ومسرة ، كان يمزق نياط قلبها ٠٠ ثم ان تلك التجعدات التى كانت تتراقص كالديدان فوق وجهه ملأتها بالخوف منه ٠ لقد احست أنه كان يحاول أن يصرفها عن متابعة الاهداف التى كانت تصور لها أحلامها أنها أهداف بسيطة مرغوب فيها

وسألته ، وهي تتعمد اثارته :

- بابا ٠٠ وتاراس ! مثل ماذا هو ياترى ؟

وجفل ماياكين ٠٠ وارتجف جبينه من شدة الاستياء ، وراح يحدج ابنته بعينين حادتين وهو يجيبها في غلظة :

- وماذا جعلك تسألين سؤالا كهذا ؟

وتقول له ليوبا في رقة :

- ولم لا ؟ هل ثمة ما يمنع من التحدث عنه ؟

وأومأ الرجل باصبعه في وجه ابنته وهو يحملق ويقول :

- اسمعي ٠٠ انا لا أريد التحدث عنه ، وان كنت لا أنصحك بان تتحدثي عنه

ثم نكس راسه ٠٠ الا أنه قد يكون اخطأ التعبير عما في نفسه وهو يقول انه لا يريد التحـدث عن ابنه ، بدليل أنه لم تكد تمضي دقيقة واحدة حتى عاد يقول بصوت بدا فيه الغضب :

- ان تاراس هو واحد من تلك القــرح ، والخراريج ٠ ان ريح الحياة تحمل جميع أنواع الروائح الى انوفكم أيها التافهون ٠ ولما كنتم لا تستطيعون التمييز بين الرائحة الخبيثة والرائحة الطيبة .

تكم تستنشقون هذه الروائح كلها ، ومن ثمة تتغشى عقــــولكم
لسباب .. ان تاراس ، بوز القرد هـــذا ، لابد أن يكون قد بلغ
ثلاثين - وهو .. بالنسبة .. بالنسبة .. الى .. لا وجود له

وتسأله ليوبا ، وهي تصغى بانتباه شديد الى كل كلمة من كلمات
بها :

- من يدرى ! انى لا أزعم أنه هو نفسه يعرف ماذا صنع ، الا
ا كان قد عقل ..وفاء الى أمره الآن .. ولا بد أن يكون . لقد
جبه والد ذكى .. وقد رأى الكثير من تجارب الزمن . انهــــم
ديدو التسامح مع هؤلاء الفوضويين .. آه لو كان الأمر بيدى !
ن ، لأريتهم ، ولجمعتهم كلهم وأرسلت بهم الى .. الصحراء ..
لقلت لهم : « الى الأمام .. سر ! هذا مكانكم أيها الشطار : هنا
صتكم لكى تصبوا الحياة فى القالب الذى يحلو لكم ، فأرونا ماذا
ى وسعكم أن تصنعوا » ثم لجعلت بعض الفلاحين الأشداء رؤساء
ليهم ، وليقولوا لهم : هيا .. انا اطعمناكم ، وكســـوناكم ،
علمنــــاكم ؛ فأرونا ماذا تعلمتم : فلقـــد آن الاوان لتردوا علينا
ميع الدين الذى فى أعناقكم . « تالله ماكنت لاضـــيع كوبكا واحدا
ليهم ، ولكنت أعصر كل قطرة من الدم فى أصـــلابهم ، ولجعلتهم
كفرون . انكم لا تستطيعون أن تطوحوا بالكائنات البشرية ، بل
بس فى وسعكم أن تلقوا بهم فى السجون ، لكنكم قد ثرتم على
قانون ، أليس كذلك ؟ ثم أردتم أن تعيشوا بعد ذلك كما يعيش
لسادة .. أوه .. لا .. لا .. لن نمكنكم من ذلك ، بل ســـوف
حصل منكم على فائدة من عمل ما ، تقومون به .. والحبة الواحدة
ن القمح تنتج شجرة بأكملها فيها ألف حبة ، فكيف نسمح للانسان
احد بأن يحيا هذه الحياة الخاسرة دون أن نحصـــل منـــه على أية
ائدة ؟ ان النجار المقتصد ينتفع بكل كسرة من الخشب ، وبهـــذه
لطريقة نفسها يجب الانتفاع بكل انسان ، والى آخـــر قطرة من

دمه . ان أدنأ حشرة من هوام الأرض لها مكانها فى هذه الحياة
ولا يصح أن ينزل الانسان الى ما هو أدنى من مراتب الهوام
ولكن .. وأسفاه .. ان من المؤلم أن نجد بيننا شبابا ليس
رءوسهم عقل .. ذرة من العقل .. وهذا فوما مثلا .. ولكن
من القادم ياترى .. انظرى يا نيوبا .

ولم تكد ليوبا تستدير لترى ، حتى رأت ييفيم ، ربان السف
يرمق . وهو مقبل فى الممر ، وقد جعل يرسل صيحات مكب
مكتومة فى أدب واحترام ، وبيده طاقيته ، وعليه سيماء الجزع
بل أمارات الغم الشديد .

ولم يكد مايا كين يلمحه وهو فى هذه الحالة حتى صاح به :

ــ ماذا ؟ ماذا حدث ؟

وحيا الرجل فى انحناءة ، ثم قال :

ــ لقد قررت أن أحضر اليك

ــ ألاحظ هذا جيدا .. ماذا .. أين السفينة ؟

وأجابه الرجل وهو يشير الى جهة ما ، فى قلق واضطراب

ــ السفينة هناك .

وصاح به مايا كين فى غضب شديد :

ــ هناك أين .. لعنك الله .. قل .. تكلم .. ماذا حدث ؟

وزفر ييفيم زفرة كبيرة قبل أن يقول :

ــ السفينة رقم ٩ .. تحطمت .. وجرح رجل واحد
ورجل آخر مفقود ، وأخشى أن يكون قد غرق .

وهمهم الرجل وهو يقول للربان وعيناه تقدحان الشرر :

ــ عال عال .. يا سيد ييفيم .. سنأخذ مزرعتك تعويضا
لهذا .

وبادر الربان يقول :

ـ لست أنا السبب ٠

وقال ماياكين مسرعا ، وهو يرتجف من الغضب .

ـ لست أنت ! ٠٠ اذن فمن ؟

ـ سيدى نفسه !

ـ فوما ؟ ٠٠ ويل لك ٠٠ وأين كنت أنت ؟

ـ لقد كنت نائما فى العنبر ٠

ـ نائما ؟ كنت نائما !!

ـ كنت ٠٠ مقيدا !

ـ مقـ ٠٠ ماذا !

ـ ٠٠ سأقول لك كل شيء كما حدث ٠٠ لقد كان السـيد ٠ شاربا ٠٠ شاربا كثيرا ٠٠ وكان يصيح ويصرخ ٠٠ اخرجوا كلكم من هنا ٠٠ سأتولى أنا القيادة بنفسى ٠ وقلت له : هـذا غير ممكن ٠٠ وكيف يمكن هذا وأنا الربان ؟ ٠٠ لكنه قال : قيدوا يديه ورجليه ٠٠ وقد قيدونى وألقوا بى فى العنبر مع الملاحـين والعمال ٠ ولما كان شاربا أكثر من اللزوم ، فقد أراد حضرته أن يمزح ٠٠ ويعملها نكتة ٠٠ فعندما رأى قافلة من الصنادل مقبلة فى النهر ، وكان عدد صنادلها ستة يجرها الرفاص شرنوجودتس ، اعترض طريقهـا بسفينتنا ٠٠ فأرسلت الصنادل صـفاراتها ٠٠ وأطلقتها أكثر من مرة ٠٠ واستمرت فى اطلاقها ، ومن العدل أن أقرر ذلك ٠

ـ عال ٠٠ ثم ٠٠

ـ عال عال ٠٠ لم يستطع المركبان الأماميان تحويل طريقهما ٠٠ فنطحا سفينتنا فى الجنب مباشرة ، وحطماها تحطيما ٠٠ وقـد عطباهما أيضا ، الا أن اصابتنا كانت أفظع ٠

وانتفض ماياكين من كرسيه وهو يرسل صرخة شديدة ·· بيفيم ، فحنى كتفيه ·· وشرع يقول :

« لقد ساءت أخلاقه بدرجة شديدة ·· عندما يكون صـــاحيا لا يتكلم الى أحد ·· بل يشدو كأن فى دماغه شـــيئا ·· ولكن فى اللحظة التى يعمر فيها مخه بكأس أو كأسين تراه يضرب السقف برأسه ·· وعند ذلك يفلت زمامه على نفســـه وعلى عمـــله ·· بل يصبح ألد أعداء نفسه ، وأعداء عمله ·· وأرجو المعذرة فى هـــذا الكلام ·· لقد نفد صبرى ، وأريد أن أســـتمر فى عملى وأنا لست الآمر الناهى فى حدود وظيفتى ·· ولا يمكننى أن أقوم به على هذا النحـــــو · »

ويزجره العجوز قائلا :

ـ كفانا من هذا ·· أين فوما ؟

ـ هناك ·· عند مكان الحادث ·· لقد أعاد اليه صوابه فى لحظه ·· فأرسل الى العمال فى الحال ، لينتشلوا الصـــندل ·· وأظنهم قد بدءوا العمل الآن ·

وسأله ماياكين وهو يشمخ برأسه :

ـ وهل هو وحده هناك ؟

ـ ليس ·· وحده ·· تماما !!

ونظر الى ليوبا مستحييا ·· ثم قال :

ـ ان معه سيدة ·· صغيرة سوداء الشعر ·· وهى لا تبقى معه دائما ·· لكنها حينما تأتى تظل تغنى طول الوقت ·· وهى تغنى غناء جميلا ·· يالها من فتاة مغرية !

وختم هذه العبارة بزفرة عميقة !

وقال له ماياكين وهو مضطرب النفس مبلبل الفكر :

- انا لم أسألك عنها !

وكانت أسارير وجهه تشتد وتختلج من الألم ، حتى لقد خشيت عليه ليوبا من أن ينفجر باكيا .. فقالت تهدىء سورته ، وبصوت لطيف :

- هون عليك يا أبى .. فربما تكون الخسائر غير كبيرة .

- غير كبيرة ؟ وماذا تعرفين عن ذلك أيتها الحمقاء ! أتحسبين ان الخسارة تنحصر في صندل ؟ انه رجل .. وهذه هي المصيبة .. رجل ممن نحن فى شدة الحاجة اليهم .. أيها المغفلون الأغرار اللاعين

واشار الرجل بيده أشارة مغضبة .. ثم دخل المنزل .

* * *

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث كان فوما فى كوخ ريفى على ضفة نهر الفولجا ، على بعد حوالى أربعمائة فرسخ . وكان قد استيقظ من النوم توا ، وجلس على كومة غضة من الدريس فى وسط الكوخ ، وراح ينظر فى اكتئاب خلال النافذة الى السماء الموشاة بقطع من السحاب الداكن المنشور ..

كان يجلس دون أن ياتى بحركة ، ورأسه مثقل بخمار السكر . وكان يخيل اليه أن شيئا أشبه بقطع هذا السحاب الداكن الذى يطوف فى أرجاء السماء ، يطوف فى صدره .. متجولا بلا نهاية ، باعثا فيه رعشة رطبة لافحة . وكان يشعر كانما شيء واهن .. شيء متهيب يتحرك فى حذر واشفاق خلال تلك السحب ، أشبه بالشيء الذى يدب فى الكوخ من حوله ... لقد ترك ذكريات الأشهر القلائل الماضية تنساب داخل رأسه ... يتخيلها ولا يكاد يفكر فيها .

ريجمح به الخيال . فيتصور أنه كأنما سقط في مجرى ممتلئ مياه داكنة ساخنة آخذة بخناقه ، وكأنما هذه المياه تجرفه في تيارها وهي تجري وتتدفق كما يجرى ذلك السحاب الداكن في السماء ، ومن خلل الأصوات والظلمات الضاربة من حوله كان يمكن أن يتبين . في شيء من الصعوبة والابهام أنه لم يكن وحده . بل أن أناسا آخرين كان يجرفهم التيار معه ، وأن هؤلاء الآخرين كانوا يتغيرون من يوم الى يوم ، الا أنهم جميعا كانوا في حالة من السكر لا ثم لها ، ثم اذا هم يحدقون به وهم في سكرهم هذا ، وفي صخبهم هذا . وفي نهمهم الذي ليس كمثله نهم ، يشربون ويقصفون على حسابه . ويلعنونه ، ويشاجر بعضهم بعضا ، ولا ينقطعون عن الصياح والصخب ، بل عن البكاء ، وكأنه يضربهم ، ويلكم أحدهم في وجهه ، وينتش معطف آخر ثم يقذف به في الماء ، ثم يأتي ثالث فيقبل يده بشفتين باردتين مبللتين كأنهما جلد ضفدعة، وهو يتوسل اليه والدموع تنهمر على خديه ألا يقتله ... والوجوه والكلمات وقطع من الأصوات تومض في ذهنه ، وامرأة لابسة بلوزة من الحرير الأصفر ، مفتوحة فتحة كبيرة من فوق الصدر تغني بصوت باك مرتفع :

يا حبيبي لا تفكر في غد الا غدا
دعه يندب نفسه ، فالغد غيب
وهلم اليوم .. نوسعه سرورا
وحبورا .. انه حب وقرب

وكان جميع هؤلاء الناس تجرفهم الموجة الداكنة التي كانت تجرفه .. وكانوا ، كما كان هو ، أشبه شيء بنفايات وحثالات يقذف بها التيار بعيدا .. بعيدا . ولم يكن أحد منهم يجرؤ قط على أن ينظر أمامه ليرى الى أين يذهب به التيار ، ولهذا كانوا يغرقون مخاوفهم في كئوسهم ، ثم يصيحون ويصخبون ويشعوذون ويهرجون في غير بهجة ولا مرح . وكان فوما يصنع كما يصنعون ... ثم بد

« انه انما يصنع هذا لمجرد الافلات مما هو فيـه بما يستطيع من برعة ·

ولم يبق محتفظا بصـفائه وهدوء نفسه وسط هـذه الدوامة لسعورة الفاجرة غير ساشا وحدها بين قوم عصفت بهم الانفعالات لجامحة ، كانوا أشـبه بمخبولين يريدون أن ينسوا ··· انهـا لم تلبها السكر على نفسـها قط ، وكانت تتكلم دائما بصـوت ثابت ر ، وكانت كل حركاتها أقرب الى أن تكون مملوءة بالثقـة ·· حتى انما كانت هي التي تسيطر على تلك الدوامة بدلا من أن تكون من سحاياها · وقد أدرك فوما أنها أذكى من حوله جميعا ، وأنهـا بدهم حماسة للصخب والمرح ··· اذ كانت تصدر أوامرها الى كل رد منهم ، وتفكر باستمرار في استحداث تسليات جديدة ،وتعامل لجميع معـاملة متساوية ، مستعملة اللهجة نفسها · والـكلمات فسها ، سواء كان المخاطب سـائق عربة أو خادما أو ملاحا ، أو كان صديقا حميما أو فوما نفسه ··· لقد كانت أصغر وأنضر من يلاجيا ، وكانت ربتـات كفيها باردة ندية ، وتقوم بهـا في هدوء لطف · وقد خيل الى فوما أنها كانت تخفى في أغوار قلبها سرا هيبا ، وأنها لم تكن لتحب شخصا ما حبا تاما خالصا ، أو تكشف بما في نفسها بصـورة واضحة تمام الوضوح ··· ولقـد كان لتمانها هذا ··· هذا الغموض ··· هو الذي يجذبه اليها · لقـد كان يثير فيه التطلع ، ويغريه بالارتماء في أغوار روحها التي لا تعرف لتأثر ··· روحها السوداء القاتمة كعينيها ·

قال لها فوما مرة :

— انه مبلغ كبير جدا من المال ، ذلك الذي نقذفنا به الى الريح !

وما كان منها الا أن سألته :

— ··· وماذا كنا نصنع به غير هذا ؟

وراح فوما يردد في نفسه ماقالته : نعم ·· وماذا غير هذا ؟ ··

تقوله وهو حيران مشدوه أن يجدها ثابتة لا تتردد هكذا !

وسألها فى مناسبة أخرى قائلا :

- ليت شعرى ·· من أنت !

- ولماذا ؟ هل نسيت اسمى ؟

- ليس هذا بالضبط !

- اذن ·· فماذا غير هذا تريد أن تعرف ؟

- لقد كنت أعجب ··· من أين جئت !

- أوه ·· كذا ؟! اننى من أوجلش ، يا روسلافل جـوبرنيا صناعتى العزف على القيثار ··· فهل زاد حبك لى الآن ، بعد ا عرفت من أنا ؟!

وتساءل فوما وفى فمه ضحكة خفيفة :

- وهل عرفت حقا ؟

- فهذا اذن لا يكفيك ··· عال ··· فلن أقول لك شيئا أكثر من هذا · ولماذا أفعل ؟·· لقد جئنا جميعا من المصدر نفسـه ·· الناس والحيوانات على السواء ··· وكل هذه الثرثرة عن الأصـل لغو وقبض الريح ! بل دعنا نتحدث عن شيء أكثر أهمية ·· كيف باترى نقضى هذا اليوم ؟

لقد أمضياه فى زورق مع فرقة موسـيقية كانت مسافرة ع الزورق نفسـه · ولقد شربوا من الشمبانيا ما ذهب برشـدهم جميعا · وغنت ساشا أغنية كان أخص ما تتسم به ما فيها من أني وشجن ، حتى لقـد جعلت فوما يبكى كما يبكى الأطفـال ·· وما كادت تفرغ من غنائها حتى قام فراقصها رقصـة روسـية و ا أن بلغ منه التعب مبلغه فألقى بنفسه فوق الزورق فى غير وعى وكا سقط فى الماء ·

وحينما كان منبطحا على ظهر الزورق يستعيد صورة ما جرى ، ويجتر ذكريات أخرى غير ذلك أحس بالخجل من نفسه ، وبالغثيان من ساشا ··· وراح ينظر الى قوامها البديع ، ويصغى منها الى كل شيء ، حتى الى أنفاسها ··· ثم أدرك أنه لا يحبهـــا ··· بل أنه لا يريدها · وبدأت أفكار قاتمة حزينة تتكتل وتتجسم فى رأســه المهوش المتلبك ·· لقد خيل اليه أن كل ماعاشـــه من عمره أخيرا هو شيء أشبه بكرة من خيوط الصـــوف ، جامدة مبللة ، لا تنفك تتخبط هنا وهناك فى دخيلة نفسه ··· ثم اذا هى تنفك ، وتحدق به خيوطها الدقيقة الداكنة ، فلا يستطيع من أحبولتها خلاصا ·

وأخذ يفكر هكذا : ما هذا الذى ينتابنى ؟ من أنا ؟··

لقد أذهله هذا السؤال ، وراح يفكر فيه بروية وامعان ، محاولا أن يعرف لماذا لا يستطيع أن يحيا حياة هادئة قانعة ، كما يعيش سائر الناس ؟ وزادت هذه الفكرة من خجله من نفسه بصورة لم يعرفها من قبل ··· فجعل يتقلب وهو منبطح ، وتعمد أن يلكز ساشا لكزة سرى فيها ضجره وضيقه ··· مما جعل ساشا تقول وهى ممددة الى جانبه ، وبفم نصف نائم : « حاسب ! »

ويجيبها مخاشنا :

ــ لا بأس ·· لا تنسى أنك لست سيدة عالية القدر ·· رفيعة المقام ·

ــ اه !

ــ لا شيء ·

وأعطته ظهرها وهى تزوم متثائبة · وأنشأت تقول والنعـــاس يخالط صوتها :

ــ لقد حلمت أننى كنت أعزف على قيثارى لحنـــا منفردا ···

وأغنى ··· وكلب كبير واقف أمامى فاغر فاه ، ينتظر أن أنتهى من العزف ومن الغناء · وأشاع هذا الذعر فى نفسى ··· وأدركت أنه سوف يهجم على بمجرد أن أنتهى ، ومن ثمة ، فقد أنشأت أغنى وأغنى ··· وأغنى ·· حتى شعرت أن صوتى قد بح ··· يا للشناعة !·· انه لا يزال واقفا ·· يصر بأسنانه ·· بماذا تفسر هذا الحلم ؟

ويجيبها فوما بلهجة يشوبها النفاق :

ـ صبرك ··· خبرينى أولا ··· ماذا تعرفين عنى ؟!

وتقول له دون أن تدير له وجهها :

ـ أعرف أنك استيقظت من توك !

ويتمتم فوما وهو يضع يده وراء رأسه :

ـ أجل لقد استيقظت من توى ·· أتستطيعين أن تخبرينى بالضبط ، لماذا سألتك : أى نوع من الناس تظنيننى ؟

وتجيبه متثائبة :

ـ أنت سكران !

ويقول لها متوسلا :

ـ اسمعى ·· دعى هذا الاستغفال ·· وخبرينى بأمانة : ما فكرتك عنى ؟

فتجيبه :

ـ اننى لا أفكر فيك مطلقا ··

ويزفر زفرة عميقة ، ثم يصمت ·· وتمضى دقيقة أو نحوها لا يتكلمان بشىء ··

ثم تقول له ساشا ، بلهجتها العادية :

ـ شيء جميل ! منتظر حضرتك أن أشغل بالى بالتفكير فى كل من هب ودب ؟ لماذا ؟ اننى ليس لدى من الوقت ما أفكر فيه حتى فى نفسى ! أو ربما .. لست أريد ذلك !

ويضحك فوما مكتئبا ، ويقول :

ـ آه لو كان فى امكانى ألا أريد ذلك أنا أيضا !

ورفعت الفتاة رأسها لحظة لتنظر فى عينيه ، وتقول :

ـ انك تفكر كثيرا .. فخذ بالك .. ان هذا لن يعود عليك بخير .. وأنا لا أستطيع أن أخبرك بشيء عن نفسك .. وكل ما أستطيع أن أخبرك به هو أنك أحسن حالا من غيرك .. ولكن .. ماذا يشغلك ؟

ويسألها فوما مهتما :

ـ ولماذا أنا أحسن حالا ؟

ـ أوه ! لا أدرى ! اننى اذا غنيت أغنية حزينة رأيتك تبكى . واذا بدا من شخص ما يدل على دناءته ، بطشت به .. ثم أنت شخص مهذب رقيق الحاشية مع السيدات .. ولا تستغل ضعفهن ! وفى وسعك أن تكون شهما ذا مروءة ..

ولم يقتنع فوما بشيء من ذاك .. فقال لها بهدوء :

ـ انك لم تهمينى !

ـ اننى لا يمكننى أن أحزر ماذا فى رأسك ؟ .. انهم ينتشلونه الصندل الآن .. فماذا عسانا أن نصنع ؟

ـ وماذا تعنين ؟

- هل نذهب الى نجنى نفجورد ·· أو الى قازان ؟

- ولأى شيء ؟

- للفسحة ·· فسحة طرب !

- لقد نلت من فسح الطرب ما فيه الكفاية ·

ثم لبثا وقتا طويلا لا يتكلمان ، ولا ينظر أحدهما فى وجه أخيه وقالت ساشا آخر الأمر :

- انك شخص من الصعب ·· مصاحبتك ! ثقيل الظل !

ويجيبها فوما فى رزانة :

- لقد عزمت على ألا أشرب بعد اليوم ·

وتجيبه ساشا ذات الأعصاب الحديدية :

- لا أصدقك !

- سترين ! أتظنين أن هذه الحياة التى نحياها مما يصح ؟

- الزمن كفيل بالاجابة عن هذا ··

- ولكن ·· صرحى لى ·· أتظنين أن هذا يصح ؟

- وماذا أحسن من هذا ؟

ورمقها فوما بنظرة شزراء ، ثم قال مهموما :

- أخ ·· ! ان الاصغاء اليك شيء منفر ·

وتضحك ساشا وتسأله :

- اذن ، فأنت لا تحب طريقتى فى الكلام أيضا ؟

ويزوم فوما مجيبا :

- من كان مثلك ! وهذه الطريقة التى تعيشين بها ! اذا وضعت رأسك ، لا تدرين أين تضعينه ·· الصرصار يعرف أين يذهب ··

وأنت ٠٠ لا تعرفين الى أين ٠٠ ومن أين !

وتقاطعه فى منتهى الهدوء :

ـ وما شأنك أنت وما أصنع ؟ ان لك أن تأخذ ما تشاء منى ٠٠ ولكن ليس لك أن تتسرب الى دخيلة روحى !

ويسألها فوما مستهزئا :

ـ روحك ! وهل لك روح ؟

ونهضت ساشا ، وراحت تجمع ملابسها المتناثرة هنا وهناك ، وفوما ينظر اليها ، والعجب مستحوذ على نفسه ، لأن ما قاله عن روحها لم يستطع أن يثيرها أو يخرجها عن طورها ٠٠ لقد كان عدم مبالاتها بشىء ، وضبطها المدهش لأعصابها هو ما يبدو عليها الآن ٠٠ كما هو شأنها دائما ٠٠ على حين كان فوما يريد أن يراها مغضبة أو مستاءة ٠٠ أو أى شىء يجعلها انسانا كجميع الناس !

وواصل كلامه فقال :

ـ روحك ؟ كأن أحدا له روح يستطيع أن يحيا الحياة التى تحيينها ! ان الروح تنطوى فى داخلها على نار !! على الشعور بالخجل !

ـ وكانت جالسة على دكة ترقع جوربها ٠٠ فلما قال ذلك رفعت رأسها وحملقت فيه بعينين حادتين ، فيسألها :

ـ الام تنظرين ؟

فقالت وعيناها لا تزالان فى عينيه :

ـ لماذا تقول هذا الكلام ؟

وكان سؤالها يحمل معنى التهديد ، وقد جفل فوما بالفعل ،

وقال لها بصوت فقد شجاعته السابقة !

ــ ولم لا ؟

فتنهدت ساشا وهى مستمرة فى لبس ملابسها :

ــ انك شخص ظريف !

ــ وماذا فى من الظرف ؟

ــ أوه ·· لا شىء ·· ! انك تبدو كأن أبوين قد أنجباك ! هل تذكر ماذا كنت ألاحظ عن الناس ؟

ــ ماذا ؟

ــ اذا كان شخص لا يستطيع أن يجيب عما يفعل ، فهو خائف من نفسه · وهذا معناه أنه شخص تافه لا يستحق الذكر ·

ويسألها بعد لحظة :

ــ انك تقصدينني !

ونشرت على كتفيها روبا قرمزيا فضفاضا ، ووقفت تنظر الى الرجل الممدد تحت قدميها ، وقالت له بصوت لطيف عميق ، وبلا تردد :

ــ أتجرؤ على التحــــدث عن روحى ؟ انك لا شأن لك بها ، وأنا وحدى التى يحق لى أن أتحدث عن ذلك ، ولو أردت أن أفعل ·· ما حفلت بك ولا بأمثالك جميعا ·· ولا تظن أننى عاجزة عن الكلام ·· لا ·· ان لدى منه ما أستطيع أن أستعمله مع أمثالكم ·· كلام مثل المطارق الثقيلة ، وفى امكانى أن أدق بها أدمغتكم حتى لا يبقى فيها الا هذيان الجنون ·· ولكن الكلام لا يمكن أن يكون علاجا لكم ·· وليس لكم من علاج الا صهركم بالنار لتطهيركم مما فيكم من خبث كما تطهر النار الذهب المخلوط فتحيله ذهبا خالصا ··

ثم نثرت شعرها بحركة مثيرة ، فسقط على كتفيها فى خصـــل غزيرة سوداء ، وقالت فى لهجة تفيض ازدراء :

- ليس يهمنى أن أكون امرأة قذرة كما ترى ٠٠ فبعض الناس أنظف مائة مرة ، بالرغم مما يبدو عليهم من قذر ، من أولئك الذين يلبسون أكسية الكتان ، ويرفلون فى مطارف الديباج ٠٠ وآه لو عرفتم فقط رأيى فيكم أيها التيوس ! وآه لو عرفتم ما ينوء به قلبى من الكراهية والازدراء لكم ! لكنها الكراهية تجعلنى أقفل فمى ، لأنى أخشى اذا ما نفست بالكلام عما فى فؤادى أن يصبح خاويا فارغا ، ولا أستطيع مواصلة الحياة بعد !

وما كادت تقول هذا حتى عاد اليه حبها من جـــديد ، ذلك أن ما قالته صادف هوى فى فؤاده ٠٠ وانسجاما لمزاجه ، وضحك فوما ضحكة خفيفة ، وبدا رضاه فى صوته وفى وجهه وقد أنشأ يقول :

- أنا أيضا أشعر كأن شيئا يصل الى ذروته فى أغوار نفسى ، حينما يصير هذا ، فلسوف أجد أنا كذلك كلمة أقولها ٠

- ضد من ٠

ووثب فوما واقفا وهو يقول :

- ضد كل مخلوق ٠٠٠ ضد الأدعياء المنافقين ! انى سأسألهم ٠٠

وقاطعته ساشا ببرود :

- ستسألهم اذا ما كانت الغلاية قد غلى ماؤها !

وحدجها فوما بنظرة خاطفة ثم صاح يقول :

- الى الجحيم أنت وأمثالك !٠٠ اذهبى واسألى عن ذلك أنت !

- ما هذا الصراخ ؟ عم تتحدث ؟ ثم خرجت ساشا من الكوخ !

لقد كانت الريح تعصف عصفات شديدة متتالية طوال النهار . وكانت الأمواج التى تحمل أعرافا من الزبد ، وتقـذف نفاثات من الرغوة ، تجيش وتصطخب مغضبة من شـدة ما تعصف . وكانت فروع الصفصاف المدلاة ، الحانيات على الماء ، تضطرب مرتجفة فى قبضة العواصف . وكان الهواء يعج بصراخ كثير وولولات لا نهاية لها تتخللها أصوات لاهثة ، صادرة من حلوق عشرات من البشر :

ـ هيلا .. هيلا .. هيلا ـ هب ! هيلا .. هيلا .. هيلا ـ هب ! واحد ... اثنان ... هب !

وكان صندلان فارغان راسيين بالقرب من ضفة النهر العالية . وقلوعهما العالية ترسم صورة باهتة فى أديم السماء ، وهى تتمايل من جانب الى جانب ، وقد نصبت صقالات من الخشب الثقيل فوق هذين الصندلين ، وانتشرت البكرات الجرارة فى كل مكان ، وتدلت الحبال والسلب فى الهواء ، وانبعث رنين لطيف ضعيف من سلاسل الحديد ... لقد كان عشرات من الرجال فى ملابسهم الزرقاء والحمراء يجرون كمرا ضخما ليجعلوه فوق الظهر، وقد كانوا يشدون متثاقلين مختلطين ، ثم يغنون أيضا ، وهم يقومون بعملهم هذا .

ـ واحد ... اثنان .. هب ! واحد ... اثنان .. هب !

وكان فى الامكان رؤية بقع حمراء وزرقاء على الصقالات كذلك . وكانت الرياح تشوه منظر الشغالة وهى تعبث بقمصانهم وألبستهم، وهم يسنمون ظهورهم مرة ، وينتفخون كالبالونات ودمى الأطفال مرة أخرى ، وكانت الأذرع والسواعد العارية تلمع فوق الصقالات وأظهر الصنادل ـ وهى تربط وتكشط وتنشر وتثقب وتدق ،وكان الهواء يحمل أصوات نشاطهم هذا عبر النهر ، وكانت المناشير تأكل فى الخشب فرحة مبتهجة ، وكتل الخشب تقبع بأصـوات كأصوات الخنـــازير تحت ضربات البلط والقواديم ، وألواح الخشب تتشقق

فترسل صرخات الالم على حين الصحاف الرقيقة تتطاير فتحدث ضحكات ماكرة ، وصلصلة السلاسل وصرير البكر يختلط بهدير الأمواج ، والريح تعوى وهى تسوق السحب أمامها فى كبد السماء

- هيلا يا رجال ٠٠ هيا ٠٠

ويحث بعضهم العمال قائلا بصوت مرتفع :

- شدة واحدة أخرى ٠٠ شدة واحدة !

وكان فوما ، بقوامه البديع الفارع ، فى جاكتته الصوفية وحذائه الطويل ، يقف متكئا الى أحد القلوع وهو يداعب لحيته بأصابعه المرتجفة ، ينظر فى اعجاب الى الشغالة ٠ وكانت الأصوات التى تأتيه من كل مكان تبعث فيه الرغبة فى الصياح ، ومشاركة هؤلاء فى عملهم ٠٠٠ فى نجر الخشب ، وحمل الأحمال الثقيلة ، واصدار الأوامر ، وباختصار ، لكى يصبح مركز انتباه الجميع ، ولكى يرى كل انسان مقدار ما أوتى من قوة وسرعة ونشاط ! الا أنه كبح جماح نفسه ، ووقف كما هو ٠٠ لا يتكلم ولا يتحرك ٠ وكان يشعر بالخجل فى الوقت نفسه ٠ فقد كان سيد هؤلاء جميعا ٠٠٠ ولو شاركهم فى العمل لظنوا أنه انما يفعل ذلك ، لا عن تواضع أو رغبة منه صادقة فى معاونتهم ، بل لكى يحفزهم الى مضاعفة مجهودهم اقتداء به ، وبهذا يستفيد هو باعتصار دمائهم ، لانهم سيعطونه عملا يساوى أكثر مما دفع لهم ٠

وظل يمر أمامه صبى ظريف ذو شعر مجعد يلبس قميصا مفتوحا عند الرقبة ، مرة يحمل لوحا على كتفه ، ومرة يحمل قادوما فى يده ، وهو يثب رشيقا كما تثب العنز ، ولا يكف عن المزاح والضحك والحلف ، ولا يناله الكلال من مداومة العمل ٠٠ يساعد هذا ويساعد ذاك ، جاريا فى خفة ورشاقة الى فوق والى تحت على ظهر الصندل المكدس بالمواد المختلفة ٠٠٠ وقد امتلأ قلب فوما بالحسد لهذا الغلام الذى لم تكن عينا السيد تنصرفان عنه لحظة

« انه سعيد ولا بد »

هكذا جعل فوما يحدث نفسه ··· ومن هذه الفكرة ·· لا ندرى كيف ·· انبثقت رغبة فى نفس فوما بالحاق الضرر بالغـــلام ·· بتحقيره واذلاله بطريقة من الطرق · لقد كان كل هؤلاء النـــاس منهمكين فى عملهم العــاجل الملح ، منسجمين انسجاما عظيما فى تثبيت الصقالة وتركيب الجرارات واعداد كل ما يلزم انتشـــــال الصندل الغاطس من قاع النهر ، وكلهم يفيضـــون بشرا وتهللا ، وكلهم حياة نابضة دافقة مملوءة فى تلك اللحظة ··· وهنا ··· كان فوما منتحيا ناحية ، يسائل نفسه فى دهشة عما يجب عليـــه القيام به ··· ولا يدرى كيف يقوم بأى عمل ··· شاعرا بأنه كان خارج محيط هذا العمل العظيم تماما ، وأنه ما من أحد فى حاجة اليه · وكان يؤلمه ويجرح كبرياءه تحققه من أنه شخص لا لزوم له ·· وكان هذا الشعور يتضاعف ويشـــتد بطول ملاحظته لهؤلاء الناس وهم يعملون دائبين ··· وكانت فكرة أن هذا كله يعمل من أجله هو ، ومع هذا فهو نفسه لا عمل له ، أشبه بسكين مغمود فى قلبه

وساءل نفسه فى هم وانقباض :

– ولأى شىء من هذا كله أصلح ؟ ما وظيفتى ؟

وحضر اليه المقاول ·· وهو رجل قصير القامة ذو لحية مدببـة وخطها الشيب ، ووجه ملأته التجاعيد ، فيه كوتان صغيرتان تطل منهما عينان !

وقال بصوت خفيض وعبارة مضبوطة النطق :

– كل شىء على قدم الاستعداد فوما اجناتيفتش ··· كل منا فى مكانه ··· وببركتك ·· سنبدأ العمل ·

وأجابه فوما باقتضاب :

- ابدءوا ·

ثم حول عن الرجل وجهه اتقاء تلك النظرات النفاذة التى كانت تنطلق من كوتى عينيه ·

- حمدا لله ·

قالها المقاول وهو يزر معطفه فى أناة ، ويشد كتفيه ·· وبعد أن ختبر الصقالة المركبة على الصندل ، صاح قائلا :

- كل منكم فى مكانه يا اخوان !!

وعند ذلك تجمع العمال جماعات صغيرة فوق ظهر الصندلين وعند الروافع ·· ثم سكتوا وساد الصمت ، وكان بعضهم يتدافعــون بالمناكب فى رشاقة وهم يصعدون فوق الصقالة ، ومن هناك ،جعلوا يجيلون أبصارهم فيما حولهم ·

ثم صاح المقاول بصوته الرابط :

- نظرة أخيرة الى كل شىء يا رجال ، هل كل شىء متين ؟ عال ! توكلنا على الله ، ومن توكل عليه كفاه ·· هيه ! مستعدون ··· اذن ·· صلواتكم ·

وزحلق المقاول طرطوره على قفــاه ، ثم رفع وجهه الى السماء ، وصلب مثنى وثلاث ·· وصنع الشغالة مثل ما صـــنع · وكان بعضهم يصلى بصوت مرتفع فتختلط أصواتهم بخرير الأمواج ·

- باسمك اللهم وبركاتك ·· وبركات الرسل والقديسين ··

ووقف فوما يستمع ··· وكانت كلمات الأدعية تسقط على روحه كالحجارة ورءوس الجميع عارية ·· الا رأســه هو ·· وعندما فرغت الصلاة نظر اليه المقاول عاتبا معنفا وهو يقول :

ـ ألا تظن أنه كان من واجبك أن ۰۰۰۰ ؟

فأجابه فوما بلهجة قاصفة ، وهو يرمقه بنظرة غاضبة :

ـ ليس هذا شغلك ۰۰۰ لا تعلمنى !

وكان شعوره بأنه شخص تافه لا لزوم له يزداد حرافة ولذعا كل تقدم العمل الذى ينهض به هؤلاء العمال المؤمنون بقوتهم وبأنهم أه لرفع هذا الثقل الذى يبلغ الأطنـــان الكثيرة من غور النهر ۰۰ ولحسابه هو ۰ والعجيب أنه كان يرجو لهم الاخفاق فى مهمتهم ۰ لا لشىء ۰۰ الا ليشعروا بالمذلة وانكسار الخـــاطر ، فكان يحد نفسه بهذا الوسواس :

ـ ليت السلسلة تنقصف !

ونادى المقاول : « انـ ۰۰۰ تباه ! »

ثم أعطى اشارة بدء العمل بتلويحة من ذراعه : « شد »

واستجاب العمال للنداء ، فراحوا يصيحون بأصوات قوية حادة:

ـ هيلا ۰۰۰ هب

وهنا سمع صريف البكر وصريره ، وأخذت السلاسل تصلصل وهى تشـــد فى توتر ونظام ، والشـــغالة يصيحون وهم يضعون صدورهم الى عوارض الروافع ثم يدفعونها دفعا ، متحركين فى دوائر بخطى ثقيلة وئيدة ، والماء ينسرب بين الصندلين كأنه لا يريد أن يسلم وديعته لهؤلاء البشر ، والسلاسل والسلب المشدود يهتز فى كل مكان من حول فوما ، وكان بعضها ينزلق حول قدميـه كما تنزلق الافاعى الضخمة الداكنة ، وبعضها يرتفع الى أعلى حلقـة بعد حلقة ، ثم تسقط الى الوراء بصوت مجروش أجش ۰۰۰ ولم تكن أصوات الشغالة تخمد جميع الاصوات الاخرى وتغطى عليها

ـ قربت يا رجال ۰۰ قربت ۰۰ قربت يا رجال ۰۰ قربت

وهكذا كانوا يتغنون ، على حين كان صوت المقاول القوي الواضح شق موجة هذا الغناء المدوى كما تشق السكين قالبا من الجبن ، ائلا لهم مشجعا :

ـ مع بعض يا أولاد ٠٠ مع بعض !

وكان فوما يشعر باضطراب وبلبلة غريبة ٠ لقد كان يتمنى من أعماق قلبه لو كان جزءا لا يتجزأ من تلك الانشودة المتدفقة كما يتدفق النهر الكبير العريض ، وذلك لكي يندمج فى صريف المعدن صريره ، وفى هدير الامواج وزئيرها ٠٠٠ وكان شوقه هذا قويا عنيفا ٠٠ حتى لقد أخذ العرق يتصبب فوق جبينه ، كما أخذ وجهه يشحب ويمتقع ٠ ثم اذا هو يترك مكانه عند القلع فجأة ، ويتجه نحو احدى الروافع صائحا بصوت قوى :

ـ مع بعض ٠٠ مع بعض

واذا به يصطدم أيضا صدمة عنيفة وعارضة الرافعة ، وان لم يشعر بألم الصدمة التى كالها له القدر فى صدره ، بل راح يمزج صوته بأصوات الشغالة ، وهو يدور معهم ويدور ، ويدق الارض بقدميه دقا قويا ٠ وأحس فجأة بشىء ما يتدفق فى صدره ليحل محل الجهد الذى بذله عند الرافعة ، وموجة من الرضا تسرى فى أعماقه ، حتى اذا اقتربت من السطح انطلقت من فمه صيحات مستثارة ٠ لقد خيل اليه أنه كان وحده هو الذى يدير الرافعة ، ومن ثم أنه هو وحده الذى كان ينتشل الصندل الثقيل الضخم ، وأن قوته كانت تتضاعف وتزداد فى كل دورة ٠ وكان يندفع الى الأمام ، وقد نكس رأسه ، وقوس ظهره ، كما يتقوس الثور ، ليقابل هذا الثقل الكبير الذى كان يرغم ارغاما على الاستجابة له بالدنو منه ، وان لم ينفك يلقى به الى الخلف المرة تلو المرة ٠ وكان ما يعروه من الانفعال يزداد ويزداد فى كل خطوة ، وكان ما يبذله من الجهد على الدوام ، تعوضه

غمرة مغرية من الزهو والكبرياء . ثم أخـــذه الدوار ، واصطبغ عيناه بلون الدم ، ولم يعد يرى شيئا ولا يعى شيئا .. الا أنه ك الفتى الرابح ، صاحب اليد العليا ، الذى يقذف بقوة عضلاته ليزي سدا هائلا منيعا يعترض سبيله ... يزيحه ... ويلقى به جان ... وينتصر عليه ، وكان فى مقدوره بمجرد الفراغ من هذا العم أن يصبح حرا يستنشق الهـــــواء ملء رئتيه ، وقد غمره الزه والاعجاب بنفسه . لقد كانت هذه هى المرة الاولى التى عرف في الالهام الروحى ، ومن ثم فقد تشبثت روحه الجائعة بتلك الفرصة وثملت بنشوتها ، فراحت ترسل ألحانا من الجذل والطرب فى صيحات مدوية منسجمة وغناء الشغالة :

ـ قربت يا رجال ... قربت .. قربت يا رجال ... قربت !

وفوجىء فوما بضربة على صـــدره جعلته يترنح الى الخلف . واذ الضارب هو المقاول الذى لمعت فى أسارير وجهه بوارق الثقة .

ـ تهنئاتى .. فوما اجناتيفتش ! حمدا لله ! هل أنت تعب ؟

وشعر فوما بريح تهب على وجهه ، وكانت تمتمات البهجة تصل الى أذنيه من كل مكان ... كل يباهى ويفاخر ... وأقبل الشغال يحـــدقون به فرحين متهللين ، وقد رفت على وجوههم الابتســـامات اللطيفة المهذبة ، وراحوا يمسحون العرق المتصبب من جباههم ... وبادلهم هو أيضا ابتساماتهم مسبوها مبهوتا . لقد كان لا يزال في غمرة من الانفعال لا تسمح له بأن يتبين ما حدث ، ولماذا كان كل من هؤلاء سعيدا منشرح الصدر الى هذا الحد . وكيف لا .. وها هو ذ صوت سعيد يقول :

ـ لقد انتشلنا من قاع النهر مائة وسبعين ألف روبل من جذوره كما ينتشل رأس لفتة !

ورأى فوما من مكانه الذى كان يقف فيه فوق حوية من الحبال

ومن فوق رءوس الشغالة ، صندلا ثالثا ، بين الصندلين الاصليين . داكن اللون ، مغطى كله بالطين ، مربوطا بالسلاسل . لقـــد كان متلويا ومنتفخا كأنما أصابه مرض خبيث ... وطفا فوق الماء فى مكانه ذاك ... ضعيفا قبيح الشكل ، متكئا على رفيقيه ، ملتمسا عندهما المعونة، وقد بدا قلعه المكسور باكيا مهيض الجناح، وشآبيب من الماء المختلط بالوحل تنز من فوق ظهره كما ينز الدم المتقيح من جراح مطعون . وكان لا يزال مشحونا بحديد صدىء وأخشـــاب مبللة .

ولم يكن فى مستطاع فوما أن يقول شيئا وهو ينظر الى شـــكل الصندل الشنيع أكثر من هذه العبـــارة : « لقد طفا ! » . وراح يحدث نفسه وهو مستاء ممتعض فيقول : ترى ! أمن أجل انقاذ هذا الوحش المعطوب الملوث القذر ما أشعر به من كل هذا الابتهاج الغامر ، والانفعال الذى لا حد له ؟

وتمتم فوما فى صوت غامض ، يسأل المقاول :

ـ والآن .. هل الصندل ؟

ويقاطعه المقاول مطمئنا :

ـ انه بخير .. وسنفرغ حمولتـــه ، ثم نكل به عشرين أو ثلاثين نجارا لاصـــــلاحه ... وقد يمضى زمن طويل حتى يعود الى حاله الأولى .

ونظر الصبى اللطيف ذو الشـــعر المجعد الى فوما نظرة كاشرة ضاحكة يقول :

ـ ألا كأس من الشراب ؟

وتدخل المقاول عاتبا على الغلام فقال :

ـ ليس الآن .. ليس الآن .. ألا تلاحظ أن السيد تعب ؟

وقال الشغالة يحبذون ما قاله المقاول :

- طبعا ··· هو تعب !

- ان هذه عملية ليست سهلة !

- الذي يتعب منها هو من ليس معتادا عليها !

- من ليس معتادا عليها ·· يتعب من أكل الفتة !

وهنا قال فوما محتدا ·· وقد ضاق بهذا الغمز :

- انني لست تعبا

وازدحم العمال حوله ·· كل يبدي ملاحظاته في أدب واحترام ·

- ان العمل شيء سار ما دام الانسان يقوم به بقلب منشرح

- انه عند ذلك يكون كاللعب

وقال صوت خنزير مداعبا :

- أو ·· كالنساء !

وكأن الصبي المليح عز عليه ألا يشارك في هذه الثرثرة فقال مازحا ·· مبتسما :

- ياسيد · لسنا نطلب شرابا كثيرا ··· كأسا واحدة ·· كأسا !

وشعر فوما ، وهو ينظر الى هؤلاء العمال الملتحين ، بما يغريه بالاستهزاء بهم ، ولكن رأسه كان خاويا ليس فيه ما يقال ··· ومضت لحظات قبل أن يقول :

- ان كل ما تفكرون فيه ·· هو الشراب ··· والشراب وحده · أوصيكم اذا فعلتم شيئا أن تتمهلوا ، وتسألوا أنفسكم : ترى لماذا نصنع هذا ؟ ومن أجل أي شيء يجب عليكم أن تحاولوا فهم هذا !

وبدا الوجـــوم على الأوجه الملتحية ··· وأنشـــأ العمال ذوو القمصان الزرق والقمصـــان الحمر يزفرون ويتنهدون ، ويهرشـــون رءوسهم ، ويزومون !

وكان بعضهم يحدج فوما بنظرة شزراء ··· ثم ··· ينصرف !
وتمتم المقاول يقول :

ـ هذا صحيح ··· الفهم شيء جميل جدا ··· والله هذا كلام حكيم ·· هذا الذى قلته بأحسن منطق ·

وقال الصبى المليح وهو يومىء برأسه :

ـ ان أمثالنا من الخلق لا ينتظر أن يفهموا هذه الحكم !

قالها وقد فقـــد اهتمامه بفوما ··· وخامره قليل من الغضب عليه ، لانه شك فى أن فوما لا يرى تشجيع العمال على شرب الخمر

ثم عاد فوما يقول بلهجة تهذيبية ، وقد سره ما ظنه تكريما له ، ما أبداه الصبى نحوه ، غير مدرك لنظرات السخرية التى كان الجميع يحدجونه بها :

ـ أوه ! بل أنتم قديرون على ذلك ! ان الشخص عندما يفهم ، يتحقق أنه لا بد أن ينهض بعمله بطريقة حسنة تضمن لهذا العمل أن يبقى على وجه الزمان ·

ويلتفت المقاول الى العمال ، ويقول فى لهجة تفيض ورعا وتقوى:

ـ يا ألطاف الله ! هذا حق ·· هذا حق لا ريب فيه !

لقد شعر فوما بما يحفزه الى أن يقول كلاما حقا له قيمته عسى أن يجعل هؤلاء العمال يغيرون نظرتهم اليه · لقد ساءه أن يجـدهم جميعا يرجون أن يصمت ذلك الغـلام الظريف وألا يتـكلم بشىء ، وأنهم جميعا كانوا ينظرون اليه باستياء ·

ثم قال وهو يرفع حواجبه قليلا :

- انكم بحاجة الى القيام بعمل خالد ينظر اليه الناس بعد من السنين فيقولون : لقد قام بهذا العمل أناس من بوجورودسك

وينظر الغلام الظريف ذو الشعر المجعد الى فوما مشـــدوها ؛ يقول :

- وأى عمل هذا يا ترى ؟ نشرب الفولجا ؟

ويزوم ويهز رأسه ، ثم يعود فيقول :

- لو شربنا الفولجا لفرقعت بطوننا كما تعلم !

وارتبك فوما وسقط فى يده لما قاله الصبى ، ونظر حوله فوجد العمال يبتسمون ابتسامة باهتة وبأنوف شامخة · وكانت ابتساماتهم كوخز الابر ·

وكان فيهم رجل وقور وخط الشيب لحيته ، ظل زمانا لا يتكلم بشىء ، فتقدم الآن ليقول ببطء :

- اذا وجب علينا أن نشرب الفولجا حتى لا تبقى فيه قطرة ، وأن تأكل بضعة من ذلك الجبل فوق ذلك ··· فلسوف ينسى ذلك كله أيها السيد ··· ان الزمن كفيل بأن يسحب أذيال النسيان على كل شىء ··· فالحياة طويلة طويلة ·· كما تعلم ··· ثم ··· اننا لسنا نحن الذين يقومون بأعمال تبذ أعمال الآخرين ، وتسمو عليها ·

ولم يكد ينتهى حتى بصق عـــلى الأرض بازدراء ··· وانصرف ·· وهو يشق طريقه بين العمال كما يشق الاسفين الخشب ··· وكان ما قاله ضربة أخيرة لفوما ··· فقد أدرك أن العمال عرفوا فيه رجلا غبيا وسخيفا لا عقل له ··· وفكر فى شىء يحفظ عليه كرامته فى أعينهم ، ويعيد به انتباههم الذى بدده هذا الرجل ، فلم يجـــد

خيرا من أن يبرز صدره ، وينفخ خديه بشكل مضحك ٠٠ ثم يقول:

ـ سآمر لكم بثلاثة جرادل من الفودكا !

ان أقصر الخطب هي دائما أكثرها سدادا ، وأعظمها تأثيرا ! لقد انسحب العمال في أدب جم ، وهم ينحنون أمام فوما اجلالا ، وبعد أن شكروه بلسان واحد ، ووجوههم تفيض بشرا وتتهلل ابتساما

وطلب فوما أن ينقلوه في زورق الى البر ، بعد ان أدرك أن موجة الانفعال الجديدة التي انتابته ربما لا تستمر طويلا٠٠لقد كان التبرم والضجر ينكأان قلبه ٠

★ ★ ★

ودخل الكوخ ٠ وكانت ساشا بثوبها الاحمر الجميل تضع الطعام والشراب على المائدة ٠ فلم يكد يراها حتى قال :

ـ ان كل شيء يغثيني ! ٠٠٠ ســـاشا ! هل في وسعك علاج هذا ؟

وجعلت ساشا تنظر اليـــه ، كأنما تدرسه بعناية وأناة ٠٠ ثم جلست بجانبه على الدكة ٠

ـ اذا كان كل شيء يثير الغثيان في نفسك ، فأنت بحـــاجة الى تغيير ٠٠٠ أي شيء تشتهيه نفسك ؟

ـ لست أدري !

ـ فكر !

ـ لا أستطيع التفكير

فقالت برفق ، وفي شيء من السخرية ، وهي تشيح عنه قليلا :

- أيها الطفل ! ان الذى تصبو اليه هو أكثر مما التكهن به !

ولم يفطن فوما الى لهجتها وهى تتكلم ، ولا الى حركتهـــا وهى تشيح عنه .. فلقد كان متكئا الى الامام ، قابضا على الدكة بكلتا يديه ، محملقا بشدة فى أرضية الكوخ .

- فى بعض الاحيان أجدنى أفكر ليلا ونهـارا ... أفكر أفكار كثيرة جدا فى أنهم يلطخون جسمى كله بمادة سوداء أشبه بالقـــار .. وفى غمضة عين يبدو لى أن كل شىء قد زال عنى ... ويتلاشى فى الهواء كالهباء المنثور ، ثم اذا بى أحس أن روحى سوداء كظلام القبر .. شىء مرعب ! لكأنى لست مخلوقا آدميا مطلقا - لا شىء . الا فجوة فغرت فاها !

وحدجته ساشا بنظرة طويلة شزراء ، ثم أنشأت تغنى :

ايه يا ريح عــــلى قـــــلب تهب
وعلى بحـــر الهوى منهـــا ضـــباب

- لقد شبعت من تلك الحياة الوحشية : كل شىء هو هو باستمرار ... والناس هم هم ... والمتع هى هى ... والراح هى هى .. ان هذه حال تجعل دمى يغلى ... وتجعلنى مغرما بضرب النـــاس وايذائهم ... انى لا أحب هؤلاء الناس . لأى هدف يحيون ؟ انهم لا يعرفون ولا يفهمون .

وتستمر ساشا تغنى ، وعيناها مثبتتان فى الحائط :

يا حبيب القـــلب ما عيشى بـــــدونك ؟
قفرة ، موحشــــــة ، مثل اليبــــاب !

- ولكنهم يمضون فى الحياة ويستمتعون .. وأنا وحدى الذى أقف ســـاهما .. أطرف بعينى ... لعل أمى هى التى ولدتنى

هكذا ... لا احساس لى . ان اشبيني يقول انها كانت باردة كالثلج ـ وان بها شوقا دائما الى أن تكون فى مكان آخر غير الذى تكون فيه. انى أحس كأننى أذهب وأقول للنـاس : أتوسل اليكم أن تنقذونى مما أنا فيه ، يا اخوانى ! وما أشكو منه هو أننى لا أستطيع مواصلة الحياة ! الا أننى حينما أنظر حولى ، لا أجد من أقول له هذا الكلام .. انهم جميعا زائفون .. أبناء حرام !

ثم أقسم فوما يمينا فاحشة جعلت ساشا تقطع غناءها ، وتولى بعيدا وكانت الرياح تضرب زجاج النافذة بحفنات من التراب ، وكان بالامكان رؤية الصراصير وهي تسعى وتصر بين الاحجـــار فوق الموقد ، وعجل يرسل أصواتا ضعيفة وانية فى حـــوض الاهراء القريبة ... ولم تكد ساشا تسمع هذا حتى قالت لفوما :

ـ اسمع ! هذا هو أخوك فى الشقاء ينعى همه هنـاك ! فاذهب وانع همومك معه ! وفى وسعكما أن تنشدا أنشودة البؤس معا !

ثم وضعت يدها على رأسه ذى الشعر المجعد ، ودفعته دفعــة مداعبة :

ـ أوه ... علام تنوح يا ترى ؟ اذا كانت هذه الحياة التى نحياها لا تعجبك .. فتفضل .. عد الى عملك

ويصيح بها فوما فى حنق وغيظ :

ـ يا لله ! لو كان فى امكانى أن أعبر عما فى خاطرى بطريقــة تجعلك تفهميننى ! عملى ؟ هذا هو ما يسمونه ! العمل ! ولكنك لو أنعمت النظر ، وفكرت بتؤدة وروية ... لم تجديه شيئا .. غير تضييع وقت . ما جدوى هذا العمل ؟ جمع المال ؟ لقد أوتيت مالا كثيرا ، وفى وسعى أن أدفنك فيه حتى تختنقى . سأدفنك فيه من أعلى فرعك الى أخمص قدمك ... ان العمل ما هو الا خديعة كبيرة ! لقد رأيت أفواجا من رجال الأعمال ... فعرفت أنهم يقـــذفون

بأنفسهم فى دوامة العمل ليحجبوا أعينهم حتى لا ترى حقيقة حالهم ··· انهم يخفون أنفسهم من أنفسهم ··· هؤلاء النعام ! ماذايحدث لهم اذا تخلصـــــوا من هذه الدوامة ؟ انهم قد يخبطون كالعميان ويصابون بالجنون · انك تظنين أن الانسان يكون سعيدا لمجرد أن له عملا !·· أوه ·· لا ·· ان هذا هو جزء من السعادة فقط ··· ان الانهار تتدفق وتجرى لكى يسافر الناس عليها ، والشجرة تنمو لكى ينتفع الناس بها ··· حتى الكلب نفسه مخلوق لغرض ـ لكى يحرس المنزل مثلا · وثم من الخير ما يمكن الحصول عليه فى كل شىء فى هذا الوجود ··· الا الناس ! فهم كالصراصير ··· لا يصلحون لشىء ! ان كل شىء مخلوق لمصلحتهم ··· ولكنهم هم ··· لأى شىء خلقوا ؟ ما الفائدة من وجودهم ؟

وأحس فوما بنشوة النصر ، وأنه قد اكتشف شيئا ربما ساعده وأضر بالناس ·· ولهذا راح يضحك ضحكا عاليا ·

وتسأله ساشـــا وهى تحدق فيه بامعان : « أتشــكو صداعا فى رأسك ؟

ويجيبها فوما بلهجة فيها تحد : كلا ·· بل أشكو من صداع فى روحى ! ·· ان روحى تشكو ، لانها لا تجد الرغبة فى تقبل الاشياء على علاتها ، انها تريد أن تعرف هذه العلات : فمثلا ·· ما الأسلوب الذى يجب أن أتبعه فى الحياة ؟ ثم ·· ما الهدف ؟ فهذا اشبيبنى مثلا ··· هذا الرجل الذكى الاريب ··· انه يقول : اصنع الحيـــاة على النحو الذى تريد منها أن تكون ، ولكن كل من عداه يقولون : ان الحياة تلتهمنا وتأتى علينا ·

وتجيبه ساشا فى وقار وجد :

ـ اسمع ··· ان ما أنت فى حاجة ماسة اليه هو أن تتزوج ··· وهذا هو الموضوع كله ·· فلا تماحك ·

ويهز فوما كتفيه ، ثم يسألها :

ـ وما الذى يوجب على ذلك ؟

ـ لأنك فى حاجة الى لجام وشكائم ٠٠ و ٠٠٠

ـ أوه ! لا تهربى ! هأنذا أعيش معك ، أليس كذلك ؟ وأنتن جميعا سواء ، وليس فيكن من هى أكثر حلاوة من الاخرى ٠٠٠ وقد كان لى صاحبة قبل أن ألقاك ٠٠٠ صاحبة من النوع نفسه ٠٠٠ وان لم تكن مثلك تماما ٠٠٠ وقد صحبتنى لغير ما غرض ٠٠ صحبتنى لأنها أرادت ذلك ، وأحبتنى لسبب ما ٠٠٠ وكانت أنثى من نوع لا بأس به ٠٠٠ لكنك اذا تعمقت ما وراء ظاهرها ، وجدتها أنثى كسائر النساء ٠ مثلك تماما ٠٠ لولا أنك أخف دما منها ٠٠٠ ولكن ٠٠ لقد كان ثم امرأة أخرى ٠٠٠ سيدة ٠٠ ومتزوجة ، سيدة حقيقية من الطبقة الراقية ٠٠٠ ويشيعون عنها أنها امرأة ساقطة ٠٠ انها سيدة ذكية ومتعلمة وتعيش عيشة رفيعة فخمة ٠ وقد كان يخطر لى اننى أستطيع أن أتذوق الحياة الحق فى كنفها ٠٠ لكنها كانت شديدة الرأفة بى ٠٠٠ ولعلها لو لم تكن كذلك ، لتغير كل شىء بالنسبة لى ٠٠ لقد كنت أتشهاها تشهيا فظيعا ٠٠٠ وأنا الآن أغرق تفكيرى فيها فى كئوس الشراب ٠٠٠ وأحاول أن أنسى ! وأى خير فى النسيان ؟ آه ٠٠ يا للانسان من بهيم ٠٠ وحسن !

لقد كان فوما غارقا فى لجة من التفكير على حين أن ساشا تذرع الكوخ ذهابا وجيئة وهى تقضم شفتيها قضما ٠٠٠ حتى قالت له أخيرا بعد أن اتخذت لها موقفا أمامه وقد عقدت يديها خلف رأسها :

ـ اسمع ٠٠٠ اننى سأتركك !

ويسألها فوما دون أن يكلف نفسه رفع وجهه نحوها :

ـ والى أين ؟

- لست أدرى ··· وهذا لا يهم ·· انك كثير الكلام ، وهــذا يضايقنى ·

وهنا ·· رفع نحوها رأسه ، وســـألها وهو يضحك ضحكة باهتة :

- أفصحى أفصحى : أجادّة أنت ؟

- أنا مثلك ·· عندما يحين الأوان أبدأ أفكر فى كل شىء أيضا · وهذه ستكون نهايتى ··· ولكنها نهاية لا تزال بعيدة ··· ولهذا يجب أن أستمتع أولا ··· وبعد هذا ·· ليكن مايكون !

ويقول لها فوما بلا مبالاة ، وقد ضايقه ما يبذل من جهـــد فى الحديث :

- وهل هذه ستكون نهايتى أنا أيضا ؟

وتجيبه ساشا بلهجة الواثق المطمئن :

- أجل ··· ان أمثالنا من الناس ينتهون نهاية سيئة دائما ·
وجعل كل منهما ينظر الى الآخر دقيقة أو دقيقتين ثم سألها فوما :

- وماذا ينبغى أن نصنع الآن ؟

- نتناول غداءنا

- أقصد : ماذا ينبغى أن نصنع فيما بعد ، على وجه العموم ؟

- لست أدرى !

- وعلى هذا فأنت ستتركيننى !

- أجل ··· ولكن هلم فلنقم بفسحة كبيرة قبل أن نفترق ··· لنذهب الى قازان ··· لنخادع أنفسنا ، ولندس رأسنا فى الرمال ··· وبهذا سنتغلب على ما يساورك من أحزان ·

ـ هيا ٠٠٠ هذا صحيح ٠٠٠ لنبتعد من هنا ٠٠ يجب : يجب ٠ قاتل الله هذه الحيـــاة الراكدة الآسنة ٠ اسمعى يا ساشـــا ٠٠٠ يقولون : ان أمثالك من النســـاء يحببن المال بشراهة ٠٠ بل هن لا يتورعن عن سرقته ٠

وتجيبه ساشا بأعصاب هادئة :

ـ ليقولوا ما يشاءون !

ويسألها فوما مستغربا :

ـ وأنت ٠٠٠ ألا تشعرين بالمهانة لهذا الكلام ؟ لقد عرفتك ، ولا يمكن أن يتهمك أحد بالشراهة ٠٠٠ وأنت من مصلحتك البقاء معى لانني غنى ٠٠ ولـــكن هأنت ذى تنوين أن تتركينى ٠٠ وبعبـــارة أخرى ، انك لست شرهة

وأخذت ساشا تفكر لحظة ، ثم أشارت بيدها اشارة خفيفـــة وراحت تقول :

ـ أنا ؟ ربما لا أكون شرهة ٠٠٠ ولكن ما قيمة هذا ؟ اننى لست من أولئك الساقطات ٠٠٠ لست من بنات الأرصفة والشوارع ٠ اما ان أشعر بالمهانة لمـــا يقوله الناس ، فمن يســـتطيع أن يسوءنى أو يهيننى ؟ دعهم يقولوا ما يشاءون ٠٠٠ ان الناس مولعون بالكلام ٠٠ لكننى أعرف ماذا يساوى كلامهم هذا ٠ اننى لو كنت قاضيا ، لكان الموتى هم وحدهم الجديرين بصفحى ٠

وهنا تضحك ضحكة كريهة

ـ ولكن ٠٠٠ هيا نغير الموضوع ٠٠٠ هيا نتناول غداءنا ٠

★ ★ ★

فى صبيحة اليوم التالى كان فوما وساشا واقفين جنبا الى جنب

على ظهر زورق يقترب من أوسنيه . وكانت قبعة ساشا الكبيرة السوداء ، ذات الريشات البيضاء .. والتى كانت مثنية الى وراء بشكل فاجر خليع ، محط أنظار الجميع . لقد كان فوما يتلوى استخذاء وهو واقف الى جانبها ، شاعرا كأنما كل هذه العيون الشاخصة تزحف على وجهه هو . ثم يصطدم الزورق والمنزل الذى احتشد فوقه جمع من الناس فى ثياب زاهية ، فيهتز هزة خفيفة ويرسل صوتا لطيفا . ويخيل لفوما أنه لمح بين هذه الوجوه الغريبة وجها ليس غريبا عليه ، كان لا ينفك يتوارى خلف ظهور الناس ، الا أنه لا يبعد عينيه عن عينى فوما أبدا

وبدا القلق على فوما ، فقال لساشا :

ـ هل ندخل الى القمرة

فضحكت وقالت :

ـ لا تحاول أن تستر خطاياك ! هل رأيت أحدا تعرفه ؟

ـ ان بعضهم ينظر الى

ونظر الى الجمع مرة أخرى ، فاذا تغير مفاجىء يعرو وجهه ويقول بصوت خفيض :

ـ انه اشبينى

كان ماياكين يقف عند حافة المنزل معصورا بين امرأتين سمينتين، ووجهه الايقونى كان مرتفعا نحو فوما ، وقد أخذ يلوح بقبعته فى أدب جم ، مشوب بشىء من المرارة ، ولحيته ترتجف ، وصلعته تلمع، وعيناه تثقبان فى وجه فوما كأنهما مثقبان ! .

وتمتم فوما وهو يتناول قبعته ليحييه محنيا رأسه :

ـ العقاب الأبله العجوز !

والظاهر أن الانحناءة قد سرت ماياكين ، لأنه أخذ يتلوى ويرفع بلا ويحط أخرى ، ويبتسم ابتسامات تشوبها المرارة .

وقالت ساشا لفوما مازحة :

- يبدو أنها مفاجأة عكرت مزاجك !

وكانت ملاحظة ساشا ، وابتسامات ماياكين شرارات أشعلت نار في صدر فوما

وقال بصوت مكتوم في شيء من الاضطراب :

- سنرى كيف نتصرف ؟

لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وبدا صلب الوجه . ولم يكد لزورق يرسو حتى أخذ الركاب يتدافعون الى المنزل ، واضطر اياكين الى التراجع لحظة بسبب تدافعهم ، الا أنه تقدم في الحال لى الأمام ثانية ، وقد رقصت ابتسامة الفوز على شفتيه . وراح وما يحدجه بعينين حادتين من تحت حاجبيه المعقودين وهو يخطو لى لوح النزول ، وقد زاد من ربكته تدافع الناس وتخبطهم وتزاحمهم ... وأخيرا كان تلقاه العجوز الذى انحنى أمام فوما أبدع انحناءة في الدنيا كلها ..

- والى أين العزم .. أيها السيد فوما اجناتيفتش ؟

وأجاب فوما دون أن يكلف نفسه مشقة رد التحية :

- انني هنا لأسباب شخصية .

ويقول العجوز بوجه متهلل :

- عظيم جدا .. ومن يا ترى هذه السيدة الصغيرة ذات الريش الفاخر ؟

- خليلتى !

وقد قالها فوما بصوت عال وعيناه لا تطرفان وهو يدافع نظرا
مایاكين النفاذة ٠

وكانت ساشا تقف هادئة خلف فوما مباشرة ، متأملة فى الرجل
العجوز القمىء الذى لم يكن رأسه يرتفع الى ذقن فوما ٠ وقد استرع
صوت فوما العالى أنظار الناس الواقفين حوله ٠ وكانوا جميعـــ
يحدقون عيونهم فيه منتظرين أن يشهدوا فضيحة ٠ وكان مایاكي
هو أيضا ينتظر ذلك ، فقد كان مزاج فوما المتحفز يدل عليه ، وق
أخذ يرقص تجاعيد وجهه ، ويمضغ شفتيه لحظات قبل أن يقو
بصوت لطيف رطب :

- أحب أن أتكلم معك كلمتين ٠٠ فهل نذهب الى فندق ؟

- لا بأس ٠٠٠ ولكن ليس لمدة طويلة ٠

وقال الرجل وهو لا يكاد يتمالك نفسه أكثر مما فعل :

- ليس لديك وقت ، اه ! مستعجل لكى تحطم صندلا آخر !

وقال فوما وهو يرغى :

- ولماذا لا أحطمها ما دامت قابلة للتحطيم ؟

وهمس مایاكين يقول :

- لك حق ٠٠ صحيح لماذا لا تحطمها ٠٠ انك لم تكن أنت الذ
اشتراها ٠٠ فماذا يهمك ؟ عال ٠٠ هلم بنا ٠٠ هل ممكن؟ ٠٠ و
بأس أن تغرق السيدة الصغيرة ساعة أو نحوها

ويتلفت فوما الى ساشا ويقول لها :

- اذهبى الى المدينة واحجزى غرفة فى فندق سيبريا يا ساشا ،
ولن أغيب عنك طويلا ٠

ثم يقول لماياكين :

ـ هلم بنا .

ووصلا الى الفندق دون أن ينبسا بكلمة . ولما لاحظ فوما أن أشبينه يضطر الى توسيع خطاه ليحافظ على ملازمته تعمد أن يزيد خطاه سعة ، وكان عجز الرجل عن حفظ خطواته مع خطوات فوما عاملا زاد فى حنق ماياكين ونقمته ، تلك النقمة التى تهدد بالانفجار فى أية لحظة

ونادى ماياكين الجرسون وقد جلس هو وفوما الى احدى الموائد فى ركن من أركان صالة الأكل فى الفندق ، ثم قال له بصوت لطيف :

ـ أحضر لى زجاجة من عصير التوت يا ولد :

وقال فوما :

ـ أما أنا فزجاجة من الكونياك !

وضحك ماياكين ثم قال :

ـ هذه هي الطريقة ... عندما تكون أوراقك خاسرة ... فلا بأس من تلفيق ورقة رابحة !

وقال فوما وهو يجلس :

ـ أنت لا تعرف كيف ألعب

ـ أوه ! أنا لا أعرف ؟ هذه هى الطريقة التي يلعب بها كثير من الناس .

- ان طريقتي في اللعب هي : اما أن أكسر رأسي أو أكسر الحائط

ثم ضرب بقبضته المائدة ضربة قوية .

ويسأله ماياكين وعلى فمه ابتسامة شاحبة :

- هلا أفقت من سكرتك الأخيرة بعد ؟

واعتدل فوما في كرسيه ، ثم قال بوجه ملوى :

- انك رجل ذكي أيها السيد الوالد ... وأنا أجلك وأحترمك من أجل ذكائك

ويجيبه ماياكين ، وهو يقف قليلا وينحني محييا :

- شكرا .. شكرا يا ولدى !

- انما أردت أن أقول : انني لم أعد بعد هذا الشاب ابن العشرين عاما . انني لست طفلا !

- لا لا .. لا سمح الله ! انك لست طفلا بعد .. وكم شتاء مر على رأسك الأشيب هذا ! انه لو قدر لبعوضة أن تعيش كل هذه السنين التي عشتها لأصبحت في حجم الكتكوت !

وأجابه فوما على ذلك بقوله :

- وفر عليك نكاتك فقد تحتاج اليها فيما بعد !

وقد قال ذلك بصوت متزن جعل ماياكين يجفل الى الوراء ، وأخذت أسارير وجهه تلعب وتتراقص في قلق . وسأله فوما :

- ما الذي جاء بك الى هنا ؟

- لقد بلغني سلوكك ال ... سيىء .. فقلت أحضر ، لأرى مقدار الخسائر .. بما أنني أشبه الناس بأحد أقاربك ... بل القريب الوحيد الذي لك !

ـ لقد كان يجب ألا تبالى . أسمع أيها السيد الوالد ، اعمل حاجة من اثنتين ... اما أن تتركنى وشأنى نهائيا .. أو خذ أنت العمل كله .. بحذافيره ـ الى آخر روبل !

ولقد دهش فوما ـ بقدر ما دهش ماياكين ، أن يسمع نفسه يقول هذا الكلام ... انها فكرة لم تخطر بباله من قبـل ، الا انه بمجرد أن قالها شعر أن ماياكين اذا قبل أن يقيله من جميع أملاكه أمكن أن يكون حرا ..وأمكن أن يذهب الىأى مكان يحب أن يذهب ،مهماكان هذا المكان . لقد كان مكبلا على الدوام ، وان لم يعلم ماذا كان يكبله ويغل نفسه ، ولا كيف يتخلص من قيوده وأغلاله ... والآن ... ها هى ذى تلك الاغلال ، تسقط عنه من نفسها ... تسقط عنه بمنتهى البساطة ، وبلا ألم مطلقا . لقد أشرق فى قلبه شعاع من الأمل . وملأه هذا بالبهجة والجيشان ، وبدا يتمتم فى هدوء بهذا الحديث السائب المتقطع :

ـ قد يكون هذا أحسن ... تأخذ كل شىء ، وتدفع ثمنه ونكون متخالصين . أذهب حيث أشاء .. انى لا يمكننى أن أصل حياتى على هذا النحو ... كأننى مقيد الأيدى مغلول الرجلين .. أريد أن أكون حرا ... أريد أن أعرف حقائق الأشياء ... أشق طريقى بنفسى .. إننى .. كما أنا الآن .. من أنا وماذا ؟.. سجين !.. خذ كل شىء .. الى الجحيم بها جميعا .. لن أكون تاجرا أبدا ... انى أكره الأعمال التجارية كلها . فاذا أخذتها ... فسأنطلق الى مكان ما ـ وسأجد لنفسى عملا ما أقوم به . أما اذا استمر الحال على هذا المنوال فلن أكف عن الشرب ... وهأنذا ، قد قيدت نفسى بتلك المرأة .

وكان ماياكين ينظر ويسمع بوجه أصلب وأبرد من الحجر الصلد؛ وكان كل الفندق ضجيجا من حولهما ، والناس يجيئون ويروحون وماياكين يقوم وينحنى لهذا ولذاك ، وهو لا يدرى لمن ينحنى ...

لقد كان انتباهه كله مركزا على وجه ابنه الروحي ... ذلك الوجه الذى كان يكتسى ابتسامة سعيدة رقيقة ... شاردة

وزفر ماياكين أخيرا ، ثم قال :

— يا لك من عيل صغير بائخ ! لقد فقدت صوابك وأفلتت صواميل عقلك كلها ! ما هذا الكلام الفارغ ! أريد أن أعرف : هل هذا من أثر الكونياك ، أو من أثر ضعف اعترى قواك العقلية ؟

وقال فوما محتجا :

— أيها السيد الوالد ... لست أنا أول من يصنع ذلك ... لقد صنعه كثيرون قبلى ... كانوا يتركون كل شىء ، ويتجردون من كل شىء ... ثم يذهبون الى حال سبيلهم !

ويجيبه ماياكين بلهجة قاسية :

— لم يحدث هذا .. ولم أعرفه فى حياتى ! .. ولو قد حدث ... لأريتهم !

— بل كثيرون جدا تجردوا مما يملكون وأصبحوا نساكا !

— لم يكن يمكن أن يفعلوا ذلك لو أنهم كانوا قد قابلونى لأناقشهم هذا الأمر ! ولكن ... فيم أحاول التحدث اليك حديثا جديا ؟ به !

ويقول فوما مستاء :

— ولكن .. لم لا يا سيدى الوالد !

— اسمع : اذا كنت كناس مداخن ... فتسلق الأسطح ، وخيبة الله عليك ! واذا كنت من رجال المطافىء فعليك أن تصعد الى قمة البرج ! ان لكل صنف من الناس صنفا من الحياة خاصا به ... ولا يعقل أن تزأر العجول كما تزأر السباع ... فكن لما ولدت أن

كون ... ولا تنظر بعين الحسد الى بساتين الآخرين ... عش
حياتك الخاصة بطريقتك الخاصة .

وكان هذا الكلام الرزين الممتلىء حكمة ، والذى طالما سمع فوما
الكثير منه ، يندفع فى سيل متدفق من تلك الفجوة المظلمة التى هى
فم الرجل العجوز ... ولكن .. لا .. لقد كان فوما عما قال
الرجل فى صمم .. لقد كان مستغرقا فى أحلام الانطلاق والتحرر
التى بدا تحقيقها الآن قاب قوسين أو أدنى . انها كانت تستولى
على لبه استيلاء تاما . وأصبح قلبه ثابتا لا يتزعزع في تصميمه على
الخلاص من تلك الحياة الكئيبة العكرة التى يحياها ، وعلى الخلاص
من كل مقومات تلك الحياة أيضا ... من اشبينه ، ومن المراكب
والصنادل ، ومن حياة القصف والتهتك ... ومن كل ما يجعل
الحياة بهذا القدر من الكآبة والضيق والاختناق .

لقد كان صوت الرجل يصل الى أذنى فوما كأنه آت من بعيد ..
بعيد .. ثم يختلط بأصوات قرقعة الأطباق ، وجمجمة السكارى ،
ووقع أقدام الخدم على أرضية الصالة .

ثم قال ماياكين وهو يضرب المائدة بيديه :

ـ لقد دخل كل هذا الكلام الفارغ الى رأسك لأنك ممتلىء امتلاء
شديدا بالنزوات الشابة الطائشة ... ان طيشك وتهورك خرق
وسوء فهم .. وأفكارك لا قيمة لها ... قل لى .. ما رأيك فى أن
... أن تذهب الى دير ؟

وكان فوما يصغى ، ولا يعلق . وكانت الأصوات فى الفندق
تخف وتتلاشى قليلا قليلا ... وكان يخيل اليه أنه فى وسط كتلة
متطاحنة من البشر ، برزت أعينهم خارج رؤوسهم ، وجعلوا ، لأسباب
غير معروفة ، يصيحون ويتدافعون ويقعون ويتزاحمون ... دون
أن يذهبوا الى أى مكان . وقد ساءه عجزه عن فهم ما يريدون أو

الثقة بما يقولون ... وكان يتمنى لو يستطيع أن ينفلت منهم وأن يقف ليلاحظهم من بعد ... فلو قد أمكن هذا لكان من المؤكد أن يستطيع فهم ما كان يجري ، وأن يجد لنفسه مكانا بينهم

وقال ماياكين بصوت أكثر ليونة لما رأى من حيرة فوما وشرود ذهنه :

- مفهوم . انك تريد أن تجد السعادة ... ولكن هذا ليس أمرا هينا . فالبحث عن السعادة أشبه بالبحث عن نبتة عش الغراب وسط غابة بأكملها ... والبحث عنها يتطلب منك قصم ظهرك . وعندما تظن أنك قد وجدتها فقد تتكشف عن أنها لا شيء ! لا شيء أكثر من خيبة أمل !

ويرفع فوما رأسه ويقول بلهجة تجعل ماياكين يحول عنه وجهه اتقاء عينيه المتقدتين :

- عال ! هل يمكنك أن تعطيني حريتي ؟ أعطني متنفسا أتنفس فيه . أعطني فرصة أتخلص فيها من كل شيء انني اذا استطعت يوما أن أنظر الى الأشياء وأنا خارج عنها فلعلني ... أما اذا ظللت غارقا فيها على هذا النحو .فلا حيلة لى الا التداوى بالشراب حتى الموت !

ويصيح به ماياكين غاضبا :

- كف عن هذا الكلام الفارغ ... وكن رجلا معقولا .

فيرد عليه فوما هذا الرد الهادىء :

- عظيم .. فأنت لن تستجيب لطلبى .. اذن .. انتهى كل شيء .. وسأقذف للريح بكل شيء . ولم يعد ثم ما يقوله أحدنا للآخر .. أنت .. وأنا ؛ وداعا . وسيجرى كل شيء على مايرام هذه المرة - وسترى : كيف تأتى النار على كل شيء حتى لا تدع الا رمادا ؟

لقـد كان فوما ثابتا رابط الجأش قوى الصـوت ، واثقا من أن ابنه لن يستطيع أن يقف فى سبيل ما استقر رأيه على تنفيذه. الا أن ماياكين هب واقفا ، وراح يقول له بصوت ليس أقل قوة من صوته :

- وهل تعرف الاجراءات التى يمكننى أن أقوم بها ؟

ويلوح فوما بيده قائلا :

- اعمل ما شئت !

- حسن ! واليك ما سوف أعمل : سـأعود الى المدينـة حالا ، وسأعمل مايلزم الحجر عليك ووضعك فى مستشفى للمجاذيب !

ويقول فوما بصوت تشوبه الريبة ، وقد أخذه شيء من الخوف

- وهل هذا ممكن ؟

- كل شيء ممكن ما دمت أنا الذى سأعمله .. يا صغيرى الشاب!

وسرت الرعدة فى جسم فوما ، وراح يحدث نفسه قائلا :

- انه يستطيع أن يفعل هذا ... انه قاس لا يرحم !

- اذا كنت جادا فى أن ترتكب حماقة المجانين هذه، فسوف أتخذ الاجراءات التي تحول بينك وبين هذا . لقد عاهدت أباك على ملازمتك حتى تقف على رجليك ... وأنا مصمم على أن أفى بذلك العهد ... فاذا لم تشأ أن تقف فسأربطك داخل مشاية من حديد تجعلك تقف جيدا ... انى أعرف أن هذا الذى أصابك ناشيء من كثرة ادمانك الشرب ... لكننى اذا رأيتك تبعثر أموال أبيك التى طالما شـقى فى جمعها ، وذلك لمجرد اللهو والسرف ، فسـأعرف شغلى معك . سأدخلك الشق ... وأنا رجل متعب لا يستطيع أحـد أن يضحك على ذقنه .. يا صغيرى !

وعند هذا تجمعت غضون خديه وكراميشهما تحت عينيه اللتين كانتا تبسمان في برود وسخرية وهما يبصبصان من هاتين النقرتين القاتمتين ، وقد صنعت الخطوط التى فى جبهته رسما غريبا فى قاعدة جمجمته الصلعاء ، وأخذ وجهه طابعا صارما خاليا من الرحمة .

وسأله فوما واليأس مستول على نفسه :

ـ وبعبارة أخرى .. لا مفر ولا مهرب من ذلك كله ... وأنت تقطع على كل طريق من طرق الخلاص !

ـ أمامك طريق واحد ، فعليك به ، وسأريك السبيل اليه . وسينتهى بك الى بر السلامة

وكانت وداعة الرجل ، وكبرياؤه التى لا تقهر قد أثارتا ثائره فوما وبلغتا به درجة الجنون .. فما كان منه الا أن دفع بيديه فى جيوب معطفه اشفاقا من أن يرسلهما في وجه الرجل ، ثم اعتدل فى مقعده ، وراح ينفخ كما تنفخ الأفاعى قائلا :

ـ ليت شعرى ما الذى يجعلك فخورا مختالا هكذا ؟ ماذا عندك مما يفخر به ويزهى ؟ ابنك ؟ أين هو ؟ ابنتك ؟ ماذا صنعت منها ؟ لله ما أظرفك وأنت تعلم النـاس كيف يعيشون ! رجل ذكى .. تعرف كل شىء ! قل لى : ما هدفك الذى تعيش من أجله ؟ ألا تنتظر أن تموت ؟ وأى شىء فعلته كان يستحق أن تفعله ؟ وبماذا سوف يذكرك الناس ؟ .

وارتعشت أسارير ماياكين ، ثم .. انهارت ، بحيث بدا وجهه كئيبا كسيفا محزنا ... وفتح فاه .. ولكن الكلام خانه .. فلم يفه بشىء ... ولم يملك الا أن يجلس مكانه مأخوذا مشدوها ... ينظر الى ابنه الروحى فى ذهول ... وفى خوف أيضا ، لكنه استطاع أن يقول أخيرا :

ـ اخرس ٠٠ أيها الجرو !

ونهض فوما ٠٠٠ ونثر الكاب على رأسه ، ووقف يحدق فى الرحى بغض :

ـ انى أتحداك ٠٠ وسأكون معك في نزال ٠٠٠ وسأنفق كل ما ملكت يدى ٠

ـ عال جدا ٠٠ وسنرى ماذا تكون النتيجة ؟

وقال فوما مستهزئا :

ـ وداعا ٠٠ أيها النا ٠٠ صح الحكيم !

ويجيبه مایاکين بصوت ناعم ٠٠ وكأنه مقطوع النفس :

ـ والى أن نلتقى مرة أخرى !

★ ★ ★

وجلس ياكوف مایاكين وحيدا فريدا في الفندق ٠٠ وقد ظل حالسا الى مائدته يرسم بأصابعه المرتعشة رسوما غريبة فى بضع حبات من الجويدار كانت منثورة على صينية ٠٠٠ وكان رأسه المنتصب لا يني يميل ويميل ، كأنما كان يحاول أن يستشف معنى ما رسم من تلك الرسوم على الصينية ، بأصابعه التى كانت جلدا على عظم ٠٠٠

وكانت قطرات من العرق قد وقفت على جلدة رأسه الأصلع ، وتجاعيد خديه ترقص كعادتها فى قلق واضطراب

وأخيرا نادى الخادم ، وسأله وهو حزين مهتاج :

ـ كم حسابك ؟

الفصل العاشر

لقد كان يوما قبل شجاره هذا مع ماياكين يشرب الخمر لا حبا فيها ، ولكن لما كان يشعر به من انقباض وسأم وكراهية للحياة . أما الآن فهو يقبل على شربها كأنه ينتقم لنفسه من شيء ، يشربها بدافع من النقمة والقنوط ، وكأنه يتحدى الناس جميعا ، وفي بعض الأحيان كان هذا التحدى يذهله هو نفسه . لقد كان يخيل له أن أهل الوقار من الناس ، أولئك الذين لا يذوقون الخمر ولا يسمحون لها بأن تذهب برشدهم ، هم حمقى ومجانين .. سيئو البخت ... أما السكارى .. فكانوا أهل ثورة وتمرد ، وأشد حماقة وجنونا من الآخرين . انه لم يكن يجد ما يحببه فى أى واحد من رفاقه .. بل لم يكن يعنى بالسؤال حتى عن أسمائهم ، وسرعان ما كان ينسى الوقت الذى عرفهم فيه والمكان الذى لقيهم فيه ، وكان يجد ما يغريه على الدوام بتحقيرهم والزراية بهم . وكان يحيط به فى المطاعم الغالية ذات النمط الحديث أهل الفن والنظامون والمشعوذون والممثلون ووجهاء الريف المفلسون الذين بددوا ثرواتهم فى الحياة السائبة المستهترة . وكان هؤلاء أول ما يلقونه يتظاهرون بمظهر الدعاية له ، وأنهم حماته المخلصون . وكانوا لا ينفكون يفخرون أمامه بحسن تذوقهم للخمور وواسع المامهم بصنوفها وخبرتهم الواسعة بألوان المطاعم والمشارب ، ثم لا يلبثون بعد ذلك أن يظهروا أمامه بمظهر الاذلاء .. الغلابة ! فيقترضوا منه النقود التى يقترضها هو بدوره بموجب سندات ممهورة بامضائه . وأخذ الحلاقون والمهرة فى لعب البليارد ، والموظفون الكتابيون والمغنون يحومون

حوله كما تحوم جوارح الطير حول الجيفة ، وذلك عندما يغشى المشارب الوضيعة والخمارات . وكان يشعر في وجوده بينهم بالغبطة ، ومن ثم كان يأنس اليهم أكثر مما يأنس الى غيرهم . وكانوا فى نظره أقل فسادا وأيسر فهما .. انهم لم يكونوا ألغازا كسائر الناس ، وكانوا فى بعض الاحيان يظهرون من العواطف القوية السليمة ما لم يكن يصدر عن غيرهم ، وكانوا على الدوام يتسمون بقدر أوفى من الانسانية ... الا أنهم لم يكونوا يقلون عن « السادة المحترمين » ، شراهة الى المال وصفاقة فى الحصول عليه . وطالما كان يشتد فى سخريته بهم من أجل هذا

وكان ممن يحومون حوله طائفة من النساء بالطبع . وكان فوما ، لفحولته وسلامة بنيته ، يؤوى النساء من كل صنف ، الرخيصات منهن والغاليات .. الجميلات والقبيحات . وكان يهدى اليهن المبالغ الكبيرة من المال .. وكان يبدلهن غالبا كل أسبوع كما يبدل الانسان حذاءه .. الا أنه كان يحترمهن اجمالا أكثر مما يحترم الرجال . وكان يسخر منهن أحيانا ويوجه اليهن الالفاظ النابية المزرية ، غير أنه لم يكن يستطيع قط — حتى فى أحوال السكر الشديد — التغلب على ذلك الخجل الذى كان يعتريه فى حضرتهن . وكان يشعر بأنهن جميعا ، حتى أقلهن حياء واحتشاما ، كن عاجزات لا يملكن الدفاع عن أنفسهن كالأطفال تماما . ولم يكن فوما وهو هذا الفتى المستعد باستمرار لاثارة الشجار مع أي رجل ، ليرفع يده على امرأة ، وان لم ير بأسا فى توجيه أشنع الشتائم الى من تهيىء له سببا لذلك ، لقد كان يشعر أنه أقوى بما لايقاس من أية امرأة ، وأعظم حظا أيضا . وكانت المرأة التى تباهى بفجورها وتتهالك على الاثم والفسق تغثى نفسه ، وتملؤه بالضيق والشعور بالعار فى مصاحبتها . وقد ضربته امرأة شبه مخمورة من هذا الصنف ذات ليلة بقشرة شمامة على خده وهما على مائدة العشاء ، فامتقع لونه ، وما كان منه الا أن

وقف وقد وضع يديه فى جيوبه ، وقال لها بلهجة شديدة ، وصوت يرتجف غضبا :

ـ هيا .. اخرجى من هنا يا كلبة ... لو كان أحد غيرى لحطم رأسك من جراء تلك الفعلة ... ولكنك تعرفين أن مثلى لا يمكن أن يمسك بأذى ، ولو بأصبع واحدة من أصابعه ... يا جرسون ... اقذف بها من هنا !

وعندما ذهب هو وساشا الى قازان ، لم تمض أيام حتى تركته ساشا وذهبت لتعيش مع ابن أحد صناع الجعة

وقد قالت لفوما وهى تتركه لتقوم برحلة مع عشيقها الجديد فى نهر كاما :

ـ وداعا يا حبيبى ... ولعلنا نلتقى يوما ما مرة ثانية : وتذكر أننا .. أنا وانت ، مسافران فى الطريق نفسه .. وصيتى ألا ترخى العنان كثيرا لمشاعرك ... بل متع نفسك بالموجود ، ودون أن تلقى بالك الى شىء ... وعندما يفرغ الطبق .. كسره ... وداعا ! »

ثم طبعت على شفتيه قبلة طويلة عنيفة ... وعندما تركته كانت عيناها أشد سوادا من كل عهد مضى !

وكان فوما سعيدا بهذا الفراق ... لقد ملها وزهد فيها ... وكانت قلة مبالاتها ترعبه وتثير الفزع فى نفسه ... ومع هذا ، فقد شعر فى تلك اللحظة بوخزة من الالم والأسف ... ثم ولى عنها وهو يتمتم :

ـ اذا لم تلقى حظك معه .. فعودى الى !

وكان جوابها على ذلك كلمة الشكر المعتادة ، قالتها وهى تضحك ضحكة خشنة وقحة .. لم يعتد أن يسمعها منها من قبل

وهكذا .. جعل فوما يعيش من يوم ليوم آخر ، وهو يرصع لبان الامل المداعب ، الذى يغازله بالهرب من معمعان الحيـاة الى هامشها ... الى ما وراء الدوامة ... بعيدا عن العاصفة . لقد كان اذا خلا الى نفسه فى الليل ، يغمض عينيه تماما ، ثم يخيل له أنه يرى فى رحابها حشدا من الناس وكأنهم فى فوهة بركان ضخم ممتلئة بالحمم والتـراب وهم يدورون حـــول أنفسهم كما يدور الحب فى نقرة الطاحونة . وكأنما تحت أرجلهم حجر كهذا الحجر . وهو يطحنهم طحنا ، وهم يرتفعون ثم يسقطون موجة بعد موجة ، وبعضهم يحاول أن يسبق الآخرين الى النقرة لكى يطحنه الحجـــر قبل اخوانه ، ويقضى عليه قضاء مبرما وبأسرع ما يمكن .. على حين كان البعض الآخر يحاول أن يبقى بعيدا ... فوق القمه !.. ليفلت من ذاك الحجر الذى لا يرحم .

وكان يخيل لفوما أنه يتبين وسط هؤلاء البائسين بعض الوجوه التى له بها عهد ... لقد كان يتبين وجه أبيه وهو يدفع غيره دفعا، وبوجه ضاحك ... بل بصوت مقهقه ... ثم اذا هو يتعثر ويختفى تحت أقدام القوم ، وكان بينهم كذلك وجه اشبينه وهو ينفلت كما ينفلت الثعبـــــان ، ويتواثب على أكتافهم ، وينسرب بين أرجلهم ، ويرقص جميع عضـلات جسمه النحيل الهزيل ... وكانت فيهم ليوبا وقد طفقت تصيح وتصرخ وتكافح ... تثب الى أمام مرة ، ثم تنفلت الى خلف مرة أخرى ، وهى فى كل ذلك تحاول الامساك بأبيها حتى لا يغوص فى نقرة الطـاحونة ، أما بيلاجيـا فقد كانت تتحرك بسرعة فى جهة واحدة ، وأما صوفيا بافلوفنا فكانت تقف وذراعاها مرتخيتان فى ترهل الى جانبيها ، تماما كما كانت واقفة فى صالونها آخر مرة لقيها فيهـــا فوما ، وكانت عيناها العظيمتان ممتلئتين ذعرا . وكانت ساشا ... تلك الجريئة الرابطة الجأش ، كانت تشق طريقها وسط الجمع شقا ، غير ملتفتة الى ما حولها من تدافع ، وهى تتفرس فى القوم بعينيها الصافيتين السوداوين ..

وكان فوما يستمع الى صراخهـم وضحكهم وهتافاتهم المخمـور ومحاوراتهم ٠٠ وكانت الاغانى وعبارات الندبة والنواح تأتى محلقة فوق هذا الجمع المضطرم من الأبدان البشرية المحبوس فى النقرة الزاحف هنا وهنا ، يعصر بعضه بعضا ، ويثب بعضه على أكتاف بعض ، متعثرين متخبطين كالعميان ، متشاجرين ٠٠ متساقطين ٠ ثم غائبين عن الابصار ٠ ثم سمع حفيفا وخشخشة كأن أوراقا من البنكنوت تتطاير كالخفافيش فوق رءوس القوم الذين يتلقفونهـا بشراهة ٠ وسمع أيضا رنين الذهب والفضة وقرقعة زجاجات الخمر وفتح فليناتها ونشيج السكارى ، وتلك النغمات الحزينة التى كان يمتزج بها صوت احدى النساء وهى تغنى تلك الأغنية :

يا حبيبى لا تفكـر فى غد الا غـدا
دعه يندب نفسـه ، فالغـد غيب
وهلم اليـوم ٠٠ نوسـعه سرورا
وحبـورا ٠٠ انه حب وقـرب

ولم يستطع فوما لنفسه فكاكا من تلك الرؤيا التى كانت تزداد تألقا وتزداد عظما كل مرة تداعب عينيه بمناظرها ، والتى كانت تثير مشاعر مختلطة تنقذف فى دوامتها كما تنقذف مسـايل الماء فى النهر الكبير ، مشاعر من الخوف والسخط والرثاء والغضب ، كانت تغلى وتضطرم فى صدره الى أن تتحول ، فتكون رغبة كبيرة ، تكاد من عظمها تخنقه ، فينبثق الدمع فى عينيه ، ويحس رغبة فى الصياح والعواء كما يعوى الذئب ليخيف الناس ٠٠٠ أما هذه الرغبة فهو أن يضع حدا لذلك الهرج الذى لا جدوى فيـه ، وأن يضيف هو شيئا الى الاضطراب ٠٠٠ أن ينطق بكلمات ذات معنى ، يرسـلها بصوت عال ٠٠٠ وأن يجعل كل هؤلاء الناس يسيرون فى جهـة واحـدة ، بدلا من اختـلاطهم وتدافعهم هكذا بلا نسـق وفى غير نظام ، لقد كان يحس بالرغبة فى أن يمسك بهم ليفصل بعضهم عن

بعض ، وأن يجلد بعضهم ، ويربت على ظهر بعض ٠٠ وأن هؤلاء وهؤلاء جميعا ، وأن يلقى ضوء بعض نار عظيمة عليهم ٠

لكنه كان صفر اليدين – لا كلام عنده ولا نار – لا شيء ٠٠ الا الرغبة ٠٠ يلمسها ويحسها ٠٠ ولكن لا يستطيع تحقيقها ٠٠ لقد رأى نفسه واقفا خارج النقرة التى كان الناس يطحنون داخلها ٠٠٠ واقفا فى ثبات وتصميم ٠٠ ولكن ٠٠ فى صمت وبكم ٠ لقد كان فى مقدوره طبعا أن يهتف بهؤلاء القوم :

– أيها الناس ٠٠ ما هذه الحياة التى تحيونهـــا ؟ ألا تخجلون ؟ ولكن ماذا تكون الحال اذا سمعوه ، فقالوا : « ولكن أى نوع من الحياة ترى أنت أن نحياها ؟ » لقد كان يعرف تمام المعرفة أنهم لو سألوه هذا السؤال لأمكن أن ينهار من هذه الذروة التى يقف فيها لتطأه أقدامهم ، وليطحن بين الحجرين اللذين لا يرحمان ٠ وان النـــاس سيضحكون ولا بد حينما يرونه يحيق به الهلاك !

وكان يخيل اليه أحيانا أنه صائر الى الجنون لا محالة من كثرة ما يكب على الشراب ، وكان هذا هو السبب فى تمكين تلك الرؤيا ٠٠ وبالأحرى ، ذلك الرعب ، من عقله ٠ وكان فى مقدوره حينئذ أن يخمده بقوة ارادته ٠ الا أنه فى اللحظة التى كان يخلو فيها الى نفســـه ، ولا يكون السكر متمكنا منه تماما ، كانت نوبة الخرف والهذيان تعاوده فتطحنه طحنا ٠ وكان تشوفه الى الحرية والانطلاق يقوى ويشتد ، الا أنه كان أعجز من أن يحطم عنه قيـــود ثروته وأغلالها ٠

* * *

أما ماياكين ، الذى كان قوما قد أعطاه السلطة القانونيه لاداره أعماله، فلم يكن يدع يوما يمر دون أن يفرض عليه الشعور بمسئولياته عرضا فكان يرسل اليه أصـــحاب الديون ليحصلوا كمبيالاتهم

والمقاولين لامضاء عقود الشحن ، والكتبة لمناقشة لأمور التي تولوا ابرامهـــا بأنفسهم ... وكان هؤلاء يبحثون عنه فى المشـــارب والخمارات لكى يسألوه عما يجب أن يفعلوا ، والنحو الذى يتصرفون بمقتضاه . وكان هو يوجه اليهم نصائحه التى لم يكن فى كثير من الاحيان يوقن وجـه الصـــحة فيها . وكان هو يلاحظ مايتلقون به هذه النصائح من التشاؤم والشك فى جدواها . كما كان يلاحظ أنهم ، بدلا من أن يتصرفوا كما أشار عليهم ، كانوا يتصرفون بوحى من أنفسهم ، حيث يكون التصرف أفضـــل وأحسن مما كان يرى هو . وكان يعلم أن اشبينه كان وراء هذا كله ... وأن هذه كانت خطة ماياكين التى رسمها ، والتى حرص فيها على القاء عبء المسئوليات على كاهله عسى أن يعيده الى الجادة ، والطريق السوى المستقيم الذى اختاره هو له .

وكان فوما يدرك كل الادراك أنه لم يكن الرأس المدبر لأعماله فى حقيقة الأمر ، بل انه لم يكن الا مجرد ملحق من ملحقاته ، وشخصية ثانوية فيه ، بل شخصية لا أهميـــة لها أيضا . وكان ضيقه بهـــذه الحال يضاعف من شعور الكراهية للرجل العجوز ، ويزيده شـــوقا الى يوم الخلاص من ربقة أعماله ... حتى لو كان فى الخلاص منها خرابه . ومن ثم راح يبعثر الأموال بمعدل فظيع فى المشارب وبيوت الفجـــور ... الا أن ذلك لم يستمر طويلا : فقـــد أقفل ماياكين حساباته فى البنك . وأخذ فوما يدرك أن الناس لم يعودوا يسارعون الى تلبية ما يطلب اليهم من القروض كما كان من شأنهم معه من قبل .

وكانت هذه ضربة لكبريائه ، الا أن الضربة الحقيقية ، الضربة التى أذهلته وأطارت صوابه ، حاقت به عندما بلغه ما كان يشيعه عنه اشبينه من الشائعات عن جنونه ، وما كان يلمح به من ضرورة تعيين وصى شرعى يكون صاحب القوامة عليه . ولم يكن فوما يعلم

الى أي حد يستطيع اشبينيه أن يمضي في ذلك ، ومن هنا فقد نردد في أن يستشير أحدا في هذا الموضوع ٠

وكان يؤمن بأن ماياكين شخصية ذات أهميـــــة كبيرة في عالم التجارة تستطيع القيام بما تشاء ٠ وقد أذهلته أول الامر يد اشبينه الباطشة ، الا أنه سرعان ما اعتادها ، فسار في طريق شـــهواته ، لا يلذه الا الاختلاط بمن كان يهوى الاختلاط بهم ٠

وكان لا ينفك يزداد ايمانا بأن البطانة التي حـــوله من أولئك الناس كانت أخبث منه وأشد دنسا ، وأنهم انما يحيون حياة تافهة فارغة لا معنى لها ولا هدف ٠ انهم لم يكونوا سادة الحياة والمتحكمين فيها ، بل لم يكونوا الا مجرد تبع ، ومجرد مداهنـين ـ ولا دليل ـ ٠٠ تلقى بهم الحياة الى ما تشاء ، وتعصف بهم كما تشاء ٠

وهكذا ظل سادرا في حياته تلك ، كأنما كان يعبر مستنقعا نكدا يهدده في كل خطوة بأن يبتلعه وحله ، على حين كان اشبينه يلتف حوله كما تلتف ســاق من سيقان العنب ، نام في أرض جافة صلبة ٠٠ فهو لا يني يرمقه من بعد بعين حذرة متيقظة ٠

* * *

ذهب ماياكين ، بعد مشاجرته مع فوما ، الى منزله مقطبا عابس الوجه مستغرقا في التفكير ٠ وكانت عيناه تكتسيان بلمعة جافة ، وهو يشد نفسه شدا فكان أشبه بسمط متوتر وقفت حباته حبة فوق حبة ٠ وكانت أخاديد وجهه أشد عمقا ، وكأنما ازدادت سحنته نقبضا وظلاما ، حتى لقد حسبته ليوبا مريضا بمرض خطير ولا بد ٠٠٠ اذ كان يدق الأرض بقدميه في عنف وشدة ، ويوجه اليهـــا ردودا جافة خشنة على أسئلتها ٠٠ ثم يصيح بها أخيرا :

ـ اغربي عن وجهي ٠٠ دعيني وحدي ٠٠ فليس عندي وقت لك !

وقد ثارت في قلبها مشاعر الحنان لما كانت تراه من سيماء التعس في عينيه الخضراوين . وعندما جلس ليتناول غداءه لم تملك أن ذهبت اليه حيث وضعت كفيها على كتفيه ، وسألته وهي تنظر اليه في حنان وعطف :

- أتشعر بشيء يا أبي ؟

انها ندر ما كانت تبدي له شيئا من أمارات العطف والمحبة ، فاذا حدث أن أبدت من عطفها شيئا ، كان ذلك يهز قلبه هزا ... وكان هذا يلذه منها ، وان لم يكن يحفل قط بأن يبادلها عطفا بعطف ... أما هذه المرة فقد نثر يديها بعيدا عن كتفيه ثم قال :

- تعالي تعالي .. اجلسي .. قولي لي .. ما الذي يربكك هكذا ؟

لكنها لم تجلس ، بل ظلت واقفة حيث هي ، محدقة في وجهه .. ثم شرعت تقول له في احساس جريح :

- لماذا يا أبي تخاطبني دائما بهذه اللهجة ، كأنني طفلة أو فتاة غبية ؟

- بل لأنك كبيرة ولا ذكاء عندك ... هذا هو السبب ... فاجلسي وتناولي غداءك .

وجلست في الكرسي المقابل له في صمت ، وقد زمت شفتيها .. ومضى وقت طويل والرجل يمد يده الى طعامه ... بل كان يحملق في حسائه وينقر المائدة بملعقته ، وهو ذاهل شارد اللب ... الى أن قال فجأة ، وهو يتنهد :

- آه لو كان رأسك الفارغ المهوش هذا يستطيع أن يفهم أفكار والدك !

ورمت ليوبا ملعقتها ، ثم أجابته وهي توشك أن تبكي

ـ لماذا تتعمد دائما أن تجرح مشاعرى يا أبى ؟ ألا تستطيع ن نلمس ما أنا فيه من وحشة ؟ ليس يخفى أنك تفهم مقــدار ما فى حياتى على هذا الاسلوب من قسوة . ومع هذا ، فأنت لا تعطينى يقا حلوا مطلقا ... ولكن .. ما الفائدة ؟.. فحياتك مثل حياتى مقفرة موحشة ... ومن الصعب عليك أن ...

وقاطعها بقوله وهو يضحك ضحكة خفيفة باهته :

ـ تنهقين كحمار بلعام ... هيه ... وماذا تريدين أن تقولى أيضا ؟

ـ انك شديد الزهو والفخر بذكائك .

ـ وماذا أيضا ؟

ـ يجب ألا تكون مزهوا فخورا .. ثم لماذا تظل تصدمنى هكذا .. مع علمك أنه ليس لى أحد سواك فى هذه الحياة ؟

ثم فاضت عيناها بالدموع .. فذهل الرجل ، ونظر اليها بعينين مذعورتين ، وهو يقول :

ـ آه لو لم تكونى بنتنا .. أو لو كان لك عقل مثل عقل .. مارفا بوسادنستا .. اذن لسخرت بالدنيا وما فيها ياليوبا ! .. يفــوما بكل شخص سواه .. تعالى .. عيب .. لا تبكى ..

وتسأله وهى تمسح دموعها :

ـ وماذا يصنع فوما ؟

ـ يحرن .. كما يحرن الحصــان .. ويقمص ويرفس .. انه قول لى : خذ كل ما أملك ودعنى حرا . يريد أن يجد الخلاص فى اخور ! فهذا هو الذى يداعب خيال فوما !

ـ ولكن .. لماذا ؟

- لماذا ! ٠٠ هـــذا : اما من أثر الخمر ٠٠ أو ٠٠ كان الله فى عونه ، وراثة عن أمه - الكارثة القديمة نفسها ٠٠ وهو اذا أصر على هذا الجنـــون فسوف أحاربه بأسنانى وأظافرى ٠٠ لقد أعلنها حـــربا مكشوفة بينى وبينه ٠٠ هذا المنفوخ المتكبر ٠٠ المتغطرس ٠٠ الا أنه شاب حدث ٠٠ ولا ينطوى على شىء من خبث أو دهاء ٠٠ انه يقول انه سوف يأتى عـــلى كل ما يملك ! أوه ٠٠ انه يستطيع ؟ أليس كذلك ؟ والله لأرينه !

ويرسل ماياكين قبضته فى الهواء مهددا ، ويصل كلامه فيقول :

- كيف تجرؤ على ذلك ؟ من الذى أنشأ هذه الاعمال ؟ أنت ؟ كلا ! انه أبوك ! لقد كدح فى سبيلها أربعين سنة من عمره ، وتأتى أنت فتحاول قذفها الى الريح ! لقد كان من دأبنـــا نحن التجار أن نسافر معا فى البرية فى صفوف ، أحدنا خلف الآخـــر ، ونحن نتسلق القمم ونهبط الأودية ٠٠ ولا ننفك نمضى قدما حتى نبلغ مقاصدنا ٠٠ اننا نحن التجار وأصحاب الدكاكين ٠٠ نحن الذين حملنا روسيا على أكتافنا جيلا بعد جيل ٠٠ ولا نزال نحملها الى اليوم ٠٠

لقد كان بطرس الأكبر رجلا آتاه الله الحكمـــة ؛ فهو الذى عرف قيمتنا ، فماذا فعل لمعاونتنا ؟ لقد طبع لنا الكتب التى تعلمنا عملنا لقد حصلت على كتاب من تلك الكتب التى طبعها ٠٠ كتاب من تأليف بوليدور فرجيل أوربنسكى عن المخترعين ، طبع سنة ١٧٢٠ م ألقى بالك الى هذا ، لقد أعطانا بداية ٠٠ وها نحن أولاء قد وقفنا على أرجلنا ، الا اننا نريد أن نمضى قدما دون أن يعوقنا عائق ٠ لقـــد أرسينا أسس الحياة ، ووضعنا أرواحنا نفسها فى الأرض مع الحجار ٠٠ وقد آن أن نبنى الآن طبقات البناء طبقة بعد طبقة ٠ وكان لابد لنا من الحرية للقيام بهذا العمل ، فهذا اذن هو خط سير العمل الذى

كان علينا أن نتبعه ـ وهذا هو العمل الذى أمامنا ٠٠ ولكن فوما لا يرى شيئا من ذلك ٠٠ غير أنه يجب أن يراه ، ويجب أن يستمر فيه ٠ ان تحت يديه ثروة أبيه ، وعندما أموت فسوف يحصل على ثروتى أنا أيضا ٠٠ فلماذا لا يمضى فى طريقنا ويضطلع بعبء العمل؟ ولكنه بدلا من أن يفعل ، يشب على رجليه الخلفيتين كالحصان الجامح ٠٠ ويصهل ! ولكن ٠٠ صبرا ٠٠ صبرك أيها التافه الصغير الذى لا قيمة له ! تالله لأردنك الى الجادة ، ولتكن فى مكانك الصحيح !

لقد كان الرجل يضطرم غضبا ، وكانت عيناه تقدحان الشرر ، كأنما كان فوما هو الذى أمامه ، وليست ابنته ليوبا ٠٠ ولشدما انزعجت الفتاة لذلك ٠

ـ لقد مهد لك أبوك الطريق ٠٠ وما عليك الا أن تسلكه ٠٠ وأنا ٠٠ لقد ظللت خمسين سنة وأنا يستعبدنى هذا العمل ٠٠ ولماذا ؟ لأبنائى ! وأين أولئك الأبناء ؟

ثم يتخاذل الرجل وينكس رأسه ٠٠ حتى اذا عاد الى الكلام ، كان كمن يتكلم من أحشائه :

ـ لقد مات أحدهم ٠٠ والثانى سكير عربيد أسلم نفسه للشيطان ٠٠ والثالثة ابنة ٠٠ فمن ذا الذى ينهض بعبء العمل بعد وفاتى ؟ فلو أن لى زوج ابنة ٠٠ الآن ٠٠ أو لو أمكن أن يشبع هذا الأحمق فوما من حماقات الشباب التى هو سادر فيها الآن ، ثم يقر قراره ، ويثوب الى رشـــده لزوجتك اياه ، ثم لأعطيته جميع ما أملك ٠٠ ولكن فوما لا يريد ٠٠ ولست أرى أحدا سواه ٠٠ ان الناس اليوم أصبحوا غيرهم بالأمس ٠٠ لقد كانوا قديما أحسن كثيرا مما هم عليه اليوم ٠٠ فلماذا ؟ ما السبب ؟

ثم نظر الرجل الى ابنته ٠٠ لكنها لم تنبس ! فراح يسألها :

- خبريني يا ليوبا .. ماذا تريدين من الحياة ؟ وما رأيك فيما ينبغي أن تكون حياة الناس ؟ لقد ذهبت الى المدرسة يا ابنتي وقرأت الكثير من الكتب .. فماذا تريدين من الحياة ؟

وقد كانت الطريقة التي وجهت اليها تلك الاسئلة مفاجأة أربكتها ، لكنها مع ذاك شعرت بسرور كبير في أن يسألها أبوها مثل هذه الأسئلة ، وان خشيت أن تجيب عنها مخافة أن تتضعضع مكانتها في نظره .. ومع ذاك فقد استجمعت كل قوتها ، وكأنما كان المطلوب منها أن تثب فوق المائدة ، ثم قالت بصوت مرتجف حائر :

- أريد أن يحيا كل انسان سعيدا .. مستكفيا .. وأن يكون الناس جميعا على قدم المساواة .. ان كل انسان يحتاج الى الحرية بقدر ما يحتاج الى الهواء ، ولابد من المساواة في كل شيء .

وما كان من العجوز الا أن قال لها في بطء وازدراء :

- تماما كما هو رأيي فيك دائما .. مغفلة لا رجاء فيها !

وتخاذلت ليوبا .. وتفككت مفاصلها ، الا أنها لم تلبث أن مالت برأسها الى وراء وراحت تحتج قائلة :

- انك أنت نفسك قلت ان الحرية ...

- اخرسي ! انك أعجز من أن ترى حتى ما هو مكتوب على أنف كل مخلوق ! كيف يمكن أن يكون الناس جميعا سعداء ومتساوين وكل منهم يكافح لكي يكون على رأس الجميع وفي مقدمتهم كلهم ؟ ان الشحاذ نفسه له كبرياؤه ، ولا يعدم ما يفخر به على زملائه ! بل ان أصغر طفل يحاول جاهدا أن يبذ أقرانه فيما يمارسون من ألعاب .. ولن يمكنك مطلقا أن تجعلي الناس يقرون بالهزيمة بعضهم لبعض .. والمغفلون فقط هم الذين يظنون أن هذا في امكانك . ان لكل انسان ذاتا يحبها ويحرص عليها ، وليس في الناس من يسمح لك

بأن تنحتيه وفقا للأنموذج نفسه الا أولئك الذين تجردوا من حبهم لذواتهم ·· يا غلبانة ! لقد قرأت كثيرا ·· وبلعت من كل أنواع النفايات ! ··

وكانت عينا العجوز الداهية تغصان بنظرات التـــوبيخ المرة ، والزراية الجافة ·· ثم اذا هو يدفع كرسيه الى وراء ، ويهب واقفا ، ويشرع فى ذرع الغرفة الى أمام والى وراء فى خفة وبسرعة ، وهو يهز رأسه ويجمجم فى نفسه بكلمات متشنجة ·· أما ليـــوبا التى امتقع وجهها خجلا وارتباكا ، واستولى عليها شعور كئيب بعجزها وغبائها فلم تك تملك الا أن تصغى الى ما يجمجم به من كلام بقلب خفق مضطرب ·

ـ رباه ·· لقد تخلى عنى الجميع ·· وأصبحت مثل عبدك أيوب ·· فماذا عساى أن أصنع يا الهى ! ·· ان لم أكن ذكيا مجتهدا ، فمن غيرى يكون الذكى المجتهد ؟ وان لم أكن البارع اللوذعى الواسع الحيلة ·· فمن غيرى يا ترى ؟

ورق قلب الفتاة لأبيها ، وأحست برغبة ملحة فى مد يد المساعدة له فى حاله تلك ·· فى أن يحتاج اليها · وكانت ترقب كل حركة من حركاته بعينين مشتعلتين ·· وأخـــيرا قالت له : وبصـــوت منخفض :

ـ لا تبتئس الى هذا الحد يا أبى ·· وعلى كل ·· فتاراس لا يزال حيا ·· ولعله ··

وتوقف ماياكين بغتة ، كأنما تلقى ضربة ، ثم رفع رأسه ببطء وقال :

ـ اذا اعوجت الشجرة وهى لا تزال صغيرة ، فكيف يصلح حالها اذا كبرت ؟ ·· ومع هذا ·· فصحيح أن تاراس قد يكون قشـــة

وبما تعلقت بها ساعة الغرق ، وان لم يكد يكون خيرا من فوما -
ان فوما له شخصيته على الأقل ، وقد ورث عن أبيه جراءته وجسارة
قلبه . وفى امكانه أن يصنع العظائم لو عنى بذلك .. أما .. تاراس
.. تاراس .. فلقد أحسنت صنعا بتذكيرك لى اياه !

وأخذ الرجل الذى كان قبل لحظات يذرع الحجرة كأنه السنجاب المحبوس فى قفص ، يمشى الآن ببطء وهدوء نحو المنضدة ، ثم اذا هو يعدل كرسيه فى وقار ، ويجلس عليه . وشرع يقول وقد بدا الجد على وجهه :

ـ لابد من محاولة معرفة شيء عن أحوال تاراس .. انه يعيش فى مدينة يوسوليه فى مصنع هناك .. وقد أخبرنى بذلك بعض التجار . مصنع صودا على ما يظهر ـ لابد من معرفة شيء ما عن أحواله . لابد ..

وسألته ليوبا بصوت ناعم ، وهى ترتجف حياء وفرحا :

ـ بابا .. أتأذن لى فى أن أكتب اليه خطابا ؟

ويجيبها وهو يحدجها بنظرة خاطفة :

ـ أنت ؟

ثم يقول بعد لحظة من التروى :

ـ لعل هذا يكون أحسن .. هيا .. اذهبى واكتبى اليه الآن . اسأليه : هل تزوج ؟ وكيف يعيش ، وما مطامحه .. ولكن .. أقول لك .. سأخبرك عما تكتبين اليه عندما يحين أوان ذلك ..

ـ لنكتب اليه فى الحال يا أبى !

ـ بل الذى يجب أن يتم فى الحال هو زواجك . وأنا أفكر لك

فى ولد طيب ذى رأس أحمر ، ولد عظيم على ما يبـــدو ـ ذى مزاج أورباوى وهندام أوروباوى !

وتسأله ليوبا فى تلهف :

ـ أيمكن أن يكون سمولين يا أبى ؟

ـ عال ٠٠ وماذا كان هو ؟

وتجيبه ليوبا وكأنها لا ترتبط بشىء :

ـ لا شىء ٠٠ أنا لا أعرفه !

ـ ستعرفينه ٠٠ لقد آن الأوان ، ليوبا ٠٠ لقد آن الأوان ٠٠ اننا لايمكن أن نتكل على قومنا ، وان لم أقصد أن أدعه وشأنه ٠

ـ وأنا لم أكن أتكل عليه ٠٠ ولا أفكر فيه

ـ واأسفاه ! لو أنك أوليته شيئا من العطف ورقة الاحساس ، فربما لم يكن ليضل هذا الضلال ٠٠ اننى عندما كنت أراكما فى خلوة كنت أقول لنفسى : ان الولد سوف ينشىء بيتا لصغيرتى ليوبا ٠٠ ولكن ٠٠ لقد خاب فألى !!

وشرد ذهن ليوبا عندما كانت تصغى الى والدها ٠٠ لقد كانت فتاة قوية صحيحة البنية ٠٠ وكانت تكثر من التفكير فى الزواج فى الأيام الأخيرة بوصفه المخرج الوحيد مما تشعر به من وحشة ٠ لقد كانت تفكر فى ترك أبيها والانطلاق من أسره كى تدرس وتعمل ، لكنها أقلعت عن هذه الرغبة منذ زمن طويل ، كما أقلعت عن رغبات كثيرة مثلها من الرغبات التى تقرب أن تكون نزوات طارئة ٠ وكانت الكتب الكثيرة التى قرأتها قد تركت فى نفسها رواسب عكرة لم يكن فيها شىء من الحياة الا بمقدار ما فى البروتوبلازمة منها ٠ رواسب جعلتها تعزف عن الحياة أو تغثى بها ، وتحن الى الانطلاق والحـــرية

والاستقلال بنفسها ، والفكاك من هيمنة أبيها ، الا أنها مع ذلك لم تنته بها الى هذا التحرر بالفعل ، بل لم تدلها على طريق هذا التحرر . وفي الوقت نفسه كانت الطبيعة تسير فى طريقها ، فكانت ليوبا كلما شهدت الأمهات الصغيرات وعلى أيديهن أطفالهن ، امتلأت بالحسد ، وخامرها الحنين الى أن تصبح مثلهن . وكانت ربما وقفت أمام المرآة أحيانا ، وأنشأت تنظر الى وجهها النضر الصغير الذى أخذت تبدو حول عينيه تلك الخطوط الداكنة ، وعندئذ كانت الحسرة تسرى الى نفسها .. لقد كانت الحياة تمر بها مرورا وهى تسرى فى طريقها ، وكأنها تدفع بها عن موكبها . والآن .. وهى جالسة تنصت الى أبيها .. راحت تحاول أن تتخيل سمولين هذا .. ترى ! ماذا يكون ؟ ومن ذا يكون ؟ .. ان آخر عهدها به اذ هو طالب فى المدرسة الثانوية .. وكان اذ ذاك فتى ثقيل الظل ، أفطس الأنف يكسو وجهه النمش ، لا يجيد الرقص ولا يستطيب رفقته أحد .. بالرغم من أناقته ورقة سلوكه . الا أن هذا كله قد مضى عليه زمن طويل .. وقد سافر الى الخارج ، وظل يدرس ثم منذ ذلك .. فياترى ؟ ماذا يكون من أمره اليوم ؟ .. ثم قفزت أفكارها من سمولين الى أخيها تاراس .. وأخذت الهواجس تنتابها عما عسى أن يرد به على خطابها اليه .. لقد كان هذا الأخ ، كما صوره لها خيالها أهم لديها بما لا يقاس من كل من أبيها ومن سمولين .. وكانت تحدث نفسها فى تلك اللحظة بالذات بأنها لن توافق على الزواج حتى ترى تاراس .. عندما هتف بها أبوها فأيقظها من شرودها وهو يقول :

- اصحى .. ليوبا .. بم تحلمين ؟!

- أوه ! اننى لم أكن أفكر الا فى السرعة العجيبة التى تمر بها !

- وما ذاك الذى يمر ؟

ـ الاشياء جميعا ٠٠ لقد خطر على الأسبوع الماضى أن أذكر اسم تاراس ٠٠ والآن ٠٠

ـ ان الحاجة هى التى تدفعنى الى ذلك دفعا ٠٠ الحاجة قوة عظيمة يا ابنتى ٠ انها تستطيع أن تثنى الصلب نفسه فتجعله أطوع من الزنبلك ٠٠ والصلب قوى متين ! تاراس ؟ سنرى ! ان الإنسان يدل على قيمته بمقدار ما يبدى من المقاومة للحياة ، فاذا ثناها لارادته، بدلا من أن ينثنى هولها ٠٠ فهذا هو الانسان فى نظرى ٠٠ الجدير باعجابى ٠ واأسفاه ! لشد ما يحزننى أننى بلغت من الكبر عتيا هكذا ! ان الأمور تجرى على عجل هذه الأيام ٠٠ وبسرعة عجيبة وكلما مضى عام زادت الحياة حلاوة ، وصارت أظرف طعما ، لما فيها من مشيهات وبهارات ! ما أعظم ما أتمنى أن أعيش وأعيش ، لأقوم بجلائل الأعمال ! ومصمص الرجل بشفتيه ، ثم دعك يديه بعضهما ببعض ، وتلألأت عيناه ، وقال :

ـ ولكنكم أنتم أيها الشباب الغض ٠٠ ان الدماء تجرى فى عروقكم دماء رقيقة مترفة ٠٠ انكم تعطبون قبل أن تنضجوا ، وسرعان ماتذبلون وتكونون كالفجلة البائتة ٠ وأنتم لا تستطيعون حتى أن تروا كيف تطيب الحياة وتحلو ٠ لقد عشت على هذه الأرض طوال سبعة وستين عاما ٠٠ وهأنذا ، وأنا أقف على حافة القبر ، الاحظ أن الدنيا ممتلئة بالورود والأزهار أكثر مما كانت الحال فى شبابى، وأن عدد الفقراء اليوم ودرجة فقرهم شىء لا يذكر ، بالقياس الىماكان الفقر والفقراء فى أيامنا الخوالى ٠٠ ان كل شىء يزداد حسنا هذه الأيام ٠٠ وما عليك الا أن تنظرى الى هذه المبانى الرشيقة التى ترتفع الى عنان السماء والى الأدوات ٠٠ أدوات التجارة ٠٠ والى السفن ! والى العقول التى انصبت فيها حتى أنتجتها ! انها تجعلك تريدين أن تقولى وأنت تنظرين اليها : مبروك عليكم ، أيها الناس ، مبروك عليكم !٠٠ ان كل شىء جيد ولطيف ، وكل شىء يجلب السرور

الى النفس ، كل شيء ٠٠ ماعدا أبناءنا وورثينا ، أولئك الذين حرموا أى شرارة من الحياة فى قلوبهم ٠ ان أحقر مشعوذ من بين صفوف الطبقة العاملة فيه روح أكثر مما فى شبابنا هذا الخرع المنخوب !

واليك مثلا هذا ال ٠٠ ما اسمه ؟ ٠٠ آه ٠٠ الشـــاب ييزهوف ٠٠ ولد لا هنا ولا هناك ٠٠ ولكنه من الصفاقة والتلامة بما يجعله قاضيا على الدنيا بأسرها ! ولد لديه من الشجاعة ما يجعله يتصرف بحسب ما يرى ، دون أن يخشى أحدا ٠ أما أنتم فوا أسفاه ! انكم تحيون كالشحاذين ٠٠ ان الأولى بكم أن تسلخوا أحياء وينثر الملح على لحكومكم ، فهذا هو الذى يمكن أن يجعلكم تقفون باعتدال ٠٠ وفى غير عوج ! »

وارتجف ياكوف ماياكين ــ هذا الرجل القمىء ، المكرمش ، الجلد على عظم ، الأصلع ، ذو اللطخ السوداء على أسنانه وفمه ، ذو الجلد القاتم الذى كأنما قدد فى فرن الحياة ، ارتجف ياكوف ماياكين هذا وسرت الرعدة فى جسمه وهو يصب كلماته المؤذية المهلكة هذه على رأس ابنته الغضة البضة الحسناء التى نظرت اليه فى توجس كأنما جنى جناية ، ثم ابتسمت ابتسامة هيابة خجولا ٠٠ وشعرت بما يجول فى أعماق قلبها من مشاعر الاحترام لهذا الرجل العجوز أبيها ٠٠ الذى كان يجرى وراء ما يهدف اليه بمثل هذا التصميم العنيد الشرس !

★ ★ ★

لم يقلع فوما عن حياة اللهو والعبث

وبينما كان يدخل مطعما مألوفا من مطاعم المدينة وجد من يعانقه عناقا حارا كله مرح وكله ايناس ٠٠ ولم يلبث أن فطن الى الذى يعانقه ٠٠ انه هو بعينه ابن صانع الجعة ٠٠ الفتى الذى صبت اليه ساشا وسافرت معه ٠ والذى يقول لفوما :

ـ يا للمفاجأة ! لقد مضت على أيام ثلاثة فى هذه المدينة والوحدة تذيبنى وتضنينى ، دون أن ألقى فتى محتشما آنس اليه ، حتى لم أجد بدا من مصاحبة نفر من رجال الصحافة لما يئست من وجود غيرهم . وعلى كل .. لقد كانت شلة لا بأس بها .. لقد تشامخوا على أول الأمر ، وكانوا ينظرون الى من طرف أنوفهم .. ثم لم يلبثوا ان تهافتوا على كالذباب لما أغرقتهم فيه من الشراب .. انتظر .. سأقدمك الى أحدهم ، واحد ممن يدبجون المقالات الهامة الجذابة ، لصحفى الذى كتب عنك ، ما اسمه يا ترى ؟ شخص ظريف مسل .. عفريت يلهفه !

لكن فوما راح يسـألـه ، وقد أذهلته شيئا ما تصريحات ذلـك الشاب الطويل الذى يرفع الكلفة على هذه الصـورة ، والذى كان يلبس تلك الملابس البراقة المبهرجة :

ـ وكيف ساشا ؟

ويجيبه وهو يرقص وجهه ساخرا :

ـ أخ !.. ساشا ، صاحبتك هذه فتاة .. غير مليحة ، فتـاة تكتنفها الاسرار والظلمات .. كئيبة جـدا .. باردة كالسمكة .. قد تركتها ..

وسأله فوما وهو مستغرق فى التفكير :

ـ باردة !

ويجيبه ابن صانع الجعة بأسلوب محكم مقتضب :

ـ أى شىء يقوم الانسـان بعمله ، فلابد أن يعمله عـلى أحسن الوجوه .. فمثلا .. اذا وافقت على أن تكون خليلة لشخص ما .. فلابد أن تقوم بالواجب عليك نحوه ، هذا اذا كنت امرأة أمينة حقا! على فكرة .. ما رأيك فى شىء من الفودكا ؟

وشربا ·· حتى غابا عن صوابهما ··

وفى هذه الليلة اجتمع خلق كثير صاخب فى الحان ، وقد خاطبهم فوما بصوت ثمل غليظ ، وهو فى شبه كابوس مزعج :

ـ هذا هو رأيى فى الناس·· آه ! بعضـــهم ديدان ·· وبعضهم عصافير ·· العصافير هم التجار ·· وهم يأكلون الديدان ·· هذا هو عملهم · وذلك هدفهم ·· ولكن ·· أنا ·· وأنتم ·· ما عملنا ما هدفنا !·· لا عذر لنا ·· ولا أحد يريدنا ·· وهؤلاء الآخرون ·· وكل شخص غيرهم ·· ما الغرض من وجودهم ·· هذا موضوع جـــدير بالتفكير · من يريدنى ؟ لا أحـــد يريدنى · اقتلونى ·· اقتلونى يا ناس ! أريد أن أموت !

ثم بكى ·· وسكب الدموع مدرارا · وجاء اليه رجل فكه صغير الجسم أسمر البشرة ، ثم انحنى فوقه وأسر فى اذنه بكلمـــة ، ثم رمى بنفسه فوق صدره ، وصاح وهو يدق المائدة بسكين فى يده :

ـ سكوتا ! الناس الطيبون هم أصحاب الكلمة الآن ! أفيال هذه «القاعة» و«مامو ناتها» لهم الكلمة الآن · استمعوا الى الكلمات الظاهرة الصادرة عن الضمير الروسى الطيب · تكلم يا جورديبيف ، واجهر بكلامك ·· اجهر بكل ما فيك من قوة ··

ثم قبض على كتف فوما ، وارتمى على صدره ثانية ، حيث ظل رأسه المستدير الأسود الحليق ملقى يتلوى ويتقلب تحت أنف فوما الذى لم يكن يستطيع أن يرى وجه هذا المخمور الثمل ، حتى ضاق به ، ودفعه عنه دفعة قوية وهو يقول :

تعال هنا ! مائة روبل فى الشهر ، وسكن ، وأكل ! ما شاء الله الى الجحيم بالورقة ! أنا أدفع أكثر من ذلك ·

لقد كان كل شىء يهتـــز ويتمايل فى حـــركات متزنة · وكان

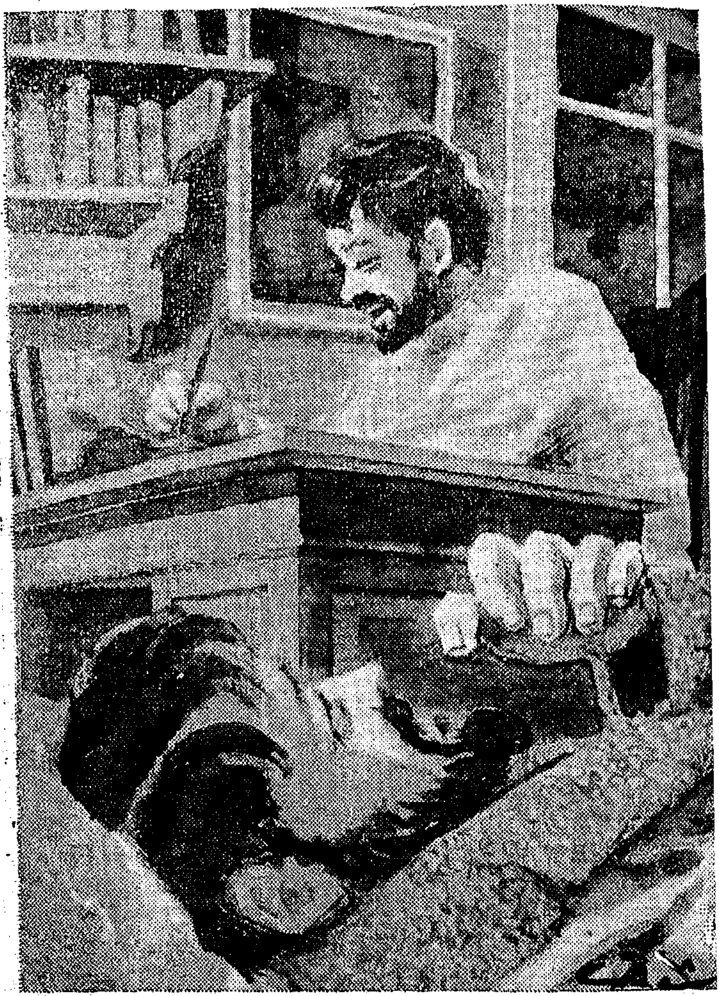

واستطاع فوما بجهد أن يرفع رأسه من فوق الوسادة ليرى
الرجل جالسا عند الدرج يكتب فى نشاط

الجمهور يرتد الى الوراء مـــرة ، ثم يتقدم الى الامام مرة أخـرى ، والأرضية ترتفع ، والسقف يهبط ، ويخيل لفوما أنه لا تكاد تمضى لحظة حتى ينحصر بينهما فيتحطم تحطيما ٠٠ ثم يخيل اليه بعد هذا أنه كان راكبا فى زورق يجرفه نهر سريع الجـــريان ، وأنه يكافح كفاحا شديدا وقد وقف مضطربا صائحا :

ـ الى أين نحن ذاهبون ؟ أين الربان ؟

وتجيبه أصوات ضحكات ثملة مجلجلة ٠٠ ومعها صوت الرجل الاسمر الصغير الجسم المبحوح الأجش :

ـ صحيح ٠٠ أو ٠٠ أين الربان ؟

واستيقظ فوما من كابوسه المزعج ليجد نفسه فى حجرة صغيرة ذات نافذتين ، وكان أول شيء وقع بصره عليه شجرة تمس احدى النافذتين من الخارج ، ذات ساق ضخمة ، منتفخة اللحاء ، تمنــع الضوء من النفاذ الى داخل الحجرة ، وكانت أغصانها الخاليـــة من الورق ، السوداء اللون ، الملتوية كالثعابين ، تتسكع فى الفضاء ، وتصفر صفيرا محزنا كلما هبت الريح ٠ وكان المطـــر يتساقط ، وسيول منه تنهمر على زجاج النافذتين ، ويمكن سماعها من فوق السطح وهى تنسكب على الارض ، محدثة صوتا باكيا ٠٠ أضف الى هذا كله صوتا متقطعا لقلم يخربش على الورق ، تصحبه نوبات من غمغمة وتمتمة ٠

واستطاع فوما بجهد أن يرفع رأسه من فـــــوق الوسادة ليرى الرجل جالسا عند الدرج يكتب فى نشاط ، مبديا موافقته من حين الى حين ، وهو يلوى رأسه من جانب الى جانب ، ويحرك كتفيـــه حركات مضحكة ، بل يحـــرك كل عظام جســــمه وجميع عضلاته باستمرار ، كأنه جالس على جمر متقد لا يستطيع لسبب ما أن يقوم من عليه ٠٠ ولم يكن عليه من الملابس شيء الا قميص ولباس ٠ وكان

لا ينسى أن يمسح جبينه بذراعه المعروقة ٠٠ الجلد على عظم ! أو يرسل تخلجات صوتية فى الهواء ، وقدماه العاريتان تتأرجحان الى امام ووراء فتحدثان احتكاكا بالأرض مزعجا ٠ وكانت الاخاديد الرفيعة التى فى قفاه ترتعش ، بل كانت أذناه نفسهما تختلجان ٠ وعندما أدار وجهه رأى فوما شفتيه وهما تهمهمان بلا صوت ، وكلما ضحك كان أنفه الحاد الاشم وشاربه الاشعث يشبـــان وينتفضان ، وكان وجهه شاحبا شديد الصفرة غزير التجاعيد حتى ليحسب النـاظر الى عينيه السوداوين البهيجتين انهما ليستا لهذا الوجه !

وأشاح عنه فوما بعد أن ملأ ناظريه منه وراح يديرهمـــا ببطء فى جوانب الغرفة التى دقت المسامير بكثرة فى جدرانهـا ، حيث علقت مجاميع من الجرائد، محدثة فيها زوائد بشعة أشبه بالخراريخ ٠ وكان الورق الذى غطى به السقف قد أصبح مقببا ، والأجزاء المقببة قد انفجرت ، وأصبح الورق متدليا حول هذه الأجزاء نثائر قذرة ٠ وكانت الأرضـية مبدورة بالملابس والأحذية والـكتب ومزق من الورق ٠٠٠ وعلى العموم لقـد كانت الحجرة تبدو كأنما مر خـلالها اعصار ٠

ثم قذف الرجل القمىء بقلمه على المنضدة ، وانحنى فوقها ،وشرع ينقر بأصابعه فوق حافتها بعصبية ، ثم انطلق يغنى لنفسه بصـوت رفيع مسرسع :

كن جــــرىء القلب ان كنت محبـــــا
واطبـــع القبـــــلة فى ثغــــر الحبيب
فهـــــــو ما أوصى به عـــــلم وفن
وســــنا الحـــــكمة من كل أريب

ثم زفر فوما زفرة عميقة وقال :

ـ لو أمكن أن تأتينى بقدح من الصودا ٠

وانتفض الرجل القمىء ، ودفع بكرســـيه بعيدا ، ثم جلس على حافة سرير فوما ، ثم قال :

ـ آه ! صباح الخير يا صديقى · صودا ؟ بكنياك أو بغير كنياك ؟

ـ يكون أحسن لو كانت بكنياك !

ثم قبض فوما على اليد النحيلة الممتدة اليه وراح يحملق فى وجه الرجل ·

ونادى الرجل وهو يدير وجهه نحو الباب :

ـ ييجودوفنا !

ثم يدير وجهه ثانية نحو فوما ، ويقول :

ـ ألا تتذكر من أنا ، يا فوما اجناتيفتش ؟

ـ فيك ملامح يبدو أن لى سابق عهد بها ··· والظاهر أننا تلاقينا من قبل ·

ـ لقد كنا نلتقى طوال أربع سنين متصلة ··· لكن هذا كان من سنين خلت · ألا تذكر ؟ ييزهوف !

وهتف فوما وهو يتكىء على مرفقيه :

ـ يا الهى ! هل هو أنت حقا ؟

ـ أحيانا أشك فى ذلك أنا نفسى يا صديقى ··· ولكن الشكوك لا تلبث أن تتلاشى أمام شعاعة من الحقيقة ·

ولوى ييزهوف وجهه بطريقة غريبة ، ثم راح يتحسس صدره · وفغر فوما فمه يقول :

ـ يا لله ! انك تبدو كبيرا طاعنا ··· ما سنك ؟

ـ ثلاثون

ـ انك تبدو كأنك فى الخمسين ··· مالك أصفر هزيلا هكذا ؟ يظهر أن الحياة قد قست عليك ؟

وأسف فوما لرؤيته صديق الصبا هذا ، الذى كان يوما ما فتى مرحا رشيقا ، بهذه الحال من الهزال والضنى ، ويعيش فى مثل هذا الجحر ! لقد عبس عبسة حزينة وهو يتفرس فيه ، ويلاحظ اختلاجات وجهه ، ونظرات عينيه السريعة الحادة . وكان يبزهوف مشغولا بفتح زجاجة الصودا فلم يتكلم ، وكان يمسك بها بين ركبتيه ، ويبذل كل ما فى عضلاته من قوة لكى ينزع سدادتها ، وقد أثر عجزه الظاهر عن فتحها فى نفس فوما

وقال فوما متألما :

ـ لقد امتصت الحياة كل ما كان فيك من خير . وكنت يوما ميالا الى التعليم .

وأخيرا أفلح فى فتح الزجاجة ، فقدمها لفوما ثم جلس الى جانبه يلهث ويمسح العرق المتصبب على جبينه ، وقد طار لون وجهه من التعب .

وراح يقول :

ـ دعنا بالله من ذكر التعليم ، فالتعليم شراب مقدس يا صديقى ، الا أنه لما يصلح للاستعمال بعد ، شأنه فى ذلك شأن الخمور التى لم تنضج بعد ... انه الى الآن لا يستطيع أن يجلب السعادة لأهله . وكل انسان يجعل التعليم ملتجأه لا يمكن أن يحصل منه الا على الصداع ... مثلى ومثلك الآن ... وعلى فكرة ، ما الذى يجعلك تشرب كثيرا هكذا ؟

ويضحك فوما ويقول :

ـ وماذا يمكن أن يصنع الانسان غير هذا ؟

وتضيق عينا يبزهوف وهو ينظر الى فوما دهشا :

ـ بمقارنة هذه الملاحظة بالحكمة التى كانت تتدفق من فمك

الليلة الماضية ، أستنتج أن الحياة لم تكن شيئا جميلا بالنسبة اليك أنت كذلك .

وزفر فوما زفرة مسموعة ، ثم نهض من فراشه ، وهو يقول بمرارة :

ـ الحياة ! الحياة مستشفى للمجاذيب ... انى دائما فى غربة .. ولا يفارقنى العجب مطلقا فى سبب هذا كله ... وأنا لا يسرنى شيء قدر ما يسرنى أن أبصق عليها جميعا ، ثم أذهب الى مكان ما .. لا يلقانى فيه أحد ... اننى أحلم بالهرب من كل شيء .. ان الحياة عبء لا أطيقه ، وأنا أنوء به .

ويقول ييزهوف وهو يدعك يديه ، وجسمه كله ينتفض :

ـ عجيب جدا .. ان هذا ان كان صحيحا فانه يكون شيئا عجيبا جدا ، لأنه يؤيد الواقع من أن روح السخط المقدسة قد نفذت الى مخادع الطبقة التجارية ، وأنها قد أخذت تتحرى النفوس الميتة .. نفوس أولئك الذين لا هم لهم الا بطونهم ... الغارقين في الدسم ، وفى بحار من الشاى والمشروبات الاخرى . قص على قصتك يا صديقى .. وسأجعل منها رواية .

ويقول فوما وهو يدرس وجه صديق صباه ، مشدوها من جديد .. ماذا يمكن مثل هذا الحطام البائس أن يكتب ؟

ـ لقد قالوا لى : انك كتبت عنى شيئا ما بالفعل !

ـ فعلا .. هل قرأت ما كتبت عنك ؟

ـ كلا .. فلم أستطع الحصول على نسخة

ـ وماذا قالوا لك ؟

ـ انك قسوت على قسوة شديدة ... مزقت لحمى !

وسأله بيزهوف وهو يحدق نظره فيه :

ـ اهم ·· ألا يسرك أن تقرأه ؟

وأسرع فوما يقول : وقد لاحظ أن عدم مغالاته قد آذت صديقه :

ـ أوه ·· بل لا بد من قراءته ··

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :

ـ ويسرني أنه مكتوب عني ·

وأثارت فيه هذه المواجهة بينه وبين صديق الدراسة مشاعر لطيفة هادئة مصحوبة بذكريات من ذكريات الطفولة التي مرت بذهنه كما تمر الأشعة الضئيلة الخاطفة خلال السنين ·

وذهب بيزهوف الى المائدة التي كانت غلاية الشاي فوقها ،وصب منها كوبين من الشاي الأسود الشديد السواد ، ثم قال :

ـ تعال ·· اشرب الشاي ·· وقص على كل شيء ·

ـ ليس عندي ما أقصه عليك ··· فلقد كنت أحيا حياة فارغة ·· وأنا أفضل أن أسمع منك ؛ فلقد رأيت أنت أكثر مما رأيت أنا ·

وانتابت بيزهوف موجة من التفكير وهو لا يزال يختلج ، ويهز رأسه من جانب الى جانب ··· وكانت عضلات وجهه وحدها هي التي تحتفظ بسكونها على حين كان غارقا في تفكيره ، وان كانت التجاعيد التي حول عينيه لا تنفك تطيف بهما كما تطيف الأشعة ، وكأنما عيناه تغوصان في أغوار الكوتين المقعورتين أسفل جبينه ·

وقال بيزهوف وهو يهز رأسه :

ـ حقا ·· لقد رأيت شيئا أو شيئين يا صديقي ··· وأحسب أنني أعرف أكثر مما يصلح لأمثالي ··· ومعرفة الانسان الشيء

الكثير الزائد عن الحد ... مضرة به ... تماما .. كمعرفته الشيء القليل التافه ... وعلى هذا ، فأنت تريد أن أحدثك عن نفسي ! سأحاول . انني لم يسبق أن حدثت أحدا عن نفسي قط ، لأن أحدا لم يسبق أن أظهر لي أي ميل منه الى قط ... وما أبغض العيش في هذه الحياة حين تخلو من صديق ، يضع أقل ما يمكن من ثقته فيك !

ويقول له فوما وقد وثق ثقة تامة بأن هذا الأخ هو أيضا يجد الحياة شيئا ثقيلا :

ـ أستطيع أن ألاحظ من وجهك ، ومن كل شيء آخر فيك ، أنك قاسيت من الحياة ألوانا .

وفرغ يبزهوف من شرب شايه ، ووضع كوبه على الطبق ، ثم رفع قدميه ووضعهما على حافة كرسيه ، ولف ذراعيه حول ركبتيه ، وأسند ذقنه عليهما . وبعد أن اتخذ هذا الوضع الذي كان يبدو فيه من الضآلة والليونة كأنه قطعة من الكاوتشوك ، شرع يقول :

ـ كان من عادة الطالب ساتشكوف، الذي كان يوما ما ولي أمري، وهو الآن دكتور في الطب ، أن يقول لي كلما سمعت دروسي جيدا : مرحى يا كوليا مرحى ! يا كوليا مرحى ! انك شاب ذكي . ان الفقراء أمثالنا ، أولئك الذين جاءوا الى الحياة من بابها الخلفي ، مضطرون الى الدراسة بجد وجلد اذا أرادوا أن يتقدموا كل من عداهم . ان روسيا في مسيس الحاجة الى الأذكياء والأمناء من الرجال ، فاذا قدر لك أن تكون من هؤلاء ، فلسوف يكون في مقدورك التحكم في مستقبلك ، كما تكون عضوا نافعا في المجتمع . ان آمال بلادنا انما تقوم علينا نحن بالذات ، ممن لا ينتمون الى طبقة بعينها ... اننا نحن الذين استنجد بهم الوطن ليشيعوا النور والحق في قلوب الشعب .. الى آخر ما كان يقوله ساتشكوف من أمثال هذا الكلام . وكنت أصدقه ، وأومن بكلامه .. هذا الوغد ! ثم تمضي

عشرون سنة أو نحوها منذ ذلك الوقت . ونكون ، نحن ، الذين لا ننتمي الى طبقة بعينها ، قد كبرنا ... الا أن أحدا مع ذاك لم يكد يشعر بنا ، ولا بما فينا من بدوات الذكاء ... ولم نشع شيئا من النور فى هذا الظلام المحيق ببلادنا ... وروسيا لا تزال تقاسى الأمرين من علتها المزمنة ، هذا الفيض الزائد عن الحد من الشباب الأوغاد السفلة ، والناس الذين من صنفنا ليسوا على استعداد لأى شيء ، الا لينفخوا أوداجهم .

ان ولى أمرى السابق ، هــذا الوغد ، واسمح لى بأن أقولها مرة ثانية ، ان هو الا رجل مداهن ذليل ، نكرة ، يصنع دائما ما يأمره المحافظ أن يصنع . ثم أنا ... من أنا ؟ اننى لست أكثر من بهلوان .. مشعوذ فى خدمة المجتمع . لقد حصلت على قدر من الشهرة ليس بالقليل فى تلك المدينة ... وعندما أمشى فى أى شارع من شوارعها أرى سائقى العربات يلكز بعضهم بعضا ويقولون : خذ بالك .. ها هو ذا بيزهوف .. لقد أحدث دويا مرعبا هذا الشيطان اللعين ، فحتى شهرة مثل هذه ، لا بد من الكفاح للحصول عليها ، يا صديقى : أفليس هذا بلاء !

ثم اختلجت عضلات وجهه ، وراح يضحك ضحكا مكتوما ، لا يعدو حدود شفتيه . ولم يفهم فوما مما قاله بيزهوف شيئا ... الا أنه ، لعلمه أن صاحبه ينتظر منه كلمة يقولها ولو مجاملة ... قد أطلق لسانه بأول ماجال فى ذهنه :

ــ وعلى هذا فانك لم تصل الى الهدف الذى كنت قد رسمته لنفسك ؟

ــ أبدا ... لقد كنت أحسب أننى سوف أصبح رجلا أكثر أهمية يوما ما . وقد كان من الممكن أن أكون !

وقال بيزهوف عبارته الأخيرة متعجبا ، ثم قفز من كرسيه

واقفا ، وراح يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، ومضى يتكلم بصوته المجلجل وهو يقول :

- ولكن لا بد للانسان من مصادر ضخمة اذا أراد أن يحتفظ لنفسه بالسلامة والحيوية الكاملة • وقد كانت لى هذه المصادر • فلقد كنت ذكيا ، وقابلا للتكيف بحسب الظروف والأوضاع ••• الا أننى استنفدت جميع هذه المصادر فى تعليم لم تكن لى به اليه حاجة • لقد نهبنا أنفسنا ، أنا وكثيرون ممن على شاكلتى لنقيم مدخرا كنا نظن أننا سنسحب منه ما نشاء فى المستقبل • وبأمل أن أرفع من قيمة نفسى عملت كل ما من شأنه أن يجعلنى تافها حقير الشأن ، فتصور هذا ! لقد ظللت ستة أعوام تباعا أعلم حفنة من الأطفال حروفهم الأبجدية ،وكنت أبلع الاهانات التى كان «باباتهم» و «ماماتهم» ، يصبونها أكواما فوق رأسى ••• ولم أكن أحتمل هذا كله الا لكى أستطيع أن أقيم أودى فى أثناء دراستى • وكنت أجد من الوقت ما أكسب فيه خبزى وملحى ، لكننى لم أكن أجد منه متسعا لأكسب أحذيتى وأكسيتى ••• ومن ثم فقد قدمت التماسا الى احدى جمعيات البر رجاء اقراضى سلفة • وآه يا صديقى لو درت جمعيات البر هذه مقدار ما تقتل من روح الانسان وتهدر من كرامته فى سبيل الابقاء على بدنه ! وآه لو درت أن كل روبل تعطيه اياه من أجل خبزه يحتوى على تسعة وتسعين كوبكا من السم الذى يقضى على روحه وكرامته ! وآه لو أمكن أن تنشق صدورهم مما تثير فيهم ألوان نشاطهم الخيرية والانسانية من عوامل الزهو والكبرياء ! انه ليس على ظهر الأرض مخلوق كريه تعافه النفس كرجل يعطى الصدقات ! ولا مخلوق أكثر تعسا من رجل يأخذ هذه الصدقات !

وكان بيزهوف لا يزال يذرع أرض الغرفة كالذى به مس، وكانت الأوراق المنتشرة على الأرض تحدث حفيفا وتمزقا ثم تتطاير من تحت قدميه ، وكان يصر بأسنانه ، ويلوى عنقه ، ويرخى ذراعيه

كأنهما جناحان مهيضان . وكان احساسان يتنازعان نفس فوما وهو يصغى اليه ... لقد كان يرثى له ويعطف عليه .. الا أنه كان يلذه ما يراه من منظر شقوته وبلائه .

ثم انبثق من صدر ييزهوف صوت صرير أشبه بصوت رافعة لم تغمس في الزيت ، وهو يقول :

- لقد سمموني باسم الشفقة الانسانية ، ثم جروا على الخراب حينما جعلوني على استعداد قاتل لتقبل القليل التافة ، انتظارا للكثير الجم . وهو هذا الاستعداد الذى تراه فى كل فقير يريد أن يرفع رأسه فى هذا العالم .. آه يا صديقى ! ان الذين يموتون لعدم تقدير مواهبهم ومقدراتهم لأكثر عددا من الذين يموتون بالسل !

وأحسب أن هذا هو السبب فى أن الرجال الذين كان الواجب أن يكونوا قادة الشعب يصبحون من رجال البوليس السرى .

ويتحمس فوما .. ويرسل يده فى الهواء قائلا :

- الى الشيطان بهم جميعا ... أكمل قصتك .. أكمل .

- قصتي !

ويقف ييزهوف فى وسط الحجرة ضاربا بيده على صدره ، ثم يقول :

- اليك يا صديقى هذه القصة ، القصة بحذافيرها . لقد أنجزت كل ما كان فى وسعى أن أنجزه . لقد ارتفعت الى منصب المهرج العام ! الهلفوت الأعظم ! وليس فى امكانى أن أرقى الى ما هو أعلى !

وقاطعه فوما قائلا :

- لحظة من فضلك .. خبرنى أرجوك : ماذا يستطيع الانسان أن يصنع لكى يعيش فى أمان ، أعنى لكى يكون قانعا راضيا عن حياته :

- أن تحيا حياة عاصفة ... وأن تخشى القناعة خشيتك من الطاعون ؟

ولم يكن لهذه الكلمات أى معنى فى نظر فوما ... انها لم تثر أى احساس فى قلبه ، ولا أية أفكار فى عقله .

- ان الانسان يجب دائما أن يجاهد فى سبيل شىء فوق مستطاعه ، لأن الحاجه فى طلبه يخلق منه رجلا أعظم مما هو .

وكانت لهجة بيزهوف قد صارت أكثر هدوءا الآن بسبب توقفه عن التحدث عن نفسه ، ومن ثم كان صوته ثابتا مستقرا مقنعا ، ووجهه مقطبا رزينا . وكان يقف فى وسط الحجرة وهو يومىء باحدى يديه ، ويتكلم كأنه يقرأ من كتاب :

- ان الشخص القانع بحاله ان هو الا خراج قتال فى جسم المجتمع ، انه يتخم نفسه بحقائق تافهة لا يعتد بها ، ويسر من الحكمة الآسنة ، ويكون أشبه بالسندرة ، أو مخزن المهملات الذى تحتفظ فيه ربة الدار الشحيحة بكل أنواع النفايات التى لن تستعملها ، لا هى ، ولا أحد غيرها . وأنت اذا اقتربت من مثل هذا الانسان .. اذا فتحت الباب الذى يؤدى الى دخيلة نفسه ، وجدت نفسك وقد غمرتك منه أبخرة الفساد وروائح العفن ، ان سيلا من النتن ينتشر منه فى الهواء الذى تستنشقه . وهذه المخلوقات التعسة هم الذين نسميهم رجالا أقوياء .. رجالا ذوى مبادىء وذوى عقيدة . ولا يهتم أحد مطلقا بأن يلاحظ أن عقائدهم هذه ، ومبادئهم تلك ، ان هى الا مجرد أكسية يسترون بها أرواحهم العارية . ان اللفظتين الاعتدال والدعة لفظتان مكتوبتان فوق جباههم بأحرف براقة . ويالهما من لفظتين زائفتين ! وتستطيع أن تمسح هاتين اللفظتين بيد قوية لترى مكانهما : ضيق الفهم والغباوة !

ويصيح بيزهوف فى فزع وغضب :

ـ ما أكثر من لقيت من أمثال هؤلاء ! انهم أشبه بالدكاكين التى تتجر فى ألف صنف ! من قطران ... وأقماع سكر ... ومهلك صراصير .. وحبال قلوع ، كل شىء ... الا الأشـــياء الطازجة الصحية التى لا غناء عنهـــا : انك تأتى اليهم بقلب مثقل ، ونفس أرهقتها الوحشة ، متعطشا الى كلمة تشجيع ، فلا يقدمون اليك الا أفكارا فاترة مسروقة من الكتب ، ثم لاكتها الأفواه بعد ذلك حتى أصبحت رذلة ممجوجة .وهذه الأفكار الممجوجة أفكار تافهة لا يعتد بها لدرجة أنهـــا تفتقر الى مقدار كبير من الـكلمات البراقة والجمل الطنانة للتعبير عنها وموارة سوءاتها . وأنا حينما أسمع مثل هذا الانسان يتكلم لا أملك الا أن أقول لنفسى : ها هو ذا حصان معلوف علفا طيبا ، معتنى به عناية عظيمة ، مزدان بالجلاجل والأجراس فى كل مكان ، ولا عمل له الا جر عربة الزبالة من المدينة ، ولا يمكن أن يسره شىء آخر غير هذا العمل ... ذلك الحيوان المسكين !

ويقول فوما :

ـ انهم أيضا ناس سطحيون .

ويقف ييزهوف فى مواجهته ويقول متهكما :

ـ انهم ليسوا سطحيين ، ان همهم من الحياة هو أن يكونوا مثالا لما لا يمكن أن يتصوره العقل . واذا أردت الحق قلت : ان مكانهم الصحيح هو متحف تشريح ، حيث تعرض جميع صور الشـــذوذ والانحرافات عن مألوف الطبيعة . ليس فى الطبيعة ما هو سـطحى يا صديقى ... حتى أنا ، لى مكانى فيها . وليس من الناس من هم سطحيون الا أولئك الذين أبدلوا من قلوبهم الميتة قرحا كبيرة متقيحة ... الا أن هؤلاء أيضا لا يخلون من فائدة ، فائدة ربمــا لا تزيد على امدادى بموضوع أفش فيه غليلى .

وجعل ييزهوف النهار بطوله يلغو ويثرثر ، ويصب النجاسات

على رءوس من يكرههم وتغثى نفسه بهم ، وقد انتقلت عدوى ما كان يبديه من حقد ولدد الى فوما ، فلم يلبث أن عرته انفعالات حماسية هو أيضا .

وقد جاءت أوقات فيما بعــد كانت ثقتــه بييزهوف تضعف وتتزعزع . وفي ذات يوم قال له بصراحة :

ـ هل يمكنك أن تصرح للناس بأقوالك هذه فى مواجهتهم ؟

ـ اننى أصرح لهم بها كلما واتت الفرصة .. بل أنا أصرح لهم بها كل يوم أحد فى الجريدة .. فهل أقرأ لك ما أكتب ؟

وبدون أن ينتظر اجابة فوما تناول حزمة من الصحف معلقة على أحد المسامير ، ثم بدأ يقرأ وهو لا يزال يذرع أرض الحجرة . لقـد كان يدمدم ويجمجم . ويهر كما تهر الكلاب ، ويبدى نواجــذه . وكان بالضبط كجرو شرس صغير ، يشد السلسلة التى ربطوه فيها وهو فى غضب مكبوت ، ولم يكن فوما يعى مما يسمع شيئا ، الا أنه كان مأخوذا بهــذه الجرأة المتهورة التى يبديها صــديقه ، وبسخريته اللاذعة وسخطه المتأجج ، وكان يستمتع بذلك كله ، بقدر ما يستمتع المستحم فى حمام بخارى بطبطبة المدلك .

وكان لا يملك أن يهتف كلما صادفت بعض الجمل استحسانا فى نفسه :

ـ مرحى مرحى ! لله درك ! لقد شويتهم هذه المرة !

وكانت أسماء البارزين من المواطنين والتجار من معارفه تتـكرر مرة بعد أخرى ، وكان بييزهوف يسخر منهم سخرية مكشوفة وفى منتهى الجرأة ، تأتى كلذع الابر تارة ، وفى لهجة من الاحترام الجارح تارة أخرى .

وكان استحسان فوما ، وهذا البريق السعيد فى عينيه يشجعان

بزهوف ، فكان يتمادى فى دمدمته وجمجمته ، فتراه يسقط من
تعب على الفراش ، ولكن ليهب فى الحال ، وليقف أمام فوما ،الذى
ذ يصيح به :

ـ اقرأ ما كتبته عنى اذن !

وجعل يبزهوف يقلب فى أكوام الصحف المتنـاثرة ، ثم اذا هو
نتصب واقفا وقد فرج قدميه أمام فوما الذى كان يبتسم له ، وهو
الس فوق هذا الكرسى الذى تقوضت نجادته

وكان المقال يبدأ بوصف لتلك الحفلة اللاهية•الخليعة فى العوامة
كان فوما يجد لبعض عبـــارات يبزهوف لذعا كلذع البعوض ·
أخذ وجهه يستطيل ، وراح ينكس رأسه ، ويعروه الوجوم ···
م أخذ لذع البعوض يزداد حدة وشدة

ثم قال أخيرا وقد نال منه الغضب والخجل :

ـ ألم يكن الأجدر أن تجعل عباراتك أكثر ليونة وأقل ايجاعا ؟

ان فضح الناس وهتك أستارهم لا يقربك من الله زلفى ! وهب
يه بيزهوف كالكلب المسعور :

ـ صه !·· صبرك !

وراح يكمل قراءته

وعندما فرغ من التدليل فى مقالته على أنه ليس بين جميع الطبقات
ن يمكن أن ينافس التجار فى المشاغبات وحفلات القصف الزائطة،
وقف ليسأل عن السبب فى هذا ··· ثم يجيب عن ذلك فيقرأ :

ـ يبدو لى أن ميلهم هـــذا الى التهالك الشنيع على اللذات ناشيء
ن الافتقار الى الثقافة فضلا عما يتمتعون به من نشاط وفراغ ·

ولا يمكن أن يجادل أحد فى أن تجارنا ، باستثناء عدد قليل منهم ، هم أوفر الناس قوة ، وأنهم فى الوقت نفسه أقل الناس عملا ... فعملهم لا يستنفد من وقتهم الا شطرا يسيرا

وهنا ، يقول فوما مبتهجا ، وهو يضرب المنضدة بيده :

– هاأنت ذا تصيب كبد الحقيقة ... ان هذا كلام لم يتكلم بمثله أحد فى صدقه وحقيقته ... وهاأنذا مثلا ... لى قوة كقوة الثور ، أما عملى .. فعمل يستطيع أن يقوم به عصفور !

ويصل بيزهوف قراءته :

– فكيف ينبغى للتاجر أن يستنفد قوته ونشاطه ؟ ان البورصة لا تستنفد منهما الا قدرا قليلا ، ومن ثم تراه يبعثر مبالغ ضخمة من رأس ماله الجسمانى فى الحانات والمشارب ، وهو خالى الذهن مع أنه كان يمكن أن ينفقه فى وجوه تعود بالخير على المجتمع . انه لم يرتفع فوق مستوى الحيوانات بعد ، وما حياته الا قفص ضيق أشد الضيق بانسان فى مثل قوته وصحته وطبيعته الجارفة . ولانه ليس له ما يشغله من الاهتمامات الثقافية ، تراه ينصرف الى حياة اللهو والفسوق . وحياة اللهو والفسوق التى يحياها تاجر من التجار هى الهذيان الذى يصدر عن الوحش المحبوس فى القفص . وهذا بلا شك أمر محزن وباعث على الرثاء . ولكن .. أوه ! انه ليس أفظع من هذا ولا أشنع الا حينما يطبق هذا الوحش ذكاءه على القوة الوحشية المودعة فيه ، ويبدأ فى استعمالها لتنفيذ مآربه ! ثق أنه لن يكون أقل عنفا ، بل ان أعمال القوة التى يقوم بها عندئذ ستصير أعمالا تاريخية ... وحين ذاك ... نرجو أن يكون الله فى عوننا ... ان كل ما يقوم به عندئذ يكون مصدره الرغبة فى استيلائه على السلطة بكلتا يديه ، ورفع طبقته فوق سائر الطبقات ، وهو لن يعفى أحدا أبدا ولا شيئا مطلقا من استخدامه للوصول الى ذلك .

ويلقى ييزهوف بالصحيفة بعد اذ فرغ من قراءته ، ثم يسأل :

- أعلى حق أنا ؟

ويجيبه فوما :

- أنا لم أفهم النهاية ... لكنك على حق فى أنه سوف يقبض على مقاليد السلطان .

ثم شرع فوما فى غمرة من الثقة والايمان يشرح لييزهوف آراءه فى الحياة وفى الناس ، ويصف له حيرته الأخلاقية . ولما انتهى قذف بنفسه على الفراش ... ولاذ بالصمت .

ويتمتم ييزهوف :

- اهم ... اذن فهذا هو المأزق الذى انتهيت اليه !.. انه لمأزق عجيب . وما رأيك فى الكتب ؟ هل تقرأ ؟

- كلا ... لست أحب القراءة ... ولم أقرأ كتابا فى حياتى .

- وهذا هو السبب فى عدم حبك القراءة ... لأنك لم تقرأ قط .

- انى أشعر بالرهبة من القراءة ... ولقد رأيت ماذا كانت نتيجة القراءة فى شخص أعرفه وبالأحرى .. فتاة ... لقد فعلت القراءة بها شرا مما تفعله الخمر بالناس . ثم ماذا تفيد القراءة ؟ ان الأشياء التى تقرؤها ان هى الا أشياء مفتعلة . ولست أجادل فى أنها ممتعة . الا أن الذى يظن أن الكتب قد تعلمه كيف يعيش هو شخص مجنون ... ثم .. لا تنس أن الناس ، لا الله ، هم الذين يكتبون هذه الكتب ... وماذا يستطيع الناس أن يضعوا لأنفسهم من القواعد والقوانين ؟

- وما قولك فى الأناجيل ؟ ألم يكتبها أناس ؟

ـ بلى .. لكنهم كانوا رسلا ... وليس بيننا رسل اليوم .

ـ هذا حق ... الجواب الصحيح ! ليس بيننا رسل اليوم . ليس بينا الا يهوذات خونة ! ويهوذات خائبون مع ذاك !

ولشد ما كان فوما مسرورا بحسن اصغاء ييزهوف اليه . وكان يبدو عليه وهو يتكلم أنه يزن كل كلمـــة يقولها . وهذا شيء لم يصنعه أحد معه من قبل . وقد كان شيئا مشجعا أن يصرح فوما بأفكاره بمثل تلك الصراحة والجرأة ، دون أن يحفل كثيرا بالتعبير والصياغة ، واثقا من أن ييزهوف يستطيع أن يفهم ، لأنه أراد أن يفهمه .

ثم تمضي أيام ... ويقول له ييزهوف مرة بعد حديث جـرى بينهما :

ـ انك لشخص عجيب ... ان التعبير يلتوي عليك أحيانا ... الا أنني أحس أن لك قلبا شجاعا . ولو أنك أوتيت قدرا أكبر من المعرفة بأساليب الحياة ، لاستطعت أن تقول كثيرا ... ولأمكنك أن تجهر به بكل ما في صوتك من قوة ... وهذا شيء لا أشـك فيه .

وزفر فوما زفرة خفيفة ثم قال :

ـ ان الكلام لا يمكن أن يساعد الانسان في تحرير نفسه . لقد كلمتني مرة عن أولئك الناس الذين يتظاهرون بأنهم يعرفون كل شيء ، وأنهم يســـتطيعون أن يفعلوا كل شيء . وأنا أعرف هؤلاء الناس ، وأعرف منهم اشبيني مثلا ... وكم أتمنى لو استطعنا أن نتخذ اجراء ما ضـــدهم ، أن نفضحهم ونشهر بهم ! انهم طغمة شريرة !

ويجيبه ييزهوف في روية وتأمل :

ـ لست أدرى كيف يمكنك أن تعيش ومثل هذا العبء راسخ على قلبك يا فوما ؟

انه هو أيضـا يشرب ٠٠٠ ذلك الرجل القميء الذى تعصف به الحياة وتقسو عليه تلك القسوة البهيمية ٠

واليك كيف كان يقضى يومه :

انه قد يقرأ الصحف المحلية وهو يتناول فطوره ، وفى أثنـاء قراءته يلتقط من المواد ما يلزم كتابة قصـته الفكهة التى يكتبها على المائدة نفسها ٠ ثم يسـارع بعد ذلك الى دار الصحيفة التى يحرر فيها ، حيث يأخذ فى قص جذاذات من الصـحف الواردة من خارج المدينة ليعد منها « مشاهد وصورا من الحياة فى الأقاليم » وفى يوم الجمعة يكتب قصته الفكهة التى تنشر يوم الأحد ٠ ومقابل هذا كله يتسلم راتبا قدره مائة روبل فى الشهر ٠ وكان سريع الانتـاج ويكرس جميع أوقات فراغه « لزيارة ودراسة المنشآت الخيرية » وبالأحرى ، لقد كان هو وفوما يتنقلان من أحـد الأندية ، أو المشارب أو المطاعم ، الى ناد أو حان أو مطعم آخر ٠ وكان كلما غشى شيئا من ذلك راح يجمع المواد لكتاباته ٠٠ تلك الكتابات التى كان يسميها « مكانس لكنس الضمير العام ! » وكان يشير الى رقباء الصحافة فيسميهم « الأوصياء المهيمنين » على توزيع الحقـائق والعدالة ! وكان يسمى الصحف نفسها « القوادات التى ترشـح الشعب للأفكار الخطرة » كما يعرف عمله فى الجريدة فيقول : انه هو « بيع روحى وضميرى بالقطاعى ! » أو انه « محاولة عاجزة لدس إنفى فى المحافل المقدسة » ٠

وكان من الصعب على فوما أن يدرك : هل كان ييزهوف يمزح أو يجد ؟ ٠ فهو يتكلم فى كل شىء باحسـاس عظيم ، وكانت أحكامه على الأشياء والأشخاص قاسية ، وخالية من الرحمة ٠ وكان فوما

يحب هذا فيه ، الا أنه كان أحيانا يعكس آراءه فى وسط حملة من التشهير المقذع ، ولا يبالى أن يرفض بالحماسة هذه الآراء التى كان يتحمس لها ، جاعلا ذلك كله مزاحا فى مزاح . وكان فوما فى مثل تلك المناسبات يشعر أن بيزهوف انسان لا يستشعر قلبه محبة أى شىء محبة حقيقية ، وأن قلبه خال من أى مثال من تلك المثل التى تتمكن من القلوب ، فتتحكم فى كل ما يفعل أصـــحابها . وكان بيزهوف يتخذ لهجة مختلفة تمام الاختلاف اذا كان الحـديث يدور حول نفسه . وكلما كانت عاطفته فائرة جياشة وهو يتحدث عن نفسه ، عنف عنفا شـديدا خاليا من الرحمة على كل شىء وعلى كل شخص يتحدث عنه . ولم يكن ثابتا على مبدأ واحد تجـــاه فوما وكان يشجعه أحيانا فيقول له محرضا :

ـ كن هداما ... اهدم كل شىء ، واكتســح أمامك كل شىء وبكل ما فيك من قوة ... تذكر أنه ليس شىء هو أثمن من الكائن البشرى . اهتف بأعلى صوتك : الحرية ! الحرية !

الا أن فوما حينما كان يخلو الى نفسه ويفكر فى أحاديث بيزهوف التى كانت تستثيره وتملؤه حماسة ، كان يعجب كيف يستطيع أن يكتسح هؤلاء الناس الذين يشلون حركة الحياة توخيـــا لمصالحهم الخاصة ، وكان اذا سأل بيزهوف فى ذلك صاح به قائلا :

ـ انس هذا ! وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ان أحدا ليس فى حاجة الى من كان مثلك . ان أيامك .. أيام الأقوياء ، وان كانوا جهلاء . قد ولت وانتهت .. انك لا مكان لك فى دنيانا هذه !

ويصيح فوما بدوره ، وقد أثاره تقلب بيزهوف، وعدم استقرار على رأى :

ـ لا مكان لى ! هذا كذب !

ـ عال جدا ... فماذا فى وسعك أن تفعل فى هذا اذن ؟

ويقول فوما مهتاجا ، مهددا بقبضته :

ـ أقتلك ! هذا ما أستطيع أن أفعل !

ويهز ييزهوف كتفيه ويقول :

ـ بهلوان ! وأى خير يؤدى اليه قتلى ؟ اننى شبه مقتول فعلا ! ثم يقول فى نوبة من الغضب والقنوط :

ـ لقد لعب الحظ لعبة قذرة معى ! فيم كان شغلى كما يشتغل العبيد هكذا طوال اثنى عشر عاما بلا انقطاع ؟ من أجل هذا استطعت أن أدرس ، فلماذا درست طوال هذه الاثنى عشر عاما فى المدرسة وفى الجامعة ؟.. وكم بلعت من كلام فارغ .. أثقال من المتناقضات الغثة الثقيلة التى ليس بى اليها حاجة ! لكى أصبح كاتب قصص مسلية ! ولكى أقوم بدور يومى لتسلية الجمهور ، معللا نفسى بأنهم محتاجون الى ذلك ، ويمكن أن ينتفعوا به . لقد أطلقت كل ما كانت روحى تدخره من مفرقعات بسرعة ثلاثة كوبكات للطلقة الواحدة ... ثم الام انتهت بى الحال لان أؤمن به ؟ لا شىء ! والشىء الوحيد الذى أصبحت أؤمن به هو أن هذه الدنيا بصورتها الحالية لا تساوى قلامة ظفر ، وأن كل شىء فيها يجب أن يتحطم وتسوى به الأرض . ماذا أحب ؟ نفسى . ومع هذا فأنا مؤمن بأن نفسى التى أحبها غير جديرة بهذا الحب ! »

وكانت دموعه على وشك أن تنهمر من عينيه ، وظل المسكين يمزق فى عنقه وصدره بأصابعه النحيلة الواهية .

وكانت موجة من الأمل المشرق تطيف به أحيانا ، وعند ذلك تراه يتكلم بلهجة جديدة ، فيقول مثلا :

« أو .. اننى لم أغن أغنيتى بعد .. انك سوف تسمع عنى ما يسرك فى القريب العاجل .. وما عليك الا أن تنتظر ـ وسيأتى

اليوم الذى أهجر فيه الكتابة فى الصحف ، ثم أنصرف الى عمل جدى . وأنا أفكر فى كتابة كتاب صغير باسم « أغنية البجعة » أو أغنية الميت . وسيكون كتابى هذا البخور الذى سيحرق عند فراش مجتمعنا ذاك ، وهو يلفظ آخر أنفاسه .. والى حيث ألقت رحلها ..

وكان فوما يتتبع بعناية جميع ما يقوله ييزهوف ، ويوازن بين كل من أحاديثه ويقيس بعضها ببعض ، وقد استطاع بذلك أن ينتهى الى نتيجة عجيبة .. هى أن صديقه ذاك رجل ضعيف ومختلط التفكير مثله تماما ، الا أن فوما تمرن على استعمال الكلام فى مواضعه بكثرة الاصغاء اليه ، وكان يسره أحيانا أن يلاحظ أنه يعبر عما فى نفسه بلغة واضحة قوية .

وكان يلقى الكثيرين فى مناسبات عدة فى منزل ييزهوف ، وكان يخيل اليه أن هؤلاء يعرفون كل شىء ، ويفهمون كل شىء ، وأنهم لم يكونوا يرون فى الأشياء جميعا الا التفاهة والزيف ، وكان يلاحظهم ويصغى اليهم فى صمت وسكون ، وكان يعجبه منهم الجسارة التى يبدونها ، وان ضايقه ونال من نفسه ما كانوا يلقونه به من تشامخ واستعلاء ، وكان يدهشه منهم أنهم اذا لقيهم فى منزل ييزهوف كانوا أكثر ظرفا ولطفا مما لو لقيهم فى المشارب أو الشوارع . لقد كانت لهم كلمات وأساليب واشارات خاصة يتبادلونها فيما بينهم اذا لقوا غيرهم من خلق الله بمجرد خروجهم الى الشارع ، وكانوا أحيانا ، حينما يجتمعون فى منزل ييزهوف يصخبون ويزهزهون كما تزهزه أنوار الزينة .. وكان ييزهوف عادة أكثرهم صخبا وازدهاء ، ومع ذلك فلم تكن أنوارهم تلك تلقى فى نفس فوما شيئا من الضوء يؤبه له .

قال له ييزهوف يوما : « اننا سنقوم برحلة ، وقد كون صفافو الحروف فى جريدتنا جمعية تعاونية ، وهم يقومون بجميع أعمالهم

، الجريدة بطريق التعاقد ، واحتفالا بتلك الذكرى سيقيمون وليمة
عوني اليها ، وعلى فكرة أنا الذى اقترحت عليهم انشاء هذه
لجمعية التعاونية ، فهل تحب أن تحضر ؟ ان هذا مما يدخل السرور
عليهم » .

وقال فوما : ويسرني أنا أيضا .

ولم يكن فوما يعني بالطريقة التي يزجي بها فراغه .. هذا
الفراغ الذى كان لديه منه الشيء الكثير الثقيل الذى لا يدرى
كيف ينفقه ؟

وفي ذلك المساء ، كان فوما ويبزهوف يجلسان بين جماعة من
ذوى الوجوه الشاحبة اجتمعوا عند حافة الغابة خارج المدينة ، وكان
عدد صفافي الحروف اثني عشر رجلا لبسوا جميعا الملابس اللائقة ،
كانوا يعاملون فوما كأنه واحد منهم ، وهو الشيء الذى أثار
دهشته . بل سخطه ، وذلك لما كان يلاحظه من رفعة منزلة
يبزهوف بينهم ، وأنه كان أقرب الى السيد المطاع فيهم ، وأنهم لم
يكونوا أكثر من تبع له . انهم لم يكونوا يحفلون بفوما بالرغم من
أن يبزهوف حينما قدمه اليهم راحوا يصافحونه ويقولون له : انهم
يسعدهم أن يروه بينهم ، ومن ثمة فقد جلس وحده تحت شجرة
من أشجار البندق ، وراح يلاحظهم عن كثب ، شاعرا بأنه ليس
منهم . والظاهر أن هذا أيضا كان موقف يبزهوف من فوما .. فقد
تعمد أن يتركه وشأنه ولا يوليه من الالتفات أكثر مما يوليه
الآخرون . ولاحظ فوما أن كاتب القصص المسلية القميء هذا كان
يتعمد أن يوهم هؤلاء العمال بأنه ليس بأكثر من واحد منهم ،
فها هو ذا يساعدهم في اشعال النار وفتح زجاجات البيرة لهم ،
ويضاحكهم بصوت عال مدو ، ويحاول بكل الطرق أن يقلدهم .
وكانت ملابسه في هذه الرحلة أيسر مما كان معتادا أن يلبس .

وقال لهم وكأنه يشمخ ويتباهى :

— ما أعظم أن يكون الانسان بينكم أيهـــا الاخوان ! ثم أنا ٠٠ لست من طينة غير طينتكم على كل حال ٠٠ انما أنا ابن حارس من خراس الليل ٠٠ ضابط الصف ماتفى ييزهوف ٠

وعجب قوما ٠٠ لماذا ياترى يقول لهم هـــذا ؟ وماذا يهمهم أن يعرفوا ابن من هو ؟ والمهم هو فضل الانســـان ٠٠ لا حسبه ولا نسبه !

وكانت الشمس تميل الى الغروب ٠ وكانت للسماء أنوار زينتها وزخرفتها وصبغت السحاب بحمرة الدم ٠٠ والغابة ترســـل في الوجود صمتها ونداوتها ٠ وتستقبل على حواشـــيها أطيافا آدمية داكنة تسير في سكون وبلا جلبة ٠ وكان رجل نحيل ربعة يلبس قبعة من القش ذات رفرف كبير يعزف على الأوكورديون ، على حين أن رجلا آخر ذا شارب أسود وطرطور يتدلى على مؤخرة رأسه يغني غناء لطيفا مشجيا ، وأن أمامهما رجلين آخرين أخذا يجربان قوتهما بشد عصا من طرفيهـــا ، وآخرين محنيين على السلة المحتوية على الطعام وزجاجات البيرة ، ورجلا سمينا ذا لحية بيضاء ، واقفا وسط ضبابة من الدخان يلقى في النـــار بقطع من الخشب كانت لا تلبث أن تطقطق وتهش ، واللهب يمسك بها ويشتعل فيهـــا ٠٠ ثم اذا عازف الأوكورديون يرسل لحنا مرحا رشـــيقا ، فيأخذه صـــوت المغني ، وينسجمان معا انسجاما جميلا ٠

وكان ثلاثة غلمان أحداث ينبطحون عند حافة غدير صغير ، وقد وقف أمامهم ييزهوف وهو يقول بصوت مرتفع :

— انكم تحملون في أيديكم لواء العمل المقدس ، وأنا أيضا لست الا جنديا عاديا في الجيش نفسه ٠٠ وكلنا خدام في دولة صاحبة الجلالة الصحافة ، ومن ثمة فينبغي أن نكون أصـــدقاء ثابتين على الود ، واخوان وفاء وثقة ٠

ثم انصرف فوما عما يقول بيزهوف لهؤلاء الصغار ليصغى الى ما استرعى سمعه من حديث أكثر متعة يدور بين شخصين على مقربة منه ، وكان واحد من المتحدثين شخصا طويلا مسلول الجسم حقير الزى له نظرات تفيض مرارة ونقمة ، أما الآخر ففتى حدث السن ذو لحية وشعر أشقر ٠

وكان الطويل المسلول يقول وهو لا ينفك يسعل :

ـ اذا أردت رأيى ٠٠ فهذا جنون وحماقة ، كيف يمكن لمن كان مثلنا أن يتزوج ٠٠ والزواج كما تعلم يأتى بالأطفال ٠٠ فمن ذا الذى يعولهم ؟ والزوجة تفتقر الى ما تلبسه ولابد ٠٠ ثم من يدرى ٠٠ ماذا تسفر عنه تلك الزوجة ؟ وماذا يكون معدنها من خير أو شر ؟

ويقول الشاب الحدث فى شىء من الخجل :

ـ حمدا لله ٠٠ ان زوجتى فتاة صالحة ٠

ـ ربما تكون كذلك الآن ٠٠ وكونها خادمة شىء ، وكونها زوجه شىء آخر ٠٠ ولكن ٠٠ ليس هذا هو المهم ٠ انما المهم هو : كيف يتيسر لك أن تعولهم ٠٠ انك سوف تضطر الى العمل الذى يجعلك جلدا على عظم ، وسوف تشقى هى كذلك ٠٠ أوه ٠٠ كلا ياصديقى ٠٠ ان الزواج ليس لأمثالنا من الأشقياء ! اذ كيف يمكن أن نقيم اود أسرة بهذا الأجر التافه الذى نحصل عليه ؟ فأنا مثلا ٠٠ اننى متزوج ٠٠ منذ أربع سنوات فقط ٠٠ وهأنذا قد نالنى ما ترى ٠٠ من التلف والقرف !

ثم أخذ يسعل ٠٠ ويسعل طويلا وبشدة ٠٠ سعالا ينتهى دائما بصفير ٠٠ حتى اذا انتهت نوبة السعال التفت الى زميله يقول وهو يلهث :

- دعنا من هذا .. لا فائدة .. لا فائدة !

ونكس الشاب الصغير رأسه فى هم وفكر .. أما فوما فتمتم فى نفسه قائلا : الكبير المسكين على حق .

لقد كان يؤلم فوما أن يتجاهله الجميع على هــذا النحو ، الا أنه كان يشعر بالاحترام لهؤلاء البــائسين ذوى الوجوه التى كأنما لطخت بذوب الرصاص ، وكان مبعث احترامه لهم أنهم لما ينافقوه ولم يتملقوه . لقد كانوا يتحدثون بطريقة جــدية ، وكان معظم حديثهم عن عملهم ، مستعملين فى هذا الحديث كلمــات كثيرة لم يتعود سماعها .. دون أن يحاول واحــد منهم التقرب منه أو أن يفرض نفسه عليه ، كما كان من عادة رفاقه فى الحانات أن يفعلوا. وكان هذا من دواعى سروره .

وكان يشعر بغمرة من الضحك المكبوت تملأ نفسه ، فلم يملك الا أن يقول :

- يا لله ! يا لهؤلاء من معشر ذوى أنفة وكبرياء !

وقال أحدهم فى شبه تعنيف :

- اسمع يا نيقولاى ماتيفيتش ، أنت لا تريد ان تحكم بمـا فى الكتب ، ولكن بما ترى حولك .

- حسن جدا أيها الأصدقاء .. فماذا أفدتم من تجربة زملائكم العمال ؟

والتفت فوما ليرى ييزهوف الذى كان يلوح بقبعته فى الهواء على حين كان يلقى خطبة نارية ، ولــكن واحدا أنشـأ يقول فى تلك اللحظة :

- ألا تقترب قليلا ، جوسبودين جوردييف ؟

وينظر فوما فيرى غلاما ظريفا عليه قميص عامل ، ويلبس حذاء طويلا ، وقد وقف أمامه فى أدب جم ، وراح يبتسم بوجه سمين مكور وأنف كبير ضاحك مما جعل فوما يحبه ويعطف عليه ، ويرد ابتسامته بمثلها قائلا :

ـ بكل سرور . ولكن ألم يحن الوقت بعد لأن نقترب من شرابنا ؟ لقد أحضرت معى حوالى اثنتى عشرة زجاجة ـ لا تزال بلفتها .

ـ أوه ! اذن فأنت تاجر كثير المال ! سأبلغ رسالتك الى المركز العام !

وضحك الغلام ضحكا عاليا وطويلا لما حاوله من الفكاهة . وشاركه فوما فى دعابته ، بعد اذ أحس بنفحة من الدفء لعلها مسته ـ اما من الغلام ، واما من النار المتأججة القريبة .

وأخذ الغروب يشحب فى بطء ، وكأنما كان ثمة ستار قرمزى عظيم يهبط فى الغرب شيئا فشيئا ليبدى لنا أعماق قبة الليل التى لا يسبر غورها والتى رقشتها النجوم ، وقد أخذت يد مجهولة تنثر الأضواء على هذا الغشاء القاتم الأسود الذى كان يتغشى المدينة البعيدة ، التى لم يكن يبذ ظلامها الا ظلمات الغابة . ولم يكن القمر قد بزغ بعد ، وكانت ظلمة دافئة تكتنف الحقول كلها .

وجلست الجماعة فى حلقة بالقرب من النار ، وأخذ فوما مكانه الى جانب ييزهوف جاعلا ظهره الى الضوء ، وكان بهذا يستطيع أن يرى الوجوه الباشة التى ينعكس عليها النور ، وأخذوا جميعا بنشوة الشراب ، وان لم يدركهم السكر بعد ، يضحكون ويمزحون ويغنون رقائق من الأغانى ، وهم فى أثناء ذلك يشربون ويأكلون الخبز الأبيض وقطع الخيار والسجق .. وكان فوما يجد لذة خاصة فى كل شىء ، وجرأته مشاركته لهم فى مرحهم ، فأحس رغبة فى

أن يقول شيئا لهؤلاء العمال يمكن أن يساعدهم ويجعلهم مثله · وكان بيزهوف لا ينفك يتلوى ، ويلكزه بكتفه ، ويهز رأسه وعو يتمتم بكلام غامض غير مفهوم ·

وصاح الغلام الظريف يقول :

— أيها الزملاء ، هلموا نغن أغنية الطالب ·· هيا : واحد — اثنان ·

سراعا كموج البحر ···

ويشاركه أحدهم بصوت منخفض :

— أيام عمرنا تكر ، فتطوينا الغداة وتذهب

ويهتف بيزهوف بالجميع :
أيها الاخوان !

ثم ينهض وهو ممسك بزجاجته ، لكنه يترنح ، ويستند الى رأس فوما حتى لا يقع ، وهنا ينقطع الغناء ، وتتجه اليه جميع الأنظار · « يا رجال العمل ·· اسمحوا لى بأن أقول لكم بضع كلمات صادرة من أعماق فؤادى · انني سعيد بأن أكون واحدا من جماعتكم ·· انني أشعر بالرضا وأنا بينكم ، لأنكم رجال عمل ·· رجال لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم حقهم فى السعادة ·· وان لم يعترف لهم بهذا الحق بعد · ما أجمل أن يجد رجل مثلى ·· يعيش فى كل تلك الوحشة ، وتجرعه الحياة كئوس مرها ·· أن يجد نفسه فى تلك الصحبة السعيدة المتعاونة ، صحبة أمثالكم من الأمناء الأوفياء ! »

ثم يتراخى صوت بيزهوف ، ويميل رأسه ·· وتسقط قطرة من الشراب على يد فوما الذى يرفع رأسه ليرى وجه صديقه المختلج ، وهو يصل كلامه قائلا ، وقد أخذ جسمه كله يرتجف :

- انني لست وحدى .. ان ثمة كثيرين من أمثالنا .. مثلى أنا .. ممن قسا عليهم سوء البخت وقصم ظهووهم . اننـــا أقل حظا منكم أيها العمال ، لأننا أضعف منكم جسوما وأرواحا ، لكننا أقوى منكم ، لأننا مسلحون بالعلم - العلم الذى لا نستطيع أن نفيد منه ! اننا لا نستطيع الا أن نكون سعداء اذا جئنا اليكم وتفرغنا لخدمتكم قلبا وقالبا عسى أن يجعل هذا حيـــاتكم أيسر وألين جانبا . انه ليس ثمة شيء آخر يمكن أن نقـوم به غير هـــذا . فنحن بدونكم لا يمكن الا أن نكون كالمعلقين فى الهواء ، وأنتم بدوننـــا تكونون كالضاربين فى الظلام . أيها الاخوان ، اننا مخلوقون بعضنا لبعض » .

وقد عجب فوما : ماذا يريد منهم يا ترى ؟ وقد نظر فى وجوه صفافى الحروف ، وأدرك أنهم هم أيضا فى دهشة وحيرة وانقباض .

ثم يقول ييزهوف بعزم وتصميم ، وبايماءة حزينة من رأسه :

« ان المستقبل مستقبلكم أيها الاخوة » .

ويقولها وكأنه ينفس عليهم هذا المستقبل ، ويكـــره أن يكونوا اصحابه ، لكنه يعترف لهم به رغم أنفه :

« ان المستقبل هو مستقبل العمال الامناء ، وان فى انتظاركم عملا عظيما ستقومون به ، وهذا العمل العظيم هو خلق نوع جديد من الحضارة لا يقوم الا على أكتافكم . وأنا .. ابن هذا الجندى المتواضع، اناصركم بجسمى وروحى ، وعليه .. لنشرب نخب هذا المستقبل الذى هو مستقبلكم ، .. مرحى .. مرحى يا اخوة ! »

ويسقط ييزهوف متهالكا على الارض ، والزجاجة فى فمه ، وقـــد انطلق العمال يرددون صيحته المهتومة ، مالئين الهواء . بعاصفة من الهتاف كانت تهز أوراق الاشجار هزا .

وحين يفرغون من هذا ، يقول الغلام الظريف :

« والآن ٠٠ الى الغناء ! »

ويوافقه صوتان أو ثلاثة ، الا أن الكثرة تدخل فى نقاش عنيد حول الاغنية التى يتغنونها ، وكان بيزهوف وهو يستمع الى لغطهم يدير رأسه من جانب الى جانب ، ليلقى على كل منهم نظرة فاحصة . ثم صاح بهم فجأة:

« أيها الاخوان . أريد ردا ٠٠ ردا على نخبى ! »

ثم أخذ الهدوء يعود الى الجماعة رويدا ، وأخذوا يتفرسون فيه وقد استولى العجب على بعضهم ، وبعضهم يخفى ابتسامة ساخرة وبعض لا يزال فى اســـتياء مكظـــوم باد على وجوههم ٠٠ وينهض بيزهوف ثم يشرع فى الكلام مهتاجا :

« ان بينكم اثنين ممن نبذتهم الحياة ٠٠ ضيفكم ٠٠ وأنا ٠٠ وق نبذتنا منذ أمد طويل لسبب واحد ، وسبب واحد فحسب : هـــ ادماننا التفكير فى شئون هذه الحياة ، وما نشعر به من البهجة مر أننا لا غناء عنا . أيها الاخوان : ان هذا الزميل الضخم المغفل ٠٠

ويقاطعه بعضهم ، فيقول معترضا . بصوت عميق :

« ليس لك أى حق فى اهانة ضيفنا ، يا نيقولاى ماتفيتش !

ويوافقه الغلام الظريف قائلا :

« مؤكد ٠٠ ليس لك حق فى هذا ٠٠ ممنوع الغمز واللمز ! »

ويقول ثالث مؤكدا بصوت مدو ولهجة حازمة :

« لقد جئنا الى هنا للراحة من عنـــاء العمل ، ولنقضى وقتـــ طيبا » .

ويقول بيزهوف وهو يتكلف الرد ويصطنع العذر :

«أيها المغفلون ، أيها المغفلون المهذبون ، اذن فأنتم تشعرون بالاسف

من أجله ! أليس كذلك ؟ فهل تعرفون من هو ؟ انه واحد من أولئك الذين يمصون دماءكم ! »

وهتف به الرجل قائلا :

« كفى كفى ٠٠ نيفولاى ماتفيتش ! »

وعندئذ انصرفت الجماعة الى ما كانت فيه من حديث وثرثرة . متجاهلين بيزهوف تمام التجاهل ٠ وأسف فوما لما بدا من صديقه من مهاجمة ماقال ، ولا حظ أن الذين هبوا للدفاع عنه كانوا يتعمدون صد كاتب الاقاصيص وانتهاره ٠ وأدرك أن بيزهوف لو عرف ذلك لآلمه وآذى شعوره ، ولكى يصرفه عن ادراك ذلك لكزه فى جنبه لكزة مازحة وقال له :

— هيا يا كوكى ، هلم نشرب كأسا ٠٠ أنفعل ، أم ترى أن الوقت قد حان لكى نعود الى بيوتنا ؟

ويجيبه بيزهوف :

— بيوتنا ؟ وأين هو هذا البيت الذى يأوى اليه رجل لا مكان له بين الناس ، أيها الاخوان ؟

الا أن كلامه لم يجد له جوابا ٠٠ لقد ضاع فى ضجيج الجماعة ، ولم يلتفت اليه أحد ، ولما رأى هو ذلك نكس رأسه وقال :

— اذن ٠٠ هيا ٠٠ لنعد ٠

— اذا شئت ٠ وان كان البقاء لا يضايقنى ٠٠ فالجلسة جميلة ممتعة ٠٠ والله ما أظرف هؤلاء الشياطين ٠٠ ولو كانوا غير ذلك ما باليت البقاء بينهم ! ٠

— لا أستطيع البقاء أكثر من هذا ٠٠ انى أكاد أتجمد من البرد ٠

ووقف فوما ، وانحنى يحيى العمال ، ثم قال لهم بلهجة باشة

- شكرا لكم هذا الطعام اللذيذ يا رفاق .. وداعا .

لكنهم أحاطوا به فى الحال ، ورجوه أن يبقى :

- لتبق معنا قليلا . الى أين تمضى الآن .. اننا سنغنى .

- شكرا .. يجب أن أذهب .. لا يمكن أن أدع صديقى ينصرف وحده . فانعموا بوقت طيب »

ويقول الغلام الظريف :

- أو أو .. بل ابق .. فلم يحن وقت الرحيل بعد .. ونستطيع نحن أن نوصله .

ويقول الرجل المسكين المسلول فى صوت منخفض :

« ابق بالله عليك .. وسيوصله أحدنا الى حدود المدينـــة ، ثم يضعه فى عربة .. ويعود من ثم صاحبنا .

وكان يود فوما لو يبقى ، وان كان يخشى فى الوقت نفسه أن يفعل ، من أجل خاطر ييزهوف الذى كان يتلوى ثملا ، ويشد كم فوما قائلا :

- هيا .. هيا .. الى الجحيم بهم جميعا .!

وهنا ، لا يسع فوما الا أن يقول :

- وداعا يا سادة .. انى منصرف .

ويمضى مع ييزهوف .. ويهب الجميع يحيونه ويأسفون لفراقه

ولا يكادان يبعدان حتى يقهقه ييزهوف :

- ها ها .. ها ها .. انهم يودعوننا والدموع تكاد تنهل من

عيونهم ·· والحقيقة أنهم مسرورون لمفارقتى اياهم ·· لقد كنت
اقف فى طريقهم ·· وكانوا هم يريدون أن يهرجوا وأن يعبثوا كما
نعبث البهائم ·

- حقا لقد كنت تقف فى طريقهم · ما الذى دفعك الى القاء تلك
الخطب ؟ لقد جاءوا لقضاء وقت طيب ، لا ليسمعوا خطبا ومحاضرات
·· لقد ضايقتهم مضايقة شديدة ·

- اسكت ! انك لا تدرى : عم تتحدث ؟ · أتظن أننى سكران ؟
ان جسمى هو الذى ثمل ·· أما روحى فصاحية واعية · وهى على
الدوام صاحية وواعية ، وتشعر بكل شىء ·· وا أسفاه ! كم فى هذه
الدنيا من دناءة وتفـــاهة وجمـــود فهم ! ·· ثم هؤلاء التاعسون
الاغبياء !

ثم توقف بيزهوف ، وأخذ يترنح قليلا ، ممسكا رأسه بكلتا يديه
وتمتم فوما يقول :

- انهم لا يشبهون غيرهم من الناس فى شىء · انهم فى منتهى
الأدب ، ويكادون يكونون سادة ظرفاء ، ولهم أفكار ناضجة صادقة ·
وهم يعرفون ما يتحدثون عنه ·· يا لهم من عمال بسطاء ســـليمى
النية !

وصافحت آذانهما أغنية جماعية حملها اليهما الهواء من خلفهما ··
كانت تأتى متقطعة أول الامر ، ثم لا تلبث أن تزداد تماسكا حتى
تأتى متدفقة ، وفى موجة عظيمة تطيف بالحقول الخالية ، فى ثنايا
هواء الليل اللطيف المنعش ·

ويقول بيزهوف فى صوت هادىء حزين :

- يا لله ! ماذا فى هذه الدنيا مما يمكن أن تتعلق به الروح ؟ ماذا

فيها مما يمكن أن يطفىء ظمأها غير الحب والصداقة والاخوة والعمل النظيف المقدس ..؟

ويتمتم فوما الذى كان مستغرقا أشـــد الاستغراق فى أفكار وتأملاته حتى لقد كان هذا يشغله عن ادراك ما كان يقوله ييزهوف

— يا لهؤلاء العوام ! انهم قوم لا بأس بهم اذا نظرنا اليهم نظر طيبة .. بل انهم لقوم فى منتهى الغرابة ! ان الفلاحين والعمال . عند النظرة الاولى اليهم يخيل للانسان أنهم لا يزيدون عن تلك الخيل التى تسير وئيدا وهى تلهث وتضبح ، وتنفخ نفخا شديدا .

ويسمعه ييزهوف فيقاطعه قائلا :

« انهم يحملون حياتنا كلها على ظهورهم ، ويسيرون وئيدا كما تسير الخيل .. ببلداء مستسلمين .. واستسلامهم هذا كارثة .. لعنة .

وظل سائرا يترنح وهو صامت لحظات .. ثم اذا به يشرع فى انشاد شىء من الشعر بصوت مبحوح ، ملوحا بيديه فى الهواء فى أثناء ذلك :

يا حيـــــاة خـــدعتنى وأمـــــرت كأس عيشى
ورمت غـــــور فؤادى من مآســـــيها بجيش

وتوقف عن السير ، وعن الانشاد ليقول لفوما بصوت حزين :

— لقد قيل هذا الشعر فى يا صديقى .. أما بقيته .. أوه . لقد نسيتها :

أين أحـــلامى التى أخفيتهـــا طى فؤادى ؟
لن ترى الضوء وان عا دت ففى يوم التنادى

« انك أحسن حظا منى .. لأنك .. لأنك مغفل !

ويجيبه فوما مستاء :

- كف عن هذه العربدة ، واستمع اليهم وهم يغنون .

- انى لا أريد أن أستمع الى أغانى الآخرين .. فلدى أغانى .

ثم أنشأ ينشد بصوت مرتفع مولول :

ان أحلامى التى أخفيتها طى فؤادى
لن ترى الضوء وما أكثر أحلام الفؤاد

ثم أخذ ينشج ويبكى كما تبكى النساء ، وقد تأثر فوما بهذا . أنه كان متضايقا .

وضرب ييزهوف على كتفه مما به من سخط وقال له :

- كفى .. انك مخلوق ضعيف خرع !

وأمسك ييزهوف رأسه بيديه ، وشد من قامته ، ثم راح يجاهد فى انشاد مقطوعته من جديد :

لن ترى الضوء وما أكثر أحلام الجنان
تلك أحلامى التى سجيتها طى اران
ضيق ، فى كفن من شعر قلبى وجنانى
كم ترنمت لها ، كم أنشدت روحى الأغانى
باكيات شاكيات : هامسات فى بيانى

وهمس فوما فى قنوط ويأس : « يا رباه ! »

وجعل غناء العمال يأتى من بعيد خلال الظلام والسكون ، وكان بعضهم يرسل صفيره بوزن الغناء ، فكان الصفير العالى المجلجل يرتفع فوق تلك الموجة من الأصوات القوية المدوية كما يعلو الفارس الرشيق صهوة جواد منطلق . ونظر فوما خلفه فشهد حائط الغابة المظلم . ولهب النار يتراقص عليه ، وأشباح العمال القاتمة حول

النار .. وكانت الغابة أشبه بصدر عظيم رحب . والنار فى هذا الصدر أشبه بجرح يدمى . وكان العمال يبدون كأنهم أطفال صغار وهم ملفوفون فى سرابيل العتمة . بل كانوا يبدون كأنهم لهب تتراقص بفعل انعكاس ضوء النار عليهم ، وقد أخذت أذرعهم تتمايل مع نغمة أصواتهم العالية القوية كأنها ألسنة تلك اللهب .

وكان بيزهوف واقفا الى جانب فوما يشهد معه ذلك المنظر ، واذا هو يعود فجأة الى انشاد أشعاره :

وانتهى لحنى ، وغنى النـاى لحنـه
مودعا فى أخريات اللحن بلواه وحـزنه

***

ايـه يا ربى .. أرح روحى بعـدلك
شقيت ما ليس يشقى أحد فامنن بفضلك
ايـه يا ربى .. أرح روحى بعـدلك

وفزع فوما لصوت ولولته الحزينة .. وزاده فزعا أن يطلق كاتب القصص البائس صرخة هستيرية مدوية .. ثم يلقى بنفسه ، ووجهه الى أسفل ، فوق الأرض ، حيث تأخـذه نوبة من البكاء الهادىء الحزين الذى يفيض أسى .. كما يفعل طفل صغير مريض .

ويهتف به فوما وقد أمسك بكتفه !

- نيقولاى ! حسبك يا صديقى ، حسبك ! ماذا جرى ؟ ألا تخجل من نفسك ؟

لا .. انه لم يكن ثمة ما يدعو الى الخجل .. لقد رمى بنفسه على الأرض كما ترتمى السمكة بعد خروجها من الماء ، حتى اذا رفعه فوما من فوق التراب راح يلقى ذراعيه المعروقتين حول صديقه ، ثم يغرق فى نوبة من البكاء

ويقول له فوما بصوت خفيض :

- تعال تعال . هون عليك ٠٠ ولا تشق على نفسك يا صـــديقي العزيز

وشاع الاستياء والحنق فى نفس فوما مما يمكن أن تسببه الحياة للانسان من مثل هذا الشقاء ، فامتلأ بالكراهية لها والازدراء عليها ، وكأنه هو هذا الصديق ، وكأن مصائبه مصائبه ٠٠ واذ به يلتفت الى حيث تتلألأ أنوار المدينة في ظلام الليل ، فيقول فى صـــوت كالرعد ، وفى فورة من المرارة :

- عليكم اللعنة ، أيها الشياطين !

الفصل الحادى عشر

عاد ماياكين من البورصة ذات يوم فقال لابنته :

ـ ليوبا · استعدي يا ابنتى للقاء أحد الخطاب هذا المساء · وأعدى مائدة طيبة ، وأخرجي جميع الفضيات القديمة وفازات الفاكهة أيضا· يجب أن تجعلي المائدة تضربه فى أنفه مباشرة ، ويجب أن يرى جميع الأشياء الثمينة التى نقتنيها

وكانت ليوبا جالسة بالقرب من النافذة ترفو جوارب أبيها · وقد حنت رأسها وهى تعمل دائبة

وقالت تعترض على ما قال أبوها وقد أحست بالضيق :

ـ وفيم كل هذه المظاهرة يا أبى ؟

ـ هذا شيء لا غنى عنه ·· انه كالبهريز الذى يكسب الطعام نكهته ·· ثم هـــذا هو الذى يجب أن يكون ·· ثم ·· ان البنت ليست حصانا ·· ولن يشتريها أحد الا اذا نصبنا له المصايد !

وأومأت ليوبا برأسها ايماءة لهـــا معناها ، ثم ألقت بالشغل ، وحدجت أباها بنظرة تجمع بين الخجل والاستياء ـ ثم عادت فتناولت الجورب ونكست رأسها أكثر مما كان أولا · وراح العجوز يمشى جيئة وذهابا ، محملقا فى الفضاء ، وهو يجذب لحيته بشدة وفى قلق كأنما ينعم الفكر فى مشكلة صعبة عويصة · لقد كانت ابنته تعلم أنه لن يصغى اليها اذا تكلمت ، وربما لا يبالى ما سببته كلماته لها من

هوان . لقد كانت الأحلام الجميلة الفضية التى طالما ساورتها وملأت خيالها بزوج يمكن أن يكون صديقا حقا بقدر ما هو زوج .. زوج مثقف يستطيع قراءة الكتب الجميلة معهـــا ، وأن يساعدها فى فهم ما تتشوق اليه من الأمانى والآمال المبهمة الغامضة .. ان هـــذه الأحلام كانت قد بخرت وقضى عليها قرار أبيها .. هذا القرار الذى لا نكوص فيه ولا معدى منه ، بأن تتزوج سمولين .. انه قرار ترك عكارة سوداء فى روحها .

لقد اعتادت أن تنظر الى نفسها بوصفها أرفع مستوى من لداتها من البنات العاديات ، بنات الطبقـــة التجارية اللائى لا هم لهن الا الملابس الفاخرة ، والزواج ممن يقرر آباؤهن أنهم صفقة طيبة للزواج منهن ، دون أن يأخذوا فى اعتبارهم ، الا نادرا ، أن لبناتهم مشاعر وأحاسيس ينبغى احترامها ووضعها فى حسابهم قبل أى اختيار آخر .

ثم ها هى ذى قد رأى أبوها أن يزوجها الآن .. لا لسبب ما ، الا لأن وقت الزواج قد آن ، ولأن أباها محتاج الى زوج ابنة يمكن أن تئول اليه مقاليد أعماله وأملاكه . ولم يكن يخفى عـلى ليوبا أن أباها كان يؤمن بأنها فقيرة فى عوامل الجاذبية والجمال بدرجة لا يمكن معها أن تجتذب أحدا من الراغبين فى الزواج ، ومن ثمة فقد رأى أن يعوض هذا بعرض ما لديه من أسباب الغنى والجاه .. ومنها هذه الفضيات التى أوصاها بالاكثار منها على المائدة ..

لقد عراها الكثير من الارتباك والحيرة .. فشبكت أصبعها وكسرت ابرتها .. ومع هذا .. فلم تفه بكلمة ، لأنها كانت تعلم تمام العلم أن قلب أبيهـا لن يكون الا القلب الأصم الأبكم الذى لن يستجيب لشىء ولن يستمع لشىء مما تقول .

وظل العجوز يذرع الغرفة رائحـــا غاديا ٠٠ وهو لا ينفك يتمتم بدعاء أو صلاة ، أو يلقى على ابنته تعليماته التى يعلمها بها كيف تلقى خطيبها ، وكيف تتصرف أمامه ٠٠ ثم اذا هو يتوقف فجـــأة ليحسب على أصابعه حسبة ما ٠٠ ثم اذا هو يعبس ويتجهم ، ويعود فيبتسم ٠٠ ثم ٠٠ يهمهم :

ـ هم ٠٠ اللهم يا كريم لا تجعل لأحد علينا حكما الا حكمك ٠٠ وقنا اللهم شر الملق والمتملقين وشر من لا يؤمن بك يا كريم ٠٠ ليوبا ٠٠ ولابد أن تلبسى زمردات أمك ٠٠

ويكون صبر الفتاة قد نفد ، فتنفجر فيه وقد ضاق صدرها

ـ حسبك يا أبى ٠٠ حسبك ٠٠ دعنى وشأنى أرجوك

ـ بل دعينا من ألاعيبك ٠٠ وافعلى ما آمرك !

ثم يعود الى ما كان فيه من حساب ، مضيقا من أجفانه وهو يعد على أصابعه :

ـ خمسة وثلاثون فى المائة ٠٠ هذا النصاب المحتال ، أنر بصائرنا يا ٠٠٠

وتقاطعه ليوبا متسائلة وقد استولى عليها الخوف :

ـ بابا ٠٠٠

ـ هيه ٠٠٠

ـ هل هو ٠٠٠ هل تحبه ؟

ـ من ؟

ـ سمولين !

- سمولين ؟ انه شاب لبيب ٠٠ واع ٠٠٠ والآن ، حان وقت الذهاب ٠٠ اسمعي يا ليوبا ٠٠ البسي أبهى ما عندك

وينصرف الرجل ٠ وتضع ليوبا شغلها جانبا ، ثم تتكىء الى خلف ، وتغمض عينيها ، وقد شحبت مفاصل يديها ٠٠ وتشنجت أصابعها المتشابكة ، وأخذت تدعو الله وتتوسل اليه ، مما تحس من المرارة التي يحقر بها والدها من شأنها ، ولخوفها من المستقبل :

- يا الهي اللطيف ٠٠٠ يا مقلب القلوب والأبصار يا رب السموات ٠٠ أضرع اليك أن يكون لطيفا ٠٠ مثلك ٠٠٠ فاجعله ربي لطيفا ٠٠ ورقيقا وديعا ٠٠٠ يا عجبا ! رجل غريب يأتي دون سابق عهد ليحملق في الواحدة منا ٠٠ ثم تصير ملكه بعد ذلك عشرات السنين ! لله ما أبشع وما أشنع ! وا خجلاه ! تداركنا يا الله ! ٠٠٠ ثم ٠٠ لو أن أحدا كان الى جانبي أشكو اليه بثي ويخفف عني ما أجد ! لو كان تاراس هنا ! ٠٠

وعندما ذكرت أخاها شعرت بوطأة الظلم تزداد وتتضاعف ، فتتضاعف أحزانها وتزداد بلواها ٠ لقد كتبت الى تاراس خطابا طويلا ضافيا تقول له فيه : انها تحبه من صميم قلبها ، وتضع فيه جميع آمالها ، وتتوسل اليه أن يحضر ليقابل أباه بأسرع ما يستطيع ، مصورة له في أبدع صورة ما يمكن أن تكون عليه حياتهما معا ، مؤكدة له أن أباهما رجل شديد الذكاء يستطيع أن يقدر الظروف ويفهم كل شيء ، وأنه بلغ من الكبر عتيا وأنه يحيا حياة كئيبة موحشة ، وان يكن يشعر بحماسة عجيبة لأن يحيا وأن يعمر ٠٠٠ ثم شكت اليه من الطريقة التي يعاملها بها هذا الوالد ٠٠

وانتظرت ليوبا أسبوعين طويلين وهي تتحرق لتسلم الرد ٠٠ فلما تسلمته اذا هي تجتاحها نوبة هستيرية من الفرح بتسلمه ، كما انتابتها نوبة أخرى من اليأس وخيبة الرجاء ٠٠٠ لقد كان الرد

جافا ومختصرا ، وان يكن أنيقا محكما . لقد أخبرها تاراس أنه خلال شهر أو نحوه سيكون فوق الفولجا فى عمل من الاعمال ، وأنه ربما زار والده في أثناء ذلك ، اذا لم يكن لوالده اعتراض . لقد كان خطابا باردا فاترا ... ومن ثمة ، فقد أبكاها ... وبللته بدموعها ... ولهذا طوته وطبقته في راحتها ... الا أن البلل الذى أصابه لم يرطب من مرارة ما فيه . لقد كان يخيل اليها أن وجها يبرز من سطح الورق المرقط ذى التجاعيد الذى كتب عليه الخطاب ، والذى غطته أحرف كبيرة ، خطتها يد جريئة مطمئنة .. كان يخيل اليها أن هذا الوجه يبرز اليها مقطبا متجهما ... وجها نحيلا ملأته الغضون والتجاعيد مثل وجه أبيها .

وسمع الوالد العجوز أن ابنه قد كتب خطابا ... فكان أثر ذلك شيئا مختلفا تمام الاختلاف عن الأثر الذي تركه فى نفس الفتاة . لقد أثار ذلك شتى الاحاسيس فى نفس الوالد ، وبادر من فوره الى ابنته ، وعلى شفتيه ابتسامة خاصة تختلج عليهما اختلاجا ، وأنشأ يقول :

ـ هيه .. خير ... أرينا يا ستى ... لنر كيف يكتب الشاب الأنيق الرشيق اياه ! أين نظارتى ؟.. « أختى العزيزة » .. اهم ..

وقرأ العجوز خطاب ابنه فى صمت ، حتى اذا انتهى منه وضعه على المنضدة ، وجعل يتمشى قليلا فى زوايا الحجرة ، وقد ارتفع حاجباه مما عراه من الدهشة .. ثم عاد فقرأه مرة ثانية ، وقف بعدها ينقر بأصابعه على المنضدة ، مستغرقا فى تفكير عميق ... ثم قال أخيرا :

ـ لا بأس ... خطاب طيب .. ناشف ... ليس فيه كلمة لا لزوم لها ... ولعل البرودة قد جعلته جامدا بعض الشيء ! ان

البرد هنــاك قارس قاس ··· ليحضر يا ليوبا ··· وسـنلقاه ان شاء الله ··· عجايب ! اهم ··· هذا كما جاء فى مزمور داوود : « عندما رددت عدوى — لقد نسيت بقية الكلام الذى بعد هذا ··· وأظنه كشىء من هذا القبيل : لقد ضعفت أسلحة عدوى فى النهاية ، وتلاشت ذكـراه وسط الضـجيج » ·· حسن ·· سـنـنظر فى الامر ، أنا وهو ، بلا ضجيج ، ولا جلبة · وحاول العجوز أن يتكلم فى هدوء ورفق وفى ابتسامة فيها أنفة وفيها استعلاء ، الا أنه لم يستطع ذلك ، فلقد أخذت غضون وجهه تختلج من أثر ما تجيش به نفسه من الانفعال ، وراحت عيناه تلمعان لمعانا غريبا ، وهو يقول لابنته :

— اكتبى اليه خطابا آخر يا ليوبا واطلبى اليه الحضور دون أن يخشى شيئا ·

وكتبت اليه ليوبا هذا الخطاب الآخر ، وكان أقصر من خطابهـا الأول وأكثر ضبطا ··· ثم بدأت تنتظر رده من جديد ، وهى لا تنى تفكر فيما عسى أن يكون أخوها هذا · لقد كانت تفكر فيه أول الأمر بمثل الوقار الذى يكنه المؤمنون للصديقين والأولياء والضاربين فى سبيل الله ··· أما الآن ، فقد أخذ تفكيرها فيه يملؤها رهبة ··· انه شخص تعذب طويلا ، وقضى شبابه فى غربة أشبه بالمنفى ، ومن ثمة فهو رجل لا كسائر الرجال ··· انه أصبح خبيرا بالناس ، وله رأيه فيما يصدرون عنه من أعمــال ، وهو بالطبع سوف يسألها حينما يلتقيان ، وحين تأخذ رأيه فى الرجل المتقدم اليها :

— هل كنت حرة مطلق الحرية فى اختيار هذا الزوج ؟ وهل هو زواج يقوم على حب ربط قلبك بهذا الرجل ؟

وأخذت الأفكار السـوداء تنتابها رويدا رويدا ، بل أخـذت تربكها وتعذبها .. على أنهـا لم تملك الا أن تنفذ تنفيذا حرفيـا ما أمرها به أبوها أن تفعل ، استعدادا للقاء خطيبها ، وكانت تنفذه وهى فى حال عصبية أشبه بحالات اليـأس ، وان عينيها لتـكادان تسكبان الدموع ، وان نفسها لأقرب أن تكون فى غير وعيها . لقد أعدت المائدة وملأتهـا بالفضيات القديمة ، ولبست ثوبا حريريا رمادى اللون ، ثم جلست أمام مرآتها بالقرب من النافذة لتبرم فى أذنيها ذلك الحلق من الزمرد الذى كان يوما ما جزءا من حلى أسرة الأمير جروزنسكى ، وانتهت ملكيته الى ماياكين من غيره من الأشياء الثمينة الأخرى بطريق الرهن على قرض لم يستطع المقترض أن يرده .

وشرعت لبوبا تنظر فى المرآة الى وجهها الثائر المضطرب ، فالذى كانت شفتاه المستديرتان الناضجتان تبدوان أشد حمرة مما هما عليه لما يعرو خديها من صفرة وشحوب ... ثم تنظر الى صدرها الناهد الممتلىء الذى يمسكه الثوب الحريرى فيجعله بارزا مشدودا ، فترى أنها جميلة وقمينة بأن تسترعى انتباه أى رجل . لقد كانت الزمردتان الخضراوان المتلألئتان فى أذنيها لمسة سطحية ثقيلة على ذوقها ، وفضـــلا عن ذلك كان يبدو أنهما تلقيان ظلا أصفر باهتا على خديها .. ومن ثمة فقد انتزعت الزمردتين ، ووضعت مكانهما ياقوتتين حمراوين ... وهى فى أثناء ذلك كله لا تنى تفـكر فى سمولين : ترى ؟... ما شكله ، وما فصله ؟

ولاحظت غضونا سمراء تحت عينيها ، فلم يسرها ذلك ، وأخذت تعالجها بشىء من البودرة ، وهى لا تزال تفكر فى سمولين ، وفى سوء البخت الذى جعل منها امرأة ... ولم يجعل منها رجلا ، ثم تنعى على نفسها ضعف شخصيتها ، بل فقدان هذه الشخصية . ولاحظت ليوبا أن اختفاء الغضون السـوداء من تحت عينيها قـد سلبهما

رونقهما وبهاءهما ، ولهذا ، فقد أزالت البودرة وأعادتهما الى ما كانتا عليه · وبعد أن ألقت على نفسها نظرة أخيرة آمنت بأنها حسناء ·· حسناء حسنا أخاذا يبهر اللب ، ويسبى القلب ··· وجميلة ··· هذا الجمال القوى الحى الذى يتدفق فى شجرة صـــغيرة من أشجار الصنوبر · وقد هدأ روعها الى حد ما هذا الذى اعتقدته من حسنها ، فدخلت الى غرفة الأكل بخطى ثابتة··· خطى الفتاة الغنية الصغيرة الصالحة للزواج ، العارفة بقيمتها تمام العرفان ·

لقد كان أبوها وسمولين فى انتظارها

وكانت ليوبا تمشى فى الطرقة على مهل ، وهى تزر عينيهـــا بطريقة ظريفة ، وتهدل شفتيها فى تيه وكبرياء ··· وما كادت تلوح حتى نهض سمولين ، وتقدم للقائها فى انحناءة مؤدبة راقتها وصادفت هوى في نفسها ، كما راقها هذا المعطف الجميل الذى ينسجم هو وجسمه القليل النحيل··لقد تغير قليلا عما كانت تعرفه، وكان شعره لا يزال أحمر اللون وحليقا ، ووجهه ممتلئا بالنمش ، الا أنه قد أصبح ذا شـــاربين بديعين ، والظاهر أن عينيه زادتا اتساعا ·

وقال العجوز لابنته وهو يشير الى سمولين :

- عريس نموذجى ! اه ؟

وهنا ضغط سمولين على يد ليوبا ، وابتسم ·

وتمتم سمولين فى نغمة لطيفة :

- أتعشم ألا تكونى قد نسيت زميل الدراسة القديم !

ويقول ماياكين وهو يلقى على ابنته نظرة فاحصة :

- تستطيعان كلاكما التحدث فيما بعـد ·· تستطيعين يا ليوبا

ان تنصرفي للاشراف على الخدم حتى ننتهى من الحديث الذى كنا بصدده ... هيه ، وهكذا كان أفريكان ديتريبفتش كما تقول ...

ويتوجه سمولين بالحديث الى ليوبا فيقول لها في رقة بالغة

— أستمحيك العفو .. آنسة ليوبوف ياكوفلفنا !

وتجيبه ليوبا :

— أوه ... عفوا ... لا شيء مطلقا .

وتتحدث الى نفسها فتقول : انه رقيق وفي منتهى الأدب ... وكانت وهي تمشي بين المائدة وصوان الفضية في الغرفة المجاورة تختلس السمع بأذن فطنة الى ما يقول ... « وسرها أن تجد صوته ناعما لطيفا ممتلئا ثقة » :

— وكما ذكرت لك .. لقد قمت بدراسة طيبة للجلود المدبوغة فى روسيا وحالتها فى الأسواق الخارجية ... لقد كانت الجلود الروسية منذ ثلاثين عاما أجود أنواع الجلود ... الا أن الاقبال عليها أخذ يتناقص هذه الأيام ، كما أخذت أسعارها تتناقص أيضا ... وهذا أمر طبيعى ، لأنه ما لم يتوافر رأس المال والعلم والخبرة لا تستطيع مصانع الجلود الصغيرة عندنا مواجهة ما يقتضيه انتاج الأنواع الراقية من نفقات لم يكن لهذه المصانع بها عهد ، وما هى مضطرة اليه فى الوقت نفسه من تخفيض النفقات ... ومع هذا فان ما تنتجه يكون غالى الثمن وصنفا رديئا الى درجة كريهة . لقد ألحقوا بروسيا أضرارا شنيعة بالقضاء على سمعتها بوصفها منتجة للأنواع الراقية من الجلود . وبوجه الاجمال ان هؤلاء المنتجين الصغار الذين ينقصهم رأس المال والمعلومات الفنية الصناعية أعجز من أن يجاروا آخر التطورات فى الصناعة الحديثة ، ومن ثمة فهم لعنة رزئت بها البلاد ، وطفيليات تقضى على تجارتها .

ومن خلال ما كان يشف عنه حـــديث سمولين البسيط المنلى، دراسة وفهما أدركت ليوبا ما كان يبدو على هذا الشاب من سمات الترفع والاستعلاء حتى لكأنه كان يشعر أباها بأنه المنعم المتفضل بالاصهار اليه ... وقد آلم هذا ليوبا وضاقت به .

وهمهم العجوز واحـدى عينيه على سمولين ، والأخرى ناحيـه ليوبا ، ثم قال :

ـ وبالاختصار فانت تفكر فى بناء مصنع ضخم ... ضخم كالحوت ... ليبتلع جميع المصانع الصغيرة .. كما يبتلع الحوت الأسماك الصغيرة !

وقال سمولين ، وقد أومأ ايماءة لطيفة ينفى بها ما اتهمه به ذلك الداهية العجوز :

ـ أوه .. كلا .. ان غرضى هو استعادة ما كانت تتمتع به الجلود الروسية في الأسواق الخارجية من شـــهرة فى الجودة وتهاود فى الأسعار ..

وعلى ضوء ما اكتسبته من علم بوسـائل الانتاج الحديثة أعتزم بناء مصنع نموذجي لانتاج بضائع نموذجية أفاجىء بها السوق ؛ ن شرف البلاد ...

وسأله ماياكين مقاطعا ... وقد غرق فى لجة من التفكير .

ـ وكم من النقود قلت ان ذلك كله يتكلف ؟

ـ حوالى ثلثمائة ألف .

وعندما سمعت ليوبا ذلك همست فى نفسها تقول :

ـ وهذه ذقنى أن كان أبى يضحى بمثل هذا المبلغ من أجل سواد عيونى !

ويعود سمولين الى حديثه فيقول :

- ان مصنعي سيصدر الجلود مشغولة فى صورة أحذية وشد
وسروج وأحزمة .

ويقاطعه العجوز مرة ثانية متسائلا :

- وكم يا ترى تبلغ الفائدة التى تحلم بالحصول عليها من ذلك

- أنا لا أحلم .. بل أقيم مشروعى على أرقام حسابية مضبو
مبنية على ما تسمح به الأحوال فى روسيا .

ويضغط سمولين على عبارة : الأرقام الحسابية المضبوطة مؤ
واثقا .. ثم يقول :

- ان عقلية المنتج يجب أن تكون عقلية باردة من الوجهة العملي
اشبه فى برودها بعقليـــة الرجل الميكانيكى الذى يخترع آلة
الآلات . فاذا كان يقصد بآلته أن تنهض بعمل كبير ضخم ، ل
أن يعمل حساب احتكاك أصغر عجلة من عجلات آلته من الناحيـ
الميكانيكية البحتة .. وكم أود أن تقرأ الملاحظات التى كتبتها
والتى بنيتها على دراسة طويلة عميقة لتربية الماشية وعلى تجـــا
اللحوم فى روسيا .

ويجيبه ماياكين ضاحكا ضحكة خفيفة :

- حسبنا هذا الآن ... لقد جعنا ... وملاحظاتك هذه لا تغ
من الجوع شيئا .. الا اذا كانت مما يؤكل ... عظيم جدا ..
كل انسان يستطيع أن يدرك أنك لم تضع وقتك فى أوربا عبثا .
فالآن .. هلم نأكل شيئا ... وعلى الطريقة الروسية القديمة

وجلسوا الى المائدة ... وتوجه سمولين الى ليوبا بالحـــدي
يسألها ، وهو يتناول سكينه وشوكته :

ـ والآن ··· كيف تقضين وقتك يا آنسة ليوبوف يا كوفلفنا ؟

وينوب العجوز في الرد عن ابنته قائلا :

ـ مسكينة ·· انها ربة الدار هنا ··· تشرف على كل صغيرة كبيرة فى المنزل كله ··· ولهذا لا تجد متسعا من الوقت للترفيه عن نفسها !

وتضيف ليوبا :

ـ لا متسعا من الوقت ولا متسعا من الوسائل ··· اننى لا أطيق هذه الحفلات الراقصة ولا تلك الولائم التى يقيمها التجار ·

ويسألها سمولين :

ـ والمسرح ؟

ـ أنا لا أذهب الى المسرح كثيرا ··· لأنى لا أجد من أذهب معه ·

ويزوم ماياكين متعجبا :

ـ المسارح ! لعلك تتلطف وتشرح لى هذا الأسلوب الحديث الذى أدخلوه على المسارح اليوم ، والذى يصورون فيه التجار كحفنة من المغفلين ! ان هذا شيء ظريف وفيه تسلية بالطبع ·· الا أنه بعيد من الحقيقة كل البعد · ان التـــاجر هو أهم شخصية فى مجلس المدينة ·· والتاجر هو الذى بيده مقاليد الشـــئون التجارية ·· والتاجر هو الذى يملك هذه المسارح نفسها ·· وبعد هذا يجرءون على تسميته مغفلا ! ان هذه المسرحيات التى يؤلفونها عن التجـــار ليست من حقيقة الحيـــاة فى شيء على الاطلاق · أوه ! أنا أفهم أنه لا داعى لأن تطابق القطعة المسرحية الاستعراضية واقع الحياة فى المسرحيات التاريخية التى من قبيل : « حياة القيصر » بما فيها من غناء ورقص ، أو « هملت » أو « الساحرة » أو « فاسيليزيا »

أقول : انه لا داعي لأن تطابق أمثال هذه المسرحيات واقع الحياة لأنها تتناول الماضي ، ولا شأن لها بنا نحن . وسواء كانت حقيقية أو غير حقيقية فالعرض هو أهم ما تهدف اليه ... أما اذا كنت تتناول الحياة في أيامنا هذه فواجبك أن تتحرى الحقيقة فيما تقول ، وأن تكون أمينا في تصويرك الناس في ضوء الواقع الصحيح » .

وكان سمولين يبتسم في أدب جم وهو يصغي الى العجوز ، ثم حدج ليوبا بنظرة كأنما يوحي اليها بأن تتولى هي الرد على أبيها .. ومن ثمة قالت ، وفي نفسها شيء من الضيق :

ــ على كل حال .. يجب أن تعترف يا بابا أن معظم التجار وعائلاتهم هم أناس خشنون وغير متعلمين

ويومىء سمولين موافقا ويقول :

ــ أجل .. هذا صحيح ، بكل أسف ، ولكن .. ألست عضوا في جمعية من الجمعيات ؟ ان ثمة جمعيات من كل نوع في هذه المدينة .

وتقول ليوبا ، وهي تتنهد :

ــ أعرف هذا ... ولكن ... الظاهر أنني بعيدة بوجه ما عن كل ذلك .

ويتدخل أبوها فيقول :

ــ ان البيت يشغلها على الدوام . ويكفي أن تلقي نظرة على كل هذه التحف والطرف التي جمعناها هنا ... انها تحتاج دائما الى العناية والرعاية ، وأن تظل نظيفة ومنظمة .

ثم أومأ في زهو وكبر الى المائدة المكتظة بألوان الفضيات ، والى صوان الصيني الذي كان ينوء بحمله من الآنية الغالية التي تملؤه والتي كانت تذكر الانسان بما يعرض من أمثالها وبهذه الكثرة ،

في فترينات المحال التجارية. وكان سمولين ينظر الى ذلك كله وعلى شفتيه ابتسامة ساحرة ، لكنه كان يلتفت الى ليوبا ، لينظر اليها تلك النظرة التى تفيض بالمودة ، والتى كانت تفهم منها أنه يتفق معها فى كل شيء ... وكانت هى تدرك هذا ، وتحمد الله عليه ، وتشعر بسببه بمشاعر السعادة الغامرة تسرى ملء جوانحها فى هيبة وخجل

لقد كان لمعان الزجاج المشطوف يتضاعف ويشتد فى ضوء النجفة البرونزية الضخمة ، ومن ثمة كانت الغرفة تبدو مفعمة بالانوار .

ويبتسم سمولين الى ليوبا ابتسامة رقيقة ويقول :

- اننى مغرم غراما شديدا بمدينتنا القديمة العزيزة .. انها مدينة جميلة ساحرة ، وزاخرة بالحركة والحيوية ... ان فيها شيئا يحفز الانسان الى الكد ... شيئا يجعل الانسان يسعى الى العمل ... ان روح جمالها فيه وحى وفيه الهام .. انه يجعل الانسان ميالا الى أن يحيا حياة مملوءة .. وأن يعمل بكل ما فى وسعه من نشاط وجد ... ثم هى مدينة الأعمال الذهنية الى هذا كله ... وآية ذلك تلك الصحيفة المهمة التى تصدر فيها ... وعلى بكرة ... نحن معتزمون شراءها .

ويسأله ماياكين بلهفة :

- نحن ؟ .. ومن نحن هؤلاء ؟

- أورفانستوف وشتشوكين ، وأنا ..

ويقول العجوز وقد دق المائدة بيمينه :

- عال .. عال جدا ... وعلى هذا فقد آن الأوان لاغلاق فواههم - ولعمرى .. لقد آن أوان ذلك من زمن طويل .. ولكن !

... ولا سيما فم هذا الملعون ييزهوف ... ذى الأسنان الحادة المرهفة ! انكم تحسنون صنعا اذا بردتم أسنانه ... ابردوها .. وثقوا أنكم تؤدون للبلد خدمة جليلة

ويعود سمولين فيرمق ليوبا بنظرة باسمة ... وتعود مشاعر السعادة فتغمر فؤادها من جديد .

وتقول ليوبا . وقد عراها الخجل ، وهى متوجهة بالحديث الى أبيها فى الظاهر ، والى سمولين فى واقع الأمر :

- ان لم أكن مخطئة ، ليس الغرض الذى يهدف اليه أفريكان ديمتريبيفتش من شراء الجريدة هو اغلاق أفواههم كما تقول يا بابا

ويقول لها العجوز وهو يهز كتفيه :

- ولماذا اذن يريدون شراءها ان لم يكن هذا هو غرضهم ؟ انها صحيفة لا يصدر عنها الا الضجيج والتهويش .. أوه ، اللهم الا اذا كان الذين سيكتبون فيها هم رجال الأعمال أنفسهم ... التجار أنفسهم .. نحن ...

ويقاطعه سمولين فيقول واضعا الأمر فى نصابه :

- ان نشر جريدة ما يمكن أن يكون عملا مربحا حتى اذا نظرنا اليه نظرة تجارية صرفة ، ولكن للجريدة بغض النظر عن ذلك هدفا مهما جدا ، وبالأحرى هو الدفاع عن حقوق الملكية الخاصة والمصالح التجارية والصناعية .

- وهذا هو ما كنت أقوله تماما - ان التجار اذا كانوا هم الذين يتولون أمور الصحيفة أمكن أن تستعمل استعمالا صالحا

- ولكن يا أبى ...

وشرعت ليوبا تتحدث ... لقد أرادت أن تعبر عن رأيها فى هذا الموضوع أمام سمولين .. أرادت أن تشعره بأنها تفهمه ، وبأنها

يست هذه الفتاة العادية ·· ابنة أحد التجار ··· التى لا هم لها لا الملابس والرقص ·· لقد أحبت سمولين ·· ولم يسبق لها قط ن لقيت تاجرا قضى شطرا طويلا من عمره خارج بلاده ··· تاجرا تكلم بهذه اللهجة المقنعة التى تترك أثرها فى وعى سامعها ، وله ثل هذا الخلق النبيل ، ويعنى بهندامه الى ذاك الحد ··· ثم ··· هذا هو المدهش ··· يتحدث الى السيد العجوز الداهية ، أذكى جل فى المدينة بأسرها ، بتلك اللهجة التى تفيض زهوا واستعلاء ·· اللهجة التى يتكلم بها الرجل الكامل الرجولة الى صغير لا يزال حبو فى مدارج الطفولة ·

وأخذت ليوبا تحلم ، وتتمنى الأمانى ، وتقول لنفسها : « ان شاء لله ·· بعد الزفاف ·· فسأجعله يأخذنى معه الى الخارج » وراحت ذه الفكرة الطارئة تلح عليها الحاحا جعلها تنسى ما كانت تقصد ن تقوله لوالدها ··· ومن ثمة ·· فقد خجلت واحمر وجهها ولم ستطع أن تفوه بكلمة ··· وخشيت أن يضع هذا من قيمتها فى ينى سمولين ··· وأخيرا لم تجد مخرجا من حيرتها هذه الا أن نول :

ـ لقد تكلمتم بما فيه الكفاية ، وقد سرقنا الحديث فنسينا أن ندم شيئا من الشراب الى ضيفنا ·

ويقول لها أبوها : « هذا من صميم عملك أنت ·· فأنت ربة لدار »

ويقول سمولين : « أوه ·· شكرا ·· لا تشغلى نفسك ·· فانا آكاد أشرب شيئا على الاطلاق ·

فيقول له ماياكين ممازحا : « احم احم ! »

ولكن سمولين لا تزايله لهجة الجد ويقول ·

ـ صحيح والله .. أنا لا أكاد أشرب ... وان كنت أحيانا أتناول كأسا أو كأسين اذا كنت متعبا تعبا شديدا أو اذا لم تكن صحتى جيدة ... وأنا لا أستطيع أن أسيغ معنى للشراب لمجرد الانبساط. فثمة أسباب كثيرة لا حصر لها للانبساط والتسلية أجدر بالرجل المتعلم .

ويقول العجوز غامزا :

ـ كالنسياء مثلا !

ويظهر الامتعاض على وجه سمولين ، ويقول بجفاء وهو ينظر الى ليوبا :

ـ بل الكتب والمسارح والموسيقى ...

ويحملق الرجل مع هذا فى الشاب العظيم الفاضل ، ويزفر كما نزفر الخنازير ، ثم يقول فجأة :

ـ ان الحياة فى تغير دائم ... لقد كانت الكلاب الكبيرة تعيش يوما على الفضلات ... والآن ربما لا ترضى الأجراء الصغيرة بالقشدة . ومعذرة عن لهجتى الحادة يا سيدى الفاضل .. والقافية تعذر كما يقولون ... وأنا طبعا لا أعنيك أستغفر الله !

وامتقع وجه ليوبا ، والتفتت نحو سمولين فى رعب ... لقد كان يفحص ملاحة من الميناء قديمة الصنع ، وهو يبرم شاربه كأنه غير ملق باله لما يقال ، الا أن عينيه كانتا أحلك سوادا من العادة ، وكانت شفتاه مزمومتين بشدة جعلت ذقنه شديدة البروز كذلك .

ويقول ماياكين ، وكأن شيئا لم يحدث :

ـ وهكذا يصبح جوسبودين صاحب المصنع المزمع انشاؤه والهد

يتكلف ثلثمائة ألف روبل ثم تملأ الرياح شراعه وتسير السفينة باسم الله مجريها ٠٠ أليس كذلك ؟

ويجيبه سمولين بلهجة الواثق الذى لا يتردد ، وهو يحدج الرجل العجوز بنظرة صارمة باردة :

ـ فى خلال عام ونصف العام تكون بضائعى معدة للسوق ، ثم يتوالى الانتاج بصورة متوسطة بعد ذلك ٠

ـ وتتكون الشركة من سمولين وماياكين ٠٠ ولا أحد غيرهما ٠ عظيم ٠٠ عظيم ٠٠ من كان يصدق أننى وقد بلغت هذه السن أفكر فى مغامرة جديدة ، ألا تعتقد ذلك ؟ أنا ٠٠ الذى يجثم تابوت الموتى فى انتظاره منذ سنين ! هه ! ما رأيك فى هذا ؟ ٠٠

ولكى يفلت سمولين من الاجابة ، راح يضحك ضحكا عاليا ، وان كان ضحكا باردا لا حرارة فيه ولا مبالاة ، كالذى يقول : الى حيث ألقت ! ثم يقول أخيرا :

وقد سرت رعشة فى جسم ماياكين عندما صك أذنيه ضحك سمولين ٠٠٠ ثم اذا هو يأخذه الوجوم من حيث لا يشعر

وتمضى لحظات وقد لاذوا جميعا بالصمت

ثم يقول ماياكين دون أن يرفع رأسه :

ـ أجل ٠٠٠ لقد آن أن نفكر فى ذلك ٠٠ لقد آن أن أفكر ـ أنا ـ فى ذلك !

ثم يرفع الرجل رأسه ، ويحدق تحديقا شديدا فى ليوبا ثم فى سمولين ٠٠ وينهض واقفا ، ويقول متجهما :

ـ سأترككما وشأنكما لحظة ٠٠ فلدى شغل يجب أن أنجزه فى غرفة المكتب ٠

ويتركهما بالفعل ٠٠ ثم يخرج ، ورأسه منكس ٠٠ وكتفاه مرتخيتان ٠٠ وهو يجر قدميه جرا ٠٠٠

ويحاول الفتى والفتاة أن يتحدثا بشيء بعد خروجه ••• الا أن المحاولة لم تكن تزيدهما الا ربكة •• ومن ثمة فلم ينبسا بكلمة •• وسادهما صمت يشوبه الارتباك والحرج ، ومدت ليوبا يدها فتناولت برتقالة ركزت كل انتباهها فى تقشيرها ، أما سمولين فقد جعل ينظر الى شاربه ، ثم اذا هو يمد يده اليسرى ليسويه فى عناية ورفق ، ويتناول بيده اليمنى سكينا ويشرع فى تقليبه واللعب به •

ويمزق هذا الصمت بقوله لليوبا :

ـ معذرة عما وقعت فيه من عدم اللياقة ••• ولكن ••• لعلك لا تنكرين أنك تجدين فى المعيشة مع والدك شيئا من الصعوبة والمشقة ••• انه ـ كما يبدو لى ـ من رجال المدرسة القديمة ـ وأخشى أن أقول : الدقة القديمة ، ان لم يضرك أن أقول هذا ، أو أن أقول انه صلب الرأى فيه قساوة !

وأفزعت ليوبا صراحة هذا الرجل الصغير ذى الشعر الأحمر ، وأنشأت تنظر اليه نظرة كلها سرور ورضا وامتنان عظيم ، ثم قالت وكأنها توافق على ما يقول :

ـ ان المعيشة هنا صعبة وشاقة بالفعل ••• الا اننى اعتدتها •• ثم ••• ان له آراءه السديدة مع ذاك •

ـ أوه •• هذا ما لا يرقى اليه الشك ••• ولكنك •• أنت ! أنت الفتاة الصغيرة •• الشديدة الجاذبية ••• المهذبة الواسعة الثقافة ••• التى لها آراؤها الخاصة فى الحياة •••

لقد كانت ابتساماته لها تفيض حنانا وعطفا ، كما يفيض صوته رقة ولطفا ، مما جعل قلبها يمتلىء بالدفء ، ومما زاد خيط السعادة الباهت الذى تشبثت نفسها به بريقا ولمعانا •

الفصل الثاني عشر

كان فوما جالسا مع ييزهوف في غرفته وهو يصغي الى ما كان يقص عليه من الشائعات التي تلوكها ألسن الناس في المدينة •

وكان ييزهوف جالسا فوق منضدة حافلة بالصحف ، وقد راح يمرجح رجليه في نشاط وخفة ، وهو يقول :

ــ لقد بدأت الحملة الانتخابية • وقد رشح التجار اشبينك ••• السوسة العجوز ••• انه رجل مستعص على الموت ••• ولا بد أن يبلغ المائة والخمسين من العمر ••• وسيزوج ابنته سمولين ــ هل تتذكره ؟•• هو هذا الغلام ذو الرأس الأحمر ••• انهم يقولون انه شاب مهذب دمث ••• وهذا هو شأنهم في تسمية كل شخص أوتي شيئا من الذكاء شخصا مهذبا دمث الأخلاق ، حتى لو كان وغدا لئيما ••• لأن الناس اليوم ليس فيهم من هو مهذب دمث الأخلاق• وأفريكان سمولين يتظاهر بأنه أحد الأذكياء المستنيرين ــ لقد شق طريقه بالفعل في أوساط ذوي العقول الراجحة ، وهو يجذب اليه الأنظار ••• ان نظراته تشف عن أنه تصاب من الدرجة الاولى ، الا أنه واثق من نجاحه في هذه الحياة لأنه وصولي ، ويعرف كيف يحقق ما يصبو اليه من نجاح ••• أجل يا صديقي ••• ان أفريكان سمولين رجل من حزب الأحرار ، والتاجر المتحرر مزيج من الذئب والخنزير •

ويقول فوما وهو يلوح بيده :

ـ الى جهنم هو وغيره ٠٠ ماذا يعنينى أمره ؟ انك تشرب بشراهة كعادتك !

ـ ولم لا ؟

لقد كان منظر بيزهوف ، هذا القميء الأشعث شبه العارى ، كمنظر الديك المنتوف الريش الذى خاض معركة قتالة ولم يهدأ من حرها بعد

ـ اننى أشرب لأنه من الضرورى أن أطفىء ظمأ روحى المتأجج من حين الى حين ٠ أما أنت ـ يا كتلة الخشب المبللة ـ أفلا تزال تدخن ولم تنطفىء بعد ؟

وغمز فوما بعينيه ثم قال :

ـ لا بد لى من الذهاب لزيارة هذا العجوز ٠

ـ خذ النور من قرنيه !

ـ اننى أشعر كأنى لا أستطيع هذا !

ـ اذن ٠٠ فلا تذهب

ـ ولكن هذا واجب

ـ اذن ٠٠ فاذهب ولا بد أن تأخذه من قرنيه

ـ أوه ٠٠ بالله عليك أقلع عن هذا المزاح ٠٠٠ فالموضوع لا يمكن أن يكون من الموضوعات التى تسر أحدا

ويشب بيزهوف من فوق المنضدة متحمسا وهو يقول :

ـ بل أنا أجد فيه متعة أية متعة ٠٠٠ ألم تقرأ فى عدد أمس كيف مزقت لحم شخصية من أهم شخصيات المدينة وفرمتها فرما ؟ ٠٠

وفضلا عن هذا ، فقد سمعت نكتةطريفةممتعة ٠٠اسمع يا سيدى : جلس جماعة من الناس عند شاطئ البحر حيث أخذوا يفلسفون ويتحدثون عن الحياة ، واذا يهودى يوقف الحديث فجأة ليقول (مالئا كلامه بالشينات بدل السينات والثاءات) : أيها الشادة ٠ لماذا هذا الاشراف فى الكلام عن الحياة ؟ بوشعى أن ألخش الموضوع كله فى كلمة واحدة ٠٠٠ انها لا تشوى كوبكا واحدا ٠٠٠ لا تشوى أكشر من هذا البحر ٠٠٠

ويقاطعه فوما قائلا :

ـ حسبك ٠٠٠ ووداعا

ـ مع السلامة ٠٠٠ الطريق الذى يؤدى ٠٠ أنا مزاجى اليوم رائق ، وليس لى دماغ لسماع زمجراتك ٠٠٠ وبخاصة مذ أبدلت بزمجراتك هذه الوحوحات التى تشبه قباع الخنازير ٠

وانصرف فوما ٠٠ وغادر ييزهوف وهو يغنى بأعلى صوته :

خذ طبلك معك ولا تخف ٠٠٠

ولما سمع فوما هذا البيت همس فى نفسه : انك أنت نفسك الطبل ٠

وكانت ليوبا هى التى لقيته فى منزل والدها ٠٠٠ فقد ظهرت أمامه فجأة ، وفى حال من الدهشة الشديدة :

وقالت :

ـ أنت ! يا لله ! وما هذا النحول وما تلك الصفرة ٠٠٠ الظاهر انك تعتنى بنفسك عناية كبيرة ٠

ثم يبدو عليها شئ من الذعر ، وعادت تقول هامسة :

ـ أوه ٠٠ فوما ! ألم يبلغك ؟ إليوم ـ من ؟ ألم تسمع ؟ انه الجرس ـ ربما يكون هو ٠

وخرجت مسرعة ... تاركة من ورائها : حفيف ثوبها الحريرى ، وفوما الذى لم يجد فرصة ليسألها حتى : .. هل أبوها موجود ؟ . ولقد كان أبوها بالمنزل فعلا ... بل كان واقفا بالباب وقد أمسك مصراعيــه بذراعيه المفرودتين على طولهمــا ، وهو لابس فراكه الفضفاض الضافى ، وعلى صدره جميع نياشينه وأنواطه ، وجعل يحملق فى فوما بعينيه الخضراوين الصغيرتين . ولم يكد يدرك فوما وجود العجوز الداهية حتى رفع رأسه ، وهنا أنشأ ماياكين يحييه بلهجة فيها من التبكيت ما فيها :

— كيف الأحوال أيها السيد الظريف ؟ ،ومن أين أتيت ياترى ؟ ومن ذا الذى كان يمتص دمك ، أو أن الخنــازير — على حد المثل — مهما أحبت القذارة اغتسلت ولو بقارة (١) ؟

ويقول له فوما مقطبا :

— هل هذا هو كل ما عندك مما أردت أن تقوله لى ؟

ثم يلاحظ أن العجوز قــد فوجىء بشىء ، لم يكن ينتظره ، وأن رجليه أخذتا ترتجفان ، وأنه يشدد قبضته على كتف الباب ، فى حين أخذت عينــــاه تطرفان . ويخطو فوما نحوه خطوة ، ظانا أن بالرجل شيئا من الوعكة ، الا أن ماياكين ينحيه جانبا وهو يقــول بشىء من الغلظة :

— اليك عنى — تنح ..

ويتراجع فوما ، ويجد نفسه واقفا الى جانب شاب ربعة قليل الجسم ، كان منحنيا ليحيى ماياكين قائلا :

— كيف الحال يا والدى !

---

(١) المقــارة : القطعة من الزفت الأسود .

ويجيبه العجوز وقد أمال رأسه قليلا ، وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة لينة :

ـ كيف حالك أنت ، تاراس ياكوفلفتش ٠٠ كيف حالك ٠

لقد كانت رجلاه ترتجفان من هول المفاجأة ، ولذلك كان امساكه بالباب وامساكه اياه بشدة ، خشية أن يقع ٠

وتنحى فوما مرة أخرى ثم جلس وقد تولاه العجب ٠

وأخذ جسم مایاكين الواهن الواهي يتمايل الى الأمام مرة والى الخلف مرة أخرى ، وهو منتصب الرأس مع ذاك ، يحدق عينيه فى ولده ، دون أن يتكلم ٠ وكان ابنه يقف أمامه شامخا ، وقد انتشر حاجباه فوق عينيه الكبيرتين السوداوين ٠ لقد كان له وجه أبيه النحيل وأنفه الكبير ، وكانت له لحية تنتهى بعثنون ، وشارب صغير أسود كان يختلج فى تلك الآونة ٠ وكانت ليوبا تقف خلف فوما ، فلما رفع رأسه لمح وجهها الشاحب المذعور ، وهى تنظر الى أبيها نظرات كلها رجاء وكلها توسل ، والدموع تكاد تنهمر من عينيها ٠٠٠ لقد كانوا جميعا فى غمرة من المشاعر المختلفة التى أمسكت ألسنتهم ، فلم يجدوا الى الكلام سبيلا ، بل لم يكونوا يأتون معها بحركة ٠٠٠

ثم مزق مایاكين هذا الصمت آخر الأمر بصوته الساكن الذى لم يكن يعرف الهدوء قط ، وهو يقول :

ـ لقد أدركتك الشيخوخة يا تاراس !

وضحك ابنه ضحكة خفيفة ثم راح يرسل نظراته السريعة الى والده ، تأخذه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه ٠

وترك الرجل كتف الباب التى كان يمسك بها ، ثم تقدم الى ابنه خطوات ، لكنه توقف فجأة ، وعلت وجهه عبوسة عجيبة ٠٠٠ ولما لاحظ تاراس ذلك ، تقدم هو ، وبسط يده الى أبيه ٠

وقال مایاكين بصوت ناعم :

« حسن جدا ٠٠٠ هلم ٠٠ وليقبل أحدنا الآخر »

وتعانقا عناقا مثيرا ، وأخذ كل منهما يقبل الآخر قبلات حارة

، وتعانقا عناقا مثيرا ، وأخذ كل منهما يقبل الآخر قبلات حارة ٠٠٠ ثم انفصلا ٠٠٠ وكانت غضون مايا كين ترقص كعادتها ، أما وجه تاراس فكان هادئا رابط الجأش ، بل يكاد يكون جامدا ، في حين كانت ليوبا تنشج نشيجا سعيدا ٠ وفي حين كان فوما يجلس في كرسيه متململا ٠٠ لايكاد يجد أنفاسه !

وأخذ مايا كين ينشج بصوت حزين يفيض أسى ويقول :

« أيها الاولاد : ان ماتفيض به قلوبنا ليس من حبور ولاابتهاج ٠٠ بل هو مما بها من هذا السرطان الذى يجعلها نخرة »

وكأن مايا كين قد تخفف مما كان يجثم على صدره ويثقل على روحه وهو ينفض أشجانه في هذه الكلمات ٠٠٠ اذ لم يكد يفرغ من قوله حتى أخذ وجهه يفيض بالبشر ، وأخذ جسمه يدب فيه النشاط ، وتشيع فيه الحركة ، ثم قال لابنته في لهجة عذبة :

« طبعا ٠٠٠ من مثلك اليوم ؟ ٠ من لقي أحبابه ، نسي أصحابه ! هيا ٠٠ أعدى المائدة لكى نقدم شيئا الى هذا الابن الضال ٠

ثم يتوجه بحديثه الى تاراس فيقول :

« الراجح انك نسيت شكل أبيك ياتاراس ، أليس كذلك أيها العجوز ؟

وكان تاراس مايا كين يلبس ملابس سوداء كلها ، وكان الشيب المنتشر في شعر رأسه وشعر لحيته يتلألأ لهذا السبب بشكل واضح يسترعى النظر ، فلما قال له أبوه ماقال لم يزد على أن تبسم، ولم يتكلم ٠٠

« حسن ٠٠ اجلس اذن وقص علينا قصة حياتك ، وماذا كنت تصنع خلال هذه السنين الطويلة ، ثم ما آمالك في المستقبل ٠٠

هـذا هـو ابنى الروحى ·· ابن اجنات جورديف ·· هـل تتذكر اجنات ؟

« أتذكر كل شيء

« حسن ·· ان لم يكن قولك هذا تباهيا ! هل أنت متزوج ؟

« لقد ماتت زوجتى ·

« ألك أولاد ؟

« لقد ماتوا ·· كان لى ابنان

« واأسفاه ! كم كنت أتمنى أن يكون لى حفدة

« أتأذن لى بأن أدخن ؟

« ولم لا ··؟ هيا ·· « سيجار »

« ان لم يكن لك اعتراض

« أبدا أبدا ·· هذا كله عندى سواء ·· ان ما كنت أ ·· ان ما كنت أقصده ·· هو أن تدخين السيجار من دأب الارستقراط ؟· وأنا لم أقلها الا ··· الا على سبيل النكتة ··· شـاب رزين عجوز منلك ، بهذه الشوارب ذات القطة الاجنبية ·· وقد أمسك السيجار بين أسنانه ··· ثم ابن من ؟ ابن ماياكين ·· هى هى ·· هىء !

ثم راح يضرب ابنـه فوق كتفه وهو يضحك ··· الا أنه يتوقف عن ذلك كله فجأة ، كأنما أدركه شيء من الاحتشام··أو الخوف ·· لقد أخـذ يسائل نفسـه ·· هل كان قد تعجل الى اظهار الابتهاج بأسرع مما ينبغى ؟ وهل كانت هذه هى الطريقة التى يلاقى بها هذا الابن ذا الشعر الاشيب ؟ لقـد راح ينظر متشككا فى عينى ابنـه السوداوين اللتين كانتـا تلمعان فوق نفاختى خديه الاصفرين ··· حتى لم يسع تاراس الا أن يبتسم ابتسامة لطيفة ، وهو يقول لابيه :

« هذا بالضبط هو ماكنت أذكرك به ·· المرح ، والحيوية ·· ان السنين لم تغير منك شيئا قط ·

وشد ماياكين كتفيه فى زهو وخيلاء ، ثم دق صـــــدره بقبضته تباهيا وقال :

« وهى لن تغير منى شيئا ·· لان الحياة لاسلطان لها على من يقدر نسه قدرها

« أو هو ·· يالك من رجل ذى كبرياء

ويجيبه أبوه متثعلبا :

« كيف لا ؟ يجب أن أقتدى بابنى ··· ابنى هذا المتكبر الأكبر ذى لم يكتب الى حرفا واحدا طوال سبعة عشر عاما !

« هذا لان أباه لم يكن يحب أن يقرأ منه حرفا واحدا

« دعنا من هذا ··· فالله وحده يعلم من الملوم ·· وهو ، بسامى كمته ، سيدلك يوما ما ·· وليس هذا أوان الكلام فى مثل تلك لامور ·· انما أريد الآن أن تحدثنى عما كنت تفعل كل هذه السنين، كيف التحقت بالعمل فى مصانع الصودا ·· ثم كيف شققت سبيلك ى الحياة ·

وزفر تاراس قائلا :

« هذه قصة يطول شرحها ·

وبعد أن أخذ من سيجاره نفسا طويلا ونفثه فى الهواء مرة واحدة، محدثا ضبابة كبيرة من الدخان شرع يقول :

« عندما أطلقوا سراحي ذهبت للعمل فى مناجم الذهب ـ التابعـة لاخوان زمزوف ·

« أعرفهم ·· انهم اخوة ثلاثة ، أحدهم أعرج ، وثانيهم مغفـل ، وثالثهم بخيل مغلول اليد ···

« وهذا الثالث هو الذى اشتغلت عنده لمدة عامين ، وقد تزوجت ابنته فى نهايتهما

« بديع ٠٠ مرحى مرحى ٠٠

وهنا ، استغرق تاراس فى شبه غيبوبة ، وراح والده يتفحص وجهه الحزين الشاحب بنظرات عميقة ، ثم يقول :

« ألاحظ أنك كنت تحبها حبا شديدا ــ هذا مالا يد لنا فيه ٠٠ ان الموتى يصعدون الى السماء ٠٠٠ ويبقى الذين لم يموتوا لكى تظل العجلة تدور ٠٠٠ على أنك لايزال فيك الرمق بعد ٠٠٠ وهل أنت أرمل منذ زمن طويل ؟

« من أكثر من عامين

« وكيف التحقت بمصانع الصودا ؟

« انها كانت ملكا لصهرى

« أوه ٠٠ وكم كان يدفع لك ؟

« حوالى خمسة آلاف روبل

« لقمة طيبة ! اهم ــ ومن هنا تلك الجريمة التى حكم عليك من أجلها بالاشغال الشاقة ؟

وهنا رمق تاراس والده بنظرة متثلجة ، ثم سأله بجفاء :

« على فكرة ٠٠ ومن أين لك أننى حكم على بالاشغال الشاقة ؟

وهنا لاح شىء من الذهول على وجه ياماكين ٠٠ ثم لم يلبث أن حلت محله اشراقة من الفرح :

« عجبا ! ألم يحكم عليك بالاشغال الشاقة اذن ؟٠٠٠ حمدا لله ! ولكن ، كيف حدث هذا ؟ أرجو ألا يسوءك شىء ٠٠ ثم كيف كان يمكن أن أعرف الحقيقة ؟ لقد قيل أنك أرسلت الى سيبريا ٠٠ والمحكوم عليهم بالإشغال الشاقة هم الذين يرسل بهم اليها

وبدا التأثر على وجه تاراس ، وشرع يقول وهو يضرب بيده على ركبته :

- اذن ‥ فيحسن وضع حد لهذه الاقاويل ‥ وسأذكر لك ما كان من ذلك بالضبط ‥ لقد نفيت الى سيبريا حيث قضيت بها ست سنوات ، وحيث قضيتها جميعا فى مناجم الذهب على ضفاف نهر لينا ، وقد قضيت فى السجن تسعة أشهر فى مدينة موسكو ‥ وهذا هو كل ماهنالك ٠

ويتمتم ماياكين ، وقد انشرح صدره ، وان شعر بربكة :

- مفهوم ‥ ولكن من أين اذن تلك ال ٠٠٠ ؟

فيزوم تاراس قائلا :

- من أين كل تلك الشائعات الحمقاء التى تناقلتها ألسن السوء عندكم ؟

ويقول ماياكين وقد بدا عليه التألم :

- حقيقة ‥ لقد كانت شائعات حمقاء ٠

- وقد جرت على ضررا كبيرا ٠

- هل حدث هذا حقا ؟

- حدث ‥ لقد كنت وقتها قد بدأت أتسلم عملى ‥

★ ★ ★

لقد كان فوما منزويا فى مقعده ذاك وهو يرقب الرجلين ، ويستمع الى حديثهما فى ريبة وقلق ، وهو يتفحص ماياكين الشاب ‥ وكان موقف ليوبا من أخيها ، ذلك الموقف الذى كان يستند الى ما كانت ألسنة السوء تشيعه عن ألوان نشاطه وهو بعيد عن أبيه ‥ كان

هذا الموقف هو الذى جعل فوما يعد تاراس شخصا شاذا لا يمكن بحال أن يكون له مثيل بين الأشخاص العاديين ·· لقد كان يظن أنه شخص له طريقته الخاصـــة فى الحـديث ، وله أسلوبه الخاص فى الملابس ·· وله بوجه الاجمال طريقته الخاصة فى كل شىء ·· مما يجعله مختلفا عن الناس فى جميع أحوالهم ·· ولكن ·· ها هو ذا يرى أمامه شخصا يدل مظهره على أنه واحد من رجال الأعمـــال الناجحة ·· رجل أنيق فى ملبسه ·· لا يكاد يختلف عن أبيه فى شىء الا فى هذا السيجار الذى فى فمـــه · وهو يتحدث أحاديث عادية ، ولكن فى عبارات أنيقة وأسلوب المستيقن المتحقق · فماذا كان فيه مما يعد شذوذا ؟ ·· لقد شرع يحدث أباه عما يمكن أن تغله تجارة الصودا من أرباح · انه لم يحكم عليه بالأشغال الشاقة قط — لقد استنتجت ليوبا ذلك ·· واستيقنته الساعة فحسب ·

وكانت ليوبا لا تنفك فى حركة دائبة ، وكان وجهها مشرقا يفيض بهجة ، ولم تكن تحـــول عينيها مطلقا عن تاراس الذى كان يلبس معطفا محلى بالفرو ، مصنوعا من قماش راق شديد السواد ، ذا أزرة كبيرة وجيوب فى كلا جانبيه · لقد كانت تمشى على أطراف أصابعها، ثم لا تنى تمد عنقها نحوه · وكان فوما ينظر اليها ممعنا ، لكنها كانت لا تكاد تلقى بالها اليـــه ، وهى تحمل الأطباق والزجاجات مهرولة من الباب الى المائدة ومن المائدة الى الباب ·

وحدث أنها كانت داخلة فى اللحظة التى كان تاراس يتحدث فيها الى أبيه عن موضوع منفاه ، فوقفت مسمرة فى مكانها ، والصينية فى يديها الممدوتين ، تصغى الى كل كلمة يقـــولها تاراس واصفا ما لاقاه فى منفاه ، حتى اذا فرغ من حديثه ، استدارت وانصرفت فى بطء ، دون أن تلاحظ تلك النظرة الساخرة التى كان يحدجها بها فوما ·

ولقد كان فوما موزع الفكر بين تاراس · وبين ما لقيه من اهمال

هؤلاء له جميعا ·· حتى لقد انصرف ذهنه عن متابعة حديث تاراس قليلا ، ولم يعد الى وعيه الا حينما أحس فجأة بأن يدا تضرب على كتفه ، مما جعله يجفل ، ثم ينهض واقفا على قدميه ·· وذلك أمر كاد يربك اشبينه :

– أرأيت ! ها هو ذا أحد أفراد أسرة ماياكين ، فاتخذه مثالا ! لقد غلوه فى سبع بواتق خرج منها كلها حيا وغنيا ·· فهل يمكنك أن تستخلص لك عظة من ذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بنفسه ، دون أن يستعين بأحد أو يطلب المساعدة من مخلوق ·· وهذا هو ما يعنيه كون الانسان من أولاد ماياكين ! ان الرجل من أسرة ماياكين يقبض على مستقبله بيديه ·· فهل تفهم ذلك ؟ استخلص لنفسك درسا من تاراس ·· واذا لم تجد له مثيلا فى مائة من الرجال ، فابحث عن مثيله فى ألف رجل · ان الفرد من أسرة ماياكين يظل رجلا الى الأبد مهما ألم به من الأحداث ·· وأية قوة فى هذه الدنيا لا يمكن أن تنال منه أو تجعل منه اما قديسا ، واما « ابليسا » ·· وأرجو ألا تنسى ذلك أبدا ··

ولم يدر فوما ما يقول ·· فقد بدهته هذه العبارات التى تفيض فخرا وكبرا ، والتى لم يكن ينتظر أن يتيه بها هذا الرجل زهوا ودلالا · ولمح ابتسامة ترف على ركن من فم تاراس وهو يدخن سيجاره فى هدوء ، وينظر الى أبيه ، لقد كان وجهه يتسم بسمة الرضا والتشامخ ، ومظاهر الكبر والاستعلاء تكسو شخصيته كلها ·· والظاهر أن سرور أبيه بما سمعه منه كان يملؤه هو أيضا سرورا ومتعة ·

وواصل ماياكين حديثه الى فوما فقال ، وهو لا ينى يلكمه بيده العاجزة الموهونة فى صدره :

– اننى لا أعرف ابنى ·· ابنى أنا الذى من صلبى ·· انه لم

يطلعنى على خفايا صدره بعد ٠٠ وربما تكون بيننا هوة لا يستطيع النسر أن يحلق فوقها ، ولا الجن أن يتخطاها ٠٠ وربما كان دمه قد طال به الغليان فى دار الغربة حتى لم تبق فيه رائحة من دم أبيه ٠٠ ومع هذا ٠٠ فقد ظل فردا من سلالة مایاكين ٠٠ وقد أدركت ذلك على الفور ، وتحققته ، وقلت لنفسى : حمدا لله ٠٠ حمدا لك يا الهى ٠٠ الآن أستطيع أن أترك هذه الدنيا لأكون بين يديك ٠٠ مطمئنا ، هادىء البال ٠

لقد كان العجوز يرتجف ارتجافا شديدا حتى خيل لفوما أنه يرقص ، وهب تاراس مسرعا لنجدته وهو يقول له :

ـ تفضل يا أبى ٠٠ تفضل ٠٠ هدىء من نفسك ٠٠ هلم فلنجلس ٠٠

ثم ابتسم لفوما عرضا ، وسار بأبيه نحو المائدة ٠

ولم يكد مایاكين يستريح حتى أنشأ يقول :

ـ انني أومن بالدم ٠ وكل ما فى الرجل من قوة هو فى دمه ٠٠ لقد كان من عادة والدى أن يقول لى : ان دمى يتدفق فى عروقك يا ياشا ٠ ودماء عائلة مایاكين أثقل من أن تستخفها أية امرأة ٠٠ فهلم فلنشرب زجاجة من الشمبانيا على هذا يا أولاد ٠٠ هل هناك مانع ؟ ٠٠ وبعد هذا تذكر لى كل شىء ـ كل ما حدث لك ـ قل لى ٠٠ كيف تجرى الأمور فى سيبريا !

ويعود مایاكين فتبدو عليه مرة أخرى أمارات القلق والتفكير العميق وهو يحملق فى ولده بشدة ٠٠ ولكن تاراس لا يكاد يرسل اجاباته الجازمة المطمئنة حتى يغرق أبوه فى نشوة جديدة من الجذل والابتهاج ٠ وكان فوما يرمق ذلك كله وينصت اليهما من الركن الذى كان جالسا فيه ساكنا لا يتحرك ٠

ويأخذ تاراس فى حديثه بهدوء وفى رزانة فيقول :

ـ الشائع بين الناس أن استخراج الذهب من مناجمه عمل يسير لا يكلف شيئا ، والحقيقة أنه عمل محفوف بالكثير من المخاطر ، ويفتقر الى رأس مال كبير . والتجارة مع الأهالى تعود على التاجر بربح جم ، وهى تملأ جيوب التجار بأموال وافرة ، حتى لو لم تكن تجارة منظمة . انها على الدوام مشروع ناجح ، الا أنه متعب . وهى لا تحتاج الى كثير من الذكاء ، ولا تتيح فرصة لذوى المواهب الكبيرة لكى يظهروا فيها مواهبهم ..

ثم تحضر ليوبا وتدعوهم الى المائدة . فاذا خرج الرجل وابنه من الحجرة أمسك فوما بكم ليوبا واستبقاها فى الحجرة ، فتسأله مسرعة :

ـ ماذا تريد ؟

فيجيبها فوما مبتسما :

ـ فى منتهى السعادة .

ـ ولماذا .. ؟

فتقول له وهى تنظر اليه متعجبة :

ـ يا لك من شخص مضحك ! ألا تستطيع أن تدرك ذلك من نفسك .. ؟

ويجيبها باحتقار :

ـ عجبا ! كأنما يمكن أن يرجى أى خير من أبيك أو من طبقة التجار جميعا ؟ ثم .. انك قد كذبت على . لقد أخبرتنى أن تاراس هو كذا وكذا ، وأنه كيت وكيت ، فاذا هو تاجر عادى كبقية التجار، وله بطن كبطونهم !

ويسره أن يراها قد اصطبغ وجهها بلون الدم ، ثم اذا هى تمتقع

فيبيض وجهها ثانية ، ثم تعض شفتيها فى استياء ، ثم اذا هى تلهث وتقول :

—أنت ٠٠ أنت ٠٠ كيف تجرؤ على مخاطبتى هكذا ؟

فاذا بلغت الباب استدارت له بوجه يغلى غضبا ، ثم قالت بصوت هادىء :

— أنت يا كاره البشر ٠٠ يا عدو الناس !

ويضحك فوما ٠٠ !

انه لم يرد أن يجلس الى المائدة مع هؤلاء السعداء الثلاثة ٠٠ لقد كان يسمع أصواتهم المرحة وضحكهم الطافح بالسعادة ، كما كان يسمع قرقعة الأطباق ، فيدرك انه لا مكان بينهم لشخص مثله مثقل القلب موضور النفس ٠٠ بل لا مكان له فى أى مكان مطلقا ٠ وبينما كان يقف وحده فى وسط الحجرة رأى أن يترك هذا المنزل لأصحابه الذين كانوا يقصفون ٠ ولما خرج بالفعل ، وجـد قلبـــه يضطرب بالسخط على هؤلاء الذين عاملوه هذه المعاملة ٠٠ على أنهم بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ٠٠ كانوا لا يزالون أقرب الناس اليه فى هذه الدنيا ٠٠

وأخذ ينظر بعين خياله الى وجه اشبينه بغضونه المرتعشة وعينيه الخضراوين وهما تلمعان مسرورتين ، كما أخذ يتمثل هـــذا العجوز كتلة من الخشب فاسدة ، جعلها السوس نخـــرة ، وهى تتأجج فى الظلام ٠٠ ثم لا يلبث أن يتمثل وجه تاراس ، هذا الوجه الهادىء الجاد ، ويتمثل جسم ليوبا وهو مشدود نحوه ٠٠ فاذا هو يحـــزن ويحقد ٠٠

وراح يسائل نفسه : كيف يستطيع أحد أن ينظر اليـــه بتلك الطريقة ٠٠ ؟

وكانت الجلبة التى تحدثهـــا حركة المرافىء على ضـــفة النهر قد

ردته الى كامل وعيه ٠٠لقد كان الناس حوله في كل مكان يشحنون السفن بالبضائع ويفرغونها منهـا بحركات سريعة قلقة ، وبعضهم يحث الخيول ،وبعضهم يصيح ببعض آخر بأصوات مهتاجة ، مالئين الشارع بجلبة فارغة تغطى على حركة العمل ٠ لقـد كانوا يجيئون ويروحون فى شارع ضيق مبلط بالحجارة قامت المبانى العالية عـلى أحد جانبيه ، وانحدرت ضفة النهر تحت جانبها الآخر ٠٠ وقـد خيل لفوما أنهم انما يفكرون فى الهرب من عملهم الى ذلك الشارع القذر المزدحم ، وأنهم يتعجلون الفراغ من أعمالهم التى تعوقهم هكذا حتى يستطيعوا الهرب بأسرع ما يستطيعون ٠

وكانت بواخر ضخمة ترسل الدخان الكثيف من مداخنها الكبيرة، وقد رست فى انتظارهم قرب الشاطىء ؛ وكانت مياه النهر العكرة، المتلئة بالسفن والصنادل من كل نوع ، لا تنى تضرب الشـاطىء بأصوات مشجية ، كأنها تتمنى لوساد الهدوء والسكينة لحظات !

ومرت دقائق كانت الأنغام السعيدة التى ترسلها أغنية يتغنى بها العمال ٠٠ أغنية « دو بنشكا » ٠٠ تأتى خلالها من أحد المرافىء ٠ لقد كان متعهدو شحن السفن وتفريغها يقومون بمجهود متواصل مستعجل ، وكان الشغالة يثبون على نغمات الأغنيـة ، فيربطونها بنغمات حركاتهم ٠

فاذا أنشتد المغنى :

فى الحانة يجتمع التجر

ظـرفاء ترويهم خمـر

رد عليه الباقون من أعماق قلوبهم :

أو ! دوبنشكا ! هيا ، تعالى

فاذا أصوات خفيضة ترسل أنغامها القوية فى الهواء :

ها هى تأتى ‥ ها هى تأتى ‥

فتردد الاصوات الصادحة أصداء هذه الكلمات نفسها :

ها هى تأتى ‥ ها هى تأتى ‥

ووقف فوما يصغى الى الأغنية لحظة ، ثم قصد الى المرفأ الذى تجىء منه . حيث وجد الشغالة قد اصطفوا صفين وهم يجرون برميلين كبيرين من داخل عنبر احدى السفن . وكانوا يلبسون قمصانا قذرة ، مفتوحة الصدور ، وأيديهم فى قفازات بلا أصابع ، وأذرعهم عارية الى الكوعين ، وقد وقفوا عند مدخل العنبر يشدون الحبال بطريقه مرحة تفيض دعابة وأخوة ، محافظين على أنغام الاغنية، وقد انطلق صوت المغنى الأصلى المحجوب عن الأنظار من داخل العنبر ضاحكا ، وهو يغنى فى الوقت نفسه :

أما نحن الشغالة فى تلك السفن

فظماء لا نملك للخمرة من ثمن !

فيرد عليه الشغالة جميعا وبصوت واحد مدو :

أو ‥ دوبنشكا ! هيا تعالى ‥

وكان غناؤهم يقع من نفس فوما موقع الموسيقى العذبة المنسجمة، وسره أن يقف لملاحظتهم . لقد كانت وجوه الشغالة القذرة طافحة مع ذاك بالبشر ، وكان العمل سهلا لينا لا تعقيد فيه ، وكان قائد الغناء يفيض الهاما ، حتى لقد حسن فى عينى فوما لو استطاع أن يشتغل مع أمثال هؤلاء الرفاق على وقع ذاك الغناء البديع ، وكم يكون جميلا شرب زجاجة من الفودكا بعد أن يكون الجهد قد نال منال منه ، ثم التهام طبق من حساء الكرنب صنعته تلك الفاسقة التى تطبخ الطعام لهؤلاء العمال .

وسمع فوما بعضهم يقول فى صوت أجش :

ـ ما أبدعهم من عمال يفيضون نشاطا وحيوية ! ما أبدعهم !

فيلتفت ، ليرى رجلا سمينا منتفخ البطن ينقر على ألواح المرقاة بعصاه وهو يتفرج على الشغالة بعينيه الصغيرتين ، والعرق يترقرق فوق وجهه وعنقه ، وهو لا ينفك يمسحه بيده اليسرى ، ويتنفس أنفاسا لاهثة كأنه كان يتسلق جبلا

ورمقه فوما بنظرة جافة ، ثم أخذ يحدث نفسه :

ـ ان غيره من الناس يقومون بالعمل ٠٠ أما هو فيعرق لهم ! ولكن ٠٠ لعلى أنا نفسى أردأ منه !

لقد كان كل طابع جديد يولد فيـــه أفكارا مضنية تزيده يقينـــا بتفاهتـــه ، وكان يحس كأن كل شىء فى الوجود ينطق بزجـــره والتثريب عليه ، وكأن كل كلمة زجر له أو تثريب عليه صخرة يرزح تحتها صدره ٠

وذهب فى مساء ذلك اليوم نفسه الى منزل آل ماياكين ٠ ولم يكن الرجل العجوز ثمة ، وكانت ليوبا وأخوها يتناولان الشاى فى حجرة الأكل ، وقد سمع تاراس وهو فى طريقه الى الحجرة يقول فى صوت مبحوح أجش :

ولماذا يهتم أبونا بأمره ؟

ولم يكد فوما يظهر حتى لزم تاراس الصمت ، وأخذ يتفرس فيه ، فى حين بدا الارتباك على ليوبا ، وان قالت له كأنها تعتذر :
ـ أوه ٠٠ هل هو أنت ؟

وعندما كان فوما يأخذ مكانه كان يحدث نفسه قائلا :
ـ لقد كانا يتحدثان عنى ٠

وصرف تاراس نظره عن فوما ، ثم شرع يأخذ جلسة أخرى

تهيىء له قدرا أوفى من الراحة ، ثم مضت لحظات من الصمت المكظوم جلبت الرضا لنفس فوما • ثم سألته ليوبا أخيرا :

ـ ألست ذاهبا الى الحفلة ؟

ـ أى حفلة ؟

ـ ألم تعلم ؟ ان كونونوف ينزل مركبا جديدا الى الماء ، وستقام حفلة تدشين ، تعقبها رحلة الى أعلى الفولجا

ـ اننى لم أدع •

ـ انه لم يدع أحدا ، بل اكتفى بالاعلان عن ذلك فى البورصة بقوله وانه يسعده أن يشرفه من يشاء بالحضور •

ـ حسن •• وأنا لا يعنينى أن أذهب •

ـ صحيح ! لا تتعجل •• ان الشراب سيجرى هناك أنهارا ••

ثم رمقته ليوبا بنظرة شزراء ، فقال لها فوما :

ـ فى وسعى أن أشرب حتى أغيب عن وعيى •• ولكن على حسابى أنا •

وهزت ليوبا رأسها هزة لها معناها ، وهى تقول :

ـ ألا أعرف أنا ذلك ! ••

وكان تاراس يلعب بملعقة شاى وهو يرمقهما بطريقـــة غير مباشرة •

وسألها فوما :

ـ أين السيد الوالد ؟

- ذهب الى المجلس حيث ينعقد اجتماع لهيئة المديرين اليوم . الانتخابات ستجرى .

- وهل سينتخب ؟

- طبعا .

ويسود الصمت مرة أخرى . ويمضى تاراس فى شرب شايه جرعات كبيرة ، ثم يبتسم لأخته ، ويدفع كوبه نحوها دون أن يتكلم ، وتبتسم هى أيضا سعيدة مجبورة ، وتأخذ الكوب فتغسله ، وتملؤه ، وتعيده الى أخيها ، ويكون وجهها قد تبدل من نظرته السعيدة أمارة من أمارات الجد أقرب الى أن تكون تجهما .. وتقول بصوت هادىء مشوب بالوقار :

- هل يمكن أن نعود الى ماكنا نتحدث فيه ؟

ويجيبها تاراس باقتضاب :

- لا بأس .

- أنت تقول .. وأنا لا أفهم عنك تماما .. لقد قلت انك اذا وجدت ذلك كله تفكيرا طوبويا .. وبالأحرى .. اذا كان مستحيلا أن .. نحلم .. فماذا اذن فى وسع انسان لا ترضيه الحياة أن يفعل ؟

ثم جعلت تنظر فى وجه أخيها نظرات هادئة كلها ترقب ، وراح هو يرمقها ثم يتململ فى كرسيه ، ثم ينغض رأسه ، ثم اذا هو يشرع فى حديث رزين كله يقين وثقة :

- اننا يجب أن نبحث عن السبب فى عدم رضا هذا الانسان عن الحياة . فلعل هذا السبب يكون ناشئا عن عجزه عن العمل ، أو عن فكرة خاطئة تراوده عن مقدرته الشخصية . ان غلطة معظم

الناس هى أنهم يتوهمون أنهم « أكفأ » مما هم حقيقة • والواقع أن ما يطلب من الانسان هو شيء طفيف جدا • فما عليه الا أن يتخير العمل الذى يكون فى وسعه الاضطلاع به ، ثم يؤديه بعد ذلك على أحسن وجه يستطيع أن ينهض به • واذا كان الانسان يحب العمل الذى يقوم به ، فان أشق الأعمال يصبح حينئذ عملا انشائيا • والكرسى الذى يصب فيه صانعه كل ما أوتى من شغف بصناعته لا يمكن الا أن يكون كرسيا جيدا متينا جميلا • وهذا ينطبق على كل شيء • اقرئى سميلز • ألم تقرئيه • انه كتاب عظيم جدا • كتاب خير •• ثم اقرئى بعد ذلك لبك Lubbock وتذكرى دائما أنه لا يوجد شعب أكثر جدا فى ميدان العمل من الشعب البريطانى ، وهذا يفسر لك نجاحهم الذى لا يدانيه نجاح فى الميدانين التجارى والصناعى • ان العمل عند البريطانيين يكاد يكون نظاما دينيا • والمستوى الثقافى عند أية أمة من الامم يتناسب دائما وحبهم للعمل وكلما زادت ثقافة شعب من الشعوب ، وكلما توافرت له مطالبه بصورة كاملة قلت الحواجز التى تقف فى سبيل ما يصبو اليه وراء تلك المطالب من مطاليب أخرى • والسعادة كل السعادة هى فى تحقيق كل ما يصبو اليه الفرد من طلبات • ومن ثم ترين أن سعادة الفرد انما تقوم على موقفه من العمل •

لقد كان تاراس ماياكين يسوق كلامه فى أسلوب بطيء حتى ليظن من يسمعه انه يجد فى الحديث ما يجهده • ولكن ليوبا كانت تستمع اليه بشغف ، وكأنما كانت آذانا مصغية تعد ما يخرج من فيه لآلىء من الحكمة جديرة بأن تختزنها فى قرارة روحها •

وتسأله :

— وماذا اذا وجد انسان أن كل شيء كريه تعافه النفس وتشمئز منه !

ويسألها فوما بدوره ، وفى هدوء أيضا •• ودون أن ينظر اليها :

— أى شيء بخاصة ؟

– كل شيء – الأشغال ، الأعمال ، الناس ٠٠ اذا رأى مثلا ان كل شيء كاذب ٠٠ ملفق ٠٠ مصطنع ٠٠ ليس شغلا حقيقيا ، بل مجرد ملء فراغ ، ملء فراغ للروح ٠ فبعض الناس يعمل ، وبعضهم لا يصنعون شيئا الا أن ينتفعوا بعرق غيرهم ويصدروا اليهم الأوامر، ومع ذلك فهم يحصلون على جميع الربح ٠ فبماذا تعلل ذلك ؟ ٠

– لست أفهم ما تقصدين ٠٠

وهنا يقطع فوما حديثهما ، وقد أدرك ما اكتسى به وجه ليوبا من شحوب ، فيقول بلهجة ساخرة :

– ألا تفهم ما تقصد ؟ اذن فلنعرض الموضوع على النحو التالى :

رجل يذهب الى عرض النهر فى مركب ٠ مركب جيد ٠ الا أن الماء شديد العمق تحته ٠٠ فهنا ، اذا بدأ الخوف يدب فى قلب الرجل من عمق الماء وعكره ، فماذا تجديه متانة المركب ؟ انها لن تذهب بهذا الخوف من قلب الرجل ٠

والتفت تاراس نحو فوما غير مبال به ٠ ثم جعل يتفرس فيه دون أن يتكلم ، وهو يدق طرف المنضدة بأصابعه دقا هينا لينا ٠ وكانت ليوبا تتلوى فى مقعدها قلقة متململة على حين كان بندول الساعة يعلن مضى الوقت فى دقات وانية أشبه بأنفاس الزمن ، فيدق قلب فوما فى بطء وثقل ، لأنه كان يعلم أن أحدا من أهل المنزل لا يمنحه كلمة عطف فى الآونة التى تحيق به حيرته المؤلمة

وعاد يقول : وكأنه كان يحدث نفسه أكثر مما كان يحدثهما :

– ليس العمل هو كل ما يفتقر اليه الانسان ، وليس صحيحا أن العمل يبرر كل شيء ٠ وبعض الناس لا يقومون بأى عمل صغر أو كبر طوال حياتهم ، ومع ذلك فهم يعيشون خيرا مما يعيش من يعملون ويكدحون ٠ فكيف تعلل ذلك ؟ ان عمالك ما هم الا مجرد عربات كارو بائسة ، يسوقهم غيرهم فيمتثلون ٠٠ وهذا

هو كل شيء . انهم مبرءون من الذنب عند ربهم . وأنت ان سألتهم ما غرضكم من الحياة ؟ أجابوك : اننا لا نملك من الوقت ما نجيب به عن هذا السؤال . اننا نكدح طوال حياتنا ، ولكن . بماذا أبرر أنا عيشى فى هذه الدنيا ؟ وبماذا يبرر حياتهم أولئك الذين لا يعملون أى شيء اللهم الا أن يصدروا أوامرهم الى من حولهم ، ليقوموا عنهم بعبء عملهم ؟ لأى شيء يعيشون ؟ يبدو لى أن كل انسان يجب أن يعرف بالضبط الغرض الذى يعيش من أجله .

وتوقف عن الكلام قليلا ، ثم مال برأسه الى الوراء ، وأنشأ يقول بصوت عال :

– هل يمكن أن يقال ان الانسان لم يخلق الا ليعمل ؟ ليجمع مالا ؟ ليبنى بيتا ؟ ليربى أولادا ؟ ثم ليموت ؟ لماذا يعيش الانسان ؟ لقد آن أن نجد جواب هذا السؤال .. آن لنا أن نعرف . ان الحياة التى نحياها خالية من الهدف ، وليس فيها أية مساواة .. وهذا واضح بين لا يخفى على أحد . ان بعضنا غنى مسرف الغنى ، يكفى ما يملكه ألف شخص ، وهو مع ذلك لا يقوم بعمل ما ، فى حين يكدحون طوال حياتهم ويعرقون ، ومع ذاك فهم لا يدخرون كوبكا واحدا من عملهم ذاك . وبالرغم من هذا فليس ثمة فرق كبير بين هذا وذاك . وقد تجد بين الذين لا يملكون قميصا يوارى سوءاتهم من يفهم أمور هذه الدنيا خيرا مما يفهمها من يلبسون الخزوالديباج ! »

وكان فوما متحمسا لما يقول حتى لكان فى امكانه أن يمضى فى حديثه طوال النهار لو لم يقطع عليه تاراس أقواله بدفعه كرسيه بعيدا عن المنضدة ثم نهوضه واقفا ، وهو يقول ويأخذ نفسا طويلا .

– كلا .. شكرا .. لقد سمعت بما فيه الكفاية ..

ويهز فوما كتفيه وهو ينظر الى ليوبا بابتسامة متكلفة ، فتقول له:

– من أين لك مثل هذه الفلسفة ؟ »

ويجيبها فوما فى صوت هادىء :

ـ ليست هذه فلسفة ٠٠ انها عقوبة ! وما عليك الا أن تفتحى عينيك وتنظرى من حولك لترى أن مثل هذه الأفكار ستزحف الى رأسك من تلقاء نفسها !

ويقول تاراس وهو واقف يتأمل الساعة المعلقة على الحائط وقد أولى ظهره للمائدة :

ـ وعلى فكرة يا ليوبا ٠٠ هل لاحظت يوما أن التشاؤم خلة غريبة تمام الغرابة على الجنس الانجلوسكسونى ؟ ٠٠ ان ما يسمونه تشاؤم بيرون وسويفت ليس شيئا الا استنكارا صارخا لأوجه النقص فى حياة البشر ٠ أما هذا التشاؤم الأسود المتحلل فليس له أثر بين الانجليز ٠

ثم يلتفت نحو فوما فجأة ، وكأنه قد نسيه فيقول له وهو يضع يديه خلف ظهره ، ويشد ساقه :

ـ انك تثير قضايا مهمة ، وان سماها بعض الناس قضايا صبيانية ، فاذا شغلتك وألحت عليك كثيرا فلابد لك من قراءة الكتب ٠٠ انك تجد في الكتب ملاحظات كثيرة ثمينة عن الحياة ٠٠ هل تقرأ ٠٠ ؟

ويجيبه فوما باقتضاب :

ـ كلا ٠٠ اننى لا أطيق القراءة ٠

ويقول له تاراس مبتسما ابتسامة خاطفة وهو يضم شفتيه :

ـ ولكن الكتب يمكن أن تفيدك كثيرا ٠

ولكن فوما يجيبه مقطبا :

ـ ان كان الناس لا يستطيعون أن يساعدونى على التفكير السليم ، فالكتب أشد عجزا منهم ولابد ٠

لقد تعب فوما من طول ما تحدث الى هذا السيد العديم الاحساس، وكان يتمنى لو ينصرف ، الا أنه كان في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئا لليوبا عن أخيها فيه بعض السخرية به ، والتحدى لها ، ومن ثمة فقد انتظر رجاء أن ينصرف تاراس من الغرفة ٠ وكانت ليوبا تغسل فناجيل الشاى ، وهى مستغرقة فى الفكر ، ويداها تتحركان فى فتور واسترخاء ، وكان تاراس يتمشى داخل الحجرة ، ثم وقف أمام الصوان الصينى المكدس بالفضيات ، وهو يصفر صفيرا خفيفا ، وينقر زجاج الصوان بأظافر أصابعه ، محملقا فى الآنية الفضية ، وقد رمقت ليوبا فوما بنظرة أو نظرتين كان يتبدى فيهما الاستهجان والترقب ، بل كانتا تشفان بصراحة عن عظيم سرورها لو تفضل حضرته فانصرف

وكأنما لاحظ هو ذلك فقال وهو يبتسم :

ـ اننى سأقضى الليلة هنا ، لأننى أريد أن أتحدث الى السيد الوالد ، وفضلا عن ذلك ، فأنا أشعر بالوحشة فى منزلى ٠

وتقول له ليوبا مسرعة :

ـ اذن فاذهب وأخبر مارفيوشا لكى تعـد لك سريرك فى حجرة الناصية ٠٠

ـ حسن ٠٠

ونهض ثم غادر الحجرة ، ولم يكد يتعدى بابها حتى سمع تاراس يوجه الى أخته سؤالا بصوت خفيض ٠

ودار فى خلده أنه يسألها عنه ، وسرعان ما جالت فى خاطـره فكرة شريرة : لماذا لا يتسمع ما يقوله هذان الأخـوان الذكيان عنه ٠٠ ؟

من أجل هذا دخل الى غرفة الطعام المجاورة دون أن يحدث صوتا • وكان الظلام يسود أرجاءها الا شعاعة ضئيلة تتسرب اليها من شق فى الباب الذى يصلها بحجرة الطعام الأولى ، ثم أمسك أنفاسه وهو يقف خلف باب الحجرة •

ويقول تاراس :

ـ هذه شخصية معقدة

وتجيبه ليوبا بصوت سريع منخفض :

ـ انه يحيا حياة بوهيمية ، ويسلك مسلكا فى منتهى الحماقة ، مسلكا شاذا لا يجيزه عقل • وقد بدأ هذا كله فجأة • وكان أول ما صدر منه أنه أعطى زوج ابنة وكيل المحافظ علقة ساخنة • وقد أثار والدى الأرض والسموات حتى يتحاشى الفضيحة • ومن حسن الحظ أن كان الرجل سيىء السمعة ، الا أن تلافى الفضيحة كلف الوالد بالرغم من ذلك أكثر من ألفى روبل ، وبينما كان أبى يبذل كل ما فى وسعه ليعفى على آثار هذا الحادث كان فوما يكاد يسلم للغرق فى نهر الفولجا جماعة بأسرها كانوا فى حفلة قاصفة معه !

ـ يا له من حيوان تعس ! ومع هذا فهو يستسلم للتأملات فى الحياة !

ـ وفى مرة أخرى كان فى نزهة نهرية مع طائفة ممن على شاكلته • ولما شربوا حتى غابوا عن وعيهم فاجأهم بقوله : صلوا على أنفسكم لأنى سألقى بكم جميعا فى النهر • وهو شخص ذو قوة جثمانية فظيعة • فلما شرعوا يولولون ويتوسلون قال لهم : اننى انما أريد أن أؤدى لبلادى خدمة جليلة بتخليصها من أمثال هذه الحثالات ومن أمثالكم من الأوغاد !

ـ ظريف جدا !

- ثم هو شخص شنيع : وسـيتولاك العجب لو عرفت جميع الحوادث المرعبة التى اقترفها فى هذه السنين الآخـيرة القليلة ، والأموال الطائلة التى بعثرها !

- خبرينى .. ما الشروط التى يدير له والدنا بموجبها أعماله ؟ هل تعرفينها ؟

- كلا .. لست أدرى . ولكن أبانا يتولاها بالوصية لمجـرد المحافظة عليها ، لماذا تسأل ؟

- أوه .. كنت أسأل بدافع العجب فحسب . انها عملية عظيمة ، وهى بالطبع منظمة تنظيما كريها ، وعلى الطريقة الروسية القديمة ، وبالرغم من هـذا فهى عملية عظيمة لو وجدت من يوليهـا عناية جدية ..

- ان فوما لا يعمل شيئا على الاطلاق .. وكل شيء ملقى على عاتق الوالد .

- عجبا !

- ويبدو لى أحيانا أن نوبات الكآبة التى تجتاح فوما ، ثم هذه الخطب التى يلقيها .. كل ذلك صادر منه عن اخلاص وطيبة قلب ، وأنه يمكن أن يكون شخصا محتشما معتدلا الى آخر حدود الاحتشام والاعتدال . الا أننى لا أستطيع أن أوفق بين تلك الحياة البوهيمية التى يحياها والأشياء التى يقولها !

- ولا جدوى فى محاولتك تلك .. فهو شخص كسول ، وقـد نشىء تنشئة سـيئة ، وهو على الدوام يحـاول أن يجد مبررا لكسله ..

- ولكنه يكون أحيانا أشبه ب ... أشبه بطفل برىء

- وهذا هو ما قلته بالضبط ٠٠ نشيء تنشئة سيئة ٠٠ ومن اضاعة الوقت أن نشغل أنفسنا بشخص غبى جاهل متوحش لا يريد الا أن يكون غبيا جاهلا متوحشا ٠ لقد سمعته ! انه يحكم على الأشياء كهذا الدب الذى تروى الأساطير أنه كان يلوى النير ولكن حول عنقه !

- انك قاس شديد القسوة

- أنا قاس فعلا ٠٠ والقسوة هى ما يحتاج اليه الناس ٠٠ ونحن الروس جميعا قوم كسالى وفينا استرخاء شديد ٠ ومن حسن حظنا أن سارت حياتنا فى طريق جديدة تجعلنا نشد ظهورنا سواء شئنا أو لم نشأ ٠ ان الانغماس فى الأحلام لا يجدر الا بالولدان والصبايا ٠٠ أما ذوو الجد من الناس فأمامهم عمل جدى يقومون به

- اننى أحيانا أشعر بالأسف الشديد نحو فوما ٠٠ ترى ٠٠ ماذا ينتهى اليه حاله ؟

- لا شيء على الاطلاق - لا خير ولا شر ، فلسوف تنفد أمواله جميعا ثم يصبح صعلوكا لا يملك شيئا ٠٠ولكن ٠٠ كفانا هذا حديثا عنه ، فأمثاله قليلو العدد هذه الأيام ٠ وقد أخذ التجار يقدرون قيمة التعليم ، أما هو ٠٠ هذا المخلوق الذى تكثرين من الحديث عنه ٠٠ فسينتهى الى الدمار ٠

وهنا ٠٠ يبرز فوما من مكمنه وهو يقول :

- هذا صحيح كل الصحة يا صديقى !

لقد كان مقبلا نحو الباب وهو ممتقع الوجه مقطب الجبين ملتوى الفم ، لا تتحول عيناه عن تاراس وهو يتوجه اليه بالحديث :

- هذا صحيح كل الصحة ٠٠ اننى سأنتهى الى الدمار ، فاللهم استجب ! وكلما كانت هذه النهاية أقرب ٠٠ كانت أحسن !

لقد وثبت ليوبا مفزوعة ، ثم أسرعت الى تاراس تقف الى جانب كالتى تحتمى ، وكان تاراس يقف فى وسط الغرفة هادئا رابط الجأش ؛ وقد وضع يديه فى جيوبه ٠

وتصيح به ليوبا وهى فى كرب عظيم :

ـ فوما ! يا للعار يا فوما !٠٠ أيصح أن تتجسس علينا !

ـ اخرسى ٠٠ أيتها النعجة !

ويقول تاراس وهو ينظر الى فوما بازدراء :

ـ حقيقة ٠٠ ان التجسس شىء لا يليق !

ويجيب فوما وهو يلوح بيده :

ـ وماذا يهم ؟ هل هى غلطتى أن تكون الطريقة الوحيدة التى يستطيع الانسان بها أن يسمع بها كلمة الحق وهى التجسس !

وتقول له ليوبا وهى تزداد التصاقا بأخيها :

ـ أرجوك يا فوما ٠٠ أرجوك أن تنصرف ٠

ويسأله تاراس فى ثبات :

ـ لعلك تريد أن تقول لى شيئا ؟

فيجيبه فوما متعجبا :

ـ أنا ؟ وماذا يمكننى أن أقول لك ؟ لا شىء ٠ بل أنت الذى يمكنك ٠٠ انك تحسن ان ترسل لسانك بما تريد ٠

فيسأله تاراس مرة أخرى :

ـ اذن فليس عندك ما تقوله لى ؟

— لا شيء ·

— فأنا سعيد جدا

ثم يلتفت الى ليوبا ليسألها :

— هل تنتظرين أن يعود والدك حالا ؟

وكان فوما ينظر اليه لحظة وقد خامره شعور أقرب الى أن يكون شعورا بالاحترام ·· ثم لم يلبث أن انصرف ·

ولم يشأ أن يذهب الى منزله ·· هـذا المنزل الضخم الموحش الخاوى ·· الذى كان يسمع فيه صدى كل خطوة يخطوها ·· ومن ثمة فقد أخذ طريقه فى الشارع الذى كان فى ذلك الوقت غارقا فى غسق أخريات الخريف المقبض الكئيب ، والأفكار تساور رأسه المضطرب عن تاراس ماياكين :

— انه رجل صارم مثل أبيه ، الا أنه ليس ملولا شديد التبرم منه ، والراجح أنه يتسلح لهذه الحياة بالغش والخداع كما يتسلح أبوه تماما ·· وهذا هو الشخص الذى تحسبه ليوبا قديسا ·· تلك المغفلة الصغيرة ! يا لله ما أبشع ما ذكره عنى ! هـذا القاضى الفاضل ! هيه ·· انها أشد عطفا على — على كل حال !

على أن هذه الأفكار لم تزده كراهية واشمئزازا لتاراس ، ولا حبا فى ليوبا ·

ومر به جواد اشبينه وهو يركض بماياكين الذى لمح فوما شخصه الضامر فوق صهوته ·· الا أن هذا أيضا لم يجعله يشعر بأى شعور جديد · ويمر وقاد من وقادى المصابيح بالقرب منه ، ويتوقف ليضع سلمه الى عمود المصباح ، ثم يتسلق فوقه ·· ولا يكاد يفعل حتى يتزحلق السلم فجأة ، فيتعلق الوقاد بالعمود وقد أمسك به بكلتا يديه وهو يلعنه ويلعن الدنيا · ويقف فوما ليشهد هـذا المنظر ·

ولكن فتاة صغيرة تمر به فتصدمه وتخرجه بهذا من تفكيره فى حاله هذا الوقاد ، فاذا لاحظت الفتاة ذلك وقفت لتعتذر اليه قائلة

— أوه ٠٠ عفوا يا سيدى !

ويرمقها فوما بنظرة دون أن يتكلم ٠

وترسل السماء رذاذا كريها تنتثر قطراته فوق المصابيح ورجاج الفترينات ، حتى لتبدو كأنما غطاها هباء من تراب قذر كان ينفذ الى حلوق الناس ، فيجعل تنفسهم شاقا عسيرا ٠

وجعل فوما يسائل نفسه : ترى ؟ هل أذهب الى ييزهوف ؟ ٠٠ لا بأس ، فسنشرب شيئا معا ، ثم نقضى الليل معا ٠

وانطلق الى دار ييزهوف ، وذهب اليه وان لم تكن به أقل رغبه فى الشراب ، أو فى رؤية صديقه نفسه ٠

ووجد فى غرفة ييزهوف رجلا أشعث رث الهيئة يلبس قميصا وبنطلونا رماديا ، جالسا على سرير صديقه ٠ وقد حمل وجها قاتما كئيب المنظر ، أشبه بجلد سمكة مشوية من سمك الرنجة ، وفى عينيه نظرة عابسة ، وعلى شفتيه شارب وحف منتشر كالشوك ٠ لقد كان يجلس وهو يلف ذراعيه الغليظتين حول ساقيه اللتين رفعهما فوق السرير ٠ مسندا ذقنه فوق ركبتيـــه ٠ أما ييزهوف ، فكان جالسا على كرسى ، وقد انتحى ناحية ، وساقاه فوق ذراع الكرسى ، وزجاجة من الفودكا قائمة بين الكتب والجرائد المنتشرة فوق المنضده والغرفة كلها معطرة برائحة السردين والسمك المملح ا

ونظر الى فوما فعرف أنه ينطوى على هم ثقيل فسأله ٠

— هيه ! ماذا يفرى فؤادك !

ثم استرعى نظر صديقه الجالس على السرير قائلا

ـ جورديف .

وقال الرجل في صوت أشبه بالصرير يقدم نفسه :

ـ كراسنو شتشيكوف

وجلس فوما على طرف السرير الآخر ، وقال موجها حديثه الى بيزهوف :

ـ لقد أتيت لأمضي الليلة عندك .

ـ لا بأس .. استمر في حديثك يا فاسيلي .

وحدج الرجل فوما بنظرة شزراء قبل أن يصل حديثه بصوته الذي يشبه الصرير ثم شرع يقول :

ـ أما أنا ، فلست أرى معنى لمهاجمتك الأغبياء من الناس بالطريقة التي تهاجمهم بها . لقدكان ماسا نيللو مغفلا .. ولقد كان قدصنع ماكان يجب أن يصنع بأحسن الطرق الممكنة . وكان صاحبك ونكلريد مغفلا على الأرجح ، هو أيضا ، لكنه لو لم يطعن نفسه بالسونكي لأمكن أن يتغلب على السويسري . وكم في الدنيا من مغفلين أمثال هؤلاء . ولكن الواقع أن هؤلاءهم الأبطال في أعين الناس ، أما الأذكيا فهم الجبناء الذين حينما يحين الأوان لكي يوجهوا ضربتهم وبكل ما فيهم من قوة ، راحوا يتساءلون : ولكن ! ماذا عسى أن تكون النتيجة ؟ ثم ماذا يحدث اذا ذهبت مجهوداتي أدراج الرياح ؟ ومن ثمة تراهم وقد وقفوا مسمرين جامدين كالأوتاد حتى تضيع الفرصة . أما الحمقى والمغفلون .. فهم الشجعان حقا .. انهم لا يبالون أن ينطحوا الصخر برءوسهم حتى تتحطم .. وماذا عليهم لو تحطمت بالفعل ؟ ألا ما أرخص رءوس العجول ! ثم هم اذا أحدثوا ثغرة في الحائط الذي ينطحون ، رأيت أصحابنا الأذكياء يأتون فيوسعون الثغرة حتى ينفذوا منها ، وينسبوا الفضل كله الى أنفسهم .. كلا .. انك مخطىء كل الخطأ يا صديقي نيكولاي

ما تفيفتش ·· ان الشجاعة شيء حسن جدا ، حتى لوجاءت بلا تدبر في العواقب !

ويلوح اليه ييزهوف بيده وهو يقول له :

- انك تتكلم كلاما فارغا يا فاسيلي

ويقول له فاسيلي موافقا :

- ربما ·· ولكن كيف تنتظر منى أن أدخل صالونا تلتقى فيه سيدات الطبقة العليا لأجلس وسطهن بملابسي الخشنة الرثة هذه ؟ ·· انني لست أعمى مع ذلك يا صاح ··· فأنا أعرف أن ثمة كثيرين من ذوى المواهب والذكاء ، الا أن الدنيا لا تستفيد في كثير أو قليل من ذكائهم ·

ويهم فاسيلي بالانصراف فيقول له ييزهوف :

- لم يحن أوان انصرافك بعد

- بل يجب أن أنصرف ، فلدى عمل الليلة - وقد تأخرت قليلا ·· وسأزورك غدا ان لم يضايقك هذا ·

- بل تعال ·· وسأفرم لحمك ان شاء الله !

- طبعا ·· فأنت لا تجيد الا هذا ·

وشد فاسيلي نفسه قليلا ، ثم نهض من فوق السرير ، وتناول يد ييزهوف المعروقة النحيلة الصفراء في يده الكبيرة السمراء ، ثم قال :

- وداعا

وأوما الى فوما ، وأخذ طريقه الى الباب وهو يمشى مترنحا ·

وسأل بيزهوف فوما وهو يشير الى الجهة التى يأتى منها صوت خطوات فاسيلى الثقيلة ، وهو يقطع المشى :

ـ هيه .. ما رأيك فى هذا الانسان ؟

ـ ومن يكون ؟

ـ فاسيلى كراسنو شتشيكوف . مساعد أحد التجار . ليكن لك قدوة .. ولتتخذ منه مثالا .. لقد كانت سنه خمس عشرة سنة حينما بدأ يتعلم القراءة والكتابة . وعندما بلغ الثامنة والعشرين كان قد قرأ من الكتب مالا أعرف عدده من كثرته .. وكان قد تعلم لغتين غير الروسية .. وهو الآن يعتزم السفر الى الخارج .

ـ ولأى غرض ؟

ـ ليدرس ، وليرى كيف يعيش الناس خارج روسيا .. فى حين أن حضرتك تقضى حياتك بهذا الوجه العابس المكشر !

ـ ان ما قاله عن المغفلين والحمقى صحيح كل الصحة :

ـ لا أستطيع أن أقطع فى هذا برأى .. اذ أننى لست أحمق ولا مغفلا !

ـ ان الحمقى من عادتهم أن يتصرفوا بسرعة البرق ـ يرتطمون بكل شيء .. ويضربون به الأرض !

ـ هأنت تشطح كعادتك ! لنغير الموضوع .. قل لى .. هل صحيح أن ابن ما ياكين قد عاد ؟

ـ أجل .. وماذا فى ذاك ؟

لا شيء .. لا شيء ..

ـ بل أستطيع أن ألاحظ من سمات وجهك أن ثمة شيئا ..

- انني أعرف ابن ما ياكين هذا . ولقد سمعت كل شيء عنه . هل هو مثل أبيه ؟

- أسمن منه قليلا .. وأكثر جدا .. الا أنه مثله تماما فى جمود مشاعره . احـــذر لنفسك منهم يا صديقى والا فلسوف يبتلعونك قبل أن تتنبه لذلك . ان تاراس هذا قد قام بأعمال بارعة ناجحه لصهره فى مدينة بيكاترنبرج .

- ليبتلعونى اذا أرادوا .. ولن أملك الا أن أشكرهم على ذلك .

- النغمة القديمة نفسها .. وعلى هذا فأنت لا تريد الا حريتك ، أليس كذلك ؟ ولماذا تريد هذه الحرية ؟ ماذا عساك أن تصنع بها ؟ انك لا تصــلح لأى شيء - وأنت لا تكاد تقرأ أو تكتب .. آه لو كنت أنا مكانك !

ووثب بيزهوف من مكانه ، ثم اتخذ لنفسه موقفــا فى مواجهــة فوما ، وجعل يقول بلهجة خطابية ، وبصوت رنان :

- لو أننى أســتطيع فقط تحــرير نفسى من حاجتى الى شرب الفودكا وأكل الخبز لأمكننى أن أجمع بقايا روحى المعذبة وأن أبصقها فيما أبصق من دماء قلبى فى أوجه هــذه الطبقة المحترمــة من أهل التفكير المستقل .. عليهم اللعنة الى الأبد ! .. ثم لقلت لهم : عار عليكم يامن أنتم عصارة أمتنا ، أنتم يامن اشترت بلادنا حياتكم نفسها بدماء العشرات من أجيال أبنائهـــا الروس ودموعهم ، عار عليكم أيتها الحشرات التى انتهى اليها أمركم : تذكروا ماذا كلفتم بلادكم ! وماذا تؤدون اليها من عمل الآن ! هل تصنعون اللآلىء مما ذرف أهل الأجيال السالفة من عبرات ؟ ســائلوا أنفســكم : ماذا صنعتم لكى تحيلوا حياة مواطنيكم أسعد حالا ؟ وماذا صــنعتم على الاطلاق مما يستحق أن يصنع ؟ كيف رضــــيتم لأنفســــكم بهذه

الهزيمة ؟ ثم ماذا أنتم صانعون الآن ؟ وكيف رضيتم لأنفسكم أن تكونوا مادة لاضحاك الآخرين ؟

ثم يضرب الأرض بقدمه فى عنف ، ويصر بأسنانه ، ويحدق فى قوما بعينين تتأججان كأنهما عينا وحش مهيج ، ويقول :

- اننى كنت أقول لهم : « انكم تضيعون من وقتكم ما لا حد له فى الثرثرة والملق .. لكنكم ليس لكم الا نصيب ضئيل من الفكر الناضج ، وأقل من ذلك من القوة والجلد .. وأنتم جميعا جبناء . ان قلوبكم أشبه بالحشايا الممتلئة بريش النعام .. فهى مثلها محشوة بالآداب والمقاصد الحسنة .. فأكرم بها من حشايا ناعمة تنام فيها الروح الخلاقة نوما لذيذا عميقا ! وبدلا من أن تنشط وتدأب وتدق ، تتأرجح كما تتأرجح مهاد الأطفال . اننى كنت أغمس أصبعى فى دم قلبى لكى أكتب على جباههم كلمة الخزى والفضيحة .. ولأمكن أن تقاسى هذه الخلاصة من أهل الفكر المستقل ، بأرواحهم المجدبة ، وسلامة نواياهم التى لا تستحق الا الاحتقار ! أوه ! ماذا يمكن أن يقاسوا ؟ ان سوطى لمؤلم ، وأن يدى لمتينة ! وأن حبى للابقاء عليهم لعميق مع ذلك ! انهم لا يألمون من شىء فى الوقت الحاضر ، الا أنهم يتحدثون عن آلامهم حديثا طويلا بالغ الطول ، وبصوت مرتفع مدو . ومن هنا فهم كاذبون .. لأن الألم الصادق الحق هو الألم الصامت الذى لا يشقشق ، والعاطفة الصادقة الحق لا تعرف الحدود . العاطفة ! وهل يدرك القلب الانسانى يوما ماذا تعنى العاطفة ؟ ان مصيبتنا جميعا هو أننا مجردون من العاطفة ! »

وهنا ، انقطعت أنفاسه ، وأخذ يسعل ، بل أخذ يسعل مدة طويلة ، وهو يذرع الغرفة ، ويلوح بذراعيه فى هوائها كما يلوح المجانين . وعندما وجد نفسه واقفا أمام قوما هرب الدم من وجهه ، وأخذت عيناه تصطبغان بلون الدم ، وراح يتنفس فى صعوبة ومشقة ، وكانت شفتاه تختلجان فتبدو من ورائهما أسنانه الصغيرة

الحادة . لقد كان يبدو بشعره الحليق المبلل المنتشر أسفل رأسه من كل ناحية كأنه سمكة من أسماك القشر خرجت من الماء توا ، ثم ألقيت على الأرض بجوار النهر . وكان فوما طالما عهده فى تلك الحال ، وكان فى هذه المرة ، كما كان فى كثير غيرها ، يقف مشدوها مفكرا . لقد كان يصغى فى صمت الى هذه الجملة من القذف التى يلقى بها ذلك الشاب الضئيل النحيل ، وهو لا يكاد يحاول أن يفهم منها شيئا ، أو أن يعرف ضد من يشنها ، بل هو لا يكاد يعقل منها الا ما يصبها فيها ييزهوف من قوة وعنفوان . لقد كانت الكلمات تنصب فى أذنيه كما ينصب الماء المغلى من سخان ، فتجعل روحه حارة فائرة .

ويمضى ييزهوف فى خطبته فيقول :

— اننى أعرف ما أودع فى من قوة وبطش . انهم يصيحون بى لكى أمسك لسانى ، وهم يذودوننى كما تذاد الطير ، وهم يفعلون بى هذا هادئين وفى استعلاء وترفع . ناظرين الى من قمة شامخة ! وأنا أعرف أننى عصفور صغير .. وأعلم أننى لست بلبلا ، بل أنا أعرف أننى غبى بليد الفهم بالقياس اليهم .. اننى لا أزيد على كونى كاتب أقاصيص ، غرضه الوحيد فى تلك الحياة هو أن يسلى الجماهير .. ولكن .. دعهم يتصايحوا بى ويذودونى كما تذاد الطير ، وسأتقبل سياطهم التى يصبونها على وجهى .. أما قلبى فسيظل خافقا نابضا وسأقول لهم : حقا اننى غبى بليد الفهم بالقياس اليكم ، غير أن الميزة الوحيدة الكبرى التى أمتاز بها عليكم هى أننى لا أومن أن حقيقة من الحقائق المطبوعة فى صفحات الكتب هى أعز على وأغلى قيمة عندى من الانسان ، ان الانسان هو الكون ، وليتمجد اسم الانسان الى الأبد ، لأن فيه يقوم العالم بأسره ، ولكن .. أنتم ؟ انكم فى سبيل كلمات لا غير .. يجرح بعضكم بعضا ويلحق بعضكم الأذى ببعض .. فى سبيل هذه الكلمات المجردة التى لا قيمة لها يصب بعضكم حام غضبه على بعض ، وتجرون النكد والآلام على أنفسكم .. وأنا

احـــذركم وأطلب اليكم أن تتفهموا نذيرى : انكم ستدفعون الثمن غاليا لقاء غفلتكم هذه · ان العاصفة سوف تثور ، وسوف تكتسحكم من فوق سطح الأرض كما يكتسح المطر المنهمر ما يعلق بورق الشجر من تراب · انه ليس فى جميع لغات البشر الا كلمة واحدة يفهمهـا الجميع ، وهذه الكلمة هى : الحرية !

وهنا يثب فوما من فوق السرير ، ويمسك بكتف ييزهوف وهو يقول :

ـ هذا صحيح ·· صرح لهم بهذا ·

ثم يحملق فى وجه ييزهوف بعينين مشتعلتين ·· ثم اذا هو يقول له ، وقد بدا الألم والمرارة فى صوته :·

ـ يا نيكولاى المسكين ·· لشد ما أشعر بالأسف من أجلك ·· انى لا أستطيع أن أصور لك مقدار أسفى من أجلك !

ولكن ييزهوف يصيح به ، وهـــو يدفعه جانبا ، وقد صـــدمته كلمات فوما وآلمته ، وما أبداه من شعور غير منتظر :

ـ ما هذا ؟ أوه ·· لا !

ويخفض فوما من صوته فيبدو أخصب وأغزر محبة واعزازا وهو يقول له :

ـ آه يا أخى ! انك روح متـــأججة ! وا أســـفاه على أن تضيع مجهوداتك هذه كلها سدى !

ـ ماذا ؟ سدى ؟ هذا كذب !

ـ يا صديقى العزيز الطيب ! انك لن تصرح بما يجول بخاطرك لأى مخلوق · فليس ثمة من يمكنك أن تصرح له به · اذ من يمكن أن يصغى اليك ؟ لا أحد ·· غيرى !

ويصيح به بيزهوف والشر ينقدح من عينيه ، وهو يولى عنه كأنما
تدعه ما يقول فوما :

ـ الى الجحيم بك !

غير أن فوما يقول له بسرعة ولهفة ، وبصوت يفيض ألما

ـ بل صرح لى بما يجول بخاطرك . ولسوف أحمل رسالتك الى
حيث تشتد الحاجة اليها . اننى أفهمها .. و .. أوه .. لسوف
ألفح بها قلوب الناس ! وما عليك الا أن تنتظر ! ان دورى آت لا
شك فيه !

ويصيح به بيزهوف بلهجة هستيرية ،وقد أسند ظهره الى الحائط
الذى كان يقف عنده مقطبا منطويا ، محطوم النفس ، محنقا .
يصيح به وهو ينشر الذراعين اللتين مدهما نحوه :

ـ اليك عنى !

وفى تلك اللحظة ينفتح الباب وتبرز منه امرأة متشحة بالسواد
يبيض وجهها انفعالا وتقطر سخطا ، وقد ربطت منديلا حول وجهها

وتقول بصوت فيه صرير وحشرجة ، وقد أمالت رأسها الى وراء
ومدت يدها نحو بيزهوف :

ـ نيكولاى ماتيفتش ، معذرة اذا قلت لك اننى شبعت بما فيه
الكفاية من هذا كله .. من هذا الصياح والشجار .. والزوار كل
يوم .. انك تسترعى أنظار البوليس .. ولقد أرخيت لك العنان
بما لم يعد فيه زيادة لمستزيد .. ويجب عليك أن تغادر هذا المنزل
غدا .. انك تعلم أنك لا تعيش فى صحراء .. ان حولك اناسا من
كل جانب ، وهم يريدون أن يعيشوا في أمان واطمئنان .. وها أنت
ذا ترى أن أسنانى تؤلمنى ألما شديدا .. فغدا أرجوك !

وكانت تتكلم بسرعة ، وكان الكثـــير من كلماتهــا يتلاشى في
زيرها وصفيرها .. ولم يكن يفهم من كلامها الا تلك التي ترسلها
صياح وصخب . وكان طرفا المنديل يبرزان فوق رأسها كأنهما
نان صغيران كانا يهتزان حينما تتكلم . وكان منظرها مضحكا في
لته وهي مهتاجة ، مما جعل فوما ينطرح على السرير مرة ثانية .
يبزهوف فقد ظل واقفا حيث هو ، وقد جعل يمسح جبينه ،
حاول أن يلقف ما تقوله تلك المرأة التي صرخت مرة أخرى من وراء
اب المغلق :

ـ وهذه آخر مرة أقولها لك : غدا .. فلا تنس ! ويا للفضيحة !

ويزم يبزهوف وهو يحملق خلفها مكتئبا :

ـ لعنة الله عليكن جميعا !

ويقول فوما في شيء من الدهشة :

ـ انها امرأة صارمة !

ويحدب يبزهوف كتفيه ، ثم يذهب الى المائدة حيث يصب لنفسه
نصف كوب من الفودكا ، فاذا عبه عبـــا ، انطرح كأنه كومة فوق
أحد الكراسي .. وتمضي دقيقة أو دقيقتـان لا ينبس أحد الرجلين
بكلمة واحدة .

وأخيرا يقول فوما في رهبة :

ـ لقد جرى ما جرى على غرة .. ان لسـانها كان أسرع من أن
يدع لنا فرصة حتى للتنفس !

ويحدجه يبزهوف بنظرة فاتكة ، ثم يقول له بصوت منخفض

ـ أما أنت يا سيد فوما .. فاخرس .. ولا تتكلم .. هيا ..
اقعد في الفراش وأسلم للنوم جفنيك .. وعليك اللعنة .. أيهـا

الهولة ·· أيها الناطور ·· يا خيال المقاتة !

ثم هز نحوه قبضته مهددا ·· وصب لنفسه مزيدا من الفودكا وعبها عبا ·

وتمضى دقائق ، ويكون فوما قد خلع ثيابه ورقد فى السرير وراح يرقب ييزهوف من خلال عينيه شبه المغمضتين · ييزهوف لا يزال جالسا كالكومة عند المائدة ، محدقا فى الغرفة ومحركا شفتيه · ولم يكن فوما يستطيع أن يدرك لانتهاره اياه على هذا النحو · هل كان السبب هو أن صاحبة ال قد أنذرته بالرحيل ·· وبالأحرى ·· بالطرد ؟ ولكن ييزهوف الذى كان يصيح ويصخب ·

وأخذ كاتب الأقاصيص يتمتم وهو يطحن الكلمات بأسنانه

ـ عليها اللعنة !

ويرفع فوما رأسه من فوق الوساة · ويزفر ييزهوف زفرة وهو يتناول زجاجة الفودكا ليشرب جرعة أخرى ·

ويقترح عليه فوما بصوت ناعم قائلا :

ـ هلم فلنذهب الى أحد الفنادق ·· فالوقت غير متأخر بعد ·

ويحدجه ييزهوف بكلتا عينيه ، ويرسل ضحكة غريبة ، ثم رأسه بيديه حكا عنيفا ، ويهب واقفا وهو يقول بصوت خاطف

ـ هلم فالبس ملابسك ··

فاذا تلكأ فوما قال له ييزهوف :

ـ أسرع ·· ألا تستطيع أن تسرع يا عجز !

ويبتسم فوما ابتسامة لطيفة ثم يقول :

ـ حسبك هذه الشتائم الآن ·· أما ثمة ما يستحق أن تتشاء من أجله ·· لا لشىء الا لأن هذه المرأة قد أطلقت عليك لسانها ؟

ولم يزد ييزهوف على أن نظر اليه ·· ثم بصق ·· ثم أغرق الضحك !

الفصل الثالث عشر

كان ايليا ييفيموفتش واقفا في مقدمة سفينته البخارية الجديده
دقا بعينيه المتلألئتين فى ضيوفه المجتمعين حوله وهو يناديهم ·

ـ هل حضر كل المدعوين ! ·· الظاهر انهم حضروا جميعا ·

ثم يرفع وجهه الباش المشرق ويهتف بالربان الواقف فى مركـز
يادة قائلا .

ـ اعدل يا بتروخا !

ـ آى ·· آى !

ويكشف الربان رأســه الاصلع ثم يصلب ، فاذا فرغ من ذلك
م عينيه الى السماء ومر بيده على لحيته الكبيرة السوداء ، ثم يأمر
كانيكى قائلا :

ـ حول الآلات الى الناحية المضادة ·· ببطء !

ولا يكاد الضيوف يشهدون الربان وهو يصلب حتى يقتدوا به،
كشفوا عن رءوسهم ، ويمســكوا بقبعاتهم الحريرية وكاباتهم فى
يهم ، وترف هذه فى الهواء كما يرف سرب من الطيور السوداء
يصلبوا ·

ويهتف كونوف فى خشوع :

ـ بركاتك يا اله السموات !

ثم يصدر الربان أوامره قائلا :

- أطلقوا سلب الباخرة .. بخار كامل .. هيا !

وهنا تطلق السفينة ايليا مورومتش سحابة من البخار الأبيض فوق رصيف الميناء ، وتهتز هزة تسرى فى هيكلهـا الضخم . تتحرك ضد التيار فى خفة ورشاقة كما يتحرك البجع .

ويصيح المستشار التجـارى رزنيكوف ، ذلك الرجل الطو النحيل الوسيم المنظر : ها هى ذى تبتعد عن الشاطىء .. رشب كأنها قالب من القشدة .. وكما تنزلق الحسناء فى حلبة الرقص

ويتمتم تروفيم زوبوف ، من مشـايخ الكنيسة ، وأكبـر مقرض النقود بالمدينـة ، ذلك الرجل المحنى الكتفين ، الذى انتشرت فى وجهه ثقوب الجدرى :

- يا لها من حوت عظيم !

لقد كان اليوم يوما غائما ، والسـماء محجبة بالسحب الحريه التى كانت تنعكس على صفحة النهر ، فتجعلها باردة رصاصية اللو وكانت الباخرة الحديثة الطلاء تبدو فوق هذا الأديم كأنها رشا ناقع البياض منساح تحت عجاجة ذلك الدخان الأسود الذى تنف السفينة . لقد كانت البـاخرة بيضـاء ذات حواش قرنفلية قلاباتها فحمراء شديدة الاحمرار ، وكانت كواها المستديرة ترس بسمات سعيدة راضية ، وهى تجرى رخاء وسط الأمواج الباردة فترسل بها الى الضفتين موارة مجرجرة .

ويقول كونونوف وهو يرفع قبعته محييا أضيافه بانحناءة لطيفه

- أيها الأصدقاء الأفاضل ، أما وقد أدينا لله ما هو لله ، فهلم .. على نغمات الموسيقى ، نؤد لقيصر ما هو لقيصر ..

ودون أن ينتظر ردا ، يرفع يده الى شفتيه ليهتف برئيس الفر قائلا :

- أيها الرئيس ، نشيد القيصر !

وتشرع الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف النشيد المطلوب .

ويشرع مقار بوبروف ، مدير بنك التجار ، يغنى فى صوت خفيض على حين كانت أصابعه تضبط الايقاع على كرشه الكبير الضخم :

يعيش القيصر .. قيصر روسيا العظيم

تيرا .. لا .. لا ! .. بم بم بوم

حتى اذا انتهى النشيد .. ظل كونونوف يقول وهو يشق طريقه وسط هذا الجمع من الضيوف :

- والآن .. تفضلوا .. هلموا الى الموائد أيها الأصدقاء .. سعدنا أن تتناولوا شيئا من الطعام ..

لقد كان ثمة نحو ثلاثين ضيفا .. كلهم من أعيان المدينه البارزين وخلاصة الطبقة التجارية . وكان النواب القدامى ، أولئك الصلع الشائبون ، يلبسون فراكات وكابات وأحذية ذات رقاب طويلة من النمط القديم ، الا أن عدد هؤلاء النواب القدامى كان شيئا لا يذكر وسط غيرهم ممن كانوا يلبسون القبعات الحريرية والأحذية اللامعة والمعاطف ذات الذيول الطويلة . لقد كانوا جميعا يقفون فى مقدمه السفينة ، لكنهم أخذوا يذهبون الى المؤخرة بعضهم فى أثر بعض حينما دعاهم كونونوف ، حيث اصطفوا حول الموائد المنظومة تحت الظلل ، وكان ليوب ر.ز نيوف يضع ذراعه فى ذراع ماياكين ويسر اليه بالحديث وهو يمشى معه الى حيث الضيوف ، وكان ما يقوله له يجعله يبتسم ابتسامة خفيفة ، ولم يكن فوما الذى نجح اشبينه فى احضاره آخر الأمر الى الحفل يجد رفيقا له وسط هؤلاء الناس الذين كان يمقتهم ، ومن ثمة كان يبدو مقطب الجبين كاسف البال منطويا على نفسه ، فقد أورثه الشراب المستمر طوال اليومين الأخيرين مع ييزهوف صداعا شديدا يكاد يشق رأسه شقا . وكان

هو بطبعه يشعر بالحرج والقلق فى صحبة أمثال هؤلاء السادة ذوى المراتب العالية ، وكان الضجيج المنبعث من الفرقة الموسيقية ومن الجمع المحتشد ومن آلات الباخرة يثير أعصابه اثارة شديدة ٠

وكانت رغبته فى السكر تستبد به استبدادا لا يمكن أن يقاوم. ولم يكن يستطيع تعليل تلك الرقة المتناهية التى كانت تقطر من محيا ماياكين ذلك اليوم ، ولا السبب الذى جعل الرجل العجوز يحضره الى هذا الحفل الذى جمع الصفوة من أعيان المدينة ، أو لماذا كان يلح عليه الحاحا ، بل يتوسل اليه توسلا ، فى أن يحضر حفلة كونونوف وأن يشهد وليمته أيضا ٠

وقد حضر فوما بعد اذ انتصفت حفلة التدشين ، وأخذ موقفه فى مكان منعزل حيث يستطيع مشاهدة التجار جميعا ٠

ولقد كان القوم يقفون فى سكون يتغشاه الوقار ،وكانت وجوههم تتسم بسيماء الخشوع المصطنع ، كما كانوا يصلون فى حدة مفرطة ويزفرون زفرات عميقة ، فاذا ركعوا بالغوا فى الركوع ، واذا رفعوا أخذت عيونهم تتقلب فى السماء ٠ وكان فوما كلما نقل ناظريه فى الواحد بعد الآخر ، راح يدير فى رأسه ما يعرفه عن كل منهم ٠

فها هنا مثلا كان يقف ليوب رزنتوف ، هذا الرجل الذى بدأ حياته بادارة ماخور لم يلبث أن جعله من الأغنياء الموسرين ٠ ويقال: انه كان قد اشترى فى مطلع حياته متجرا قرويا كاملا للغزل والنسج صفقة واحدة ٠ ثم أفلس بعد ذلك مرتين ٠ وذلك كونونوف الذى قبض عليه منذ عشرين عاما بتهمة اشعاله النار فى أملاك مؤمن عليها ، كما وجهت اليه تهمة افساد الغلمان ، وهو الآن تحت البحث والتحرى ومراقبة البوليس٠٠ ثم هذاهو زاخار كيريلوف روبستوف ذلك الرجل القصير السمين ذو الوجه المكور والعينين الزرقاوين المرحتين ٠٠ لقد كان متهما بالتهمة نفسها وللمرة الثانية فى حياته ٠٠ انه لم يكن بينهم جميعا واحد ٠٠ واحد فقط ! ٠٠ لم يكن فوما يعرف عنه شيئا فاضحا يدينه ويشينه ٠

وكان يعلم كذلك أنهم جميعا يحسدون كونونوف ٠٠ ذلك التاجر الناجح الذى كان يضيف فى كل عام مركبا جديدا الى السفن التى يمتلكها ٠ وكان كل منهم لا ينى يحمل المعاول لهدم أخيه ٠ وكانوا جميعا يحارب بعضهم بعضا حربا لا هوادة فيها ولا رحمة فى ميادين الأعمال ، وكانوا جميعا يعرفون ما يقوم به كل منهم من معاملات تشوبها الشبهات ٠٠ أما الآن ، وهم مجتمعون حول كونونوف المجدود المحسود ، فهم يندمجون فى كتلة جامدة قائمة ، تجىء وتروح كأنها كائن مفرد واحد كان يتغشاه الصمت المطبق ، ويحيط به شىء صلب لا تقع عليه العين ولا تدركه الأبصار ٠٠ شىء كان يبعث النفور والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويشعره بالخجل والحياء فى حضرتهم ٠

وكان لا ينى يردد هذه العبارة بينه وبين نفسه من باب تشجيعها :

– خداع وتدليس !

لقد كانوا يسعلون ويتنهدون فى رقة وفى ظرف ، ثم يطأطئون رءوسهم ويصلبون وهم واقفون صفا واحدا كالبناء المرصوص الأسود حول رجال القساوسة ٠

وكان فوما يتمتم : « لشد ما أنتم مراءون منافقون ! » وذلك على حين راح ذلك الرجل الذميم الأعور الأحدب بافلين جوشين (الذى قذف بأولاد شقيقه المغفل منذ وقت قريب الى الشارع ليشحذوا ويتكففوا السابلة) ٠٠ على حين راح ذلك الرجل يهمس فى ابتهال وروحانية ، وعينه الواحدة مرفوعة الى السماء الغائمة القاتمة :

– يا اله السموات : لا يحل بى غضبك ٠٠ فجزاؤك العادل لم يئن أوانه بعد ٠٠ !

وكان فوما يعجب اذ يرى هذا الرجل يضرع الى الله متوسلا

مستغينا ، مؤمنا برحمته ايمانا راسخا لا يتزعزع على حين كان الكاهن يدعو بصوت هادىء وذراعاه مبسوطتان وعيناه فى السماء :

ــ يا ربنا ويا اله آبائنا ٠٠ يا من أوحيت الى عبـــدك نوح أن يصنع الفلك للابقاء على النوع البشرى ، احفظ هذه السفينة أيضا . وارسل اليها ملكا حارسا يتولاها بعنايته ٠٠ وارع كل من يســافر عليها ٠٠

وكان جميع التجار يمـــدون أيديهم فى الوقت نفسه ليرسموا اشارة الصليب ، وقد اتسمت وجوههم بما اتسم به وجه الكاهن سيماء الايمان بقوة هذا الدعاء ٠

وكان هذا كله يترك أثره العميق فى نفس فوما ، ويجعله يعجب كيف يمكن أن يكون أمثال هؤلاء الناس الذين لهم ذلك الايمان العميق الراسخ فى رحمة الله ، مجـــردين من الرحمة نحـــو اخوانهم فى الانسانية !

لقد كان يبهجه ويثير السخط فى نفسه اعتدادهم المتين القوى ، وعقيدتهم الثابتة الراســـخة ، ووجوههم التى تفيض بالاعجـــاب وأصواتهم المدوية ، وضحكهم العالى المقهقه ٠ وكانوا قد أخـــذوا مجالسهم فى تلك اللحظة حول المـــوائد ، وراحت لهواتهم تتلمظ ، وأعينهم تقطر شراهة الى ذلك الحفش ٠٠ وبالأحرى هذا النوع من السمك النهرى الروسى اللذيذ ، المطرز بالخضر والسراطين الضخمة وكانت عينا ترافيم زوبوف تكادان تلتهمان هذا الطعام السائل وهو يثبت الفوطة حول رقبته ٠

وشرع يكلم صاحب الطاحون الجالس الى جانبه ، وكانت كلماته تصدر كبقبقة القلة التى تمتلىء بالماء ، لما فى فمه من طعام :

ــ انظر يا ايون نيكيفوروفتش الى ذلك الحفش ! أليس يقرب أن يكون حوتا عظيما يكفى لأن يحتويك فى داخله ! انه على قـــدك

تماما ٠٠ وأنت بداخله تكون أشبه بالقدم داخل الحذاء ! ها ٠ ها ٠ ها !٠٠

ومد ايون القمىء ذو البطن المكور ذراعه القصيرة ليرفع وعاء فضيا ممتلئا بالكافيار الطازج ، وشفتاه تتلمظان ، وعيناه لا تريمان عن الزجاجات المرصوصة أمامه مخافة أن يمسها بأذى ٠

وكان فيما يلي كونوف حامل خشبي عليه برميل من الفودكا المعتقة التي أحضرها من بولندة ٠ وقد رص محار الجندفلي في صدفة كبيرة ضخمة موشاة بالفضة ، الا أن الطبق الأساسي كان عصبدة ذات ألوان في قالب برج من الأبراج ٠

ويهتف كونونوف بضيوفه :

ـ تفضلوا أيها السادة ، تفضلوا ٠ كل شيء مهيأ أمامكم ٠٠ كلوا مما تشتهي أنفسكم وتلذ أعينكم ٠٠ من طعامنا الروسي الشهي المعتاد ، أو من الأطعمة الأجنبية على السواء ـ ورأيي أن نأكل من هذا ومن ذاك ، وهذا هو الأفضل في نظري ٠ ماذا تفضلون ؟ الجندفلي أم الحلزون ؟ انه مستورد من الهند مباشرة ، كما يقولون !

وكان زوبوف يقول لجاره مایاکین :

ـ لقد كان الدعاء الذي قرأه الكاهن لا يكاد يناسب انزال الرفاصات أو الزوارق النهرية الى الماء ٠٠ عفوا ٠٠ لا أريد أن أقول انه لم يكن مناسبا ، بل أردت أن أقول انه لم يكن كافيا ٠ ان الزورق النهري الذي يعيش فوقه الملاح يوما بعد يوم هو كالمنزل تماما ، ولهذا كان ينبغي أن يضاف الى الدعاء الذي تلاه الكاهن دعاء تدشين منزل : ماذا تفضل أن تشرب ؟

ويجيبه مایاکین :

ـ انني لست ممن يدمنون على شرب الخمر ٠٠ صب لي كوبا من

الفودكا . وأدرك فوما الذى كان يجلس عنــد طرف المـــائدة بين الضيوف الأكثرين تواضعا أن عينى اشبينه ترصدانه ، ومن ثمة كان يتحدث الى نفسه قائلا :

ـ انه يخشى أن أحدث فضيحة لا تسره !

وانطلق رجل ذو بطن منفوخ من أصحاب السفن البخارية يقال له ياشتشوروف يقول :

ـ أيها الاخوان .. اننى لا أستطيع الحياة ان لم آكل رنجة ... لا بد أن أبدأ طعامى بأكل الرنجة ... وهذا هو ما فطرت عليه '

ـ موسيقى ! لنسمع النشيد الفارسى !

ـ انتظر ، بل لنسمع : المجد للقيصر .

ـ حسن .. المجد للقيصر .

وملأ أزيز الآلات ، وصوت القلابات المختلط بالموسيقى ، ملأ الهواء بشىء أشبه بغناء العاصفة الثلجية الوحشى . وكانت النايات تصفر ، والصنوج ترن ، والأبواق الفرنسية تزمجر ، ودق الطبلة الصـــغيرة يدمدم ، والطبلة الكبيرة تطمطم ... ثم تختلط هـذه الأصوات جميعا وصوت ارتطام الماء المتواصل بالقلابات ، مجفلا فى الهواء ، ومارا بالسفينة فى اندفاع أشبه باندفاع الاعصار ، مما يضطر القوم ، اذا أراد أحدهم أن يتكلم فيسمع الآخرون صوته ، الى أن يرفعوا أصواتهم بأقصى ما يستطيعون . وكانت الآلات فى الفينة بعد الفينة ربما أرسلت هسهسة محنقة ، وكان صوتها اذ ذاك يشوبه التبرم والازدراء ... وهو الصـــوت الذى لا ينفك يقحم نفسه فى الضوضـاء التى يختلط فيها صـــياح القوم وصراخهم وضجيجهم .

ويصيح بعضهم مغضبا :

- انني لن أغفر لك أبدا رفضك أخذ كمبيالتى ٠

ويتدخل بوبروف قائلا بصوته العميق :

- دعنا من هذا ! أذاك هو الوقت الذى تثار فيه هذه المسائل ؟

- أذاك هو وقت الخطب أيها السادة ؟

- الموسيقى ! صمتا !

- تفضل بزيارتى فى البنك ، وسأشرح لك السبب فى أننى لم ...دق عليه ٠

- أهذه خطبة ؟ صمتا !

- بل أوقفوا الموسيقى ٠

- الأرملة المرحة

- بل السيدة آنجوت !

- كلا ٠٠ لا تسمعنا خطبك يا ياكوف تارازوفتش ! ٠

- ان اسمها عصيدة ستراسبورج

- خطبة ! خطبة !

- عصيدة ؟ انها لا تبدو كالعصيدة ٠٠ ولكنى سأجربها ٠

- ماياكين ! خطبة !

- حاجة لذيذة جدا ٠٠ يجب أن أعترف بهذا ٠

ويقول روبستوف بصوته الأخنف :

- وفى أوبرا هيلين الحسناء تبرز فوق المسرح شبه عارية

- وهكذا خدع يعقوب عيسا و ٠٠٠ أليس كذلك ؟ آها !

- تعال ماياكين ٠ لا تتجنبنا ٠

- صمتا أيها السادة ٠ الكلمة لياكوف ماياكين ٠

وبعد أن يسود الصمت يسمع أحـــــدهم وهو يقول فى غيظ وسخط :

- ما أشد ما أوجعتنى ونالت منى تلك الكلية الصغيرة !

ويزمجر بوبروف قائلا :

- وفى أى مكان ؟

وينفجر القوم ضاحكين ، ثم لا يلبثون أن يعـــودوا الى صمتهم حينما ينهض ماياكين واقفا ، ويسعل قليلا كالذى يستعد للكلام ، ويمر بيده فوق صلعته ، ويجيل عينيه فى الموجـودين منتظرا أن يسودهم الصمت • وهنا يهتف بهم كونونوف :

- أرهفوا أسماعكم أيها الاصدقاء •

ويقول ماياكين وقد ضحك ضحكة لطيفة :

- زملائى التجار ••• ان هناك كلمة أجنبية لعلكم تسمعون الفئة العالمة والمتعلمة تستعملها كثيرا •• وهذه الكلمة هى « التهذيب » •• حسن •• ان هذه الكلمة هى التى يريد رجل بسيط مثلى أن يقول عنها أشياء قليلة •

- سماعا سماعا •

ويرفع ماياكين صوته قائلا :

- أيها السادة الأفاضل ••• ان الصحافة تدأب فى قولها ، اننا نحن التجار لسنا على شىء من التهذيب ••• واننا لا ندرى ما هذا التهذيب ••• بل لا نريد أن نعــــرف ما هو •• ورجال الصحافة يدعوننا متوحشـــين •• همجا •• وأنا أتساءل الآن بدورى : ما هذا التهذيب ؟ انه ليس من اليسير على رجل طاعن فى السن مثلى أن يسمع هذه الامور الصعبة تلوكها الألسن ، ومن ثمة

فقد وجدتنى ذات يوم آخذ على عاتقى اكتشاف ما تعنيه هـــذه الكلمة .

وتوقف ماياكين ، ثم راح يجول بعينيه فى الموجودين قبـل أن يعود الى الحديث ، وقد خبس فى شدقه ضحكة انتصار بادية :

ـ الظاهر أن هـــذه الكلمة تعنى الحب ـ حب النظام .. الحب الشديد للترقى . فهل هذا هو الذى تعنيه ؟ وكثيرا ما فكرت فى نفسى ، وبعبارة أخرى : ان الشخص المهذب هو ذلك الشخص الذى يهوى النظام والترقى .. الشخص الذى يحب أن يتخلص من كل شىء ... الذى يحب الحياة ويعرف قيمتها ، ويعرف قيمة نفســه أيضا . حسن جدا .

وهنا يبدو الرجل وقد أخذته رجفة سرت فى كيانه ، وانتشرت فى تجاعيد وجهه أشعة من الابتسام منبعثة من عينيه الى شفتيه ، كما كانت صلعته تتألق كلها كما يتألق النجم فى حلك الظلام .

وكان التجار يتلقفون كل كلمة يقولها ، والانتباه الشديد باد على وجوههم ، وقد جمدت أبدانهم فى وضعها الذى أمسكتهم فيــه كلماته الافتتاحية .

ـ ولكن اذا كان ذلك كذلك (وهذا هو الذى يجب أن تفهم الكلمة بمقتضـــــاه) ـ أقول : اذا كان ذلك كذلك . فهـــؤلاء الذين يسموننا متوحشـين غير مهـــذبين ، يفترون علينـــا ، لأنهم انما يحبون الكلمة من حيث هى كلمة .. فهم يقولونها ولا يفهمون معناها . أما نحن فنحب معنى الـكلمة الحقيقى ... نحب لبابهـــا وجوهرها ... اننا نحب أن نعمل ... ومن ثمة كان لدينا نظام دينى حقيقى للحياة ، وبالأحرى .. نحن نجل الحيـاة ، أما هم فلا يجلونها . انهم يحبون الكلام .. أما نحن ، فنحب العمل ..

ثم انظروا أيها الزملاء التجار .. هاكم الدليل على ما لدينا من

التهذيب ... على حبنا للتطور والارتقاء .. الفولجا ! أبونا المحبوب نهر الفولجا ! ان كل قطرة من مياهه تنطق بالدفاع عنا ، وتفنيد مفترياتهم : ان مائة عام فقط قد مضت منذ ذلك اليوم الذى أنزل فيه بطرس الاكبر مراكبه الكبيرة البطون فى مياهه ، وهاهى ذى اليوم أيها السادة تلك الآلاف من البواخر تتردد على موانيه . فمن بنى تلك البواخر ؟ انه هو الفلاح الروسى ! هذا الرجل الذى ليس لديه مسكة من تعليم ! ثم من مالك كل هذه البواخر والصنادل الضخمة ؟ نحن نملكها ! ومن الذى فكر فى تسييرها ؟ نحن أيضا . ان كل ما هو هنا نحن أصحابه ، وكل شىء هو مما ابتكرته عقولنا وهو ثمرة جرأتنا واقدامنا ، وثمرة حبنا للعمل ، وما من أحد قد ساعدنا أو أخذ بأيدينا .

وقد كنا نحن الذين قضينا على اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يقومون بالسطو على المسافرين فى الفولجا . ونقودنا هى التى استأجرنا بها الفرق الكاملة للقضاء على القراصنة ، ونقودنا هى التى أنزلنا بها الآلاف من الزوارق النهرية على طول الآلاف من المراسى والمرافىء التى تقوم على الفولجا ...

ثم ما أحسن المدن التى على جانبى الفولجا ؟ المدن التى تعج بالعدد الاكبر من التجار ! وبيوت من هى أحسن البيوت وأرقاها فى تلك المدن ؟ انها بيوت التجار طبعا . ثم من من الناس يبذل يد المعونة للفقراء ؟ انهم هم التجار . اننا نهب مئات الآلاف من الروبلات لأعمال البر ، وهى التى جمعناها كوبكا فوق كوبك . ثم من الذين يبنون كنائسنا ؟ نحن طبعا . ثم من الذين يمدون الدولة بالأموال؟ نحن ولا شك ؟

- سادتى : اننا نحن .. ونحن فحسب ، نعمل حبا فى العمل ، حبا فى جعل الحياة أحسن مما هى . اننا نحن ، ونحن فحسب ،

الذين يحبون الحياة والنظام ·· وما هذا الذى يقولونه عنا الا ···
الا ···

. ويقول كلمة قبيحة لا يلبث أن يمضغها بشفتيه حتى لا تسمع

ـ فهذا هو اذن حالنا وحالهم ، فدعوهم يقولوا ما يحلو لهم اننا اذا نفخنا الدوارة ، دارت وأحدثت صوتا وضوضاء ، فاذا لم ننفخها لم يسمع لها صوت · على أنكم لا تستطيعون أن تستفيدوا فائدة تذكر من هذه الدوارة ·· تلك اللعبة العقيمة ·· لن تستطيعوا أن تنتفعوا منها ما تنتفعون من مكنسة ·· ان كل ما يمكنها أن تقوم به هو أن تدور على نفسها وتحدث صوتا ! ثم ماذا كان فى وسع هؤلاء الناس الذين جعلوا من أنفسهم قضاتنا أن يصنعوا على الاطلاق مما كان جديرا به أن يصنع ؟ ماذا صنعوا على الاطلاق لتحسين الحياة ؟ لم نسمع أنهم فعلوا من ذلك شيئا · أما ماعملناه نحن واضح لكل ذى عينين ·

ـ يا زملائى التجار : انكم ملح هذه الارض · انه ليس فيها من عدلكم جدا واجتهادا · ان كل ما فعلته البشرية فيها فعلته بأيديكم ثم انه لا نهاية مطلقا لما لا يزال فى وسعكم أن تقوموا به ·· ومن أجل هذا فأنا أشرب هذه الكأس فى نخبكم · انى أحبكم وأجلكم الاجلال كله ·· وأنا أقولها من سويداء قلبى :

يعيش تجار روسيا الشجعان المجدون المثابرون ! نفع الله بهم بلادنا حتى يتم لها المجد والازدهار · عاشوا · عاشوا ·

وأثار هتاف مایاکین المجلجل عاصفة كالرعد من استحسان القوم · فقد أخذ كل هذا الحشد الكبير المتلاحم يتحرك فجأة ،وكان لصوت المدوى المنبعث من حناجرهم من القوة بحيث كان كل ما حولهم يبدو كأنه يزلزل ويرتجف ·

وصاح زوبوف وهو يرفع كأسه نحو ماياكين :

- يا كوف ! يا بوق الرحمن !

وهنا ·· أخـــذت الكراسى تنقلب ، والموائد تهتز ، والقوارير تتساقط ، والأطباق تتخبط ، وذلك على حين كان التجار المحبورون المستوفزون يندفعون كالسيل نحو ماياكين وقد رفعوا فى أيديهم الكئوس والأكواب ·· والدموع تترقرق فى أماقيهم ·

وراح كونونوف يسائل روبستوف ، وهو ممسك بكتفه يهزه هزا :

- ما قولك فى هذا ؟ ·· هل تدرك معنى هذا الذى حدث ؟ لقـد استمعنا الآن الى خطبة عظيمة !

- دعنى أقبلك يا ياكوف

- ارفعوه على الاكتاف !

- ارفعوه على الأكتاف ! مرحى !

- موسيقى !

- موسيقى ! النشيد الفارسى

- الى الجحيم بموسيقاك !

- ألم تكن خطبته من الموسيقى بالقدر الكافى !

- ياله من ضئيل الجسم ، عظيم العقل !

- هذا كذب يا تزوفيم !

- وا أسفاه على أنك طاعن فى السن متقدم فى العمر الى هـذا الحد يا ماياكين ! ماذا نصنع حين لا تكون بيننا ؟

- أوه ·· ان جنازته ستكون شيئا رائعا !

- أيها السادة ·· هلموا فلنفتتح اكتتابا نسميه اكتتاب ماياكين ··· وسأدفع أنا الألف الأول !

ـ أمسك لسانك ! فيم تسرعك هكذا ؟

وهنا .. يعود مايا كين الى الكلام من جـــديد وهو يرتجف ارتجافا :

ـ أيها السادة : ان من أهم الأسـباب التى تجعلنا ملح هـذه الأرض ، وتجعلنا كذلك حكام بلادنا الحقيقيين هو أن دماء الفلاحين تجرى فى عروقنا .

ـ هذا حق .. كل الحق !

ـ يا لله ! يا لك من رجل عظيم !

ـ لا تقاطعوا .. سماعا !

ـ اننا روسـيون ذوو دماء نقية .. وكل ما يصـدر عنا هو روسى تتدفق فيه الدماء الروسية النقية ، ومن ثمة كان كل ما يصدر عنا شيئا عظيما أصيلا ... ومن أهم الاشياء وأصفاها جوهرا .

ـ وواضح واضح .. كأنفك الذى يحمله وجهك !

ـ أليس كذلك !

ـ ان رجلنا العجوز حكيم .. حكيم كالبومة !

ـ ووديع كال ...

ـ كالصقر .. هاها ..!

وازدحم التجار حول خطيبهم ، وأخذوا يحدقون فيه بعيون بللها الدمع ، وهم لا يقدرون على الاصغاء اليه فى هدوء من شدة انفعالهم وكان طنين أصواتهم ، وخشخشة الآلات ، وضرب القلابات فى الماء .. يكون دفعة من الصوت الذى يضيع فيها صوت الرجل

- هلموا فلنرقص رقصة روسية ! رقصة كارمنسكية ! ثم يصيح ماياكين :

- هلموا انظروا ما صنعت أيدينا ··· أيدينا نحن ·· وليس أحد غيرنا ! اننا نحن الذين جعلنا الحياة ما هى الآن !

ثم يعلو أحد الأصوات فجأة ، فتتلاشى فيه الأصوات الأخرى جميعا :

- اذن فأنتم الذين جعلتم الحياة ما هي ·· أليس كذلك ؟ أنتم ··· ثم أردف - أنتم هذه - بطائفة من أقذر الكنى وأقبح الألقاب · وسمعها كل من الحاضرين ، وساد صمت أشبه بصمت القبور . على حين راحت الأنظار تجول حولها باحثة عن المتكلم · وكان الشيء الوحيد المسموع فى تلك الآونة هو خشخشة الآلات وصرير سلاسل الدفة

وقال كونونوف متسائلا ، وقد قطب وجهه :

- من قال هذا ؟

وزفر رز نيكوف قائلا :

- أخ ! اننا لا يمكن أن نعمل شيئا دون أن يحدث شجار !

وكانت سيماء الوجوه يختلط فيها الشر والعجب والتطلع والأسف · وكان التجار جميعا يتمتمون بشيء من الامتعاض والاحتجاج ، الا ياكوف ماياكين وحده ·· فقد حافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وبدا كأنه راض عما حدث · ووقف على أطراف اصابعه وراح يمد عنقه كأنما ينظر الى شيء فى الطرف الآخر من المائدة ، وكان فى عينيه لألاء ، كأنه كان جد مسرور مما رأى ·

وهمس أحد الموجودين يقول :

- انه فوما جورديف

واتجهت الأنظار نحو الجهة التى كان يحدق فيها ماياكين عينيه .

وهناك .. كان يقف فوما وقد أسند يديه على المائدة . لقد كان مكشرا وهو يتفرس فى التجار بعينين مشتعلتين واسعتين . وكان فكه الأسفل يرتجف ، وكتفاه تختلجان ، وأصابعه القابضة على طرف المائدة لا تنى تخربش فى المفرش بحركة تشنجية ، وقد خرست التجار وقفته المغضبة ، والنظرات المتوحشة التى كانت تنبعث من عينيه .

ويسألهم فوما ، وكأنه يزيح عن صدره سلسلة أخرى مما يجثم عليه من قبائح :

- فيم تحدقون أنظاركم هكذا ؟

ويهز بوبروف رأسه قائلا :

- انه سكران !

ويهمس رزنيكوف متسائلا :

- لماذا دعوه ؟

ويهتف به كونونوف فى لهجة مهذبة :

- فوما اجناتييفتش .. أرجو أن تحاول ضبط أعصابك ، وتتصرف بما يليق بك .. واذا كنت قد أكثرت من الشراب فيمكنك أن تذهب بهدوء الى احدى القمرات وأن تنام فيها .. اذهب ونم يا بنى .. اذهب ..

ويتفرس فيه فوما وهو يصيح به :

- اخرس ! احذر أن توجه الى أية كلمة ! اننى لست سكران أنا أكثر وعيا من أى واحد فيكم . أتفهم ؟

ويصعد الدم في وجه كونوف مما لحقه من تحد واهانة ، ويقـول متسائلا :

ـ لحظة أيها الرجل العزيز .. لحظة ... من الذى دعاك الى هذا الحفل ؟

ويسرع مایاكين بالرد قائلا :

ـ أنا الذى دعوته .

ـ أوه ! فى هذه الحال فأنا ألتمس منك الصفح يا فوما اجناتييفتش .. ولكن ما دمت أنت الذى أحضرته يا ياكوف فعليك أن تلزمه .. ان هذا شيء لا يصح .

ويبتسم فوما ، ولا يقول شيئا . وينظر اليه التجار ولا يقولون شيئا كذلك .

أما مایاكين فيهتف به قائلا :

ـ أواه ! فوما .. فوما .. هأنت ذا تفضحنى فى هـذه السن المتقدمة مرة أخرى !

ويجيبه فوما وهو لا يزال مكشرا :

ـ أيها الوالد العزيز .. اننى لم أصنع شيئا بعد .. ومن ثمة فمن سبق الحوادث أن توجه الى هـــذا التعنيف ... اننى لست سكران ... بل لم أذق قطرة واحدة من الخمر ـ وكل ما فعلته أن كنت أجلس وأستمع . أيها السادة .. اسمحوا لى أن ألقى عليكم كلمة الآن . اسمعوا اذن الى ابن السيد مایاكين الروحى .

ويتساءل رزنيكوف :

ـ خطب ؟ هل يجب أن نستمع الى خطب ؟ لقد جئنا هنا لنمتع أنفسنا

- لا داعى للخطابة يا فوما اجناتييفتش !

خذ لك كأسا بدلا من الخطابة !

- أجل . دعنا نتناول كأسا .. آه يا فوما ! لله ما كان أظرف أباك !

وترك فوما حافة المائدة ، ثم شد نفسه وهو لا يزال يبتسم ، ووقف يستمع الى كلمات الاسترضاء التي يوجهونها اليه لكى يسكنوا ثائرته . لقد كان أصغر سنا وأبهى منظرا من أى تاجر من هذه الطبقة البارزة من تجار المدينة ، وكان قوامه الوسيم فى فراكه الذى يناسبه تمام المناسبة ، يناقض أجسامهم القصيرة السمينة ببطونها المنتفخة . وكان لوجهه الاحمر الداكن بعينيه الكبيرتين نضارة وقسمات منتظمة لم تكن لوجوههم المتورمة الحمراء .

لقد أبرز فوما صدره ، وكشر عن أسنانه ثم فرج ما بين طرفى معطفه ، ودفع بيديه فى جيوب بنطلونه .. وبدأ يقول فى لهجة صارمة متحدية :

- انكم لا تستطيعون أن تغلقوا فمى بعباراتكم اللطيفة .. وأنا مصمم على أن أقول ما أريد قوله سواء استمعتم الى أو لم تستمعوا . لن تستطيعوا اخراجى من هذه السفينة .

وهنا طرح الى الخلف رأسه ، ورفع كتفيه الى أعلى :

- ثم .. انى سأقتل أى مخلوق على أن يمسنى بأصبعه ، أقسم بالله على ذلك .

وترنح الواقفون أمامه كما تترنح غصون الشجر هبت عليها الريح .. وأخذت همسات الخوف تنطلق هنا وهنا .. وقطب وجه فوما وازدادت عيناه اتساعا أكثر من قبل .

- لقد قيل : انكم أنتم الذين جعلتم الحياة ما هى الآن ، وان كل ما فيها من جودة وحسن هو من صنع أيديكم .

وهنا ، شهق شهقة طويلة ، ثم راح يرمقهم بكراهية لا يمكن تصويرها ، ويتفرس فى تلك الوجوه التى كانت تبدو كأنما تورمت من شدة الاستياء والاشمئزاز .

وتكبكب التجار بعضهم الى بعض ، ولم يقولوا شيئا .

ثم اذا واحد فى الصف الخلفى يتمتم قائلا :

- علام كل هذا ؟ وهل هذا من آى الكتب المقدسة ، أو هو من تلفيقه ؟

ويهز فوما رأسه ويقول :

- يا أبناء الكلاب ، ماذا صنعتم ؟ انكم بدلا من أن ترتقوا بالحياة قد حولتموها الى سجن ، وبدلا من أن تدخلوا عليها النظام قد وضعتم أهلها فى السلاسل والاغلال ، فلن يستطيع أحد فيه قبس من حياة أن يجد ما يستنشقه من الهواء فى دنياكم الخانقة هذه . انكم قتلة مغتالون .. ولا شىء غير هـــذا ... وليس ثمة سبب فى أنكم لا تزالون أحياء الى اليوم الا طول ما قاساه الناس منذ أمد بعيد ... ثم أنتم لا تريدون أن تنسوا هذا !

ويقول رزنيكوف متعجبا وهو ينثر يده محتجا :

- اننى لم أسمع شيئا مثل هذا من قبل ، ولا أريد أن أسمع كلمة فوق هذا ! .

ويصيح بوبروف :

- خذ حذرك يا جورديف . انك تقول أشياء قد تندم على أنك قلتها !

ويقول له زوبوف محذرا أيضا :

— هل تدرى ماذا يمكن أن يعود عليك من قولك مثل هذه الاشياء ؟

ودمدم فوما والدم يكاد ينبثق من عينيه :

— ويل لك ! اهذ بقدر ما يحلو لك الهذيان أيها الخنزير !

ثم يقول ماياكين بصوت فيه حكة ونذير كصوت المبرد فوق المعدن :

— أيها السادة : أرجوكم ألا تقاطعوا ·· دعوه يتكلم ما دام الكلام يحلو له ·· فما يضركم كلامه فى شيء ·

ويصيح يوشكوف :

— عجبا ! كيف لا يضرنا ؟

أما سمولين الذى كان يلى فوما فيهمس فى أذنه قائلا :

— كفى كفى ·· هل أنت مجنون ؟

ويصيح به فوما ، وهو ينظر اليه بعينين ملتهبتين :

— اعزب عن وجهى ·· اذهب وألعق يدى ماياكين عسى أن يلقى اليك بلقمة !

ويصفر سمولين صفيرا خفيفا ثم ينسحب الى الطرف الآخر ·· ويتبعه التجار الآخرون فينسحبون واحدا فى اثر واحد ، ويزيد هذا فى غضب فوما وثورته ·· لقد كان يحب أن يستولى عليهم بكلامه ·· الا أنه لم يكن يجد الكلام القوى الذى تكفى قوته أن تنيله غرضه ·

ويعود الى قوله :

- فأنتم اذن الذين صنعتم من الحياة ما هي الآن ؟ أليس كذلك ومن أنتم ؟ أيها اللصوص النصابون !

ويرتد بعض التجار ممن ناداهم فوما بأسمائهم ٠

- كونونوف ! قل لى : متى يا ترى تحاكم على فعلتك التى فعلت بتلك الفتاة الصغيرة ؟ انك سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة جزاء فعلتك هـذه ! انه سيكون الوداع يا كونونوف ! ما أسوأ ما بنيت تلك الباخرة الظريفة يا صاح ! انهم سوف يشحنونك الى سيبريا ، ما فى ذلك شك !

ويغوص كونونوف فى أحد الكراسي وقد صعد الدم الى وجهه ، وراح يهدد بقبضته فى الهواء ٠ ويقول :

- ما عليك الا أن تنتظر ٠٠ سوف ترى ٠٠ اننى لن أنسى لك هذا أبدا !

لقد كان وجهه يتعقد ، وشفتاه ترتجفان بشدة ، حتى أدرك فوما أن السلاح الذى شهره سوف يغيظ هؤلاء الرجال ويؤلمهم أكثر ٠

- تقولون : انكم حسنتم الحياة وارتقيتم بها ٠٠ حسن ٠٠ حينئذ ٠٠ يا سيد جوشتشين : هل تؤدى شيئا من الصدقة الى أولاد أخواتك ؟

- انك - ولا بد - تعطيهم كوبكا على الأقل فى اليوم الواحد ، فلقد سرقت منهم الكثير الذى يجعلك تؤدى هـذا اليهم ! وأنت يا سيدى بوروف ! لماذا ألقيت بمعشوقتك الى السجن بافترائك عليها تلك الكذبة حينما ادعيت أنها سرقت نقودك ؟ اذا كنت قد شبعت منها فقد كان فى امكانك أن تنزل عنها لابنك ، وعلى كل فقد حل محلك مع أقحوانتك الاخيرة البرية ! ألم يبلغك هذا ؟ آه أيها الخنزير السمين ! أما أنت يا ليوب ٠٠٠ فلماذا لا تفتح لك

ماخورا مرة ثانية حتى يمكنك أن تسلخ « زبائنك » الظرفاء قبل أن توجه اليهم ضرباتك القاضية ؟ اننى أستطيع أن أراك تفعل هذا الآن .. ها ها .. ان من اليسير على رجل ذى محيا صالح ورع مثل محياك أن يفلت من عقوبة القتل !.. ترى ؟ من كان هذا الشخص الذى قتل تلك المرة يا ليوب ؟

وكان فوما يضحك وهو يتكلم .. وكان بوسعه أن يلاحظ الآثار الواضحة التى يحدثها كلامه فى وجوه مستمعيه . انه حينما كان يوجه اليهم الحديث اجمالا أول الامر — كان يلاحظ أنهم كانوا يزوون وجوههم ويشيحونها عنـــه . وأنهم كانوا ينسحبون فى جمـاعات صغيرة ، ويقفون بعيدا عنه وهم ينظرون اليه ، وقد شـــاعت فى وجوههم ابتسامات الزراية والاستهزاء ، وكان هو يرقب ابتساماتهم ويلمس سخطهم عليه فى كل حركة من حركاتهم ، وحينما أخـــذ الغضب يبدو فى كلماته لم يكونوا يبالون كثيرا . وكان هذا يشيع البرد والتثلج فى روحه .. ومن ثمة كان يواجه ما قد ينتهى اليــه هجومه عليهم من مرارة الاخفاق وحسرة الخذلان .. لكنه لم يكد يتحدث الى كل هؤلاء التجار على حدة حتى تبدلت الحال غـير الحال .. وصعق القوم جميعا .

وعندما تهالك كونونوف على الكرسى وكأنما أسقطته عليـــه سخرية فوما ، لاحظ فوما ابتسامات الشماتة ترف على شفاه بعض التجار ، وسمع بعضهم يهمس فى عجب وموافقة :

— مرحى ! أعطه أعطه .. أعطه جامدا !

فأمده هذا بقوة جديدة ، وشرع فى توجيه سخرياته وتوبيخاته الى أول شخص وقعت عليه عيناه . وابتهج أيما ابتهاج حينما أدرك قوة كلماته . وحينما لاحظ أن مستمعيه كانوا يصغون اليه وكأن على رءوسهم الطير .. بل كان بعضهم يزداد منه اقترابا .

لقد لغطت بعض الأصوات بالاحتجاج .. لكنها لم تكن أصواتا مرتفعة ولا حادة . وبمجرد أن نطق فوما باسم أحد التجار أرهف الجميع آذانهم ، وأخذوا يلقون نظرات شزراء ملؤها الشماتة المحبورة بالرجل الذى كان الهدف الجديد .

وصدرت عن بوبروف ضحكة خفيفة مكتومة ، وأخذت عيناه الحادتان الصغيرتان تتفرس فى فوما .. وتتفرس . وطفق ليوب رزنيكوف يلوح بيديه فى الهواء ، وهو يحجل هنا وهناك متأوها فاغرا فاه . وهو يقول :

— انكم شهودى على ذلك .. وأنا لن أغفر له مثل هذه الاقوال ؟ بل سأرفع أمره الى المحكمة ! كيف يجرؤ على هذا ؟

ثم يلوح بذراعيه نحو فوما فجأة ويصرخ :

— امنعوه من الكلام ! امنعوه !

ويضحك فوما ، ويقول :

— انه لا يمكن منع أحد من قول الحق !

ويقول كونونوف بصوت أجش :

— سننظر فى هذا !

ويتدخل ماياكين بصوته المسرسع :

— أيها السادة .. أرجو أن تنظروا اليه نظرة طيبة .. لاحظوا بأنفسكم ماذا يشبه

— وأخذ التجار يدنون من فوما واحدا بعد واحد . ولاحظ هو أمارات الخوف والانفعال والتطلع والشماتة الراضية على وجوههم . ويهمس أحد الضيوف الأكثر اتضاعا فى اذن فوما قائلا :

— امض في قولك ولا تبال .. أعطهم جيــــدا ... ان هذا كله سيكتب لك في صحيفة فخارك !

ويصيح فوما :

— علام تضحك يا روبستوف ؟ ما الذى يجعلك سعيدا مسرورا هكذا ؟ هل تظن أنهم لن يذهبوا بك الى سيبريا ؟

ويصرخ روبستوف وقد وثب على رجليه :

— اخرجوا الى الشاطيء !

وينادى كونونوف ربان الباخرة قائلا :

— ارجع بنا ! ارجع بنا الى المدينة ! الى المحافظ !

— ان هذا أمر مبيت ، وتدبير له ما وراءه . لقـــد اتخذوه مخلب قط لانفاذه ، وأسكروه أولا .

— ان هذا شغب علنى :

— امنعوه من الكلام ! ألجموا لسانه !

ويتناول فوما زجاجة فارغة من زجاج الشمبانيا ثم يلوح بها فى الهواء قائلا :

— حذار أن تلمسونى ! انه لا بد لكم من أن تستمعوا الى سـواء رضيتم أو لم ترضوا !

وفي فورة من الانفعال ... فى حميا حبـوره وهو يرى هؤلاء الرجال يتـلوون تحت ضرباته ... يبدأ فوما فى الجهـــر بأسماء أخرى ، وفى سب ضـحاياه وقذفهم بأقذر الاساليب ... ولا يكاد يفعل حتى تخمد أصوات الاحتجاج . وكان أولئك الذين لا يعرفون فوما ينظرون اليه فى اعجاب وتطلع .. بل كان بعضهم ينظر اليــه

راضيا موافقا على ما يقول . ونظر واحد من هؤلاء .. وهو رجل عجوز قميء أشيب ذو خدين موردين وعينين حادتين .. نظر الى الذين كان يهينهم فوما ويتحداهم وقال لهم فى لهجة مداهنة :

— ان ضميره هو الذى يحفزه الى قول مثل هذه الأشياء ، فلا تلقوا بالا اليها . لقد كتب علينا أن نعانيها . انها دينونة نبى . اننا أيها السادة عصاة آثمون .. وواجبنا أن نتكلم بالصدق ونتطق بالحق لأننا ...

وارتفعت أصواتهم ضده حتى أسكتوه ، ودفع زوبوف دفعة لطيفة غابت به عن الانظار .

وهنا يصيح فوما :

— زوبوف ! كم رددت من الناس عن وردك ، دون أن تمنح أحدا منهم كوبكا واحدا ؟ ألا يزورك فى منامك طيف ايفان بتروفتش ماياكينيكوف الذى شنق نفسه بسببك ؟ وهل حقيقة أنك تسرق عشرة روبلات كل يوم أحد من طبق التحصيل ؟

وأصابت زوبوف هذه الهجمة بالبكم ، فظل واقفا حيث هو ، وذراعه معلقة فى الهواء . فلما أفاق أخذ يثب ثم يقعد ثم يهم واقفا وهو يصرخ :

— اذن فأنت لا تعفينى أنا أيضا من لسانك .. أنا أيضا ! ثم نفخ خديه ، وراح يلوح بقبضته نحو فوما .. ومضى فى صراخه يقول :

— تا لله لأبلغن عنك الأسقف ، أيها المجدف الملحد .. انك أنت الذى سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة !

وازداد الشغب على الباخرة ، وقد جعل فوما منظر هؤلاء القوم الهائجين الساخطين يشعر كأنه بطل من أبطال الأساطير ينقض على

فعوان ضخم ليقضى عليه . لقـــد كانوا يجيئون ويروحون وهم يتصــايحون ويلوحون بأيديهم ... وقد احمرت وجــوه بعضهم ، امتقعت وجوه بعض .. وهم جميعـا عاجزون عن صـــد تيـــار تشنيعاته وتشهيراته

ويمسك رزنيكوف بكتف كونونوف ويقول له :

ـ ادع عمال الباخرة وملاحيها . ماذا تعنى بهذا يا ايليا ؟ هل عوتنا الى هنا ليتلاعب بنا ويشنع علينا ؟

ويصرخ زوبوف :

ـ هذا الكليب !

وأحدقت شرذمة من التجار حول ماياكين الذى كان يتحدث اليهم فى هدوء ، ويصغون اليه بوجوه تقطر شرا ، وهم ينغضون رءوسهم من حين الى حين .

ويقول روبستوف بصوت مرتفع :

ـ هيا ... هيا فى الحال وبلغ .. اذهب حالا .. فنحن شهود يا ياكوف .

الا أن صوت فوما المدوى يعلو على هذا الضجيج قائلا :

ـ انكم بدلا من تحسين أحوال العالم والارتقاء به قد انحططتم به فجعلتموه شراكا وحفرة قذرة لصيد ضـــحاياكم . انكم قد تكونون رجال أعمال .. الا أن كل ما فعلتموه هو جمع القاذورات والدنس ونشر النتن والروائح الخبيثة ! أليست لكم ضمائر ؟ الا اله لكم ؟ أجل .. ان الهكم المعبود هو الذهب ، أما ضمائركم فقد استبعدتموها . فأين استبعدتموها يا مصاصى الدماء ؟ انكم انما تحيون على حساب غيركم من الناس ، وأنتم انما تعملون بأيدى

غيركم . وكم من النـــــاس ذرفوا الدموع من أعينهم دماء بسبب « أعمالكم العظيمة » التى تتبجحون بها ! ان الجحيم هى خير مثوى لأمثالكم من الأنغـــال المخادعين .. وأجدر بكم ألا تتعذبوا فى لهبها الطاهر النقى ، بل يجب أن تحرقوا فيها فى زبالتها المنتنة التى تغلى كالحميم ، خالدين فيها أدهارا وأدهارا !

ثم تنتاب فوما نوبة من الضحك المفـاجىء ، وينثر رأســـه الى الخلف ، ويشد جانبيه ، ويقف وهو يتمايل على قدميه . وفى هذه اللحظة يتبادل كثير من التجار النظرات والغمزات ، ثم ينقضون على فوما ، متكبكبين عليه بثقل أجسامهم .

لقد بدأت معركة .

ويصيح بعضهم فى دهشة :

ـ لقد أمسكوه !

ويلهف فوما قائلا :

ـ اذن .. فهذه هى مؤامرتكم !

ولم يطل النضال بين فوما وتلك الحلقـة من الجسوم الســـوداء المحكمة من حوله ، والتى كانت تدق الأرض دقا عنيفـــا ، وهى تتصايح بأصوات مرتفعة :

ـ اطرحوه أرضا .

ـ امسكوا يده .. يده !

ـ آه .. لحيتى !

ـ ارفعوا أيديكم .. ارفعوا أيديكم ، قلت لكم :

ـ خلاص !

فوما مقيد فى جلسة حزينة

— يا لله ! يا لها من عضلات !

وسحبوا فوما فوق ظهر السفينة الى غرفة الربان ٠٠ ثم انثنوا وهم يصلحون ملابسهم ، ويمسحون العرق من فوق وجوههم ٠ أما فوما ، فكان يجلس حيث هو ، دون أن ينبس ، بعد اذ أجهده النضال ، وفتت في عضده فضيحة الهزيمة ، وقد تمزقت ملابسه وتلوثت بصورة مزرية ٠ وكانت يداه وقدماه مربوطة بالفوط ربطا محكما ٠

والآن ٠٠ لقد جاء دورهم لتقريعه والسخرية منه ٠ وكان زوبوف أول من بدأ ذلك ، فقد ذهب اليه ثم رفسه رفسة في أضلاعه ، وراح يقول له في لهجة ساخرة ، وجسمه كله يرتجف من فرحة الانتقام:

— وهكذا صمت صوت النبي المدوي ! ترو ، ما احساسك بأن تكون أسيرا من أسرى بابل ؟ ها ها ٠٠ ها ٠٠

ويجيبه فوما دون أن ينظر اليه :

— صبرك ، صبرك ! ليس عليك الا أن تنتظر حتى أسترد أنفاسي ٠٠٠ وتذكر أنكم لم تربطوا لساني بعد !

على أن فوما كان يعلم أنه لم يكن ثمة ما يستطيع أن يقوله أو يفعله ٠٠ لا لأنه كان موثقا مقيد اليدين والقدمين ٠٠ بل لأن شيئا ما كان قد مات في أعماقه ، وأن روحه كانت قد غدت سوداء خاوية

وأقبل رزنيكوف وانضم الى زوبوف ٠٠٠ ثم انضم اليهم آخرون ، على حين تبع كونونوف وبوبروف وآخرون ياكوف ماياكين الى غرفة الربان ، حيث وقفوا يتباحثون في أمر ما ، بأصوات خفيضة ٠

وكانت السفينة تغذ السير بأقصى سرعتها الى المدينة ، وكان وجيب الآلات يهز الزجاجات فوق الموائد فتحدث صريرا عاليا

رفيعا ، وكان هذا الصرير هو وحده ، من بين جميع الاصـــوات الأخـــرى ، الذى يفرض فرضــــا على أذنى فوما ، وكان القوم يزدحمون حوله ويشيرون اليه اشارات أثيمة مزرية ٠

الا أن فوما لم يكن يتبين وجوههم الا فى صورة مبهمة ، كأنما كان ينظر اليهم خلال ستار قاتم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها اليه لا تنال منه منالا ٠ وكان فيض غامر من المرارة يتدفق فى أغـوار نفسه ، فيشعر به يطغى وينتشر ، وبينما كان معناه أدق على فهمه من أن يدركه كان يدرك ما هو فيه من شدة وزرايه ٠

ويقول له رزنيكوف :

ـ انظر ما جلبته على نفسك أيها المغفل ! كيف يمكنك أن تحتمل الحياة بعد هذا ؟ انه ليس فينا الآن من تحدثه نفســـه حتى بأن يتنزل ويبصق عليك !

ويسأله فوما :

ـ ولماذا ؟ ماذا صنعت ؟

ويحدق به التجار فى حلقة سوداء محكمة ٠

ويقول له ياشتشوروف :

ـ لقد انتهى أمرك الآن يا فوما !

ويقول له زوبوف بصوت ناعم شامت :

ـ سنريك الآن يا صاح !

فيقول له فوما :

ـ اذن ففكوا وثاقى !

- أوه .. كلا .. ولو بحياتك !

- نادوا اشبينى !

ولكن ماياكين يكون قد وصل في تلك اللحظة دون أن يدعوه أحد . ويقف الرجل أمام فوما ثم يتفرس فيه وهو فى مكانه ذاك ، وهيئته تلك . ثم يتأوه قائلا :

- آه .. فوما

ويقول له فوما فى صوت ذليل :

- قل لهم يفكوا وثاقى

- يفكون وثاقك لكى يجن جنونك مرة أخرى ؟ كلا .. ابق كما أنت وقتا ما .

- لن أقول كلمة أخرى ... وأقسم بالله على ذلك ... أطلقوا سراحى .. من العار أن أجلس هنا هكذا .. اننى لست سكران .

- اذن .. أقسم أنك ستسلك سلوكا طيبا .

ويتأوه فوما قائلا :

- أوه .. طبعا .. وأقسم على ذلك بربى !

وفكوا رباط قدميه ، لكنهم لم يفكوا رباط يديه .

وحينما هم واقفا على قدميه راح ينظر فى الوجوه المحدقة به نـ حال ، وهو يبتسم ابتسامة خاطفة مؤثرة :

- لقد كسبتم !

ويضحك ماياكين ضحكة خشنة ثم يقول :

- نحن نكسب دائما !

ومشى فوما ، ويداه مربوطتان خلف ظهره ، ليستخفي عند احدى الموائد ، دون أن ينبس بكلمة ، ودون أن يرفع عينيه في أحـد ، وقد بدا وكأنه تقاصر بعد طول ، ونحل بعد سمنة ، وقد تساقط شعره المنكوش الاشعث فوق جبينه ، وبرز قميصه الممزق المجعد من صداره ، وياقته تغطي فمه ٠ وكان يلوى رقبته ليهبط بالياقة تحت ذقنه ٠٠٠ ولكن بلا فائدة !٠٠ ولما لاحظ ماياكين ذلك ، أقبل نحوه ، ثم أصلح له ياقته ٠ وقال وهو يبتسم في وجهه :

ـ كان لازما أن تعاني ذلك !

فأما وقد حضر ماياكين ٠٠٠ فقد سكنت ريح أولئك الذين كانوا يهزءون بفوما ، وأخذوا ينظرون الى الرجل العجوز نظرة المتطلع المتسائل ، كأنما كانوا يتوقعون أن يصنع ماياكين شيئا ٠ لقد كان لا يزال محتفظا برباطة جأشه ، الا أن عينيه كانتا تومضان وميضا لا يكاد يتفق مع الظرف الحاضر ، بالرغم من بريقهما

ويقول فوما وهو يجلس عند المائدة ويتكيء بذقنه فوقها بشدة :

ـ أريد شرابا !

لقد كان يبدو عاجزا عجزا مؤلما وهو يجلس ثمة ، كأنه كومة من حطام ٠ وكان من حـــوله يتهامسون وهم يمشـــون على أطراف أصابعهم ، يختلسون نظرة اليه مرة ، ومرة الى ماياكين الذي كان يجلس في الجانب الآخر من فوما ٠٠٠ ولم يعجل ماياكين بتلبية طلب فوما للشراب ٠٠٠ بل كان ينظر اليه متفحصا ، وهو يصب له كوبا من الفودكا في تمهل وبطء ، حتى اذا امتلأ الكوب ، رفعه الى فمه في بطء أيضا ، دون أن ينبس بكلمة

ورشف فوما الشراب ٠ ولما فرغ الكوب قال :

ـ كوبا آخر ٠

فقال له ماياكين :

ـ بل هذا يكفى ·

ثم تلت ذلك فترة من الصمت المطبق ، كانت مجهدة لأعصاب الجميع · وكان القوم يسترقون النظر من فوق المائدة ، وهم يمدون أعناقهم لكى يختلسوا نظرة الى العاجز المسكين

ويسأله ماياكين قائلا :

ـ حسن ·· هل أدركت الآن ماذا صنعت يا فوما ؟

وبالرغم من أن ماياكين كان يكلمه بصوت خفيض ، فان الجميع سمعوا ما قال

وأومأ فوما برأسه :

ويقول له ماياكين بصوت أعلى :

ـ لا تنتظر منا أن نصفح عنك ··· ولن نصفح عنك أبدا ·· بالرغم من كوننا مسيحيين ··· وهذا هو ما سيكون

ويرفع فوما رأسه ويقول فى تفكير :

ـ لقد نسيت أن أذكرك فيمن ذكرت يا اشبينى العزيز ! اننى لم أذكرك بكلمة سوء ·· كلمة واحدة !

ويصيح به ماياكين فى مرارة وهو يشير اليه بيده :

ـ اسمعوا ماذا يقول !

وتعلو همهمة خفيضة من أصوات الاستنكار

ويزفر فوما ثم يقول :

- ولكن .. ما قيمة هـذا ؟ ما قيمة هـذا ؟ ماذا يعنينى على الاطلاق ؟ انه لم يحدث عن هذا شيء على الاطلاق !

ويسأله ماياكين فى شدة :

- وماذا كنت تريد أن يحدث عن هذا ؟

ويرفع فوما رأسه ، ويجيل عينيه فى التجار الواقفين حوله ، ثم يضحك ضحكة خفيفة مشوبة بالاسف ، ويقول :

- ماذا كنت أريد ؟.. لقد كنت أريد أن ...

- انك سكير ووغد !

ويقول فوما فجأة :

- اننى لم أكن سكران .... ولم أشرب غير كأسين .. لقد كنت فى كامل وعيى .

ويقول بورروف :

- وهذا دليل على أنك على حق . يا كوف تارازوفتش : انه مختل العقل .

وينطلق فوما قائلا :

- أنا ؟

غير أنهم لم يلتفتوا اليه . وجلس رزنيكوف وزوبوف وبورروف، ومالوا برءوسهم الى ماياكين ، ثم أخذو يتهامسون .. وقد سمعهم فوما يقولون :

- ... تصبح قيما عليه ...

وهنا ، يصيح فوما وهو يندفع الى الوراء فوق كرسيه ، متفرسا فيهم بعينين زائغتين :

ـ اننى سليم العقل ٠٠ وأعرف ما كنت أريد ٠٠ لقد كنت أريد أن أقول لكم الحق ٠٠ كنت أريد أن أكشف عنكم على حقيقتكم ٠

والتهبت عواطفه وفارت مرة أخرى ، وأخذ يملخ أربطة ذراعيه ملخا ، ويمسك بوروف بكتفيه وهو يقول له :

ـ ليس بهذه السرعة ٠٠ ليس بهذه السرعة ٠٠٠ أمسكوه أيهـا السادة ٠٠ أمسكوه !

ويقول فوما يائسا :

ـ آه ٠٠ أمسكونى ٠٠٠ أمسكونى ٠٠٠

ويصيح به ماياكين بخشونة :

ـ الزم الهدوء !

ولا يجيب فوما بشيء ٠٠ ان كل ما حاول أن يقوم به ٠٠ قام به بلا نتيجة ٠٠ ولم يكن لكلامه أى أثر فى نفوس هؤلاء الناس ٠ وهاهم أولاء لا يزالون حوله كالبنيان المرصوص ٠٠٠ وهو لا يرى حوله غير هذا البنيان ٠٠٠ لقد كانوا ينظرون اليه فى هدوء وعقيدة ثابتة على أنه شخص مجنون ، وكان هو يعلم أنهم يكيدون له كيدا ما ٠ ولقد كاد هذا السور الاسود المكون من أولئك التجار البارعين الكبيرى الثقة بأنفسهم يسحقه سحقا ٠ انه لم يكن يعرف نفسه فى تلك اللحظة ، بل لم يكن يدرى ما فعله ، ولماذا فعله ٠ بل لقـــد كاد يحس بآلام شـــديدة فى حلقه ، وبأن قلبه ينوء تحت أثقال من التراب خففت من ضرباته وأضعفت من نظامها ٠

وانطلق يقول فى تفكير عميق ، دون أن ينظر الى أحد :

ـ لقد أردت أن أعلن الحقيقة ٠

ويجيبه ماياكين فى ازدراء وسخط :

- أيهـا المغفل ! كيف يمكنك أن تعلن الحقيقـــة ، كأنك تفهم شيئا ما !

- لقد كان قلبى يوشك أن ينفجر ... وكنت أشعر بزيف كل شيء ويقول بعضهم :

- واضح من الطريقة التى يتكلم بها أن بعقله مسا .

ويقول ماياكين بلهجة الذى يعلم من حـــوله ، وهو يؤكد كلامه باحدى يديه :

- انه غير مسموح لكل انسان بأن يقول الحق . وليس يكفى أن يحس بالأشياء ، فالبقرة نفسها تستطيع الاحســـاس بأنك تلوى ذيلها ... فالشيء يجب أن يفهم ... لا أن يحس فقط ! يجب أن تفهم كل شيء .. أن تفهم أعداءك .. تفهمهم فهما جيدا يمكنك من أن تحزر ما يدور فى أخلادهم .. وعند ذلك تستطيع أن تقتحمهم اقتحاما .

وكان ممكنا أن يمضى ماياكين فى عرض أفكاره الفلسفية بحماسته المعتادة نفسها لو لم يدرك فجأة أن الانسان لا يصح أن يعلم خططه الحربية لعدوه المقهور .. لقد نظر اليه فوما فى اكتئاب ، ثم أخـــذ يتوسل وهو يومىء ايماءة هينة برأسه ويقول :

- دعونى وشأنى ! لقد كسبتم ، أفلا يكفيكم هذا !

لقد كان كل من المجتمعين حول فوما فى اللحظة التى فتح فيهــا فاه متنبها مرهفا أذنيه ... وكان فى تنبههم هذا ، غير الطبيعى ، نذير من نذر الشر

- ان هذا الذى شهدته يجرى من حولى جعل دمى يغلى فى عروقى، حتى فار آخر الامر .. وهذا هو كل ما جرى .. والآن ليس ثمة قطرة واحدة من القوة باقية فى ... لقد استنزفت قواى كلها .

وكان يتكلم بلهجة رتيبة لا طعم لها ولا لون ، كأنه فى ذهول .
وضحك ماياكين :

- وهل تظن أن فى وسعك أن تزيل جبلا بأن تلعقه بلسانك ؟ وهل من الحكمة أن تهاجم دبا وأنت فى قوة بعوضة ؟ انظروا بالله عليكم الى هذا النبى ؟ آه ، لو أن والدك المسكين رآك فى حالتك هذه !!

ويجيبه فوما بصوت عال كله تصميم ، وبعينين ينطلق البرق من أعماقهما :

- ولكنك أنت الملوم فى هذا كله . فأنت الذى تفسد كل شىء . انك الرجل الذى يضيق الارض على الناس بما رحبت ، وأنت الذى تأخذ بخناقهم حتى يلفظوا أنفاسهم . ومهما يكن هـــذا الحق الذى أنطق به ضدك ضعيفا فانه الحق على كل حال ... انك كل هـــذا .. وأقولها صراحة .. وعليك لعنة الله !

ثم يبذل كثيرا من الجهد وهو يشد نفسه عسى أن يفك ذراعيه فاذا لم يقدر ، راح يزأر ، وعيناه تدوران فى ثورة وفورة :

- فكوا يدى !

ويحدق به التجار أكثر وأكثر ، وقد اكتست وجوههم بأمارات الحنق والغضب ... ويقول له رزنيكوف مهددا :

- اقصر الآن وأمسك لسانك .. اننا نوشك أن نصـــل الى المدينة ، فلا تفضح نفسك وتفضحنا معك . أو تريد أن نأخذك مباشرة من المرفأ الى مستشفى المجاذيب !

ويصيح به فوما :

- اذن فهذا هو ما دبرتم ! تريدون أن تذهبوا بى الى مستشفى المجاذيب ؟ أليس كذلك ؟

ولم يرد عليه أحد . وجعل ينظر فى وجوههم لحظة ، ثم نكس رأسه .

وقال بعضهم :
- اذا سلكت سلوكا حسنا فسوف نفك يديك .
ويجيبه فوما بهدوء :

- لا تتعب نفسك .. ان هذا لا يهم !
ثم يعود الى الحديث من جديد وكأنه فى ذهول :

- لقــــد ضعت ... ولم أضع لأنكم أقوياء ... ولكن لأننى ضعيف جد ضعيف . وأنتم أيضا لستم أكثر من ديدان أمام الله.. وما عليكم الا أن تنتظروا ، وستلقون جزاءكم ... لقد ضعت بسبب عماى . لقد نظرت الكثير الذى أعمانى . كالبومة ، البومة التى كنا نطاردها فى الاخدود اذ نحن أطفال . لقد كانت لا تنفك تعلو وتتخبط فى كل شىء . وكانت الشمس تعشى بصرها ... وكانت تتخبط كثيرا حتى أصابتها الجراح والندوب فى جميع أجزاء جسمها ... وعند ذلك فقدتها . وأذكر أن والدى قال لى حين ذاك : ان هـــذا نفسه هو الحال مع الكائنات البشرية ، ففى بعض الاحيان يندفع الانسان هنا ثم يندفع هناك ، وهو يتخبط فى هذا الشىء ثم فى ذاك ، حتى تصيبه القروح والكلال ، ويتمنى لو يزحف ليختبىء فى أول جحر يصادفه ليجد فيه الخلاص ... يا لله ! فكوا يدى ألا تعلمون ؟

ويمتقع ، ويصفر لون وجهه ، ثم يغمض عينيه ، وترتجف كتفاه، ويشرع يتأرجح فى كرسيه الى الامام والى الوراء ، وهو فى هـــذه المزق والاسمال التى كانت ملابس أنيقة من قبل ، ويضرب صـدره فى حافة المائدة ، وهو يتمتم فى نفسه بكلام غير مفهوم .

وتبــادل التجار نظرات لها معناها . ولكز بعضهم جيرانهم وهم

يومئون برءوسهم فى جهة فوما دون أن ينطقوا بكلمة • وكان وجه ماياكين جامدا صارما كأنما نحت من جرانيت

ويهمس بوبروف قائلا :

ـ لعل الواجب يقتضينا أن نفك يديه !

ولكن مياكين يقول فى صوت منخفض :

ـ كلا •• يجب ألا نفعل •• بل سنتركه هنا •• وليذهب بعض لاحضار النقالة ••• وسيحمل عليها الى المستشفى مباشرة •

ثم مشى نحو جسر القيادة ، وهو يقول :

ـ خذوا بالكم منه ، فقد يحاول أن يثب فوق ظهر السفينة •

ويقول بوبروف وهو ينظر الى مياكين ذاهبا :

ـ لشد ما أشعر بالاسف لهذا الغلام !

ويجيبه رزينكوف فى حدة :

ـ لا لوم على أحد اذا كان هو نفسه مغفلا !

ويهمس زوبوف •• وهو يومىء الى مياكين ، وهو عائد من حيث ذهب :

ـ ولكن مياكين •••

ـ وماذا فى ذاك ؟ انه لن يفقد شيئا اذا تم هذا العمل •

ـ هذا صحيح •• صحيح تماما •• انه سيتولى كل شىء بوصفه القيم على هذا الولد •

وكانت همساتهم وضحكاتهم تضيع فى خشخشة الآلات • ولم يكن فى وسع فوما أن يسمعهم ، فقد كان يجلس وهو يحدق باكتئاب فى اللا نهاية ، وشفتاه تختلجان من حين الى حين •

ويقول بوبروف هامسا :

ـ لقد عاد ولده

ويجيبه ياشتشوروف :

ـ انى أعرفه • لقد قابلته فى يوم •

ـ وما صفته يا ترى ؟

ـ شاب رشيق • يرأس عملا كبيرا فى أوسولى •

ـ وبعبارة أخرى ••• ان ماياكين لم يعد بحاجة الى هذا الولد ، وهذا هو المهم !

ـ انظروا •• انه يبكى !

ـ ما هذا ؟

لقد كان فوما متكئا فوق كرسيه الى خلف ، ورأسه مائل الى أحد جانبيه ، وعيناه مغمضتان ، والدموع تترقرق من أسفل أهدابها فتتسايل عبرة بعد عبرة فوق خديه •• ومنهما خلال شاربه على حين تختلج شفتاه اختلاجا شديدا •• ثم تنحدر الدموع من خلال شاربه لتتلاشى فوق صدره • وكانت الحركة الوحيدة التى يأتيها هى حركتى الشهيق والزفير •• يعلو معهما صدره ويسفل • وجعل التجار يلاحظون وجهه الممتقع الأصفر لحظة ، وقد نال منه الألم ، وبللته الدموع ••• ثم راحوا ينسحبون فى هدوء •

لقد تركوا فوما وحده ، ويداه مربوطتان من خلاف ، جالسا الى المائدة المغطاة بالاطباق القذرة ، وبقايا الوليمة ••• وكان هو يفتح عينيه من حين الى آخر لننظر خلال جفونه المتورمة وخلال دموعه أيضا ، الى الانقاض والاطلال المتناثرة فوق الموائد !

★ ★ ★

وتمضى ثلاث سنوات

ويكون ماياكين قد قضى بعد تدشين باخرة كونونوف بعامين ٠٠٠ وقد ظل محتفظا بكامل قواه العقلية الى آخر لحظة فى حياته ، وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه بساعات قلائل دعا اليه ابنه وابنته وزوج ابنته ، ثم راح يقول لهم باللهجة التى لزمته طول عمره :

ـ عيشوا واظفروا يا أبنائى ٠٠٠ لقد استمتعت بثمرات هـذه الحياة حتى امتلأت منها ٠٠٠ وقد حان أن أخرج من بستانها ٠٠ هل ترون أن فى وسعى أيضا أن أموت دون أن أشكو ؟ وسيضيف الله سبحانه هذا الى مفاخرى ٠ انى ربما أكون قد أغضبت المولى جل وعلا ببعض احتيالاتى وخدعى ، ولكنى لم أغضبه قط بالتأوهات والتوجعات ! تباركت يا ربى ٠٠ انى ليسـعدنى أن أقول ذلك ! أقسم بعظمتك وجلالك لقد عرفت كيف أشق طريقى فى هذه الدنيا ! وداعا يا أولادى ٠ عيشوا فى اخاء ومودة ، ولا تبذروا تبذيرا ، واذكروا ان هذا الذى يختبىء من الذنب ويحرص على أن يضع جنبه فوق المضجع الآمن ، لن يكون بهذا قديسـا أبدا ٠ ان الجبن لن ينجيكم من الآثام ، كما تروى لنا قصة الوزنات ٠ فاذا صممتم على أن تظفروا من حيـاتكم بشىء ، فيجب ألا تجزعوا من الوقوع فى الاثم ٠ ان الله سوف يغفر لكم خطاياكم ٠ لقد خلق الله الانسان ليهذب الحياة ٠٠ ومع هذا ، فانه لم ينعم عليه بالكثير من الذكاء ، ومن ثمة فهو لا يمكن أن يطالبه بما يشق عليه ٠ ان رحمته واسعة ، وطرقه مستقيمة ٠٠٠

ولقد كانت سكرات الموت التى عاناها ماياكين قليلة غير طويلة ، وان كانت وبيلة مؤلمة ٠

★ ★ ★

لقد كان باستمرار رث الهيئة لا يكاد يفيق من سكره أبدا وكان يبدو عليه اختلال العقل .

ولم يمض زمن طويل على الأحـــداث التى وقعت فى باخرة كونونوف حتى أجبر بيزهوف على مغادرة المدينة ٠

وتكونت شركة تجارية جديدة تحمل اسمى : « تاراس ماياكين وأفريكان سمولين »

ومرت سنوات ثلاث لم يكن الناس يسمعون خلالها شيئا عن فوما ٠ ويقال انه بمجرد خروجه من المستشفى أرسله ماياكين الى أقارب والدته فى اقليم الاورال

ثم ظهر فى المدينة بعد مضى سنوات ثلاث ٠ لقد كان باستمرار رث الهيئة ، أشعث الهندام ، لا يكاد يفيق من سكره أبدا ٠ وكان يبدو عليه حقيقة اختلال العقل ، وربما كان يرى أحيانا وهو يطوف فى شوارع المدينة مقطب الجبين منكس الرأس عليه سيماء الكراهية والمقت ٠٠٠ وأحيانا أخرى ، كان يرى وقد افترت شفتاه عن بسمة حزينة مؤثرة ٠٠٠ بسمة رجل صالح أبله ! وكانت تعاوده فورات هياجه القديم فى بعض الظروف ٠٠٠ الا أن هذا كان لا يحدث الا نادرا ٠ وقد سمحت له ليوبا سمولينا بالاقامة فى منزل صـــغير خلاوى خلف منزلها ٠

وكان من يعرفونه من التجار وأهل المدينة لا ينفكون يتخذون منه مادة لدعاباتهم ، وكانوا اذا رأوه مقبلا من بعيد صاحوا به :

ـ ايه ! أيها النبى ! تعال هنا !

وكان قلما يستجيب لهم ٠٠ انه كان يتجنب لقاء الناس ، ولم يكن يطيق التحدث اليهم ٠ لكنه كان اذا فعل ، غمزوه قائلين :

ـ حدثنا بشىء عن يوم الدين ٠٠ هل تفعل ؟ هاها ٠٠ ها ٠٠ أما انك لنبى حقا !

دار « القاهرة » للطباعة
٣٦ شارع منصور

المؤلف

مكسيم جوركى من أدباء روسيا المخضرمين ، امتزجت حياته الخاصة بأحداث روسيا الاجتماعية حتى أصبح انتاجه الأدبى تعبيرا عن المجتمع الروسى وتطوره الثقافى .

ولد جوركى سنة ١٨٦٨ م فى نزنى نوفجورود باقليم الفولجا ، ومارس مهنا شتى أكسبت حياته الفكرية ثراء ، وغرست فى نفسه الاحساس بالواقعية بجانب ما كان يراوده من آمال فى حياة أفضل .

وجوركى يتغنى بالانسان المتحرر ذى العقل والبصيرة ، المسيطر على الآلة والطبيعة .

ومن أشهر أعماله « ماكار شودورا » و « الأم » و « الاعتراف » و « فوما جورديف » المنشورة سنة ١٨٩٩ م ، وهى اتجاه للتحرر من القيود والأغلال .

ومات جوركى عام ١٩٣٦ .

دار القاهرة للطباعة ـ ٢٦ شارع منصور